25 عاما مع الكتاب والقراء
جابر عصفور
زمن جميل
مضى
الدار المصرية اللبنانية

زمن جميل مضى

عصفور، جابر .

زمن جميل مضى / جابر عصفور

. ــ ط1. ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2010 .

456 ص ؛ 21 سم .

تدمك : 4 - 612 - 427 - 977 - 978

1 - المقالات العربية .

أ ــ العنوان 814

رقم الإيداع : 11118 / 2010

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

الطبعة الأولى : شعبان 1431هـ - يوليو 2010م

زمن جميل مضى

جابر عصفور

الدار المصرية اللبنانية

المحتويات

الموضوع	الصفحة
– الإهـداء	9
– مفتتح	11
النشأة :	15
– ذكريات عائلية	17
– استعادة مدينتي	29
– مكتبة البلدية	64
– العم كامل	77
– مكتبة المدرسة	84
– مدرسة الأقباط	91
– تجذر الوعي الديني	99
– المعلم الأول	115
– الحب الأول	120
– اكتشاف سحر القص	131
– رواياتي الأولى	141
– أوائل الكتابة	157

الموضـــوع	الصفحة
– صحبة قصر الثقافة	169
فتنة القاهرة :	185
– الرحيل إلى القاهرة	187
– زمن جميل مضى	206
– قاهرة إسماعيل باشا	212
– مكتبات سور الأزبكية	224
– مسرح الأزبكية	235
– سهرة مسرحية	247
ذكريات تلمذة :	257
– كلية فاطمة	259
– طالب مشاكس	265
– الأستاذ الأب	271
– يوم من عمري	276
– الأستاذية الحقة	282
– ذكريات طه حسين	289
– ذكريات الجمعية الأدبية المصرية	298
سكندريات :	315
– أيام البكارة	317
– هدم تاريخ	322

الموضـــوع	الصفحة
- إسكندرية مارية	327
- إسكندرية مارية ومرية	333
ذكريات ناصرية :	337
- أولى ذكريات الثورة	339
- حبيب الملايين	345
- الإحباط الأول	352
- الذكرى الثلاثون	362
- زمن عبد الحليم حافظ	368
- عبد الحليم وأغاني الزمن الناصري	382
- عام الكارثة	408
- رفض الهزيمة	423
- أبناء ثورة يوليو	443

* * * *

الإهــداء

إلى ابني أحمد ..
ليعرف الزمن الذي عاشه أبوه .

أَنَـا رَجُــلٌ مِــنْ غِـمَـارِ الموَالي

فَـقيـــرُ الأرُومـــةِ والمَنْبَت

فَلا حَسَـــبِي ينْتَمِـــي لِلسَّمَاء

وَلَا رَفـعـتْـنِـي لَـهَـا ثَـروَتـي

وُلِـــدتُ كـآلافِ مَــنْ يُـولَـدُون

بِـــآلافِ أيـــامِ هَـــذَا الـوجُـود

لأَنَّ فَـقِـيـرًا بِـــذَاتِ مَـسَـاء

سَـعَـى نَـحـو حِـضْـنِ فَـقِـيـرَه

وَأَطْفَأَ فِيه مَرارةَ أيامِهِ القَاسِية(*)

صلاح عبد الصبور

(*) المصدر : مأساة الحلَّاج ، الأعمال الكاملة لصلاح عبد الصبور ، الهيئة العامة للكتاب.

مفتتح

ما يجمع بين الصور القلمية لهذا الكتاب هو الذاكـرة التي تســتدير على نفسها، لتسترجع بعض مامضى، وما كان له مغزى ومعـنى، ومـا لا يزال يبعث في النفس نوعا من البهجة، أو التعزي بأيام جميلة مضت، وتركت أثرا طيبا في الوعي . ولا يخلو استرجاع الذاكرة لبعض مشاهد الماضي الشخصي، في الصور التالية، من دلالة الخاص على العام في دائرة التجاوب التي يرد فيها كل طرف إلى ما يوازيه، وذلك بما يجعل من الشخصي عاما، ومن العام شخصيا، فالمقالات كلها تنطوي على هذا الشعور المضمر، غير المنطوق، بنوع من الأسى على الماضي الجميل الذي انتهى، والذي يمنح فعلُ استرجاعه النفس على التشبث به، والعودة إليه، واللجوء إليه، في نوع من استراحة المحارب، أو في نوع من التقاط الأنفاس . وهي عملية تتأمل فيها الذات بعض ماضيها، أو مشاهد منه على وجه التحديد، تجد في تذكرها بهجة، خصوصا في زمن مختل، يزداد قبح مشاهده بالقياس إلى مشاهد مضادة، لا يخلو تذكرها من بهجة الراحة والتأسي . وقديما قال أحمد شوقي :

وَإِذَا فَاتَكَ التِفَاتٌ إلى الماضِي فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وجْهُ التَّأسي

وأعترف أن تذكري لمشاهــد هذا الزمــن الجمــيل الذي مضى لا يخلو من معنى الإدانة للحاضر، والرفض للأسباب التي انقلبت بالجمال إلى قبح، وبالمعرفة إلى جهل، وبالاستنارة إلى الإظلام . ولكن المقصود بالتأسي، في هذا السياق، ليس الهرب، أو رغبة العودة إلى الرحم، أو تصور أن الماضي أجمل مطلقا من الحاضر، وإنما تذكر الأوجه الإيجابية لزيادتها بالإضافة إليه، والأوجه السلبية برفض العودة إليها، وذلك في سياق هذا الزمن الذي نعيشه، ولا نواجه تحدياته بالقدر الذي يسهم في جذرية تغييره . والحق أن هناك نوعين من العودة إلى الماضي، نوعا سلبيا لا يرى أي وجه إيجابي إلا في الماضي الذي يغدو الأصل الذهبي المتخيل الذي ينبغي أن يقاس كل جديد عليه . ونوعا مناقضا يعيش الحاضر، ويحلم بالمستقبل، ويقيس كل جديد على ما يمكن أن يحققه من إيجابيات في المستقبل الذي لابد أن يكون أفضل من الحاضر والماضي على السواء . ومن منظور النوع الأول، كتب أبو تمام :

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حيثُ شِئتَ مِنَ الهوَى ... مَا الحبُّ إلَّا للحَبِيبِ الأوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرضِ يَألَفُهُ الفَتَى ... وَحَنِينُهُ أبدًا لأوَّلِ مَنْزِلِ

ومن منظور النوع الثاني، كتب الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت لزوجته، وهو في السجن، أبياته التي يقول فيها :

إنَّ أجْملَ البِحَارِ مَا لم نَرَهُ بَعْد

وإنَّ أجْملَ مَا أودُّ أنْ أقُولَهُ لَكَ

لَمْ أقُلْهُ بَعْد

وأنا من الذين يسلِّطون أعينهم على المستقبل، يحلمون بإمكانياته التي يمكن أن تنطوي على واقع خلاق، أفضل من الحاضر والماضي على السواء .

ويوازي ذلك إيماني بأن عقارب الزمن لا ترجع إلى الوراء، والثقافة الخلاقة لا تسير وعيناها في قفاها، بل وعيناها مسلطة على الآتي الذي يظل في حاجة إلى كشف .

ولكن ذلك لا يتناقض مع العودة إلى الماضي بين حين وآخر، للفرح ببعض لحظاته البهيجة، وتحويل هذه اللحظات إلى نوع من الطاقة التي تدفع إلى الأمام . إن الماضي المتذكّر في هذه اللحظات يحتوي أماكن وأحداثًا ومواقف عزيزة على الذاكرة، وإلى جوارها مواقف محبطة، لا تخلف ذكراها إلا الأسى، ولكن لابد من تذكر الجميع . مواجهة للحزن، وائتساء به، واستعادة للمفرح من اللحظات، وابتهاجا بها، لا لأنها تدفع إلى الهرب من قسوة الحاضر، أو إلى الفرار من مواجهة شروطه، وإنما لأنها تجمّ النفس بما يدفعها إلى مواصلة الطريق، والسعي نحو زمن جميل آت .. زمن يمكن أن يكون هو نفسه، في زمن قابل، زمنا أجمل، يدفع إلى تحقيق الأحلام التي هي جنين الواقع، ونوارة الغد الآتي بالنجوم الوضاءة المبشرة بأفراح التقدم .

وشكري الخاص لزميلي وصديقي الشاعر حسن توفيق الذي تولى القراءة الأخيرة للكتاب .

جابر عصفور

الصياغة الأولى : الدقي، فبراير 2009م

الصياغة الثانية : الدقي، مارس 2010م

◆ النشـــــأة

ذكريات عائلية

لا أذكر الكثير عن بدايات حياتي التي تبدو لي بعيدة جدا، بعد أن جاوزت الخامسة والستين من عمري. ورغم ذلك فلا أزال أحتفظ في ذاكرتي، ببعض الصور التي تقاوم النسيان، وتلح عليَّ بين الحين والحين، خصوصا عندما يغلبني الحنين إلى الماضي، فيدفعني إلى أن أستعيد صوره البعيدة، مدركا أن السنوات الأولى من حياة الإنسان هي التي تسهم في تشكيل شخصيته بعد ذلك. ولقد كانت البداية في مارس 1944 مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها، حين وُلِدْت لأب قادم من مدينة الإسكندرية، موطنه الأصلي الذي ينتسب إليه. وكان أبي من عائلة مستورة تنتسب إلى شريحة من شرائح الطبقة الوسطى التي كانت أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى الذي تتمتع به الشرائح العليا لهذه الطبقة التي ظلت طويلا عماد الحياة في المجتمع المصري ومصدر القيم الأساسية فيه. وكان جدي لأبي تاجر مصوغات بسيطًا دفع بولديه الشقيقين من آخر زوجاته إلى المدرسة الأولية، وكان مزواجا فيما عرفت، ولذلك كان لأبي أكثر من أخ وأخت من زوجات جدي، ولذلك كنت أعجب من كثرة عماتي وأعمامي، لكن ما فهمته دون حديث مباشر من عمي عبد المنعم الذي كان شقيق أبي الوحيد أن أمهما كانت الزوجة الأولى التي ظلت لها الحظوة والمكانة. ويبدو أن جدي لأبي قرر أن يعمل معه ولداه الكبيران في عمله،

ويبدآن في تعلم حرفة الصياغة والتجارة في المصوغات الذهبية التي كان يعمل في تصنيعها وبيعها. وكان أبي أكثر فرحا بهذا القرار لأنه لم يشعر بالسعادة قط في المدرسة التي كان يذهب إليها مع أخيه في حي الأنفوشي بالإسكندرية، ولذلك لم يتعلم شيئا، وظل أميا بقية حياته، وفرح بأن يهجر قيود المدرسة ويذهب للعمل في صاغة أبيه، وتحت إشرافه شخصيا، ولكن طبعه المتمرد على أي قيد، حتى صياغة الذهب والتجارة فيه، كان يدفعه إلى الفرار من دكان أبيه، خصوصا بعد أن تحول الدكان إلى ما يشبه مدرسة أخرى، أكثر صرامة وقيودا، فقد كان جدي يريد أن يورثه مهارته الحرفية وتجارته على السواء، ولكنه يئس أخيرا من رفض الابن الأكبر لكل محاولة، وتفضيله الانطلاق الحر، والتصعلك في شوارع مدينة الإسكندرية، ما بين حي الأنفوشي، حيث يقع منزل الأسرة القديم، وحي الرمل القريب من منطقة الصاغة التي تقع صاغة جدي في أحد شوارعها بالغة الضيق، مجاورة لزنقة الستات التي تُفضي إلى ميدان المنشية الكبير الذي لا يزال يبهرني بعمارته القديمة، وما يطل على جانبيه من مبان أثرية، أهمها مبنى وزارة الحقانية (وزارة العدل حاليا) الذي لا يبعد كثيرا عن مبنى بورصة الأوراق المالية، ذات الشرفة الشهيرة التي وقف فيها جمال عبد الناصر، معلنا تأميم قناة السويس، بادئا سياسة التأميم التي أفضت إلى العدوان الثلاثي (الإنجليزي، الفرنسي، الإسرائيلي) على مصر. وكان ذلك في يوليو 1956 ، قبل أن تمضي السنوات العديدة وينتهي الزمن الناصري، ويبدأ زمن السادات الذي تعمد هدم مبنى البورصة، كما لو كان يمحو من الذاكرة تاريخا مجيدا لأكبر لطمة تلقاها الاستعمار القديم الذي سعى إلى

الثأر فورا، ولكنه سرعان ما خسر المعركة، بفضل نضال الشعب المصري في مدن القناة، ومساعدة الأصدقاء، وعلى رأسهم الاتحاد السوفيتي الذي كان يدعم حركات التحرر الوطني في ذلك الزمان.

أما قبل ذلك بسنوات عديدة، وقبل قيام الحرب العالمية الثانية، فكان أبي يتسكع ما بين المنشية ومحطة الرمل، مجبرا أخاه الصغير، عمي عبد المنعم، على التسكع معه. وكان عمي أكثر وسامة من أبي، فقد كان وجهه الأبيض مشربا بحمرة تضفي عليه جمالا خاصا، يبدو معه كما لو كان ابن عائلة محترمة، وقد اعتاد أبي إذا اقترب كلاهما من عساكر الاحتلال البريطاني الذين كانوا يتسكعون في هذه المناطق، أن يقرص عمي قرصات موجعة في خديه كي يزداد احمرارا فيبدو أشبه بأولاد الخواجات، أو يضربه بما يبكيه، فيثير بكاؤه فضول العسكر الإنجليز، فيسألوا عما به، ويرد أبي قائلا : No Father, No Mother فتنتاب الجنود نوبة عطف على الطفل الجميل المسكين، ويجود عليه بعضهم بالحلوى، أو النقود القليلة، وقد استمر الأمر على هذا الحال إلى أن اكتشف جدي الأمر، فكانت علقة كبيرة من نصيب أبي، ومنع عمي من الخروج معه، وعدم مفارقة الصاغة إلا في صحبة جدي الذي ترك أمر ابنه الجانح، أبي، إلى الله، عسى أن يهديه. وكان نتيجة القرار أن ابتعد أبي عن تعلم صنعة أبيه التي سرعان ما أتقنها أخوه الذي أصبح والده، يعتمد عليه، ويوكل إليه تدبير أمور الصاغة.

وضاقت الدنيا في عيني أبي، بعد أن بدأت نذر الحرب في التدافع، فاستغل ما كان يعرفه من كلمات إنجليزية، وكلمات يونانية وإيطالية، بحكم تعامله مع الجاليات اليونانية والإيطالية والأرمنية التي كانت تملأ

الإسكندرية قبل الحرب، وظل أبناء الجالية اليونانية على حالهم، على النقيض من الإيطاليين الذين أخذ الإنجليز يطاردونهم، خصوصا من اشتموا منهم تأييد فاشية الدوتشي : موسوليني. وقَبِل أبي العمل مترجما مع الإنجليز، وذهب معهم إلى الصحراء الغربية، حيث ساحة الحرب التي أخذت تدور بينهم والألمان وظل كذلك إلى أن عاوده طبعه الملول، فترك ساحات الحرب التي قاربت على الانتهاء، وعاد منها إلى مدينة دمنهور غير البعيدة من مدينة الإسكندرية، واستقر به المقام مع أقرباء للعائلة، تزوج ابنتهم، وقبلوا هم الزواج، لعله يهدأ ويستقر، محققا حلم والده الذي كان يتمنى له الاستقرار مع أقربائه في دمنهور، ولكن طبعه الملول عاوده مرة أخرى، وكان والده قد توفي، تاركا الصاغة لعمي عبد المنعم الذي واصل العمل موضع أبيه والحفاظ على الصاغة التي تخلى أبي له عنها، طوعا، حبا له، ووفاء لأبيه الذي خصه بالعمل معه، واكتساب الصنعة منه، بعد انفلاتات أبي الذي سرعان ما كره الاستقرار في مدينة دمنهور، خصوصا بعد أن اكتشف أن زوجه عاقر، غير قادرة على الإنجاب، فانطلق إلى بلاد الله، معتمدا على الله، منتقلا من بلد إلى بلد، ممارسا العديد من المهن التي سرعان ما تركها كعادته إلى أن وصل إلى مدينة المحلة الكبرى التي كانت قد بدأت في الازدهار، نتيجة صناعة الغزل والنسيج اليدوي التي اشتهرت بها قديما، والتي كانت السبب في إنشاء بنك مصر لمصنع الغزل والنسيج الحديث فيها، وذلك بسبب موقعها الجغرافي من ناحية، وطبيعة مناخها الرطب الذي يسهم في تقوية خيوط القطن المغزول من ناحية أخرى. واختار أبي أن يستأجر مكانا لتجارة البقالة في شارع سعد زغلول الذي كان قلب المحلة الكبرى التجاري إلى جانب شارع العباسي.

وتصادف أن رأى أبي أرملة جميلة، قوية الشخصية، تعمل من أجل رعاية أبنائها اليتامى. وكان واضحا أنها ولود، قادرة على تحقيق حلمه في أن تكون له ذرية خاصة به، وولد يحمل اسمه على وجه الخصوص، أما هي فقد رأت فيه موئلا وشريكا يعينها، وتعينه، على مواجهة الأيام، فتزوجا وأصبحت هي ساعده الأول في تجارته، وفاتحة أبواب الرزق عليه، لأنها كانت أكثر منه حزما، وتقاوم فيه الإفراط والكرم والطيبة البالغة التي اعتاد عليها، فأصبحت خصالا راسخة في شخصيته. ومرت السنوات إلى أن رزقا بابنة أسمياها ليلى لأن كليهما كان يحب ليلى مراد، ولكن مرّ عام بعد عام، ولم يأت الولد الذي كان أبي يحلم به، فنذر أبي لسيدي جابر الذي اعتاد أن يذهب إلى مقامه في الإسكندرية أنه إذا رزقه الله بولد، فإنه لن يكف عن إطعام البؤساء المتحلقين حول مقامه، وظل يدعو الله أن يرزقه بولد يبقي على ذكره في الحياة بعد مماته.

واستجاب الله لدعائه، ولم يرزقه بولد واحد، بل رزقه بتوأم، أطلق على اسم أولهما جابر، والثاني سيد. ويبدو أن عناية الله، وبركة سيدي جابر، أبقت على الوليد جابر، وتوفي سيد بعد أقل من شهر، أو أكثر قليلا ولم يحزن أبي، وإن كان يود من أعماقه أن يكون له ولدان بدل ولد واحد، ولكنه رضي بما قدَّره الله. ودعا للمولود الحي أن يحفظه الله، وأن يكون محققا حلم إكمال التعليم الذي لم يطقه أبي، وتمرد عليه، وندم على ذلك بقية حياته. ولكنه لم يكن من النوع الشكّاء، خصوصا بعد أن رزقه الله بالابن الذي ظل يدعو الله أن يحقق هو كل ما عجز أبوه عن تحقيقه. ولذلك كانت دعوته المفضلة المتكررة لذلك الابن، هي أن يمد الله في عمره حتى يراه مثل طه حسين. وكانت أمي تسأله : من يكون طه حسين

هذا؟، فكان يشرح لها، ويذكرها بأن طه حسين أصبح باشا، وأنه ذهب إلى بلاد برَّه، وتفوق على أهلها في العلم والمعرفة، وأنه أستاذ جامعة عظيم، وأنه لذلك وغيره أصبح وزيرا للتعليم، وهو الذي أمر بأن يكون التعليم كالماء والهواء للجميع، أي بالمجان ودون مقابل. وكان طه حسين قد أصبح وزيرا للمعارف في سنة 1950، حين كنت في السادسة من عمري. ولذلك كان دعاء أبي يرن في أذني، ويبدو لي، بعد مرور كل هذه السنوات أول ما علق بذاكرتي من دعوات أبي وأمانيه على السواء. ولم أكن، مثل أمي، أعرف شيئا عن طه حسين، ولا أظن أن أبي نفسه كان يعرف شيئا عن الجامعة التي نال منها طه حسين الدكتوراه، ولا الجامعة الأجنبية التي أكمل تعليمه بها. فكل ما كان يعرفه أبي أن طه حسين هذا باشا، وأنه عبقري لم يمنعه عماه من أن يصل بالعلم إلى مرتبة الباشوية، تماما كما دفعه حبه للفقراء أن يجعل التعليم مجانيا لأولادهم. وبقدر ما أذكر هذا الدعاء لأبي الذي أصبحت أمي، مع مرور الوقت، تكرره بدورها، بعد أن عرفت اسم هذا الباشا الذي يريد زوجها لابنه أن يكون مثله. وكانت، بدورها، تحب لابنها ما يحبه له أبوه، خصوصا أنه آخر العنقود الذي أصبح أحب أبنائها وبناتها إليها، حتى لو كانت تقسو عليه، كي لا يفسده حنان أبيه المفرط الذي لم يكن يرفض له طلبا. أما الأب فبسبب ما نذره لسيدي جابر في الإسكندرية، كان يصحب ابنه لكي يزورا قبر الشيخ الذي حلت بركاته في ميلاد سميه الصغير. وكانت أمي تصحبنا في هذه الرحلة، أحيانا، لكن دون أن تنسى تعنيف أبي على إسرافه فيما يمنحه من صدقات، فقد كان من رأيها أنه بدل هذا الإسراف، على أبي أن يعمل حساب المستقبل الذي لا يعلم أحد ما يخبئه من أمور. أما المرات التي لم تكن أمي تصحبنا، وشقيقتي

ليلى التي كانت تكبرني بسنوات قليلة، فكان أبي يذهب معي وحدي، لكي نقرأ الفاتحة أمام مقام سيدي جابر، ويدعو لي بالصحة والعافية، دون أن ينسى تكرار الدعاء كي أكبر وأكون مثل طه حسين.

وأذكر أن أبي، وكنا وحدنا، اصطحبني معه، وسافرنا إلى دمنهور، حيث اكتشفت أنه لم يطلق زوجته الأولى، وكان اسمها بدرية، رحمها الله، فقد كانت حنونا إلى أبعد حد. ولعلها رأت في ابنها الذي لم تستطع أن تنجبه لقريبها الذي ظلت جوانحها تنطوي على حب عظيم له. وقد تأثرت بحنان هذه السيدة، وعلّمني أبي أن أقول لها : ماما بدرية. وكانت تسعدها هاتان الكلمتان إلى درجة تكاد عيناها تدمعان بمجرد الاستماع إليهما. وكانت تغدق عليَّ بالحلوى والأحضان كما لو كنت ابنها فعلا. أما أنا فقد كنت أقابل هذا الحنان بالعرفان، وأشعر أنها أمي بالفعل وليست زوج أبي. وبالطبع، لم ينس أبي أن يوصيني أن لا أخبر أمي بهذه الزيارة، فقد كان يخشى من غضبها القاسي، وظللت محافظا على السر الذي استأمنني عليه أبي الذي كان أقرب لي بحنوه وتسامحه وكرمه من أمي الصارمة العنيدة التي لم تكن تسامحني إذا أخطأت، أو رأت هي أنني أخطأت. وعندئذٍ، يبدأ حسابها القاسي العسير الذي لم أعرف إلا في آخر سنواتها أن كل هذه القسوة كانت لمصلحتي، ولأنها كانت تريدني أن أكون صلبا قويا مثلها، وأظنني أصبحت كذلك، لكن مع كل ما ورثته عن أبي من طيبة وتسامح. ولذلك أبدو لنفسي، أحيانا، كأني أنطوي على شخصيتين لا تخلوان من تضاد : الشخصية التي ورثتها عن أبي والأخرى التي ورثتها عن أمي، وأحسبني بعد سنوات عديدة، طويلة، من العمر، استطعت التوفيق بين الشخصيتين، لكن بما ظل مبقيا على تجاورهما.

الطريف أن أبي هو الذي أفشى سر زيارتنا لزوجه السابقة، ويا للثورة والغضبة اللتين تحملهما بسبب طيبته، وعدم قدرته على كتمان أسراره، خصوصا حين كان ينخدع بلحظات الصفاء التي تجمعه وأمي، في حالات اعتدال مزاجها، وحضور ابن عمها الطيب كما كنا نداعبها. ولم تترك أمي أبي إلا بعد أن أقسم لها أنه لن يذهب إلى بدرية أبدا. ولم تكتف بذلك، فجعلته يحلف أمامها أنه سوف يذهب غدا إلى المأذون لطلاق بدرية طلقة بائنة. وذهب في اليوم التالي إلى المأذون، كما أخبرها، وأعلن أمامنا، وقام بتطليق بدرية التي لم يذهب إليها بعد ذلك على الإطلاق. وخسرت أنا، للأسف، لقاء هذه السيدة الجميلة الرقيقة التي كان حنانها يغمرني، وأشعر في حضرتها بالأمان والراحة. الطريف أن أبي خدعني وخدع أمي معا، ولم يقم بتطليق هذه السيدة، وظل محتفظا في نفسه بهذا السر. ولم أعرف ذلك إلا بعد وفاته، ومجيء أسرته إلى المحلة للعزاء، وكانت بصحبة عمي وعمتي، وبقية أقرباء الإسكندرية، سيدة تبدو عليها ملامح الهرم والطيبة في آن. وتقبلت أمي عزاءها دون أن تعرف من هي. وعندما انفرد بي عمي ليعطيني تكاليف الجنازة، ولم أكن أستطيع رفض ما فعل، فقد كان، دائما، في منزلة أبي، وكنت، دائما، إلى أن توفي رحمه الله، في منزلة ابنه الأكبر. وبينما كان عمي منفردا بي، سألني : هل عرفت زوج أبيك بدرية؟ فانتبهت إلى أنها إحدى السيدات التي حسبها الجميع، بمن فيهم أمي، واحدة من أقارب الإسكندرية، فقلت له : لم أعرفها، فقال لي : اذهب إليها، وقدم لها العزاء فما زالت زوجا لأبيك. وعندئذٍ أدركت المزيد من طبيعة أبي الذي آثر عدم إيذائها بتطليقه لها، تحقيقا لرغبة أمي، وظل مخفيا هذا السر عنا

جميعا، خصوصا أنا الذي كان يراني بمثابة خزانة أسراره التي لا يريد أن تعرفها أمي أو شقيقتي. ودمعت عيناي بعد أن عرفت هذا السر، وذهبت إلى زوج أبي واحتضنتها، بينما هي كانت تغمر بدموعها وجهي في صمت، وتلح عليَّ أن أزورها في دمنهور. ولكنني لم أستطع أن أفي بوعدي لها، فقد لحقت بأبي بعد وقت قصير، كأنما لم تحتمل الحياة بعد موته، فتركت الحياة الدنيا لتلقى هذا القريب الذي لم تكف عن حبه يوما.

وعندما أسترجع تفاصيل كثيرة، بهت بعضها في الذاكرة، عن علاقتي بأمي وأبي، أكتشف أن صلابة أمي وصرامتها هي التي قادت الأسرة إلى بر الأمان، فقد كان أشبه بالوتد الذي يمسك بكل الأطراف، ويحافظ على ثباتها، وهي التي تولت رعاية أمور العائلة، دبّرت ولم تكف عن الادخار إلى أن استطاع أبي أن يستأجر محلا كبيرا في ناصية عمارة كبيرة، انتهى بناؤها في شارع سعد زغلول، وبدأ أبي تجارة رائجة، أصلحت أحوالنا المالية لسنوات عديدة، إلى أن أصابته مضاعفات مرض السكر الذي ورثته، وخرج من المستشفى بعد وقت طويل وعمليتين جراحيتين خطرتين، فأصبحت صحته أضعف، وقدرته على إدارة العمل أقل. وكان على أمي أن تتدخل، وتقود مركب الأسرة إلى بر الأمان، كما كانت تفعل دائما، فهي التي تدبرت نفقات تعليمي في أولى المدارس التي دخلتها، وكانت مدرسة خاصة، ومنها إلى المدرسة الثانية التي أمضيت فيها عاما، انتهى بتغيير نظام التعليم، وإنشاء المرحلة الإعدادية، بعد الابتدائية، لتكون مقدمة للمرحلة الثانوية، فدخلت مدرسة الأقباط الإعدادية، وكانت مدرسة خيرية بالمجان، وبعدها مدرسة طلعت حرب الثانوية التي تركتها

بعد العام الدراسي الأول، كي أنتقل إلى مدرسة المحلة الثانوية التي كانت تخصصات القسم الأدبي فيها أكبر. وأمي هي التي قامت بادِّخار نفقاتي في الجامعة، وقامت بنفسها بشراء الأثاث الذي حملته معي إلى القاهرة، ووضعته في غرفة صغيرة مع صديق سبقني بعام إلى دخول كلية الآداب، وهي التي كانت حريصة على أن توفّر شهريا ما أدفع منه إيجار المسكن، بالغ التواضع، في إحدى حارات الجيزة، ومصروفات الغذاء والكساء والمواصلات إلى أن تخرجت. وأنا مدين لحسن تدبيرها الصارم الذي تعلمته منها، رغم ما يختلط به، أحيانا، من نزوات الكرم التي ورثتها عن أبي الذي لم أر مثيلا له في طيبته وتسامحه. وأنا مدين لهذه السيدة العظيمة، قوية الإرادة والعزيمة والشكيمة، بأنها أوصلتني إلى بر الأمان. ولم تتخل عن رعايتي إلا بعد أن تخرجت.

ولا أنسى مشهدا دراميا جمعنا، وكان أبي حاضرا، وذلك بعد أن سافرت إلى القاهرة لمعرفة نتيجة الليسانس، وأخبرتها أنني لن أتغيب سوى أيام معدودة. وعرفت النتيجة، وكنت الأول على دفعتي، وتخرجت بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى التي لم يحصل عليها أحد قبلي على امتداد ما يزيد على عشر سنوات، فكان لابد من البقاء، والتأكد من أمر التعيين في الجامعة، ومضت الأيام ولم أجد ما يريحني من وعود الأساتذة الذين كانوا في حالة صراع، أوقف تكليفي، فعدت إلى المحلة، على أن أعود إلى القاهرة لمتابعة الموقف، أو البحث عن عمل إلى أن ييسر الله الأمور وما إن رأتني حتى نظرت إليَّ غاضبة، قائلة : ألم تقل إنك لن تطيل البقاء في القاهرة؟ فقلت لها : إنني نجحت وكنت الأول على كل زملائي، فتهلل

وجه أبي، وأخذني بالأحضان، ولم يخف دموع الفرح التي غمرت خديه، وكان أكثر سعادة عندما أخبرته أنه يمكن تعييني معيدا في الجامعة، فصاحت غاضبة : وهل تريد أن تعيد الدراسة بعد كل هذه السنوات؟!. فضحك أبي، وقال لها : يا جاهلة، معيد يعني أستاذ صغير في الجامعة، وهذا تكريم كبير لابنك، وكعادتها، أخفت فرحتها، وقالت : المهم أنه نجح، وأراحنا من نفقاته، فضحك أبي منها، وقبّلتها رغم ممانعتها الظاهرية، وسمعت وأبي همسها لنفسها: الحمد لله، ربنا يحميه. وظلت على ما تعودت عليه إلى أن استلمت الوظيفة الأولى لي. فقالت لي، مخفية مشاعر الفرحة داخلها وراء قناع الصرامة الذي كانت تجيد اصطناعه، جملتها التي لا أنساها : لقد أدينا ما علينا، فقم أنت بما عليك. فقبّلتها، ورأيت طيف ابتسامة قاومتها، ودمعة حبستها، لكي لا تظهر ضعفها وحبها الغامر لي، فقد كانت، رحمها الله، تكره الهشاشة العاطفية والبكاء وإظهار المشاعر الفياضة، وتؤثر أن يكون فعلها وسلوكها العملي معبرا عن حبها العميق لكل الذين تراهم الأقرب إلى قلبها من رعايا أبي وأختي التي أخذت عنها بعض صفاتها ، فلم تكن تكف عن عنادها ومشاكستها والاختلاف معها. أما أنا فقد تصورت أني أقرب إلى أبي، لكني مزجت ما ورثته عنه بما ورثته عنها.

وقد عاشت طويلا بعد وفاته، وما كان أسعدها حين طلبت منها أن تترك العمل، وتبيع ما تبقى من تجارة أبي، وتترك لي رعايتها، بعد أن رعتنا جميعا، ولم تقبل إلا بعد أن جعلتني أتنازل عن كل ميراثي من أبي إلى أختي التي لم تكمل تعليمها مثلي. ووافقت عن طيب خاطر، وحققت ما أرادت، وعاشت في كنف أخواتي وإخوتي غير الأشقاء، رافضة أي دعم مالي من

أخواتي وإخوتي إلا مني، وما كان أكثر حنانها ودعواتها، في السنوات التي عاشتها بعد ذلك إلى أن توفيت راضية مرضية، لكن دون أن تتخلي، قط، عن اعتدادها بنفسها، وأنفتها أن تطلب عونا من أحد، حتى مني، ولكنني كنت قد عرفت عنها كل ما كانت تجيد إخفاءه من قبل، وأقرأ في عينيها كل ما لم تكن تنطق به، فقد تعلمت منها طويلا ما جعلني، فضلا عن ما ورثته عن أبي، على ما أنا عليه.

استعادة مدينتي

ولدت في مدينة المحلة الكبرى التي اختارها طلعت حرب لتكون مركزا لصناعة الغزل والنسيج الحديثة سنة 1927. وقد أحدث إنشاء شركة مصر للغزل والنسيج تأثيرا جذريا في مدينة، ظلت مركزا لنسج الأقطان لعقود طويلة، وذلك عن طريق الأنوال اليدوية التي استمرت أدوات أساسية للإنتاج في هذه الصناعة التي وصلت إلى مفرق طرق بإنشاء شركة ضخمة للغزل والنسج معا، تعتمد على الميكنة الحديثة التي حلّت محل الأنوال اليدوية، فأدت إلى كساد إنتاجها، وخروج أصحابها من المنافسة التجارية والصناعية على السواء. وهو الأمر الذي أدى إلى تحويل عدد كبير من العمالة الزراعية، خصوصا في القرى المجاورة للمدينة، إلى عمالة صناعية، فهجروا الجلابيب الزرقاء وارتدوا زي العمال الذين أصبحوا أكثر دخلا من أقرانهم الذين ظلوا معتمدين على الأنوال اليدوية. واقترن ذلك بحراك اجتماعي في المدينة، وتغير في العلاقات الاقتصادية والثقافية والتعليمية على السواء، فأصبحت مدينة المحلة الكبرى مفتوحة الأبواب لتأثيرات التحديث الذي تلزم عنه حداثة مغايرة في الوعي الاجتماعي نتيجة انتشار التعليم وأشكال الوعي المصاحبة التي تجاورت مع ازدهار اقتصادي عرفته المدينة، وكان القطن المحصول الرئيسي لمحافظة الغربية التي تقع فيها المدينة، على بعد عشرين كيلو مترا من العاصمة : طنطا.

وكانت الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945) قد قاربت على الانتهاء، عندما وصل والدي إلى المدينة، بعد رحيل أشبه بالهروب من سلطة أبيه، فوجد في المدينة التي أحبها ملاذا له. وبما أنه كان يؤثر الحرية على القيود، فقد اختار التجارة التي أغراه بالعمل في مجال من مجالاتها، الرواج التجاري الذي عرفته المدينة، بعد استقرار شركة مصر للغزل والنسيج، ونجاحها في تحقيق أهدافها، ومنها تحويل أشكـال وعي المجتمـع الذي نشـأت فيه.

وعرف والدي أرملة جميلة، أعجبته قوة شخصيتها، وقدرتها على رعاية أولادها اليتامى، فاقترنا، وأنجبا شقيقتي الوحيدة التي تكبرني بسنوات خمس، وتعاونا على إنشاء تجارة صغيرة خاصة بهما، ظلا يرعيانها كي تكبر وتنمو. وكان حلم والدي أن ينجب مولودا ذكرا، فلما جاءت ليلى أختي الكبيرة، لم يملك سوى حمد الله على ما أعطى، وعلى الابتهال لكي يكون المولود القادم ذكرا. ونذر لسيدي جابر المدفون في الجامع المسمى باسمه في مدينته الإسكندرية، أنه إذا رزقه الله بمولود ذكر سيطلق عليه اسم هذا الشيخ الذي كان يتبارك به وبمقامه الذي يربطه بالمدينة التي ولد فيها، ولا يزال يسكنها بقية أهله شقيقه الوحيد، وبقية الأخوات والإخوة غير الأشقاء. وقد استجاب الله لدعاء أبي، وضاعف له العطاء، فحملت أمي بتوأم. وقد ولدت في مستشفى المحلة الكبرى، وفرح أبي مع أمي بما رزق الله، فأطلق على أحد المولودين اسم جابر الذي هو أنا، وعلى الثاني اسم السيد، تيمنا بالسيد البدوي الذي لا يزال مزاره ومولده السنوي مستمرا إلى اليوم في مدينة طنطا. ولكن لأسباب

لا يعلمها إلا الله توفي أحد المولودين، واستخرج أبي شهادة وفاة. ولكن موظف مكتب الصحة، سجل الوفاة وتاريخها أمام أحد التوأمين اعتباطا أو إهمالا، وكان ذلك في السطر المكتوب به اسم جابر، وليس السيد. ومرّت الأيام واعتبر أبي أن سيدي جابر حفظ اسم المولود المسمى باسمه، وظل الأمر على هذا الحال، يتعامل الجميع مع المولود الذي حفظته العناية الإلهية باسم : جابر، والطريف أنني عندما دخلت المدرسة دخلت بمستخرج رسمي وشهادة ميلاد باسم جابر أحمد السيد عصفور المولود في الخامس عشر من مارس 1944. وأصبحت وحيد أبي الذي جاءه بعد طول انتظار، وآخر العنقود في عيني أمي التي سبق لها الإنجاب أكثر من مرة من غير أبـي، فكنت طفل الأسرة المدلل، وهو أمر دفعني إلى سلوك طفولي نزق وحرص على تلبية مطالبي بسرعة، واندفاع في السلوك واستخدام سلاح البكاء، فضلا عن التسرع في الأفعال ، وكانت أمي تبرر ذلك بأنني «ابن سبعة» أي جئت في الشهر السابع من حملها، ولم تكتمل لي تمضية أشهر الحمل التسعة. ويبدو أن هذا السبب في وفاة توأمي الذي لم يحتمل، فيما يبدو، الولادة المبكرة، بينما احتملتها أنا ببركات سيدي جابر الذي كان يرعاني. ولذلك ظل أبي يصحبني كل صيف إلى مدينة الإسكندرية، ليقرأ الفاتحة في مقام سيدي جابر، ويفي سنويا بما نذر من توزيع الصدقات على الفقراء المحيطين بالمسجد.

ومرت أعوام الطفولة التي لم أعرف فيها سوى اللهو، والتدليل، وممارسة أفعال «ابن سبعة» التي كانت تبرر بها أمي كل ما لا يروقها من عدم صبري واندفاعي وغضبي إذا لم أجد استجابة فورية لما أريد. وكنا

نسكن في بيت قديم صغير الحجم، بجوار شريط القطار الذي كان يربط المحلة بالقرى، وكان اسمه «الدلتا» ربما تمييزا عن قطارات المسافات الطويلة. وكان المنزل قريبا جدا من فرع النيل الذي كان يستدير ليفصل المدينة إلى قسمين : القديم الذي كان يضم الأحياء السابقة على إنشاء شركة مصر للغزل والنسج، والجديد الذي كان في الأصل أرضا زراعية، اشتراها بنك مصر، وأقام عليها «الشركة» التي تعوّد أهل المحلة المتجذرة عائلاتهم فيها إطلاق اسم «الشركاوية» على العاملين فيها من العمال ذوي الأصول القروية الذين هاجروا إلى المحلة بسبب مسارعتهم إلى العمل في «الشركة». وقد انقلبت أحوالهم، فبعد أن كان يعاملهم أهل المحلة معاملة المرتبة الثانية بالقياس إلى أبناء الأصول، انقلب الحال مع الزمن، خصوصا بعد أن بنت لهم الشركة مدارس ومشفى ومساكن نظيفة صحية، متجمعة فيما أصبحنا نطلق عليه اسم «المستعمرة». وكانت المكان الأجمل للنزهة، خصوصا في الأعياد التي اعتدنا الذهاب فيها إلى «المستعمرة» لنمتع النفس بحدائقها ومرافقها الأنيقة بالقياس إلى بيوتنا التي تقادمت وتزاحمت وضاقت حواريها التي كانت تتحول إلى برك طينية، وقت الشتاء. وكان بيتنا الصغير يقع في أحد الأحياء الشعبية، هو «الوراقة» أمامه خط «الدلتا» ووراءه بعدد قليل من الصفوف يمتد فرع النيل الذي كنا نهرع إليه للعب، على الشاطئ، في النهار، فقد كانت أسرنا تحذرنا من الغرق، ولم يحدثنا أحد منهم قط عن احتمالات الإصابة بالأمراض، وأولها البلهارسيا، بسبب تلوث المياه. وما أكثر الحواديت والحكايات المخيفة التي زرعتها الأسر في داخلنا، حتى لا نعوم في النيل، ولا نتعرض للخطر. الطريف، حقا، أنني رغم اندفاعاتي بوصفي «ابن سبعة» لم أغامر،

قط، كما فعل بعض أقراني بمحاولة تعلم السباحة في النيل، أو تقليد الكبار الذين كانوا يعبرون إلى الضفة الأخرى ويعودون منها، سباحة، فقد كنت أجبن من أن أخوض هذه المغامرة. ولذلك ظللت لا أعرف السباحة إلى اليوم، وكم حاول أبناء عمي، الشقيق الأوحد لوالدي في الإسكندرية، أن يعلموني السباحة في البحر الأبيض، على امتداد شاطئ الأنفوشي، القريب من منزل أسرة جدي الذي ورثه عمي. ولكن هيهات، وما أكثر ما نلت من سخريتهم، ولكن السخرية لم تكن تؤثر في نفسي، خصوصا بمجرد أن أشعر بقدمي تفارقان أرض البحر أو أوشكت. وكان قصارى جهدي أن أقف في الماء قريبا من شاطئ البحر، إلى أن يغمر الماء جسدي، وأقوم بما شئت من حركات، وادعاء السباحة، لكن بعد أن أطمئن إلى أن قدميَّ تقفان على الأرض دائما.

وما أكثر الحكايات التي كانت تحكى لنا عن مخاطر النهر الذي كان يقع وراء منزل المحلة ببيوت قليلة، خصوصا إذا أقبل الليل، ولم يعد يسمع سوى صوت نقيق الضفادع في الحقول المترامية وراء ضفة النهر. وكانت حكايات «النداهة» الحكاية الأكثر إثارة للخوف والفضول في آن، ولم تكن الحكايات سوى حكاية واحدة في جوهرها، بطلتها كائنة جميلة يخلب حسنها الألباب، وتجذب إليها كل من يقع في دائرة سحرها، أو تتجلى هي له إلى أن يتبعها، فاقد اللب، عديم الإرادة، إلى أن تنزل أمامه إلى النهر، وهو يتبعها إلى أن يغيبه ماء النهر الذي تسكنه لتخرج من مكمنها، في أوقات مرصودة، كي تختار ضحايا جددا. وبالطبع، ونتيجة مثل هذه الحكايات، لم نكن نجرؤ على الاقتراب من النهر في الليل، ولا نفارق بيوتنا في اتجاه النهر إلا في الصباح، والصباح رباح، والنهار

له عيون، ولا محل فيه للعفاريت التي ما أكثر ما كان أهلنا يخيفوننا بها، حتى نطيعهم خوفا ورهبا. وبمناسبة العفاريت، كان شريط قطار «الدلتا» الذي يمر أمام منزلنا، وله سمعته فيما دهس من أطفال لم يطيعوا أهلهم، ومروا أمامه أو سابقوه، أو حاولوا التعلق بعربة من عرباته، يمضي في اتجاه المقابر، وكان يسبقها مطحن قديم، حاك الخيال الشعبي حوله الكثير من حكايات العفاريت، ومنها حكاية أن ماكينات المطحن ما كانت تعمل إلا بعد أن «تزفّر» بدماء بشرية، فضلا عن الضحايا الذين وقعوا بين الحجرين الضخمين المستديرين اللذين كانا يطحنان الغلال، قبل تحويلها إلى دقيق للخبيز، فلم تكن المنازل قد عرفت نعمة المخابز التي تتولى توزيع الخبز. ويقتصر كل بيت على «الفرن» الذي كنا نتحلق حوله في الشتاء طلبا للدفء، وننعم في أيام «الخبيز» بما كنا نسمية «القبوري» أو «الأبوري». وكان رغيفا صغيرا محشوا بالسكر والسمن البلدي، وما كان ألَذه لكني لم أعرف أحدا من أسرتي، نام فوق «الفرن» في ليالي الشتاء، طلبا للدفء، فقد كان ذلك موجودا في حكايات القرى التي كان يقصها علينا زملاؤنا القرويون في المدرسة، أولئك الذين كانوا يأتون من قراهم للدراسة في مدينة المحلة التي كانت العاصمة الثانية، بعد مدينة طنطا العاصمة الأولى، لمحافظة الغربية.

وما أكثر الصداقات التي عقدناها مع طلاب القرى المجاورة الذين كانوا يأتون للدراسة في مدارس المحلة، ويقطنون جماعات في غرف تضمهم، كل ثلاثة، أو كل أربعة حسب الأحوال. وكنا نتبادل وإياهم الزيارة، خصوصا مع المرحلة الإعدادية التي كنت قد التحقت بها، وانتقلت إليها من المرحلة الابتدائية. ولم أعرف ولا أسرتي نظام الحضانة وشروطها، فقد كان

ذلك من قبيل الرفاهية التعليمية التي لم أعرفها، ربما بحكم الوضع الثقافي والاقتصادي لأسرتي. وأذكر أن المدرسة الأولى التي دخلتها كان اسمها «مدرسة غدّية». وكانت وظيفتها تعليم الخط والكتابة وبعض العمليات الحسابية الأولية لا غير، كأنها حضانة من نوع شعبي. وكان مبنى المدرسة قريبا من «دكان» أبي في الشارع الجديد الذي أطلقوا عليه بعد ثورة 1919 اسم شارع سعد زغلول، وأغلب الظن أن هذا حدث بعد سنة 1927 وهي السنة التي توفي فيها سعد زغلول. وكان الشارع هو القلب التجاري لمدينة المحلة، يملؤه الباعة الجائلون من كل حدب وصوب، يبيعون كل شيء، ابتداء من الخضار والفاكهة، وانتهاء بالأسماك، في المنطقة التي كان يطلق عليها اسم سوق السمك، ويزدحم الشارع بمحال الأقمشة الشعبية والطعام والبقالة والعطارة والمطاعم والفسيخ، وهو نوع من السمك المملح، كان يأتي من مدينة نبروه القريبة من المحلة. وإلى جانب هذه المحلات مئات غيرها على نحو كان يسم الشارع بازدحام هائل يوميا، وكان له رائحة نفاذة، تقترب من النتانة إذا مرت عليه الأيام، ولذلك لا أزال لا أحمل له إلا الكره بسبب الرائحة التي تزكم الأنوف، والطريقة البدائية غير الصحية التي كان يتم تمليحه بها.

وكان ازدحام الشارع بكل ما يحتاجه الجميع، صغارا وكبارا، هو السبب في الازدحام الهائل، خصوصا بالباعة الجائلين الذين يبيعون كل شيء. ولذلك كان الشارع كله نقطة جذب لأبناء القرى المجاورة الذين يأتون، يوميا، على «العربات الكارو» قاصدين الشارع الجديد الذي أصبح سوقا طويلا، يمتد من أقصى المدينة، حيث المركز وقسم الشرطة المطل على استدارة فرع النيل، إلى أقصاها الآخر، حيث المقابر

المحاطة بالحقول، وتبدأ بمسجد الششتاوي. وقبله كانت تقع منطقة «البُوَظ» (جمع «بوظة») وهو مشروب الشعير الذي كان يصل إلى درجة من التخمير، تجعله أقرب إلى الخمر. وكان يباع في محلات متجاورة يذهب إليها الحمالون والعتالون وأصحاب الحرف الصغيرة للترويح عن أنفسهم، فقد كانت «البوظة» المخمرة أقوى من الخمر وأفضل من الحشيش والمنزول اللذين كنت أسمع عن تأثيرهما المدمّر لمن يقع أسير إدمانهما. ولا أزال أذكر بائع البوظة غير المخمرة الذي كان يحملها في وعاء فخاري مربوط على ظهره، يبيع أكوابها لمن يريد، كالخرنوب والعرقسوس، ويجد من يشتري منه بدعوى أنها مغذية، وقد شربتها عدة مرات، فوجدت طعمها لاذعا، ولم أجد فيها ما يجذبني إليها، فقد ظلت المشروبات الأخرى كالعرقسوس والخرنوب، أكثر جاذبية وألذ طعما، وباعتها أكثر نظافة وأناقة. ومن المؤكد أن السمعة السيئة لمرتادي البوظ هي التي جعلتني لا أفكر في زيارتها، وأكتفي بالمرور عليها من بعيد، لو اضطررت إلى المرور في المنطقة التي تقع فيها، فما كان يليق لتلميذ صغير مثلي أن يرتاد هذه الأماكن. وقد ازداد كرهي لشراب البوظة عندما رأيت الطريقة التي كان يتم بها خبز دقيق الشعير، أو حتى الردة، وكانت تأخذ شكل أقراص كبيرة الحجم، توضع في الفرن البلدي لتنضج. وتخرج بعد ذلك، كي تذهب إلى البوظ، وهناك توضع في أوعية ماء لأيام حتى تتحلل وتتفتت في الماء، وتتحول إلى ما يشبه السائل الكثيف الذي يتم تصفيته، وإما أن يباع للشاربين العاديين، أو يبقى مخزونا إلى أن يكتمل تخمره، فيغدو نوعا من المسكرات الشعبية الرخيص. يطلبه الذين يريدون الراحة أو النسيان أو المباهاة بعدد «القرعات» (المفرد «قرعة») وهو الوعاء

الذي يشرب فيه المشروب. وكانت الحقول تمتد، بعد منطقة البوظ، عبر المنطقة المحيطة بمسجد الششتاوي. وكان ينعقد له مولد كل عام، شأنه شأن المساجد الكثيرة جدا في المدينة التي كنا نسمع أنها تضم ما يقرب من ألف مسجد، ولكن ما كان هناك من شيء يؤكد ذلك. كل ما أذكره هو ارتفاع الوعي الديني في المدينة، والإجلال الذي كان يقابل به رجال الدين وأئمة المساجد الذين كان بعضهم يتميز بالتفقه في الدين، مقابل بعضهم الآخر الذي كان ينشر الخرافات الشعبية . وكان النهر ينحني أمام مسجد الششتاوي، شمالا وجنوبا، وكنا نمضي معه، سيرا على الأقدام، إلى الشمال على الضفة المأهولة بالسكان، لنصل إلى منطقة «الشون». ويبدو أن الاسم جاء من «التشوين» بمعنى التحميل أو التخزين، فقد كانت المراكب الشراعية لها مرسى في هذه المنطقة، وكانت تحمل بضائع كثيرة عبر فروع النيل، منها عيدان القصب التي كنا نذهب لشرائها والتمتع بمذاقها السكري، قبل أن تقضى على تجارتها البدائية محلات العصير التي انتشرت، تدريجيا، مع تحولات المدنية.

وكنت قد بدأت في التخلي عن الجلباب مع دخول المدرسة الأولية، وأصبح زي المدرسة هو البنطال القصير أولا، والقميص الأبيض الناصع الذي لابد أن يعالجه الكواء. وكان هذا هو زي المدرسة الرسمي الذي سرعان ما كنت أنزعه لأعود إلى نعمة الجلباب التي كانت تناسب ألوان اللعب المختلفة. وكان والدي حريصا أن يشتري لي حلة كاملة مع كل عام دراسي، وچاكت فوق القميص، أيام الشتاء، وقميصا جديدا، وحذاء وجوربا. وأذكر صورة لي التقطها أحد المصورين المشهورين في المدينة، وأنا أرتدي البذلة الجديدة، وأجلس فوق منضدة، وعلى فخذي باقة من

الزهور الصناعية لا تخفي البنطال القصير الجديد الذي كنت أرتديه في ذلك الوقت، وتبرز الصورة الحذاء اللامع الجديد والجورب الجديد. وكان ذلك جانبا من تدليل أبي لابنه الوحيد. ولا أزال أحتفظ بهذه الصورة بعد أن نزعتها من إطارها القديم، ووضعتها في ألبومات الصور العائلية للأسرة التي أصبحت ربها. الطريف أن الحلة الأنيقة الموجودة في هذه الصورة قد سرقها مني أحد اللصوص في اليوم الثاني من العيد، وكان اليوم التالي لالتقاطها، وذلك في حادثة ظل اسمي مقترنا بها عند معارفنا وغير معارفنا في ذلك الزمن البعيد، وكان ذلك بعد أن انتقلنا إلى مسكن قريب من تجارة أبي، وحممتني أمي في الصباح، وارتديت الملابس الجديدة، ومضيت أختال بهذه الثياب ويبدو أن الحلة وما يتعلق بها جعلت أحد اللصوص يتبعني، وفوجئت به يوقفني لكي ينفض التراب الذي ألقاه هو على الچاكت. واستسلمت لما يفعله في براءة، صارت مصدر سخرية مني لسنوات طويلة. وتظاهر اللص بأن الحلة كلها قد اتسخت، وأنها في حاجة إلى تنظيف، وهدأ من روعي، وأزال من خوفي بأن أشار إلى باب بيت قريب، قائلا : إن هذا بيته، وإنه سيأخذ الحلة إلى زوجه كي تعيدها نظيفة مكوية، وما عليَّ سوى الانتظار لدقائق، واستغل براءتي العجيبة، وخلع عني الچاكت والقميص الذي ادّعى اتساخه، ولم يكتف بذلك، بل اقترح أن أعطيه الحذاء والشراب الجديد، وأن أجلس على الطوار دقائق في انتظاره. ولا أزال إلى اليوم أعجب من غفلتي وسذاجتي وقلة حيلتي. وبالفعل حمل الرجل كل شيء واختفى في باب البيت القريب، وظللت أنتظر الدقائق القليلة التي تطاولت وتجاوزت الساعة، فأدركت ما حدث، ولم أملك سوى البكاء الذي لفت انتباه أحد المارة الطيبين،

فسألني الرجل عما بي، فحكيت له الحكاية، ولم يتمالك الرجل أن يمنع نفسه من الضحك، ولكنه أخذ يربت عليَّ حانيا، وطلب أن أصحبه إلى البيت الذي أشار إليه اللص. ودخلنا من الباب، وكان اللص فصّ ملح ذاب، ومضينا في دهليز البيت الطويل، فاكتشفنا أن للبيت بابين، كل باب منهما يطل على طريق مغاير. وكان اسمه «بيت عوينه». وهو أحد البيوت التي كانت تفتح على شارعين، ولم أكن أعرف ذلك، فأدركت أن الحلة الأنيقة والحذاء الجديد والشراب الجديد قد ضاعت، فارتفعت نهنهاتي، وحاول الرجل الحاني أن يسأل أحدا، لكن ما من جواب، وكان قد عرف اسمي واسم أبي، فقادني إلى أبي الذي فزع عندما رآني. ولكنه عندما عرف القصة مني، انطلق في الضحك الساخر من عبطي وبلاهتي، فزاد ذلك من شعوري بالهوان، فارتفع بكائي أكثر. ولكن أبي خفف عني بأن أرسل من يحمل لي جلبابا حتى لا أتعرض للبرد. وجاءت أمي خائفة أن يكون قد حدث لي شيء، فلما اطمأنت أني سليم الأعضاء، أخذت في تقريعي على سذاجتي وعبطي. وكالعادة، أثرت مشاعر الحنان في أبي الذي لم أر أحدا في حنوه وطيبته، فقال لي : يا بني، المهم سلامتك وسأمضي معك لنشتري حلة جديدة وحذاء جديدا وجوربا جديدا أيضا. وغسل وجهي، وظلّ يربت عليّ في حنان، ويحتضنني مكررا أن سلامتي أهم من عشرات الملابس الجديدة. وكانت أمي تضحك على المشهد، دون أن يصمت لسانها عن تقريعي. وأخيرا، هدأت في حضن أبي، وكانوا قد ألبسوني جلبابا، وحذاء من أحذيتي القديمة. واصطحبني أبي، بعد أن أسكت بكائي، وجعلني أضحك على خيبتي، لشراء حلة جديدة، وحذاء وجورب جديدين. وعدت معه، لكن فرحة الحلة الجديدة لم توجد هذه

المرة، فقد عكّرت عليها سرقة اللص الذي حرمني بهجة العيد. وللأسف سرعان ما شاع الخبر في أنحاء المدينة، وأصبح اسمي : ابن عصفور الذي سرقوا بدلته. وظل ذلك الاسم الساخر باقيا لسنوات طويلة، حتى بعد أن أصبح البنطال القصير طويلا، وبعد أن تركت مدرستي الأولى إلى الثانية، ومنها إلى مدرسة الأقباط، وكان نظام المرحلة الإعدادية قد بدأ تطبيقه، ولا أزال أذكر أنني ذهبت مع أحد أصدقاء المدرسة إلى بيته، وكان والده ميسور الحال أكثر من أبي، وقبل أن ندخل إلى الغرفة المخصصة له، قابلتنا جدته بوجه باسم، وسألتني ضاحكة: أهو أنت ابن عصفور الذي سرقوا بدلته؟!. وبالطبع لم أجب من الحرج والخجل، فقد كان السؤال يسبب الغيظ والشعور بالبلاهة والطيبة المقرونة بالغفلة التي كانت هذه الحادثة نهاية لها . وأحمد الله أن الطيبة ظلت باقية، لكن مع نوع من سوء الظن الذي لا يجعلني أطمئن لكل أحد، إلا بعد أن أكون قد خبرته جيدا. ولكن ظلت التسمية الساخرة تلاحقني إلى أن تركت المحلة كلها. وتناساها الناس مع كر الأعوام ومرور السنوات. ولكني كلما طالعت الصورة التي لا أزال أحتفظ بها، إلى اليوم، أبتسم وأتذكر ملابساتها، وأسترجع لحظة من الخيبة والغفلة، ظلت حديث المدينة، ومثار غيظي، لسنوات.

* * *

كانت أيامي العادية، بعد أن عرفت الطريق إلى المدرسة، موزعة بين محل أبي والمنزل واللهو ما بينهما. أما محل أبي فكان يقع في وسط شارع سعد زغلول، تقريبا، وقد استأجر والدي هذا المحل في عمارة جديدة، ضخمة بمقاييس هذا الزمان، تقع على ناصية أحد الشوارع المطلة على

الشارع الرئيسي ، وكانت تجارة أبي قد ازدهرت، بسبب حب الناس لطيبته وبره بالفقراء الذين لم يتوقف عن العطف عليهم إلى أن مات، فقد كان محل تجارة أبي محاطا بالباعة الجائلين، ويواجه أكثر من قهوة، يلجأ إليها العمال والحمالون والباحثون عن عمل، وكان أصحاب المحال الأخرى المجاورة، يحبون أبي ويحترمونه لسيرته الطيبة وحبه الخير للآخرين. وكان بعض معارفنا من النساء يحدثونني، خصوصا بعد أن جاوزت المرحلة الأولية من الدراسة، عن أبي الوسيم الذي تعلقت به قلوب نساء غير قليلات لوسامته وشهامته، وكان أبي أنيق الملبس، نظيفه، بهي الطلعة، أقرب إلى الطول مع شيء من السمنة التي ورثتها عنه فيما يبدو، عفيا إلى أن أصابه مرض السكر في إحدى الأزمات. أما وجهه الأبيض الباسم، دائما، فكان مشربا بالحمرة التي تنم عن أصوله التركية، محبا للحياة، والاستمتاع بها ما دام ذلك في مقدوره، محبا لأهله المقيمين في الإسكندرية، بارا بهم ولذلك كان يصحبني معه لزيارتهم كل صيف، كي أستمتع معه بجمال الشواطئ التي كانت لا تزال هادئة، جميلة، أنيقة، تستقر بها الصفوة القاهرية كل صيف في الشواطئ الراقية التي كانت تبدأ من ما بعد الشاطبي إلى ما قبل المنتزه. وكان شاطئ المعمورة نائيا، جديدا، لم يقبل عليه الناس بعد. أما الإسكندرية الشرقية التي تمتد إلى مطروح، على امتداد الساحل الشمالي فلم نكن نعرف عنها إلا شاطئ العجمي الذي كان لا يزال بكرا، زاخرا بالمصريات المتفرنجات والأجنبيات اللائي كن يرتدين «البكيني» الذي ظللت طويلا أخجل من النظر إلى من كن يرتدينه.

ولا أزال أذكر الطريق الطويل الذي كان علينا أن نقطعه إلى الشاطئ الذي أغراني أقربائي بالذهاب إليه، لعلهم يفلحون في تعليمي السباحة، فقد كان عمق المياه قليلا لمسافة طويلة في البحر، ولا خطر منه، ولكن كل حيلهم فشلت، فلم أعرف من السباحة شيئا يذكر. ولم يكن الشاطئ مجهزا تماما في ذلك الوقت، فكنا عندما يملّ أقربائي من السباحة، وأملّ من ادِّعاء تعلم السباحة، ننتظر على الشاطئ إلى أن تجففنا شمس الصيف، ونرتدي ملابسنا، ونقطع طريقا رمليا طويلا، تتخلله بعض مراعي الماعز وخيام يقطنها البدو، إلى أن يصل بنا الطريق الرملي إلى الطريق المسفلت، فنركب الأتوبيس الذي كان يحملنا إلى بيت الأسرة، جائعين كالذئاب. أما الشواطئ القديمة التي تمتد من الأنفوشي إلى المعمورة، فكان الجميع يتحدثون عن كورنيش الإسكندرية الجديد، وشاطئ ستانلي متعدد الطبقات، وكان بناء معماريا نادرا في ذلك الزمان، خصوصا بعد أن أفسحت ثورة يوليو 1952 الطريق إلى شرائح جديدة من الطبقة الوسطى، لكي تحتل أماكن جديدة، على السلم الطبقي، وتحل محل الطبقات الأرستقراطية الجديدة. وكان ذلك وقت إلغاء الثورة للألقاب، والوقوف إلى صف شرائح الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها أغلب الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة.

ولا أظن أني أستطيع أن أسترجع صورة واضحة في ذهني عن مدينة أبي: الإسكندرية، فقد قامت الثورة وعمري ثماني سنوات. وكل ما أذكره قبلها أن أبي اصطحبني معه إلى القاهرة، في سياق حبه التمتع بالحياة، لحضور فرح الملك فاروق على ناريمان صادق، وكنت في السابعة من

عمري تقريبا، ولا تزال صورة الجماهير المزدحمة والزينات عالقة بذاكرتي في ملامح ضبابية، وصحبني أبي إلى قصر عابدين، مع الجماهير الماضية إلى القصر للتهنئة. ولا أذكر من هذا كله سوى الزحام، وضجيج أصوات المهنئين. ورغم أن أبي حملني فوق كتفه كي أتمكن من الرؤية، فلم أر شيئا سوى الزينات والزحام. ولكني عندما عدت مع أبي إلى المحلة، وسألني الأصدقاء والأقرباء عن فرح الملك، لم أملك سوى اختراع حكايات وهمية عن ما رأيت، فقد كنت في الرحلة كلها أشبه بالشاهد الذي لم ير شيئا. ولم أعرف شيئا بالطبع، في هذا العمر المبكر، عن أن فرحة الشعب بزفاف ناريمان لم تكن كاملة، فقد قلل منها التعاطف مع الملكة السابقة «فريدة» التي أحبها الناس إلى درجة أنهم نسبوا إليها محاولات إصلاح الملك الذي أفسدته حاشيته ورجال القصر الذين تلاعبوا به، فضلا عن نزقه الشخصي وأخطائه الكثيرة التي كانت مبررا كافيا لقيام ثورة يوليو 1952 التي قضت على الحياة الحزبية الفاسدة والملكية على السواء، وأقامت النظام الجمهوري الذي أصبح نجومه الضباط الأحرار الذين كنا نرى صورهم في الجرائد والمجلات ونسمع خطاباتهم في الإذاعة، فلم يكن التليفزيون قد عرف طريقه إلى مصر بعد.

ولا أزال أذكر صور الزحام الضبابية نفسها، لكن مع حماسة أو هتافات من القلب، مع زيارة قادة الثورة إلى مدينة المحلة الكبرى التي أخذت تحتل مكانتها بوصفها مركز صناعة الغزل والنسج في مصر. وأذكر موكبا، اخترق شوارع المحلة، تحيط به الجماهير التي التفت حول عربة كان يركبها اللواء محمد نجيب وصلاح سالم بنظارته ذات العدستين السوداوين المميزتين

وجمال عبد الناصر. وأذكر أنني جريت مع أقراني، وراء الموكب، إلى أن وصلنا إلى ملعب كرة القدم الكبير، في المرافق الرياضية لشركة مصر للغزل والنسيج. وألقى محمد نجيب خطبة، كل ما أذكره منها هو هتاف الجماهير المدوي، وحماستهم المقرونة بالحب لملامحه الغامقة السمرة، وما كانوا يتناقلونه عن طيبته. وأخذ الجميع يتحدثون عن «العهد الجديد» الذي لم أكن على وعي بملامحه، فلم يكن بيتنا قد عرف الجرائد، وأبي وأمي في حالهما مشغولان بالسعي وراء الرزق، ولا يهتمان بالسياسة. حتى دائرة المعارف التي كنت أتحرك فيها، لم يكن فيها من أحد يُفهِّم طفلا غرا ما حدث لبلده من تغير جذري سنة 1952.

وقد سمعت بعد ذلك عن أن مدينة المحلة كان بها فرع للحزب الشيوعي، وهو أمر طبيعي بين عمال الشركة، لكني لم أعرف اعتقالات، ولم أر مظاهرات احتجاج، فلم يكن ما حولي يشير إلا إلى الجوانب الإيجابية للثورة، وكانت الأفلام تنتهي، أحيانا، باستعراضات عن الثورة، وترديد شعار: «الاتحاد، والنظام، والعمل». وواضح أن الجهاز الإعلامي قد استعان بالسينما التي كانت متاحة، فخرجت أفلام عن الأسلحة الفاسدة، وعن عدم إنسانية الإقطاعيين وبطشهم بالفلاحين الفقراء. وكانت جريدة «مصر الناطقة» الصوت الناطق لأحداث الثورة في ذلك الحين، نراها، دائما، في الفترة التي تسبق عرض الأفلام. وأرجو أن تكون أعداد هذه الجريدة محفوظة في مؤسسة من مؤسسات الإعلام، فهي كنز وثائق تاريخي لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة مرحلة الثورة التي استقبلتها وأنا في الثامنة من عمري، ولا أذكر عن أصدائها إلا أقل القليل. لكني مع الوقت،

ونضج الوعي بالأشياء، أخذت أعي المخاطر التي تهدد الثورة. وكنت في الثانية عشرة من عمري عندما قامت حرب 1956 ، خصوصا حين انفجر الحماس الوطني في نفوس الجميع، وامتلأت النفوس بالغضب والرغبة في تأديب الاستعمار الذي أراد أن يقضي على أماني الثورة التي أصبحت أمانينا في الحرية والعدل. وأصبح الإنجليز كالفرنسيين حلفاء إسرائيل، العدوة القديمة، أعداء الأمة العربية التي واجهت الاعتداء الثلاثي في أول الانفجارات القومية المدوية. وكان خطيب أختي ليلى قد تطوع للذهاب إلى السويس. ولم يغب سوى وقت لم يجاوز شهرين، فقد بدأ العدوان الثلاثي في أكتوبر 1956 وانتهى عمليا في يناير 1957 ، بعد أن قامت الأمة العربية كلها ولم تقعد، وكانت دعوة «القومية العربية» مع «الوحدة العربية» مع «الوطن العربي الكبير» مع دعوة شعارات «الوحدة والحرية والاشتراكية» ترن في أذني للمرة الأولى في ذلك الوقت.

والحق أن حرب 1956 ، على الأقل كما كنت أسمع عنها في مدينة المحلة، هي التي أنضجت وعيي السياسي، ووضعتني على العتبة الأولى من الاهتمام بهموم مصر في محيطها العربي الذي لا يكتمل معناها إلا به وكان ذلك في موازاة معرفة عالم جديد من الأصدقاء في الدول الاشتراكية، مثل جمهورية تشيكوسلوفاكيا التي رأينا وسمعنا عن صفقة السلاح التي قدمتها دعما للثورة، وكان خطيب أختي، زوجها فيما بعد، رحمة الله عليه، يحدثنا عن البندقية التشيكية التي تدرّب عليها، وكيف أنها أفضل كثيرا من بقايا البنادق الإنجليزية التي كنا نراها معلقة على أكتاف عسكر الشرطة والجيش، في الاحتفالات. ولا أنسي الدوي الذي أحدثه

الإنذار السوفيتي، وتعديل مبدأ أيزنهاور لإجبارإسرائيل على الانسحاب من سيناء في فبراير 1957 ، وفي الشهر الذي قبله استقالة إيدن (رئيس وزراء إنجلترا) التي كانت بمثابة الإعلان عن الهزيمة البريطانية في حرب السويس. ولم يبق سوى فرنسا التي عادت إلى قواعدها مكللة بعار الخيبة. ولا تزال ترن في أذني أغاني هذه المرحلة، ومنها أغنية فايدة كامل «عاد السلام يا نيل». ولم أكن أدري حين شاهدت مع أبي خطاب عبد الناصر في الإسكندرية، معلنا تأميم القناة، أن كل هذا الذي حدث سوف يحدث. ولكن تدافع الأحداث وتصاعدها بعد حوالي شهرين من خطاب عبد الناصر، والاعتداء الثلاثي، أيقظ المشاعر الوطنية، وأنضج الوعي القومي في الوقت نفسه. وهكذا أصبحت مثل ملايين غيري نرى في عبد الناصر البطل الذي كانت تنتظره مصر، وزاد من هالة البطولة التي أحاطت به أنه لم يترك القاهرة، وأعلن في الأزهر أن أولاده لا يزالون معه في منزله بالقاهرة التي تحولت بعد الانتصار إلى حصن الثوار في كل أنحاء العالم الساعي إلى التحرر.

ولا أعرف هل شاهدت فيلم «رد قلبي» في ذلك الوقت أم بعده، لكن المؤكد أن أعداد جريدة «مصر الناطقة» كانت تنقل إلينا ما يحدث، ونحن نرقب الشاشة الفضية في انبهار في دور العرض السينمائي بمدينة المحلة الكبرى. وأذكر منها: «سينما المحلة» و«سينما النصر» التي ظهرت بعد حرب 1956 ، و«سينما الوطنية»، وكانت بجوار «الشون» غير بعيدة عن مدرسة المحلة الكبرى الثانوية التي انتقلت إليها من مدرسة طلعت حرب الثانوية التي لم أجد فيها قسما أدبيا، يتيح لي التخصص في اللغة العربية

التي أردت أن أكون فيها مثل طه حسين. وكانت نوادي الشركة الاجتماعية تضم دارين للعرض، أولاهما مفتوحة للجمهور، وثانيتهما لأعضاء نادي العاملين (الموظفين لا العمال) في الشركة. وكلتاهما كانتا لا تعملان إلا في الصيف. ويبدو أن وفرة دور العرض السينمائي في المحلة هي التي أتاحت لي مشاهدة الأفلام منذ وقت مبكر، خصوصا أنها كانت رخيصة الثمن، فكنت أجلس وأصدقائي في «الترسو» الذي كانت المشاهدة فيه لا تجاوز القرش صاغ. وأذكر أن سينما الوطنية كانت تغرينا بعرض ثلاثة أفلام وبثمن التذكرة الذي كان تسعة مليمات، ومعها قطعة حلوى بمليم يكمل القرش. وما أكثر الأفلام التي شاهدتها في تلك السنوات، فقد أصبحت السينما مع الكتاب مصدر المتعة في عالم المعرفة الذي أخذ يتسع باتساع صفحات الكتب (خصوصا الروايات) التي قرأتها والأفلام التي شاهدتها، وأنا سارح بخيالي مع ما أراه على الشاشة الفضية التي أصبحت مرآة سحرية لا نهاية لمباهجها ومفاتنها، وما أكثر ما كنت أتقمص شخصيات الأبطال الأخيار الذين كانوا ينتصرون على الأشرار في النهاية. أما عوالم الأساطير الخرافية فكنت أحلّق معها، حالما أن أكون مثل هرقل، أقهر كل ما يقهر، وأقترب من عوالم الآلهة اليونانية التي بدأت أعرفها على شاشة السينما : زيوس، بوسيدون، أبوللو، ديونيسيوس. والربات : كاليبوسي وديانا وهيرا وغيرهم وغيرهن. ولا أزال أذكر المرة الأولى التي شاهدت فيها فيلما عن عودة أوديسيوس من حرب طروادة التي تسببت فيها امرأة غاوية، دفعت الأمير باريس الجميل إلى خطفها، فأهاج زوجها الجميع لاسترداد ما ضاع من شرفه، والثأر لعرضه، فحوصرت طروادة التي

اقتحمها جيش المتحالفين بحيلة الحصان الشهيرة. وانتهى الأمر بالانتصار وقتل الأمير الذي أدى نزقه إلى الحرب. وعاد البطل أوديسيوس (أو أوليس أو عوليس) إلى منزله في رحلة سجلتها ملحمة هوميروس «الأوديسا» إلى جانب «الإلياذة» التي تحكي أحداث الحرب التي طالت. وكانت زوجة أوديسيوس بنيلوبي الجميلة تنتظر عودته مخلصة له، وفية لعهده، ترعى ابنها الصغير تليماخوس. وطالت الحرب، وطال الانتظار، وكثر الطامعون في أرض أوديسيوس وزوجه. أما هي فقد لجأت إلى الحيلة حين تكاثر حولها الطامعون، وأعلنت أنها لن تتزوج إلا بعد أن تكمل نسج ثوب زفافها، وظلت تنقض في الليل ما تنسجه في الصباح، كي تماطل الطامعين الذين لجأوا إلى التهديد، وذلك كله وأوديسيوس ورحالته يعانون الأهوال في طريق العودة، إلى أن وصل بالقرب من بيته في ظلمة الليل البهيم، متنكرا، لم يعرفه سوى كلبه الوفي، وخادم عجوز، وسرعان ما دبر مؤامرة يقضي بها على خصومه، فتعلن زوجه الوفية أنها لن تقبل الزواج إلا ممن يستطيع أن يركب وتر قوس أوديسيوس على قاعدته، ويحاول الجميع سدى، فالقوس كان يتأبى على الانثناء ليركب طرفا الوتر في مكانهما. ويتقدم أوديسيوس المتنكر، عارضا المحاولة، ويسخر منه الجميع، ولكن زوجه تأمرهم بقبوله، فيسمحون له بالمحاولة، وينجح بالطبع، فما كان القوس ينثني لأحد إلا له، وتنطلق السهام كالمطر من قوسه، تحصد الأعداء الغاصبين، يساعده ابنه وكلبه الوفي. وتنتهي الأوديسا، أو الفيلم المأخوذ عنها، بانتصار البطل الخيِّر أوديسيوس على أعدائه، ويحتضن زوجه الوفية بنيلوبي التي حفظت عهده، ورعت ابنها وبيتها رغم أيدي وأعين الطامعين.

وأذكر أنني رأيت الفيلم في الحفلة الأخيرة، فقد أصبح يسمح لي بالعودة متأخرا، فقد كانت مدينة المحلة آمنة تماما. وظللت أسترجع في خيالي مشاهد الفيلم من الجميلات والساحرات والأبطال، مفتونا بالثوب الذي كانت ترتديه بنيلوبي، كاشفا عن ذراعيها الجميلتين، وساقيها الرشيقتين ووجهها الآسر المليء بالبراءة، على النقيض من وجه هيلين المليء بالغواية الشيطانية التي انتهت إلى دمار طروادة وظللت أسترجع المشاهد طوال طريقي، وأتقمص صور من شئت من الأبطال، وأتخيل نفسي جالسا مع من شئت من البطلات، إلى أن دخلت المنزل، وكنا قد انتقلنا إلى منزل جديد، نقطن في الدور الثاني منه. وكان الطريق إلى السلم يقطعه نصف جدار، فلم أنتبه، في غمرة خيالاتي وانغماسي في العالم السحري للفيلم، إلى الظلمة الكثيفة التي جعلتني لا أرى الحائط، فاصطدمت به دون أن أنتبه. وبالطبع، صرخت من الألم، ووضعت يدي على وجهي، فوجدت الدم يتدفق من جبيني، فقد اصطدمت جبهتي بمسمار أو قطعة حجر ناتئة، وظللت أقاوم الألم، وأضغط على ما تصورت أنه مكان الجرح، إلى أن صعدت إلى حيث نسكن، وتسللت دون أن يشعر أحد، وبادرت بغسل وجهي، ووضع رباط على جبهتي مع قطعة قطن وجدتها لحسن الحظ. وحمدت الله أن الجميع كانوا نياما. لكن ظل أثر الجرح باقيا كالندبة لوقت طويل، تذكرني بأن عالم الواقع شيء وعالم الخيال شيء آخر، ومن الأفضل عدم الفصل بينهما، وإلا...

ولكن هذه الحادثة لم تمنعني من الذهاب إلى السينما، فقد وقعت في عشقها، وصرت مدمنا للقراءة والسينما على السواء. وكانت السينمات

عادة طريفة في ذلك الزمان، فقد كانت تدعو أبطال أحد الأفلام الجديدة إلى حضور العرض الأول للفيلم فيها. وقد حدث ذلك مع فيلم «أربع بنات وضابط». ولا أزال أذكر الضجة التي حدثت نتيجة زيارة أبطال وبطلات هذا الفيلم، وكان على رأسهم أنور وجدي الذي كان من أبرز نجوم السينما وأكثرهم وسامة في ذلك الوقت، وإلى جواره في السيارة الشيفروليه المكشوفة حسناوات الفيلم، أو البنات الأربع، نعيمة عاكف واقفة إلى جانب أنور وجدي الذي كان واقفا إلى جوارها في السيارة يتلقيان تحية الجماهير المحبة، ولبلبة الصغيرة الجالسة على حافة السيارة لا تكف عن الضحك. واحتلت الكرسي الخلفي للسيارة الكبيرة كل من الشقيقتين رجاء وعواطف يوسف وكلتاهما كانتا تتقلبان بين الرقص والتمثيل. ولا أزال أذكر الأثواب البيضاء الهفهافة التي كانت الحسناوات يرتدينها، ناهيك عن ملاحة الوجوه المعجونة بالجمال والعافية. وبالطبع، شاهدت الفيلم مع آلاف من أهل المحلة، وكالعادة، بهرني أداء عبد الوارث عسر الذي لا مثيل له، وشفيق نور الدين ووداد حمدي، وزينات صدقي أخف ظل رأيته على الشاشة المصرية. هل عرضت سينما الوطنية الفيلم سنة 1954 أو بعدها؟ لا أذكر على وجه اليقين، وإن كان الصديق علامة السينما كمال رمزي، أبلغني أنه راجع أرشيفه الخاص، فوجد أن الفيلم الذي كتبه أنور وجدي وأخرجه قد اكتمل وعرض في المدن المصرية لذاك العام. ولكن من يهمه التاريخ، خصوصا حين تسطع في الذاكرة الحسناوات الأربع محيطات بأنور وجدي الذي كنا نرجو أن نكون في مثل وسامته وأناقته.

ولا أزال أذكر منظر محبي السينما، من أهل المحلة الذين أحاطوا بالسيارة محاولين مصافحة النجوم الذين ظلت ذكرى زيارتهم حديث

أهل المحلة لأيام طويلة. والمؤكد أن هذه الزيارة جعلت السينما كاملة لأكثر من أسبوع، فقد أعادت دور العرض في المحلة عرض الفيلم لمدة أسبوع قبل تغييره. ولم يحدث هذا الاستثناء إلا مع فيلم أربع بنات وضابط الذي كسر القاعدة. وظني أن موضوع الفيلم نفسه كان مؤثرا، خصوصا مع تحول المصائر وانقلاب الحظوظ، وتحول الفتاة اليتيمة نعيمة عاكف إلى سليلة أسرة ثرية، تتقبلها، فتدخل وصاحباتها عالم الأغنياء لتترك ملجأ الأيتام الذي كان أشبه بالسجون.

ولا أذكر كل الأفلام التي شاهدتها في دور العرض السينمائي للمحلة، فما أكثرها، ولكن الذاكرة لا يمكن أن تفلت فيلم «ظهور الإسلام» المأخوذ عن رواية «الوعد الحق» لطه حسين، ولا فيلم «زينب» عن قصة محمد حسين هيكل الشهيرة، وكانت البطلة راقية إبراهيم تخلب الألباب بجمالها الآسر، ويحيى شاهين بأدائه الصادق المعبر. وأضيف إلى ذلك الأفلام المأخوذة عن روايات محمد عبد الحليم عبد الله الرومانسية، وقبلها رومانسيات محمد عبد الوهاب في «ممنوع الحب» و«يحيا الحب» وأم كلثوم في فيلم «سلامة» وغيرها من الأفلام التي أنتجها ستديو مصر، وكانت ليلى مراد قيثارة الأفلام، عندي، في ذلك الزمان البعيد. أعشق صوتها الرخيم الذي كنت أفضّله، ربما لرغبتي في المخالفة، على صوت أم كلثوم التي رأيت بعض أفلامها. وكان ذلك قبل أن أتهوّس بعبد الحليم حافظ الذي أصبح الشباب، الأكبر مني بقليل، يقلدون تسريحة شعره، وطريقة ارتدائه القميص البسيط والبنطال. وقد أصبح عبد الحليم يسكن قلب المراهقين والمراهقات، منذ دخلت المدرسة الثانوية، وظل يسكن قلوبنا إلى تخرجنا من الجامعة، ودخلنا دوامات الحياة ومعتركها.

والحق أنني أشعر بالعرفان لأنني ولدت ونشأت في مدينة المحلة الكبرى، فقد كان فيها دور العرض السينمائي والمكتبات العامة والخاصة، وعم كامل بائع الكتب العجوز، وصبيانه وأهمهم طلعت قنديل ومحمد أبو العلا، فضلا عن مكتبة قصر الثقافة وغيرها من مكتبات المدارس. ولم يكن هذا الزمن البعيد، يسمح لنا بشيء أكثر من القراءة ومشاهدة الأفلام وتلقي العلم. ولم تكن الأداة التليفزيونية الجهنمية التي تسرق الوقت قد ظهرت بعد، ولا عرفنا نعمة الترانزستور. ولا نقمة «النت» الذي يسرق الساعات من المرء دون أن ينتبه. وأعتقد أن نجيب محفوظ كان على حق عندما قال لنا، ذات مرة، إن «النت» لو كان على أيامه ما كان يستطيع أن يكتب ما كتب، فالحمد لله الذي حرم نجيب محفوظ، أو أنقذه، من نقمة «النت» وأمتعنا، نحن الذين أحببناه بنعمة إبداعه الروائي، ومتعنا قبل معرفته العميقة روائيا، بمعرفته كاتبا للسيناريوهات التي انبنت عليها أفلام صارت علامات في تاريخ السينما المصرية.

* * *

حين أسترجع شارع سعد زغلول، حيث كان يقع محل أبي في مدينة المحلة الكبرى، أذكر أن حركتي، في هذا الشارع، ظلت تختلف بتعاقب سنوات عمري. وكانت البداية حركة محدودة لا تفارق الدائرة التي لا تغفلني فيها عينا أبي، ولذلك كنت أعبر على المقهى المواجه للمحل، وكان اسمه مقهى اليماني، وكان رجلا عجوزا، سرعان ما رحل عن الدنيا، وترك المحل لأكبر أبنائه الدسوقي الذي كان قريبا من أبي، يرى فيه بديلا من والده الذي رحل، لكنه كان ملما ببعض القراءة التي تتيح له أن يقرأ العناوين الرئيسية في الجرائد، ويحادث في موضوعاتها رواد المقهى، أو

أصحاب المحال المجاورة، ومنهم أبي. وكان حريصا على ادعاء العلم بالأشياء التي يفهم فيها والتي لا يفهم فيها، الأمر الذي كان يجعل منه موضوعا للتندر البريء الذي لا يجرح الإحساس، ويبدو أنه لكي ينجو من هذا التندر تعوَّد أن يسألني أو أحد أصحابي الذين كانوا يلتقون بي على الطوار الملاصق لمحل أبي في مواجهة الشارع الذي يفصلنا عن مقهاه. ولا أذكر تاريخ تصوره أننا أهل للسؤال، ولكن كان ذلك في النصف الثاني من الخمسينيات، بعد حرب 1956 ، ودخول المدرسة الثانوية. وكانت معارك عبد الناصر لا تتوقف في ذلك الوقت، وكنا مهوّسين به، نعادي من يعادي، ونحترم من يحترم، ونلوك شعارات التحرر الوطني والوحدة القومية والقومية العربية. وكم اهتززنا مع قيام الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير 1958. ورأينا صور عبد الناصر وشكري القوتلي، والثاني يبايع الأول زعيما ورئيسا للجمهورية العربية المتحدة التي تصون ولا تبدد، تحمي ولا تهدد. وكم غمرتنا الفرحة عندما رأينا الشعب السوري يرفع سيارة الرئيس عبد الناصر الذي عرفت أن العرب كانوا يحبونه أكثر مما يحبه المصريون.

وقد مرّت سنوات عديدة على زمن الوحدة والانفصال، وأصبحت أستاذا في الجامعة وناقدا أدبيا، فدعتني نجاح العطار التي كانت وزيرة ثقافة سوريا إلى حضور مهرجان اللاذقية، فأوقفني السائق عند منحني مرتفع، تنبسط تحته التلال الخضراء، وأخبرني بسعادة وفخر أن عبد الناصر أوقف السيارة التي يستقلها، في طريقه إلى اللاذقية، في الموضع نفسه الذي أوقفني فيه. وكانت نبرات صوت السائق الذي عاصر عبد الناصر متهدجة كأنه يتحدث عن معجزات حدثت أو عن شخص لم تأت الأيام بمثله، وذلك

على الرغم من محاولات السادات تشويه صورة عبد الناصر بأجهزة إعلامه وحديثه عن الديموقراطية التي لم يكن يؤمن بها في أعماقه، وعندما وصلت إلى اللاذقية وتجولت في شوارعها، يصحبني نبيل سليمان، ذلك اللاذقاني المبدع، أدركت من حديث الناس عمق مشاعرهم إزاء عبد الناصر وتقديسهم له.

وتسكن صورة عبد الناصر في أذهاننا، نحن أبناء المحلة في ذلك الزمان، هي صورة البطل التي تدفعنا إلى كراهية الإخوان المسلمين، أولئك الذين لم أكن أعرف أحدا منهم، فقد نفرت من التعامل معهم منذ اللحظة الأولى، حين قادني صديق أكبر مني سنا إلى إحدى شعب الإخوان المسلمين التي كانت موجودة في المحلة. وأحسب أن ذلك حدث قبل إطلاق النار على جمال عبد الناصر سنة 1954، وما ترتب عليه من مطاردة الإخوان وإغلاق مقارهم على امتداد مصر. المهم كان مبنى الشعبة يحوي مكاتب للإدارة وقاعة للندوات وقاعة للمكتبة. ولم يكن في المكتبة (التي كانت أول ما جذب انتباهنا) سوى كتب التفاسير وشروح الحديث ومذاهب الفقه. ولكن الجهامة التي كانت تتميز بها الوجوه وغياب البسمة وشيوع روح قتالية، كانت تجعل العاملين في الشعبة كأنهم جنود صارمون في معسكر يتأهب للقتال. ولذلك نفرت منهم، فأنا من الذين يميلون، حتى في ذلك الزمن البعيد، إلى الوجوه الباسمة السمحة التي كان يتميز بها ذلك الشيخ الذي تعودت على الصلاة وراءه والاستماع إلى دروسه. وكان المسجد الذي يعمل فيه إماما، غير بعيد من محل أبي، يقع إلى اليسار قليلا، قبل حلقة السمك التي كان باعتها وزبائنها يسدون باب الجامع الصغير الذي يفتح على الميضأة. أما الباب الكبير الذي ينفتح على ساحة

المسجد، مباشرة، فكان في الشارع الخلفي، غير بعيد عن المكان الذي سرق اللص الزنيم فيه حلتي الجديدة.

المهم أن عم دسوقي القهوجي كانت تشده الأحداث السياسية التي كان يسمعها في راديو المقهى الخاص به. وكان مالا يفهمه يدفعه إلى سؤال الأفندية الذين تعودوا على الجلوس معي، خصوصا بعد أن كانت أصوات جلال معوض وأحمد سعيد وغيرهما من أصوات الإذاعة الناصرية تشد انتباهه، وتدفعه إلى محاولة فهم ما لا يفهم. ولم نكن نقصر في الشرح فكلنا من دراويش عبد الناصر الذي كان قد أصبح حبيب الملايين المصرية والعربية، وبعد أن غنت له أم كلثوم أغنيتها الشهيرة : «أجمل أعيادنا المصرية بنجاتك يوم المنشية». وبالطبع، كان عم دسوقي يأخذ ما تعلمه منا، ويتفاصح به على غيرنا من رواد مقهاه البسطاء، ولا أزال أذكر طوله الفارع، وجسده الرشيق، وهو يحمل الصينية النحاسية، اللامعة دائما، عليها فناجين القهوة أو أكواب الشاي إلى الزبائن. وقد أحزنني نبأ وفاته منذ سنوات معدودة، حين أخبرتني أختي التي لم يبق لي سواها، مد الله في عمرها، ودعوت له بالرحمة، وجلست وحدي أسترجع صوره في ذاكرتي إلى أن وصلت إلى المشهد الذي دفعني إلى الابتسام، فقد كان، إلى جانب تفاصحه، لا يكف عن المرح وإشاعة الابتسام حوله. ولا أنسى يوم زارني في القاهرة، وكنت قد أصبحت في كلية الآداب، وفوجئت به وهو يصيح صيحته المعهودة، قبل أن يصل إلى باب الغرفة : سي جابر يا عصفور، واستقبلته بالأحضان، ودعوته إلى الغداء في أحد المطاعم التي رأيتها لائقة وتحتملها ميزانيتي حتى مع بعض الإرهاق. وذهبنا إلى مقهى بعد الغداء، وكان اليوم ربيعيا مشمسا، في ميدان الجيزة. ولما فرغنا من احتساء الشاي، قال لي : اسمع يا

سي جابر، أريد أن أرى أهم شيء في مصر وأجمله، فاقترحت عليه حديقة الحيوان، ولكنه قال إنها للأطفال، وهو يريد زيارة شيء لا ينسى، فخطر على بالي أن أذهب به إلى الأهرام، ووافق على الاقتراح. وأخذنا أتوبيس الأهرام من ميدان الجيزة الذي كنا قربه، وظل يحكي عن أحوال البلد طوال الطريق، إلى أن وصلنا وأريته الهرم الأكبر وهرم سقارة المدرج، وهبطنا إلى أبي الهول، وكنت أشرح له كل شيء، وهو يسمع باهتمام وتركيز، كما تعود أن يفعل معي في المحلة. وانتهت الزيارة، واصطحبته إلى ميدان رمسيس، حيث محطة القطار الذي عاد به إلى المحلة، وعدت أنا إلى عالمي الجامعي. وكدت أنسى الموضوع إلى أن فاجأني تليفون من أبي، وإذا بأبي يسألني : ما الذي فعلته بعمك دسوقي؟ وكان صوته يحمل نبرة عتاب، فقلت : لا شيء، قمت بالواجب الذي تتوقعه مني حسب ما علمتني إياه، وضحك أبي طويلا في التليفون، وقال لي : وهل عمك دسوقي ممن يزورون الأهرام يا عبيط؟ قلت: وما العيب في ذلك؟! فضحك أبي، مرة أخرى، وقال: لقد جاءني عاتبا علي، فبدلا أن يكرمه ابني بنزهة جميلة مبهجة في القاهرة أخذه لزيارة المقابر. وهنا تذكرت أنه سألني عن فائدة الأهرام التي تعب المصريون في بناء أكبرها، على امتداد عشرين عاما، حسبما قلت له : إنها كانت لتخليد الفرعون خوفو العظيم، بعد وفاته، فسألني : وكيف يخلّدونه؟ قلت : بوضع جسده في الأهرام بعد موته، فتصبح الأهرام رمزا لخلوده. فأخذ يتعجب بينه وبين نفسه : عشرون عاما؟! وأخيرا سألني بلهجته المحلاوية : يعني هذه الأهرام «تُرَب» (مقابر)؟! فقلت له : نعم هي «تُرَب» ولكنها ليست مثل الترب التي تعودنا عليها، فصمت، ولم يعلّق، وشغل نفسه عني طوال الطريق إلى ميدان رمسيس بتأمل الناس. وكان أول ما فعله حين وصل إلى المحلة أن ذهب

إلى أبي، وعاتبه قائلا : هل يرضيك يا عم أحمد أن سي جابر يجعل نزهتي «الترب». وظن أبي أني ذهبت به إلى مقابر السيدة عائشة أو غيرها من مقابر القاهرة، فعاتبني، وضحك عندما عرف الحقيقة، وعقَّب على ما رويته له قائلا: وهل الدسوقي اليماني ممن يزور الأهرامات ياسي جابر ؟! على كلٍّ، لقد طيبت خاطره وانتهى الأمر، وصرنا نحن الاثنين نضحك في التليفون، فقد كانت علاقتي بأبي علاقة محبة، لا تعرف الخوف مني، ولا القسوة منه، فقد كان يردد : إن كبر ابنك خاويه (اجعله أخا وصديقا) وكان يفعل ذلك فعلا.

ويبدو أن ذكريات علاقتي بأبي سوف تستأثر بي مرة أخرى، فما أكثر ما كان يصحبني في نزهاته ونزواته. ويبدو أنه كان محبا محبوبا من النساء، لكنه كان يقيم سدا بيني ومعرفة هذا الجانب من حياته، فقد أغواني بالجانب الآخر، وهو حبه للطعام الجيد، وقد ورثت ذلك عنه. وما كان يسمع عن محل جيد جديد للكباب حتى يصحبني إليه، ونأكل حتى البشم. ويحب المسامط البلدي، لكن بعد أن يتخير أنظفها وأنسبها مجلسا، وقد تعودنا على الذهاب معا إلى مسمط خاص كل أسبوع، يحتل الطابق الأرضي في بناية نظيفة، أنيقة بمقاييس الحي الموجودة فيه. وهو الذي علمني التمييز بين أصناف لحمة الرأس، وفائدة «الجوهرة» (منطقة العين من رأس الذبيحة) ولذة «اللسان» الخاصة إلى جانب «المخ» المقلي بالبقسماط والبيض، وفوائد الطحال وشوربة «الكوارع» التي ترمُّ العظم. أما عن الأسماك، فلم يكن يأكلها إلا في الإسكندرية، أو مصنوعة بتفنن زوجة عمي، شقيقه الوحيد، رحمهم الله جميعا. وبالطبع، كانت لنا أسرارنا الخاصة، وظلت علاقتنا خاصة دائما، الحنو المطلق من جانبه، والمحبة والاحترام والفخر

من جانبي، وكان من الطبيعي أن يصر على تعليمي إلى النهاية، وأن أحقق حلمه في أن أكون مثل طه حسين. ولا أنسى أحد أيام العيد، وكنت تعلمت تدخين السجائر، لكن بعيدا عنه، كي لا يراني، وكنت في عطلة العيد الأخير، قبل وفاته بعام، وأخبرته أمي، كعادتها، أنني تعلمت التدخين، وأقوم بشرب السجائر من وراء ظهره، فصمت، ولم يعلق على ما قالت. وفي صباح اليوم التالي، طلب منها أن تستدعيني إلى مجلسه، ففعلت، وقبلت يديه تحية لصباح تورد وجهه فيه. وقال لم تحصل على «عيديتك» مني، فخذها، وأخرج من جلبابه علبة سجائر «بلمونت» وأعطاها لي، فحاولت إنكار تدخيني، فقطع كلامي بقوله : قلت لك كثيرا : إن كبر ابنك خاويه، ونحن أصدقاء كالأخوة الآن، فتأثرت، وقبلت وجنتيه، وقالت أمي كعادتها في المناكفة: أفسده كعادتك. فلم يرد عليها سوى بالضحك الذي انتقلت عدواه إليَّ، فانكببت على وجهها تقبيلا، وهي تحاول دفعي عنها.

وكانت مقهى عم يماني ثم ابنه عم دسوقي بداية الرحلة في شارع سعد زغلول، لكن سرعان ما تجرأت على المضي بعدها والتعرف على أبناء صاحب وكالة البصل الذين كانوا بجوار المقهى، وبعدهم بقليل محل الفسيخ الذي كنت أنفر، دائما، من رائحته، فأنتقل إلى الجانب الآخر، حيث باعة الفاكهة، وأمضي إلى محطة الإسعاف التي كانت عرباتها تشد انتباهي البكر بأصواتها المجلجلة، وبعدها ما يشبه جمعية تعاونية، أمامها ميدان فسيح، يتوسطه صهريج المياه الذي مازلت أذكر دهشتي من حجمه الضخم، ولكن مع مضي الوقت وجدت أطفالا مثلي يلعبون بين أعمدته الضخمة، وما حولها مزروع بأعشاب خضراء. ولا أذكر كم استغرقت من الوقت حتى تشجعت، وصعدت درجات سلم الصهريج التي بدت لا نهائية، كأنها تصل إلى السماء. ولكن ما إن جاوزنا الدرجة العاشرة

بقليل حتى أخذت صيحات الخفير تعلو بالتحذير والتهديد والترويع، فعدنا إلى حيث كنا، وأخبر أحد معارفنا أبي بما كنت أفعل، فنهرني بشدة، وغضب حين علم أنني كنت ألعب وأبناء الباعة الجائلين المتحلقة عرباتهم حول الصهريج كأنها سياج له، فما كان يليق بمثلي أن أفعل مثل أبناء هؤلاء الباعة الذي يبعثرون مكسبهم القليل على المخدرات والغرز والبُوَظ. ويبدو الأمر لي، بعد كل هذه السنوات، كما لو كان أبي يزرع في داخلي نوعا من التمييز الاجتماعي. وهو أمر شجعني عليه عندما كان يقوم بالترحيب بزملائي وأصدقائي، سواء في المدرسة أو في المراحل التعليمية المماثلة.

وهكذا، تكونت لي جماعة أولى من الأصدقاء نلهو معا ونمارس هواية المشي التي قطعنا بها مدينة المحلة طولا وعرضا، فعرفنا كل شبر فيها. وكانت نزهتنا المفضلة تمضي إلى نهاية شارع سعد زغلول، مارين بالبندر ومقر الشرطة، ثم ننعطف يمينا، تاركين النهر وراء ظهرنا، فنمضي إلى ما يسمى شارع محب. وكان أفخم شوارع المحلة وأكثرها نظافة، يتميز ببناياته الجديدة الحديثة وسكنى الشرائح العليا من الطبقات الوسطى، ويتعامد معه شارع نادي البلدية الذي كان بهجة للنفوس، لا يدخله إلا أبناء الطبقة العليا الذين كنا نجد من بينهم من يسير بنا إلى النادي لنرى ما فيه من جمال، خصوصا بنات الشرائح الثرية اللائي كن يتشبهن بنجوم السينما المصرية والعالمية. ومقابل منطقة فيللات، تفنن مهندسوها في جمال معمارها، وتسابق الأغنياء في الاستعانة بأشهر المهندسين كي يتنافسوا في معمار البناء الجميل. ولم يكن الشارع يخلو من زهور تتوسطه، وأشجار ظليلة على جانبيه، تطرح ثمارا حمراء في الربيع تتوهج كاللهب على امتداد الطريق الذي نمضي إلى نهايته، بعد مسافة قصيرة، لننحني مع النهر عائدين

إلى المدينة، فنمر على مقر الشرطة، ولكن نمضي بموازاة البحر هذه المرة، نتمتع بأنفاس الأصيل، ونمضي في ضوء الشمس الذي أصبح رقيقا، إلى أن نصل إلى منطقة «البُرَص» (جمع بورصة). وكانت الكلمة تطلق على المقاهي المتعددة الأغراض، فهي محال لشرب المشروبات المباحة وغير المباحة ومطاعم في الوقت نفسه. وقد أنشأ أغلبها يونانيون كانوا لا يزالون موجودين، كثير منهم يتميز بخفة الدم ولكنته الباعثة على الابتسام. وغير بعيد من هذه المنطقة، أقرب إلى داخل المدينة، فرن الخواجة «يني» الذي كان مخبزه يبيع كل ما طاب ولذ من الخبز والحلوى. وكان محبوبا جدا من أهل المدينة. وكانت أمي، إذا أرادت أن تغيظني لسبب ما، أو لم تفهم عني ما أريد توصيله إليها، اتهمتني بأني أتحدث كالخواجة «يني» الذي لا يفهم الناس نصف ما يقول، لكنهم يستنتجون مقصده خصوصا لأنه كان يستخدم لغة الجسد. وأعترف أنني كنت أقف، من بعيد، أرقب الخواجة «يني» ولهجته المصرية، وكنت، أنتهي، دائما، إلى أن أمي ترميني بما ليس فيَّ، ولكن التسمية شاعت بين أسرتي، وأصبح يستخدمها أخواتي البنات والسيدات لإغاظتي، إذا أردن مشاكستي.

ولا أنسى أننا كنا نجلس على السور المنخفض من النهر الذي نعطيه ظهرنا، ونتأمل العابرين والعابرات، والسيارات الخاصة والأجرة. لكن أعيننا مسلطة، دائما، على «البهوات» الجالسين على الرصيف الواسع لكل بورصة، أمام كل مجموعة مشربها أو مأكلها، وكنا نضحك على من نظنهم يثيرون الضحك، ونعجب بالأناقة الغالبة : الأحذية اللامعة، الحلل الجديدة كأنها خارجة من تحت يد الكواء، أربطة العنق التي كانت عريضة في تلك الأيام، بقايا الطرابيش التي سرعان ما اختفت. وما أندر حضور

المرأة في هذه الأماكن، مع أن مرتاديها كانوا متحررين فيما يبدو من اقترانهم بالخواجات (الأجانب) الذين كانوا لا يزالون يقيمون في المدينة. وإذا تعبنا من الفرجة أو مللنا منها، عدنا أدراجنا من شارع العباسي هذه المرة. وهو شارع بالغ الازدحام بسبب كثرة المطاعم ومحلات العصائر والشركات التجارية التي تمتد على جانبيه، فنصل إلى آخره في النهاية، حيث يتقاطع مع شارع سعد زغلول، وأفارق الشلة إلى محل والدي أو إلى المنزل، حسب الوقت. أما إذا كنا قد غيرنا الاتجاه وانطلقنا إلى النهر من شارع العباسي فقد كنا نمضي إلى الجسر ونعبره إلى الضفة الأخرى، حيث تقع ثلاث من دور العرض السينمائي متجاورة أو متواجهة. وإما أن ندخل فيلما أعجبنا، أو نمضي في الطريق الذي يمر فوقه جسر القطار، فيجعله أشبه بالنفق، فنرى نادي موظفي الشركة إلى اليمين، فنتركه كي ننعطف يمينا في منطقة السبع بنات الجديدة التي بنتها وقطنتها فئات الموظفين من العاملين بالشركة.

وكان فيها دير للراهبات، يبدو أنه سبب تسمية «السبع بنات». ومدرسة لغات أجنبية لغتها الفرنسية هي المعتمدة. وكان أغلب طلابها من أبناء سكان المنطقة. وكنا نحسدهم على أناقة زيهم الموحد الذي لم يكن يشبه الملابس «البزرميط» التي كنا نرتديها في مدرسة الأقباط الخيرية، ونكتفي باستراق النظر إلى فصول مدرسة الفرير لنمضي إلى مرافق شركة مصر، حيث اكتمال النزهة بالحدائق والمتنزهات، مع وجود كشك للموسيقى، لم أر فيه فرقة موسيقية، قط، وأخيرا، نحط الرحال عند السينما الصيفية، فإذا وجدنا فيها ما يبعث على الدخول فعلنا، وإلا فالتسكع بين الحدائق قبل العودة إلى دورنا.

وقد دخلت نزهات الشلة مرحلة متقدمة، بعد أن تعلمنا ركوب الدراجات. وكان بالقرب من محل أبي «عجلاتي» نستأجر منه الدراجات لقاء مبلغ زهيد في الساعة. وكان يقوم بخصم خاص إذا استأجرنا الدراجة لنصف يوم (ست ساعات) أو ليوم (اثنتا عشرة ساعة). وكنا نلجأ إلى ذلك عندما نقرر زيارة أحد أصدقاء الدراسة في القرى المجاورة، حيث كنا ننعم بالصحبة الطيبة والهواء النقي وكرم الضيافة الذي لم يكن يخلو من الفطير المشلتت وعسل النحل وغيرهما من أطايب القرى التي كان يسكنها أصحابنا، حسب المستوى الاجتماعي لكل واحد منهم. أما في الأعياد فكانت الرحلات تختلف، بعد استئذان الأهل طبعا، فنذهب لزيارة المدن القريبة. وكنا نمضي، عادة، إلى مدينة سمنود، وكانت الرحلة تستغرق إليها ساعتين أو أكثر، مع أنها تستغرق أقل من نصف ساعة، تقريبا، بالسيارة. ولكننا كنا نسير الهوينا، ونتوقف عند باعة الخس الذين يغسلونه، في النيل، ونشتريه منهم، غير عابئين بما قد يحمل من جراثيم. وقد يتعب بعضنا، فنتوقف نتبادل الضحكات إلى أن نستريح، ثم نعاود الانطلاق إلى أن نصل إلى سمنود، وكانت بلدة صغيرة نظيفة هادئة، وما إن نستريح على أحد مقاهيها حتى نعبر فرع النيل الذي يفصلها عن «مدينة سمنود» بلدة رجاء النقاش وآله الذين عرفتهم بعد سنوات الجامعة. ولا أعرف من أين عرفنا أن النحاس باشا، وريث زعامة الوفد، كان مهتما بالبلدة والمدينة لأنها موطنه. ولكن أطول رحلاتنا كانت إلى مدينة المنصورة التي كانت متعة للعين، خصوصا بموقعها على النيل الكبير، وليس على نهر من فروعه الصغيرة مثل المحلة. وكانت الرحلة تستغرق يوما كاملا، ذهابا وإيابا، بالدراجات. وكنا نحرص على أن ننطلق مبكرين، لنستمتع أكثر بجمال المدينة، ونمتع

الأعين ببنات المنصورة اللائي كنَّ يقلن لنا إنهن ورثن الجمال الفرنسي. وبالطبع، كانت وقفات الاستراحة أكبر وأكثر. لكننا، في النهاية، كنا ندخل إلى المدينة، ونقصد، مباشرة، إلى الكورنيش. وربما جلسنا في أحد الكازينوهات المتناثرة حول النيل، والجميع، أولادا وبناتًا، يرتدون جديد العيد، وأظن أننا عرفنا في رحلاتنا المعدودة، لطولها، إلى المنصورة أنها أنجبت أشهر الشعراء، ومنهم علي محمود طه الذي كنا نغني، مع عبد الوهاب، أبياته :

أَنَـا مَـنْ ضَيَّعَ في الأَوْهَـامِ عُمْرَه
نَـسِـيَ التاريخَ أو أُنْـسِـيَ ذِكْـرَه
غَيرَ يَـومٍ لَـمْ يَعُدْ يَـذْكُـرُ غَيرَه
يَـــومَ أَنْ قَـابَـلْـتُـهُ أولَ مَـره

وكنا نبدو، في انبهارنا بنيل المنصورة، كما لو كنا ننشد لازمة الجندول:

أيـنَ مِـنْ عَينَيَّ هَاتِيكَ المجَالي
يَا عـروسَ البَحْرِ يَا حُلمَ الخَيالِ

ولا بأس لو قمت بتغيير النهر بالبحر، فنيل المنصورة لا ينسى، خصوصا في تلك السنوات البعيدة التي كنا نعود فيها، آخر المطاف، إلى المحلة، مرهقين، جوعى، فنتحمم في منازلنا، قبل أن نلتهم ما يقضي على جوعنا، ويدفعنا إلى النوم.

مكتبة البلدية

أعتقد أن أهم ما تركته المحلة الكبرى في تكويني الوجداني هو المعرفة التي اكتسبتها من مكتباتها وباعة الكتب فيها، فقد عرفت فيها ما كان زادا لشهوة المعرفة التي لم ينطفئ أوارها بعد في نفسي، وذلك إلى الدرجة التي يمكن أن أقيس سني عمري فيها بعدد المكتبات التي عرفتها والتي لا أزال أعرفها والتي أحلم بمعرفتها. لقد علمتني هذه المكتبات، ولا تزال، محبة «الكتاب» الذي جعلني ما وصفه به الجاحظ أقرأ جميع ما وصل إلى يدي من كتب هذا الكاتب العظيم الذي علم الآتين بعده الجمع بين الهزل والجد، والمنفعة والمتعة، المدى اللانهائي للفن والعقل. وقد كان هذا الجاحظ هو الذي تتلمذ على النظام المعتزلي الذي علم أحفاد الجاحظ أن «العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك». ولا غرابة في اتباع الجاحظ هذا المبدأ إلى الدرجة التي قيل عنه إن وفاته كانت بسبب وقوع أرفف مكتبته عليه. وكم ظللت أرسم في خيالي صورة هذه الأرفف، وأمحوها لأرسمها من جديد، ووصلت بها مراهقة الخيال الأولى إلى حد أن تمنيت ميتة مثل هذه الميتة التي أصبح ذكرها يدفعني إلى البسمة الحانية للصبي الذي قرأ فيه عن تلك المرأة التي أتت إلى الجاحظ وتوسلت إليه لكي يصحبها كي تقضي بصحبته مأربا، فذهب الجاحظ مع المرأة التي قادته إلى صائغ : وقالت له : مثل هذا، وهي تشير إلى وجه الجاحظ ومضت.

وعندما عادت إلى الجاحظ بداهته سأل الصائغ: ما بال هذه المرأة؟ فقال له الصائغ : لقد طلبت مني أن أحفر لها على معدن الخاتم وجه شيطان، ولما قلت لها : إني لم أر وجه شيطان، ذهبت وجاءت بك. وأغلب الظن، لو صحت الحكاية، أن الجاحظ ضحك، فقد كان يعرف قبل غيره جحوظ عينيه، لكنه كان عاشقا عظيما للمعرفة، يدرك من يغوص في قارات المعرفة التي قادنا إليها أنه كان عاشقا عظيما للمعرفة، ومحبا عظيما للكتب التي كانت تقوده إلى الحياة، وتعود به منها إلى المكتبة التي تعلمت محبتها من مكتبات المحلة التي قادتني إلى محبة غيره وآلاف من أمثاله.

لا أدري من كان المسؤول عن هذا النظام الذي أسس مكتبة كبيرة عامرة في كل مدينة كبيرة من مدن مصر. كنت أعرف مكتبة من هذه المكتبات في المحلة الكبرى بلدتي، ومكتبة أخرى في مدينة طنطا عاصمة المحافظة التي تنتسب إليها بلدتي، ومكتبة ثالثة في مدينة المنصورة القريبة من بلدتنا، وكنا نذهب إليها أحيانا بالدراجات في رحلات كنا مغرمين بها في أيام الصبا. وعرفت مكتبة رابعة في مدينة الإسكندرية التي أنتسب إليها من ناحية أبي. واعتقدت منذ ذلك الوقت، ولا زلت أعتقد، أن هذه المكتبات جزء من نظام عام، ولكني لا أزال إلى اليوم أجهل من الذي استن هذا النظام، فقد حقق هدفا نبيلا، وأسهم إسهاما كبيرا في إشاعة الاستنارة، خصوصا في أوقات أو سنوات لم نكن نعرف فيها التليفزيون، ولم يكن الراديو متاحا لكل الناس، فقد كان جهازا خشبيا كبيرا، غالي الثمن، لا تقدر عليه كل الأسر، ولا تعرفه سوى الأسر الثرية أو الأسر الميسورة أو متوسطة الحال. وكان في منزلنا راديو كبير الحجم، له عين خضراء اللون، لا أعرف

لماذا كانوا يطلقون عليها العين السحرية، وكانت له واجهة زجاجية أنيقة مخططة بعلامات المحطات، وكنت أستمتع بمشاهدة ضوء هذه الواجهة والعين السحرية الخضراء في أمسيات الشتاء والتي كانت تتجمع فيها الأسرة حول الراديو.

ولا عجب أن يكون الكتاب هو المصدر الأول للمعرفة وسبيلها الوحيد في تلك السنوات، يحمل المقرر الدراسي، ويحمل الأخبار والمعلومات مثل الجرائد والمجلات، ويحتوي من الروايات ما ينسينا العالم من حولنا، وينقلنا في قصائد الشعر إلى جنّات خيالية، ويحملنا مع البحوث المختلفة إلى ألوان أخرى من المعرفة التي كبرت وكبرنا معها. ولذلك أصبح الكتاب صديق من يريد فينا مجاوزة المدار المعرفي المغلق الذي كنا نعيش فيه، وكان الكتاب، تماما مثلما وصفه أبو عثمان الجاحظ في القرن الثالث للهجرة، وكما حفظنا في كتب المختارات الأدبية المدرسية، أقول: كان الكتاب خير جليس، مسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه. ومن لك بزائر مثله، إن شئت جعل زيارته غِبًّا، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك بعضا، فهو الجليس الذي يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، إذا نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحَذ طباعك، وبسط لسانك، وعمَّر صدرك به تعرف في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر.

كانت مثل هذه الأقوال التي حفظناها عن الجاحظ تزيدنا حبا في الكتاب، وتدفعنا دفعا إليه، خصوصا ونحن لم نكن نعرف سواه مصدرا

للمعرفة وسبيلا إليها، وأحسب أن جيلي هو الجيل الأخير الذي تربَّى على محبة الكتاب من هذا المنظور، قبل أن يأتي التليفزيون، وبعده الإنترنت، وتدخل المعرفة كلها في متغيرات جذرية، متغيرات أصبح معها الكتاب الذي أحببناه وأحبنا شبيها بالعوالم التي تربّينا على حبها واحترامها رغم أنها أخذت طريقها إلى الانزواء في هذا العالم المملوء أخطاء. وكما حفظنا قول الجاحظ حفظنا قول المتنبي : وخير جليس في الزمان كتاب. ولذلك كنا نبحث دائما عن أخيَر الجلساء، ونذهب إلى كل مكان يوجد فيه، ونطلبه في كل موضع، ونتزوّد منه تزود المحب من عطايا الحبيب.

هكذا قادتني قدماي ذات يوم إلى مكتبة البلدية، مع صديق أو قريب أكبر مني سنا، لا أذكر الآن كان المبنى فخيما، مهيبا، بأعمدته الخارجية المبنية على الطراز القوطي، ولونه الأبيض المائل إلى الاصفرار الخفيف، ودرجات السلالم المنبسطة على امتداد المدخل، وتنتهي إلى ممر داخلي يفصل ما بين المدخل ونهاية الدرجات، تزيد المشهد إحساسا بالدخول إلى عالم فريد. ودخلت وراء من معي من باب عتيق، واجهتنا قاعة رحيبة، مستطيلة، لم أكن رأيت أكثر منها اتساعا وطولا. ومضيت وراء صاحبي أنقل قدميَّ على أرضية خشبية حائلة اللون، تقطعها في مستطيلات منتظمة داخل المستطيل الكبير دواليب خشبية، لها أبواب زجاجية لا تحجب منظر كعوب الكتب المجلدة المتراصة إلى ما لا نهاية، جاذبة العين بألوانها المتباينة، وأشكال الحروف المنقوشة بماء الذهب بعناوين الكتب وأسماء مؤلفيها، وبين الدواليب التي بدت لي كثيرة جدا للمرة الأولى طاولات مستطيلة، بالغة الطول فيما بدت لي، حولها كراسي من طراز قديم، والحق كان كل شيء قديما مجلَّلا بالغموض والسحر فيما رأيته للمرة الأولى.

ولم يكن يشغل الكراسي إلا عدد محدود من القراء من أعمار مختلفة، كل واحد يجلس إلى كتابه في استغراق، بلا صوت، ولذلك كان الهدوء يسيطر على المكان، ويضيف إلى جلاله.

وأخذني صاحبي في جولة أولية، أشار إلى القسم الأجنبي الذي كان يضم الكتب الأجنبية، ثم القسم العربي، وأبان لي أقسام الدواليب المقسمة حسب الموضوعات، ومدَّ يده إلى دولاب وانتزع كتابا من أحد الأرفف، وهمس في أذني أنه سيسبقني للقراءة، تاركا لي حرية اكتشاف ما أريد واختيار ما أرغب وتركت نفسي بين الدواليب (هل أقول الخزائن؟!) الكثيرة. وتحركت بلا قصد سوى نهم المعرفة، رغبة الاكتشاف، فضول من يكتشف في داخله إرادة التعلم تتفجر دون عوائق. ولا أزال أمارس هذه العادة في كل مكتبة أزورها، أبحث عن القسم الذي يهمّني، والدور الذي يعنيني، والجناح الذي يخصني، ثم أهيم بين الأرفف والصفوف، أقلّب الكتب كتابا كتابا إذا استطعت، وأطالع العناوين، وأتعرف على كل ما حولي قبل أن أبدأ بالاختيار، أو بأخذ الكتاب الذي قصدت إليه. وكان ما فعلته في مكتبة البلدية في صباح هذا اليوم الذي ابتعد أكثر من أربعين سنة هو نفس ما أفعله إلى اليوم، فلم أجد أحدا يرشد أحدا إلى كتاب، ولعله كان موجودا ولكني لم أنتبه، فسرت بين الدواليب أقرأ العناوين الموضوعة في الإطار الأعلى بخط صغير لكنه ظاهر.

وتوقفت عند كتب الأدب. هذه كتب طه حسين، وإلى جانبها كتب العقاد، وكنت أسمع عنهما قبل دخولي المكتبة، لكني لم أقرأ لأحدهما بعد، وبعدهما أسماء كثيرة لم أكن أسمع عنها : أحمد أمين ومحمد

حسين هيكل وعبد العزيز البشري ومصطفى صادق الرافعي وعلي أدهم وإسماعيل مظهر وغيرهم، وغيرهم، دنيا بأكملها من الأسماء والكتب التي سوف تغدو جزءا لا يتجزأ من حياتي اللاحقة، أقرؤها مرات ومرات، وأقوم بتدريسها مرات ومرات في أماكن عديدة من العالم. واستوقفني كتاب سميك الحجم، لون كعبه الجلدي أسود، مكتوب عليه «إلياذة هوميروس» ترجمها نظمًا سليمان البستاني، وكان الكتاب مطبوعا سنة 1904، وعلى صفحة غلافه الداخلي قرأت : «إلياذة هوميروس معرَّبة نظمًا، وعليها شرح تاريخي أدبي، وهي مصدَّرة بمقدمة في هوميروس وشعره وآداب اليونان والعرب، ومذيلة بمعجم عام وفهارس بقلم سليمان البستاني». ما الإلياذة؟ ومن هو هذا الهوميروس؟ ومن هو سليمان البستاني الذي لم أسمع عنه من قبل؟ ولم يدفعني إلى حمل كتابه سوى حجمه الضخم الذي كان مميزا عن بقية الكتب. وجلست إلى طاولة القراءة، وأعرف من القدر القليل الذي فهمته بالقياس إلى القدر الأكبر الذي لم أفهمه أن هوميروس شاعر يوناني قديم جدا، وأن هناك من يشك في وجوده أصلا، لكنه كان شاعرا عظيما جدا، ألَّف قصائد بالغة الطول أطلقوا عليهم اسم ملاحم، وكتاب «الإلياذة» إحدى ملاحمه التي صاغها شعرا يونانيا كان ينشده في اليونان القديمة، وظل هذا الشعر ينشد من بعده إلى أن تم تدوينه في كتاب. وجاء سليمان البستاني وقضى عشرين عاما في ترجمة هذا الكتاب، وتعلم من أجل ذلك اللغة اليونانية القديمة، ولم يكتف بالاعتماد على الترجمة الإنجليزية أو الترجمة الفرنسية وإنما رجع إلى الأصل مباشرة، وظل يدرس سنوات وسنوات إلى أن أتقن اللغة اليونانية لكي يترجم هذا الشاعر العظيم.

ولم يكتف الرجل بذلك بل جعل الترجمة شعرا عربيا، وعانى الصعاب الرهيبة إلى أن استقامت له الأوزان العربية، واستطاعت تأدية المعاني اليونانية فيما رآه البستاني أقرب إليها. ولم يكتف البستاني العظيم بذلك، بل بحث في كل التراث العربي الذي توصل إلى معرفته، وقارنه بالتراث الأوربي، ليكتب دراسة لا تزال لها قيمتها إلى اليوم عن الشعر العربي والشعر اليوناني، كاشفا عن أوزان هذا وأوزان ذاك، معرّجا على فن الترجمة ومعرفة العرب به، متحدثا عن أسماء مترجمين سرعان ما نسيتهم، كاشفا في النهاية عن الأساليب التي اتبعها في الترجمة والمشكلات التي واجهها وكيفية حلها. وكان ذلك كله فيما يشبه كتابا مستقلا، يزيد عن مائتي صفحة من القطع الكبير، لم أقرأها كلها في ذلك الصباح البعيد، لأني كنت أعبر بعيني على الأسطر في لهفة، وأقفز عبر الصفحات، متجاوزا كل ما أراه صعبا أو عسير الفهم أو حتى مستحيل الفهم، ولا أتأنّى إلا إزاء ما يمكن أن أفهمه، وكان أكثر من أن يحتمله رأسي الغضّ الذي كان يتشرب كل شيء بسرعة، كأنه تلك الأرض «الشراقي» بلغة أهل القرى المصرية، الأرض الظمأى إلى الماء، المحرومة منه، التي تمتص على الفور كل ما يصلها من ماء بعد طول حرمان.

لم تكن الأشياء واضحة وضوحها الآن في ذهني، بعد كل هذه السنوات البعيدة، ولكن انغرس معنى أن يقضي الإنسان عشرين عاما حتى يتقن شيئا، فالعلم قرين الصبر والدأب وليس قرين «اللهوجة» و«الصربعة». والترجمة لابد أن تكون عن لغة الأصل نفسها، مهما كانت المصاعب والعقبات. وإنتاج الإنسانية القديم له أهميته القصوى ما ظل فيه ما يقدم للإنسانية نفسها القيم التي تظل في حاجة إليها على امتداد أزمنتها. وتركت

التقديم الطويل جدا لأصل إلى الشعر، وما كدت أقرأ الأسطر الخمسة الأولى حتى انقطعت أمامي سبل الفهم، فقد كان الشعر مترجما بنظم جاهلي اللغة، لا قبل لي بفهمها، ومع ذلك فقد حفظت فيما بعد الأبيات الخمسة الأولى لأغيظ بها أصدقائي رغم أن أحدهم لو سألني عن معناها لاكتشف عجزي عن فهمها وقتذاك.

وعندما أسترجع هذا المشهد، الآن، بعد كل هذه السنوات العديدة، أتذكر إحباط الصبي الذي كنته وحيرته وعجزه عن فهم الأبيات الأولى من النشيد الأول الذي يمضي على هذا النحو :

ربَّةَ الشِّعْرِ مِنْ أَخيلِ بْنِ فِيلا	أَنْشِدِينا وارْوِ احْتِدامًا وَبِيلا
ذَاكَ كَيدٌ عَمَّ الإِخاءَ بَلاهُ	فَكِرَامُ النُّفوسِ أَلْفَتْ أُفُولا
لآزِيس أُنْفِذت منحدراتٍ	وَفَرَى الطَّيرُ والكِلابُ القُيُولا
ثُمَّ مَا شَاءَ زفس مِنْ يَومِ شَبَّتْ	فِتنةٌ بِالشِّقَاقِ تُنْذِر أُوِيلا
بَينَ أتريزا سَيِّدُ القَوْمِ ثَارَت	لِصِلاَهَا والمجْتَبَى أَخْيلا
أَيُّ رَبٍّ قَضَى؟ فَما غَيرَ سِيبوس	وزفس، ونَكَّلا تَنْكِيلا

من أين كان لي معرفة «آزيس» إله الجحيم في شرح البستاني، أو استيعاب أن «أتريز» هو كنية أجاممنون زعيم زعماء اليونان الذي كان جهلي به لا يقل عن جهلي بأخيل الذي ذكر البستاني في الهامش أنه كان يلقب بالمجتبى إما إعجابا به، وإما إشارة إلى أعراقه بسمو النسب، فإن فيه شيئا من دم الآلهة. وقس على ذلك «سيبوس» التي كتب البستاني في تعريفه أنه إله الشمس. وبالطبع لم أفهم هذا الـ «زفس» أو الـ «زفت» كما قلت لنفسي غاضبا يائسا من الفهم! وقد زاد الطين بلة - كما يقولون - اختيار

الألفاظ الغريبة من قبيل «فري» و«القيول» و«صلاها».. إلى آخر المفردات الصعبة التي لا أزال أعتقد أنها تصد القراء عن ترجمة سليمان البستاني الذي أراد بحسن نية أن يصل بين جمهور القراء العرب ورائعة الأدب اليوناني، فنفَّرهم منها، وحالت لغته وتعريباته بينهم وبينها، وتركتني، أنا الصبي الذي يخطو أولى خطواته، في حال كان يمكن أن يدفعني إلى الفرار من القراءة كلها، لولا رغبة المعرفة التي لا يمكن إطفاؤها إذا توقدت، ومحبة الكتب التي تنتقل من كتاب إلى غيره بحثا عن التنوع، وتعويضا عن الأصعب بالأسهل.

ويبدو أن ضخامة حجم كتاب البستاني قد نفّرتني من التعلق بالكتب الضخمة. (وليذهب الادّعاء واستعراض الفتى للعالم إلى الجحيم) وبدأت أبحث عن الكتب ذات الحجم الصغير التي بدت لي - بحكم حجمها - أنها سهلة، ولا تنطوي عملية قراءتها على العذاب الذي مررت به مع قراءة إلياذة البستاني التي لم يبق منها في ذهني سوى الرغبة في معرفة المزيد من الأساطير اليونانية التي لا تزال موضوعا أثيرا للسينما الغربية التي جعلتني أقترب من شخصيات الإلياذة وأفهم سلوكها ودوافعها أكثر بكثير من ترجمة البستاني رغم كل ما أدين لها به من إثارة فضول التعرف على هذا العالم الغريب العجيب والجميل من أساطير اليونان التي أصبحت مغرما بالتعرف عليها بعد أن كبرت، ومررت بمراحل لاحقة من النضج والتطور. ولكن من ينسى تجربة الكتاب الأول الذي يبدو كالحب الأول، ذلك الذي وصفه أبو تمام بقوله :

نَقّلْ فُؤَادَكَ حيثُ شِئتَ مِنَ الهوَى   مَا الحبُّ إلَّا للحَبيبِ الأوَّلِ

وظنِّي أن محبة هذا الكتاب الأول هي التي دفعتني إلى الاهتمام بموضوعه، والمضي في استكمال المعرفة بآثار الحضارة اليونانية وآدابها. وهو الأمر الذي زادتني قراءة طه حسين معرفة به، خصوصا عندما أصبحت أكثر نضجا، وأكثر قدرة على فهم ما ترجمه طه حسين عن الفرنسية من روائع الأدب التمثيلي عند اليونان، متيحا لقرَّاء العربية معرفة أوديب وأقرانه وقريناته في أعمال إيسخيلوس ويوربيدس وغيرهما من كتَّاب التراجيديا اليونانية، وذلك في السلسلة التي أفضت إلى معرفة أرستوفانيس في مسرحياته الهزلية الساخرة، وبندار وسافو في شعرهما الغنائي. ولا يمكن لمنصف يعرف تاريخنا الثقافي إلا أن يذكر بالفضل طه حسين في التعريف بالأدب اليوناني وترجمته، والتحمس لتراث اليونان، بوصفه أصل النهضة الأوربية ومبدأها الإبداعي، ولذلك لم تتوقف جهود طه حسين على الترجمة والتقديم، وإنما جاوزتهما إلى إنشاء أول قسم للدراسات اليونانية واللاتينية في الجامعة المصرية، والإلحاح المستمر على ضرورة جعل الثقافة اليونانية القديمة أصلا من أصول التعليم الحديث في مصر، وذلك على نحو ما أكّد في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» الذي أصدره سنة 1938، بعد أن حصلت مصر على استقلالها بموجب معاهدة 1936، حالما بوضع استراتيجية لتعليم جديد وثقافة حديثة في مصر المستقلة التي تصورها منتسبة إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط، وامتدادا لنماذجه الحضارية.

ولا أعرف هل قرأ طه حسين ترجمة البستاني قبل ذهابه إلى فرنسا أم لا؟! فقد صدرت ترجمة البستاني وهو في الرابعة عشرة من عمره. لكن ليس هناك ما يمنع أنه سمع عنها قبل سفره، أو سمع عن الكتاب الذي

أصدره نجيب متري : «هدية الإلياذة». لكن المؤكد أن الأصداء التي تركتها ترجمة البستاني ظلت تتردد عبر عقود الثقافة العربية، وتدخل على نحو واعٍ أو لا واعٍ في تكويني الفكري، وظلت في خاطري، وتؤكد قيمة الإلياذة في وعيي الثقافي، وكان ذلك دافعا من دوافع احتفالي - بعد أن أصبحت أمينا للمجلس الأعلى للثقافة - بمرور مائة عام على ترجمة الإلياذة سنة 2004 وإصدار ترجمة حديثة نهض بها المترجمون المختصون في الدراسات اليونانية، وذلك في مؤتمر كبير أقامه المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، حيث قمنا بتكريم فريق المترجمين الذي قاده زميلي الدكتور أحمد عتمان الذي شغل رئيس قسم اللغات الأوربية القديمة الذي أنشأه طه حسين. ولعل حماستي لتقديم ترجمة نثرية حديثة للإلياذة عن اللغة اليونانية القديمة مباشرة، كان بمثابة رد فعل متأخر على الصدمة التي عانيت منها صبيّا عند قراءتي لإلياذة البستاني للمرة الأولى، ولكونها الكتاب الأول الذي لا ينمحي أثره كالحب الأول. وربما كان ذلك بعض السبب الذي جعلني أعيد طباعة الطبعة الأولى القديمة من كتاب البستاني، أولا : تقديرا للقيمة التاريخية التي تمثلها في تاريخنا الثقافي بوجه عام، وثانيا : لإعطاء القارئ فرصة المقارنة بين ترجمة نثرية حديثة عن الأصل اليوناني القديم، مباشرة، ينهض بها مختصون للمرة الأولى وترجمة البستاني التي بدأت من الترجمة الفرنسية، واستهدت بالأصل اليوناني الذي لم يكن البستاني من أصحاب الاختصاص فيه. وأخيرا : ربما لتسجيل ديني الشخصي للساعات التي قضيتها في صباي البعيد محاولا فك غموض التقديم النثري وفهمه بقدر إمكاني في ذلك الزمان، حتى لو لم أكن قد فهمت الشعر. وقد كنت متأكدا أن غيري فهم بعضه على الأقل، فلا أزال أذكر دهشتي المشوبة

بالفرحة، عندما وجدت صديقي الروائي الكبير بهاء طاهر ينشدني الأبيات الأولى من النشيد الأول الذي لم أفهم منه شيئا، بينما فهم أكثر مني بهاء الذي قرأ النظم وهو أكبر مني عمرا وأكثر خبرة في صباه أو شبيبته.

ولم يكن من الغريب أن تقودني صدمة الكتاب الأول - على سبيل المضادة - إلى الكتاب الثاني الذي أغراني به صغر حجمه، فأقبلت عليه في زيارتي اللاحقة لمكتبة البلدية، وكان ترجمة عربية لرواية الكاتب الأمريكي إرنست هيمنجواي «ثلوج كليمنجارو» في طبعة بيروتية. وقرأت الرواية التي أغوتني بعنوانها الغريب وعوالمها الإفريقية الأغرب. وبدأت من يومها في البحث عن روايات هيمنجواي وقصصه التي لم أترك منها شيئا وصل إلى يدي دون أن أطالعه في لهفة الألفة والإعجاب، وذلك كله عن طريق الترجمات التي عرفت بفضلها : «لمن تدق الأجراس» و«وداعا للسلاح» و«العجوز والبحر» وغيرها من أعمال هيمنجواي التي عرفت طريقها إلى اللغة العربية، وتركت آثارا إيجابية، ظلت تتسع بدوائر قراء الأديب الأمريكي، والإعجاب برواياته، والاهتمام بحياته الحافلة التي انتهت بالانتحار. وظللت أتابع كتب هيمنجواي، بعد ذلك، وعرفت أنه حصل على جائزة نوبل في الأدب سنة 1954، الأمر الذي اقترن بإعجابي بأسلوبه في الكتابة الذي ظل النقاد يشبهونه بجبل الجليد العائم، يظهر أقل مما يبطن، ويبين بالقليل البسيط من اللفظ عن الكثير العميق من المعاني، وذلك دون حاجة إلى زخارف البلاغة أو محسنات البيان. وهو الأسلوب الذي كان له أكبر الأثر في كتابات جيل الستينيات الذين شاركوني - أو شاركتهم - الإعجاب بهيمنجواي والتأثر بأسلوبه، فقادني هذا الإعجاب إلى أن أفهم تجليات أسلوب هذا الكاتب في أساليب أبناء جيلي من

المبدعين الذين لم ينافس هيمنجواي في التأثير عليهم كاتب غربي آخر، اللهم إلا إذا استثنينا الكاتب الروسي الكبير أنطون تشيكوف الذي بدأ تأثيره يظهر مع جيل الخمسينيات، وبخاصة في كتابات يوسف إدريس الذي أطلق عليه لقب تشيكوف مصر.

وأعترف أن «ثلوج كليمنجارو» قد فتحت أفق محبة الرواية التي لا أزال أدمن عليها، رغم المكانة الخاصة التي يحتلها الشعر في اهتماماتي، لكن ليس بسبب نظم البستاني أو أمثاله وإنما بسبب جيل الرواد من شعراء الشعر الحر الذين عرفتهم بعد ذلك في مرحلة التلمذة الجامعية، فأصبحت متعلقا بهم، مغرما بفن الشعر الذي جعلوني أكتشف مباهجه، وهي المباهج التي انضافت إلى مباهج المعرفة بالشعر العربي القديم الذي أتاحت لي دراستي في قسم اللغة العربية أن أقرأ دواوينه الأساسية عبر قرون ازدهاره.

العم كامل

عرفت متعة اقتناء الكتب للمرة الأولى مع العم كامل. قبل ذلك، كنت أشتري هذا الكتاب أو ذاك في المنهج المدرسي، أو لاختصار الدروس المملة في المواد الدارسية التي لم أكن أحبها، وما أسرع ما كنت أتخلص من هذه الكتب المدرسية التي كانت تنتهي مهمتها بامتحان نهاية العام، وظهور نتيجة النجاح كالعادة. ولكن الكتب الأخرى، كتب المتعة التي تقع خارج نطاق جهامة المدرسة الإعدادية، فلا أذكر أنني اشتريت منها بمصروفي المتواضع سوى كتابين: كتاب «سير الأنبياء» وهو كتاب مليء بالقصص التي تدخل في باب المأثورات الشعبية، ويتضمن كمّا كبيرا من الخوارق الدينية التي كانت تشد مخيلة تلميذ بدأ يدخل مرحلة المراهقة، ويعاني حدة التوتر التقليدي بين قطب الدين وقطب الجنس. وكان الكتاب الثاني هو «ألف ليلة وليلة» بأجزائه الأربعة التي صبرت كثيرا حتى اكتمل لي ثمنها من مصروفي اليومي المتواضع، واقتضى شراؤه انتظارا طويلا على عكس كتاب الثعالبي الذي كان مجلدا واحدا، ولم يتطلب سوى مصروف عدة أيام. ولا أدري ماذا فعلت بهذين الكتابين؟! الأول سرعان ما نسيته وفقدتُ الاهتمام به، فاختفى مع «كراكيب» المنزل التي تجدها أمامك لأيام، وربما لأشهر، فتنساها، ولا تذكرها إلا بعد أن تكتشف أنها لم تعد موجودة، ولا تجد في نفسك حماسة للبحث أو السؤال عنها، ولا تلبث

ذكراها أن تضيع مع الوقت. أما «ألف ليلة» فقد عمّر طويلا، وبقي معي لسنوات الدراسة الثانوية إلى أن تفرق بين صحاب هذه المدرسة الذين تعودوا استعارة الكتب وعدم إرجاعها كسلا أو طمعا.

ولم يكن شراء هذين الكتابين من قبيل هواية اقتناء الكتب، وإنما من قبيل الفضول النهم لإشباع الخيال المنطلق لسنوات الصبا، خصوصا بعد أن سمعت عنهما من الذين سبقوني في تجربة القراءة. المرة الأولى التي تكونت لي معها عادة الحرص على اقتناء الكتب، وشرائها، وتكوين مكتبة من الكتب التي أحبها، كانت وأنا طالب في السنة الأولى من المدرسة الثانوية. كنت قد بدأت أحب الذهاب إلى المكتبة، ويترسخ حبي للقراءة، بل تدركني هواية الأدب التي دفعتني إلى تجربة كتابة قصص وأشعار سرعان ما تخليت عنها. كانت مدرستي الثانوية الأولى مدرسة حديثة البناء، اسمها مدرسة طلعت حرب الثانوية، تقع في أطراف مدينة المحلة الكبرى، بجوار مصانع الغزل والنسيج المشهورة. وكنت أسكن مع أسرتي في قلب المدينة القديمة، وأقطع الطريق يوميا من الحي الذي أسكن فيه إلى الحي الجديد الذي تقع فيه المدرسة. وخلال الرحلة اليومية على الأقدام كنت أتصفح علامات الطريق التي حفظتها، وأطالع النوافذ الزجاجية و«فتارين» العرض للمحلات المختلفة، أو أتأمل الجالسين على أرصفة المقاهي، أو يشدني الفضول إلى الباعة الذين يضعون بضاعتهم على الأرصفة، أو على عربات يد صغيرة. وذات يوم شدتني عربة يد صغيرة، مصفوفًا عليها الكثير من الكتب المتعددة الأحجام والألوان. وتوقفت عند العربة ذات صباح، وألقيت نظرات فضولية عجلى، فوجدت روايات لكل من : عبد الحميد

جودة السحار ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وغيرهم. وكانت أغلب الكتب على العربة روايات مرتجعة لسلاسل من طراز «الكتاب الفضي» و«الكتاب الذهبي» ... وغيرها.

ولم أستطع الوقوف طويلا في هذا الصباح الباكر، فقد كان عليَّ أن أسرع الخطو إلى المدرسة البعيدة. وبالفعل مضيت في طريقي، ووصلت إلى مدرستي في الموعد، ودخلت الفصل لأتلقى دروس اليوم مع زملائي، لكن ذهني ظلّ منشغلا بأغلفة الكتب التي شاهدتها على العربة، خصوصا أغلفة روايات يوسف السباعي الذي كان يطبعها طباعة فاخرة، وبأغلفة لم أر لها مثيلا في ذلك الوقت. ولم يكن يقترب من أناقة الطباعة الفاخرة لروايات يوسف السباعي سوى روايات إحسان عبد القدوس التي كانت تجذب الناشرين لرواجها. ولا أذكر كيف انتهى اليوم الدراسي لذلك اليوم، كل ما أذكره أنني كنت أول الخارجين من المدرسة تقريبا، وأنني اندفعت مع زملائي الذين تعودوا الجري لحظة الخروج من المدرسة، ولم أرهم يجرون قط وهم في طريقهم إلى دخولها إلا إذا تأخروا عن موعد الجرس الشهير. وسرعان ما وجدتني أمام العربة التي لفتت نظري في الصباح، ووقفت لاهثا أتطلع إلى الكتب، وأتعرف الأسماء الكثيرة المكتوبة على الأغلفة التي كنت أراها للمرة الأولى.

وبعد وقت طويل من التطلع استمعت إلى صوت يسألني : هيه، هل تريد الفرجة فقط؟ أم تريد التأجير؟ أم تريد الشراء؟ وتطلعت إلى مصدر الصوت فوجدت وجه شيخ باسم الوجه، تستغرق النظر ملامحه الطيبة ونبرات صوته الحاني. ولم أعرف كيف أجيب عن السؤال، فلم يكن في

رأسي إلى لحظة سؤاله سوى فضول التطلع إلى الأغلفة ومعرفة أسماء الكتّاب الذين لم أسمع عنهم. وعندما لم يجد الرجل الطيب في وجهي سوى الحيرة، قال لي : ولا يهمك، تفرّج كما تشاء، وإذا أعجبك كتاب من هذه الكتب وأردت أن تقرأه فيمكن لك أن تستأجره للقراءة بنصف قرش صاغ بشرط أن تعيده خلال ثلاثة أيام، وإذا أردت أن تشتريه بعد ذلك فسأخصم القرش من الثمن المكتوب على الكتاب. وما كدت أستوعب كلمات الرجل الطيب حتى أشرت إلى كتاب سميك الورق، متميز الحجم، غلافه برّاق مغوٍ، وكان رواية من روايات يوسف السباعي، وقلت أريد أن أستأجر هذا الكتاب، ومددت يدي إلى بنطالي وأخرجت منه نصف القرش الوحيد الذي كنت أمتلكه في هذه اللحظة، ودفعته إلى الرجل الطيب الذي ابتسم لي ابتسامة حانية، وقال لي : يبدو إنك ستكون من زبائني وأعطاني الكتاب، بعد أن كتب اسمي في دفتر قديم تمزقت أطراف أوراقه أو تآكلت. وقال لي : احرص على أن ترجع الكتاب بعد ثلاثة أيام، أو حتى بعد أربعة أيام، ولا تزد على ذلك حتى يفرح بك عمك كامل.

عرفت ساعتها أن الرجل اسمه عم كامل. ولم أفكر في الاسم كثيرا، فقد اختطفت الكتاب من يدي الرجل، ومضيت مسرعا إلى منزلي، ولم أتناول طعامي أو أخلع عني ملابس المدرسة إلا بعد أن أتيت على الكتاب كله. ولا أذكر الآن عدد الساعات التي قضيتها في قراءة رواية يوسف السباعي، وكانت «بين الأطلال»، كل ما أذكره هو الأجواء الرومانتيكية التي عشت فيها، وحلَّقتُ خلالها مع البطل الذي ينتهي وحبيبته نهاية مأساوية فلم يبق من ذكراهما سوى تلك الكلمات التي تقول : بين الأطلال اذكريني، أو نجواه للشمس الغاربة التي أشهدها أن حبه خالد لا يموت. ولعلي قضيت

الليل كله أحلم ببطليَّ «بين الأطلال» وأضع نفسي موضعهما، ولا أفارق أحلامي بهما إلا بعد يقظتي في اليوم التالي، واندفاعي في طريق المدرسة، بعد أن حصلت على مصروفي اليومي من أبي، وأنا أحمل معي الكتاب بيد محبة، ولا أتوقف عن السير السريع إلا أمام عربة العم كامل الذي حيّاني بابتسامة تكاد تقول: أنا أعرف كل ما مررت به. وأعطيته الكتاب، وامتدت يدي إلى كتاب آخر من مجلدين ليوسف السباعي، وكان «نادية» فيما أذكر. وقال العم كامل : مادمت تقرأ بسرعة وترد الكتب بسرعة فسأجعلك تقرأ الجزأين بسعر جزء واحد.

ومضت الأيام، لا أذهب إلى مدرستي إلا بعد المرور على العم كامل، ولا أعود منها في طريقي إلى المنزل إلا بعد المرور على العم كامل. وأخذ الرجل يتعود عليَّ، ويهش لرؤيتي كأنني أحد أولاده وانتقلت من مرحلة التأجير إلى مرحلة الشراء، فقد أدركت في هذا العام (أظنه عام 1957) أنه من السخف إضاعة الكتاب الجيد، وأن الرواية المتميزة لا تقرأ مرة واحدة، وإنما تُقرأ مرات ومرات، وأنها لابد أن تقتنى للعودة إليها على سبيل تكرار الاستمتاع بها، بل لاكتشاف عوالم جديدة لا تتكشف إلا مع كل قراءة. وكانت أسعار الكتب زهيدة، الرواية المرتجعة من «الكتاب الذهبي» أو «الفضي» أو حتى مطبوعات «كتابي» بقروش قليلة معدودة، لعلها ثلاثة قروش، لا تزيد إلا في حالات مطبوعات «كتابي» المتميزة. ولم تجاوز الأسعار خمسة قروش إلا في حالات الطبعات الخاصة ليوسف السباعي وإحسان عبد القدوس. وكان العم كامل سمحا في التعامل، يقبل «الشكك» من أمثالي الذين أصبحوا زبائن له. وكنت دائما مدينا له لأن عربته كانت تحوي دائما كتبا جديدة مغرية ومغوية. وما أكثر المرات التي كنت أقمع

نفسي حتى لا تثقلني ديون عم كامل، وما أكثر الحيل التي استخدمتها لإقناع أبي - عليه رحمة الله - لزيادة مصروفي اليومي، بل ما أكثر المرات التي كنت أحلم فيها بأن تهبط عليَّ ثروة لأشتري كل ما كان يملكه عم كامل من كتب.

أذكر أنني بفضل عربة العم كامل التهمت كل ما وجدته عليها من أعمال يوسف السباعي التي كانت سهلة الهضم، مسلية، وبعدها التهمت ما وجدته من أعمال إحسان عبد القدوس الذي كانت كتاباته تداعب خيال المراهق المحروم جنسيا في داخلي، وآه من النقاط الكثيرة التي كان إحسان يضعها عندما تتوتر المشاهد الجنسية، ويثير المخيلة بالنقاط الطباعية التي تنطق غير المنطوق من الكلام غير المباح. وبعد أن فرغت من إحسان التهمت عبدالحميد جودة السحار، وأحببت على نحو خاص «الشارع الجديد» و«في قافلة الزمان» وغيرها من رواياته التي لم تفتني واحدة منها، ومع السحار اكتشفت عبد الحليم عبدالله بأعماله الرومانتيكية التي أذكر منها «شجرة اللبلاب»، وأضيف إلى ذلك أمين يوسف غراب وعلي أحمد باكثير وعشرات غيرهم. الغريب أنني لم أعرف نجيب محفوظ إلا بعد أن انتصفت السنة الدراسية الأولى في مرحلتي الثانوية. ربما كان السبب أن رواياته لم تكن تتحول إلى مرتجعات بسرعة، أو أن قرَّاءه ما كانوا يتخلصون من رواياته لتعلقهم بها. ولهذا ما كنت أجدها كثيرا على عربة عم كامل. ولعلي ما كنت ألتفت إليها في نهمي الجشع إلى قراءة الروايات ذات الأغلفة البراقة.

ولكن ذات يوم أعطاني العم كامل كتاب «زقاق المدق» لأقرأه ثم أعيده. وكانت نسخة مجلدة من نسخ التأجير، فقد كان العم كامل يحرص على تجليد الكتب التي تتداولها الأيدي كثيرا، وقال لي العم كامل: اقرأ هذه الرواية ثم أخبرني برأيك. وكان ذلك أول تعرفي على نجيب محفوظ الذي لم أترك له عملا يصدر دون أن أقتنيه منذ ذلك اليوم، فقد وجدت في أعماله ما لم أجده في أعمال يوسف السباعي أو السحار أو إحسان أو غراب أو عبد الحليم عبد الله وأمثالهم. فتح لي نجيب محفظ عوالم وآفاقًا لا أزال أكتشفها منذ ذلك اليوم. وكان الفضل في ذلك للعم كامل الذي عدت إليه بعد أن قرأت «زقاق المدق» على أن أشتريها. وقد باع لي الرجل الطيب النسخة التي كان يدخرها للتأجير كي يرضيني، ووعدني أنه سيحجز لي كل ما يصله من روايات نجيب محفوظ التي تصل إليه.

الغريب أنني طوال السنوات الثلاث التي عرفت فيها العم كامل لم أعرف بقية اسمه، وهل كان ذلك يهم في ذلك الوقت؟! لكنني لم أفلت من ذاكرتي ملامح وجهه الطيب، ولا هدوءه، ولا شعر ذقنه، الذي كان ينبت أبيض اللون في وجهه السمح، ولا جلبابه الذي كان أزرق اللون في الأغلب. وحتى إذا نسيت فإن بعض الكتب التي اقتنيتها من عربته، وأحتفظ بها إلى اليوم، لا تزال تذكّرني به، بل إن صداقاتي التي عقدتها مع مهاويس القراءة من أمثالي الذين أدركتهم حرفة الأدب لا تزال تذكّرني به ولا أزال إلى اليوم أحتفظ بمكان عزيز في قلبي أخصصه لبعض أقران الصبا الذين قابلتهم للمرة الأولى حول عربة العم كامل، ونسجت خيوط الصداقة بيننا الملاحظات التي كنا نتبادلها حول الكتب التي نراها، الملاحظات التي سرعان ما أصبحت حوارا متصلا إلى اليوم.

مكتبة المدرسة

لا أعرف لماذا لم يكن على أيامي مكتبة في المدرسة الابتدائية والإعدادية؟! هل كانت توجد مكتبة وأنا لا أذكرها؟! وإذا وجدت فلماذا لم يعرّفنا بها الأساتذة، على الأقل من كان يهتم منهم بتنمية عادة القراءة فينا؟! على كل حال، لا أذكر أنني دخلت مكتبة المدرسة في المرحلة الابتدائية أو الإعدادية، وأن عادة القراءة تكوّنت خارج المدرسة، وأنني عرفت مكتبة البلدية قبل أن أعرف مكتبة المدرسة الثانوية التي أدمنت التردّد عليها وأصبحت من زبائنها الدائمين فيما بعد. أذكر أن صديقا يكبرني في السن، اصطحبني مرة إلى شعبة الإخوان المسلمين في بلدتي، ووجدت شبابا يمارس الألعاب الرياضية، ودلفت مع صديقي إلى غرفة بها كتب كثيرة، كانت بمثابة مكتبة، لكني لم أرتح نفسيا لهذه الشعبة ولا لمن فيها. ولذلك ظلت «مكتبة البلدية» هي المكتبة العامة الوحيدة التي اكتشفتها والتي أفدت منها، قبل أن ألتحق بمدرسة طلعت حرب الثانوية، وكانت مدرسة حديثة حسنة التجهيز، بها معمل تصوير للهوايات، وبها مكتبة ممتازة، تضم الكثير من الكتب التي التهمتها في السنة الوحيدة التي قضيتها فيها، قبل أن أنتقل منها إلى مدرسة أخرى، هي مدرسة المحلة الثانوية.

لا أذكر كيف قادتني قدماي إلى القاعة الكبيرة التي كانت تشغلها المكتبة. ربما كان الفضول أثناء التجوال في المبنى الذي رأيته فخما لمدرستي الثانوية، وربما قرأت إعلانا عن المكتبة. المهم أنني دخلتها

وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، وتباطأت بالقرب من الباب كي أستوعب المشهد كاملا، ولمحني أمين المكتبة الذي كان مكتبه بالقرب من الباب. وكان شابا متخرجا حديثا من قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة القاهرة أو عين شمس أو حتى الإسكندرية، لم أعد أذكر.. المهم أنه كان قريبا مني في السن نسبيا، ولم يكن من أولئك المدرسين العواجيز الذين يرسمون الجهامة على وجوههم، وكأن العلم لا يمكن أن يجتمع إلا مع جهامة الوجه والجدية المخيفة. وكم كنا نخاف من أمثال هؤلاء الأساتذة، ونكره سؤالهم، بل نكره الذهاب إليهم طلبا للعون. أما أمين المكتبة الذي دخلت ساحته فكان شابا باسم الوجه، لا يرتدي ملابس رسمية كاملة، بل يرتدي قميصا بنصف كم مع بنطال عادي. ودعاني إليه ليسألني عن اسمي وعرفت اسمه محمود المداح ولا أعرف كيف جذبني إلى الحوار معه حول الكتب، وحول نوعية الأعمال التي أفضّل قراءتها. ووجدتني أتغلب على خجلي الذي لازمني طويلا في سنوات الصبا، وأتبادل وإياه الحديث طوال فسحة الظهيرة عن الروايات التي قرأتها، والكتّاب الذين لم أتردد في إعلان حبي لهم. وأظنني بالغت في تعداد الأسماء وذكرت بعض الأسماء التي سمعت عنها ولم أكن قرأت لأصحابها شيئا.

وفارقت أمين المكتبة الذي يقاربني في السن مع إعلان بزيارة المكتبة في الغد. ومنذ ذلك اليوم لم أتوقف عن زيارة قاعة المكتبة طوال العام الدراسي. جذبني إلى المكتبة أمينها الشاب الباسم أولا، وعونه وإرشاداته ونصائحه التي كانت لها فائدة ملموسة جدا ثانيا، وعوالم المعرفة التي تفتح لي من آفاقها ما يظل في حاجة إلى الكشف إلى اليوم، وأضيف إلى ذلك رابعا جمعية أصدقاء المكتبة التي جذبني إليها رئيسها، وكان طالبا

في السنة الثالثة، اسمه سعد الدين السياجي، والطريف أنني لا أزال أذكر اسمه، وكيف قدّمني له محمود المداح. وقد اختصني سعد بمودته عندما اكتشف ميولي الأدبية ونهم القراءة الذي لا أزال أتمتع به. ولقد كان سعد السياجي نموذجا استثنائيا للطلاب، متدينا، يحافظ على الصلوات، ولعل ذلك بسبب والده الذي ربما كانت تربطه بجماعة الإخوان المسلمين صلة ما. وكان قارئا من الطراز الأول، يشتري المجلات التي لا أعرفها، والتي عرّفني بها، وأولاها مجلة «المجلة» التي رأس تحريرها محمد عوض محمد لفترة قصيرة، وجاء بعده حسين فوزي ثم على الراعي ثم يحيى حقي، إن لم تخني الذاكرة في الترتيب، فما أذكره تماما أن أول عدد رأيته من مجلة «المجلة» بين يدي سعد السياجي كان أحد أعداد سنة 1957 ، وأن رئيس التحرير كان الدكتور حسين فوزي، وكان ثمن العدد - عشرة قروش - دافعا لي على شراء «المجلة» التي كانت بابا مفتوحا جديدا على المعرفة. وكان سعد السياجي مغرما بتوجيهنا في القراءة، بحكم أنه كان يسبقني بعامين على الأقل، وكانت معارفه الواسعة تبهرني، وكانت اختياراته للكتب تدهشني، فقد دفعني مرة إلى قراءة كتاب عن تاريخ أوربا، وثانية إلى قراءة كتاب لم أفهم نصفه على الأقل لأنه كان عن مشكلة السلوك السيكوباتي. لذلك كله أتذكر سعد السياجي، ولا أتذكر أمين المكتبة الذي فرح بي محبا جديدا من محبي الكتب، وسرعان ما أصبحت صديقا لسعد، أذهب معه لنشتري المجلات معًا، «المجلة» و«الهلال» و«صوت الشرق»، أو نجلس في حجرته ليقرأ كل منا ما يريد، أو يطلعني هو على محصلة قراءاته. ولا أذكر مرة واحدة أننا قرأنا كتاب المقرر المدرسي، في أي مادة من المواد، فقد كان يكفينا الانتباه إلى الدروس التي يشرحها الأساتذة،

والمذاكرة اليسيرة، والتركيز في الشهر الأخير، فما كان في المدرسة كلها ما يغرينا سوى مكتبة المدرسة.

وأظن أن هذا هو السبب الذي لم يجعلني أنضم إلى الفرق الرياضية التي كانت تملأ المدرسة: كرة القدم، كرة السلة، الكرة الطائرة، السباحة... إلخ، لم أمارس رياضة يعتد بها مثل زملائي، ولا حرصت على أن أعقد صداقات مع أبناء جيلي المبرزين في الرياضة، حتى أولئك الذين كانوا يجرونني إلى لعبة البنج بونج التي أحببتها لفترة، لم ينجحوا في أن يجاوزوا بي المنطقة التي تنفر من الألعاب الرياضية. شيء ما كان يهمس في أذني أن الألعاب الرياضية ليست لأمثالي من الذين يحبون القراءة، وكنت أتصور لغرور الشباب الباكر أن من يقضي وقته كله في القراءة أفضل عشرات المرات من أولئك الذين يقضون وقتهم في اللعب، حتى لو كان لعب الرياضة. وكنت أقرأ بالطبع عن العقل السليم الذي يوجد في الجسم السليم، ولكن رياضتي اليومية كانت المشي، الذهاب إلى المدرسة والعودة منها، أو الخروج للتريض مع الأصدقاء القلائل الذين يحبون القراءة لنتناقش حول ما نقرأ، أو لندخل السينما التي كانت مثل الكتاب في جذبي إليها.

ربما كان ذلك هو السبب الذي جعلني أنفر من أبناء سني الذين كانوا يهرعون إلى مدارس البنات، لانتظار الطالبات وهن خارجات بعد انتهاء الدروس. لم أشترك في مثل هذه المغامرات، ولم أقترب من زملائي الذين تعودوا على الفخر الأجوف بصولاتهم وجولاتهم في عالم البنات. خلقت لنفسي عالما خياليا من الروايات التي كنت أطالعها في مكتبة المدرسة أو أشتريها من أمثال العم كامل، وكتبت كثيرا عن ربة إلهام خيالية، همت بها

حبا رومانتيكيا، ولم أجاوز عالم الخيال إلى عالم الواقع إلا بقدر ما كانت تسمح به محبتي للقراءة التي التهمت كل شيء. وربما كانت خصلة الخجل التي لا تزال تصاحبني بسبب هذه العوالم الرومانتيكية التي انطويت عليها، والتي جعلت مكتبة المدرسة بمنزلة المسجد لي، أهرع إليها كلما وجدت فسحة، من الدروس، وأذهب إليها في الإجازات، حين كان أمين المكتبة الشاب يفتحها لنا في أيام الإجازات. وألتقي ورفاق الكتاب في المكتبة، نتبادل الآراء في قيمة الكتب، ونثرثر حول الأسماء التي قرأنا لبعضها والأسماء التي لم نقرأ لها، وخصَّصنا ركنا في قاعة المكتبة نلتقي فيه، خصوصا جماعة أصدقاء المكتبة التي ظلت الأقرب إلى نفسي.

عقدنا ندوات في المكتبة، حول موضوعات أعجب من سذاجتها عندما أذكرها، لكننا مع ذلك خصصنا جلسات لمناقشة الكتب الصعبة التي كان يختارها لنا سعد السياجي، وكنا نجتهد في قراءة هذه الكتب لكي يظهر كل منا لأقرانه أنه فهم أكثر منهم، عندما نجتمع في المكتبة لمناقشة هذه الكتب. وأذكر أنني كنت أسهر الليل بطوله لأفتش في الصفحات عن مواطن صعبة، معلومات غير معروفة، أسماء مجهولة، أستخدمها لإحراج زميلي المكلف بقراءة الكتاب وعرضه علينا. ولم أكن وحدي الذي يفعل ذلك، كان زملائي جميعا يفعلون مثلي في الأغلب الأعم. وكنا نتبادل الضحك عندما يعجز الذي يعرض الكتاب عن الأسئلة، ونضحك أكثر عندما يفاجئ سؤال ماكر الأغلبية، فلا نستطيع إلا أن نفتح الأفواه على سبيل الاندهاش الذي يحمل معنى العجز عن الإجابة. تعلمت كثيرا من هذه الجلسات، كما تعلمت كثيرا من الأسئلة الماكرة التي كنا نعدها لنلهو بها.

وأتصور أن هذه الجلسات كانت بداية اكتشاف الدارس الكامن في أعماقي. طلب مني الزملاء أن أعرض كتاب «شوقي شاعر العصر الحديث» الذي كتبه أستاذي - فيما بعد - شوقي ضيف، فلم أكتف بتلخيص الكتاب، وإنما بحثت عن كل كتاب عن أحمد شوقي في قاعة المكتبة، وأعانني أمين المكتبة الذي أذكره بالخير على جمع كل الكتب الموجودة، وقرأتها جميعا، وكتبت للمرة الأولى البحث الأول في حياتي، ونسخته بخط جميل في «بلوك نوت» خطابات، وسألت أحد أصدقائي الذين يحسنون الرسم أن يرسم لي صورة لغلاف البحث، وتصورت نفسي أكتب كتابا، فأدبّج مقدمة عن البحث ومصاعبه، فأغلب الباحثين الذين قرأت لهم في ذلك الوقت كانوا يتحدثون عن مصاعب البحث، ولم أدرك إلا بعد ذلك بسنوات أنه لا يوجد بحث حقيقي يخلو من مصاعب. وأعجب زملاء جماعة أصدقاء المكتبة بالبحث، وغمرني سعد السياجي بكلمات الثناء في نبرة الأستاذ الذي أسهم في صنع تلميذ نجيب، وسألني أمين المكتبة أن أنسخ نسخة أخرى من البحث لتكون في المكتبة، فذهبت إلى صديق يسعفني على النسخ، فقام بنسخ نسختين نسخة للمكتبة، ونسخة كتب عليها اسمه بدل اسمي على سبيل المباهاة. وكانت تلك هي البداية، بداية الرغبة في البحث العلمي، الرغبة في تجميع المعلومات، الرغبة في اكتشاف العلاقة بين المعطيات، أمنية الإضافة إلى ما هو موجود. كتبت أكثر من بحث في ذلك العام الدراسي الذي انتهى في سنة 1958، ولكن لم يبق عالقًا في ذهني سوى موضوع البحث الأول عن أحمد شوقي الذي ضاع فيما ضاع من كتابات الشباب.

كانت مكتبة المدرسة بحق المعلّم الذي تعلمت منه أكثر من أي معلم في حياتي، ولحسن الحظ كانت الكتب المختارة ممتازة، وكنا نجد كل ما نريد في أي مجال، وكانت أعداد الطلاب صغيرة تسمح بالقراءة، وكان أمناء المكتبة الذين عرفتهم في السنوات اللاحقة - لحسن حظي - لا يقلّون لطفا وميلا للمساعدة عن أمين أول مكتبة مدرسة عرفتها وما زلت أحمل لها ذكريات طيبة إلى اليوم، فقد كانت نعم المكتبة في المدرسة الثانوية التي لم أحب فيها شيئا مثل قاعة المكتبة.

مدرسة الأقباط

- 1 -

ولدت في مدينة مشهورة بصناعة الغزل والنسيج التي نشأت حولها، وصاحبتها، أنشطة متعددة في الصناعة والتجارة. وتلقيت تعليمي الأولي في مدرسة الأقباط التي كانت هي المدرسة الثانية التي أنشأها أثرياء الأقباط في مدينة المحلة الكبرى بعد – أو مع – المدرسة التوفيقية. وقد درست فيها آخر المرحلة الابتدائية إلى أن تغير النظام التعليمي، وجاءت المرحلة الإعدادية وبعدها المرحلة الثانوية. ولذلك تعتبر سنوات تفتح وعيي على الحياة – في مراحله الأولى – خلال سنوات دراستي في مدرسة الأقباط التي غرست في نفسي الكثير النافع من قيم العلم والحياة والفن والدين على السواء. ولا أزال أتخيل مبنى المدرسة الذي كان يطل على ميدان مستطيل فسيح، يفصل بين مبنى مسجد «أبو الفضل الوزيري» وإحدى الكنائس الموجودة في المحلة الكبرى. وكانت المدرسة ملاصقة للكنيسة، وفي نهاية المستطيل الذي تشغله ساحة الألعاب الرياضية ومقر طابور الصباح، كان يوجد ممر صغير، يقع فيه بابا غرفتي الناظر والوكيل متواجهين. وكان الممر معتما دائما، وكنا نهاب أن نسير فيه إلى نهايته، حيث يوجد باب لم أكن أعرف إلى أين يفضي في سنتي الأولى من دراستي في المدرسة، فقد كنت مثل غيري أهاب من كلمة ناظر المدرسة، فما بالك بالمرور على بابه أو استكشاف الممر الذي يقع المكتب في نهايته.

ومع مرور الأشهر الأولى في المدرسة غالبت خجلي وعزلتي وبدأت أختلط بزملائي من طلاب المدرسة المستجدين فيها من أمثالي في السن. ولم أفكر يوما في من هو القبطي منهم ولا المسلم. والمؤكد أنهم لم يفكروا في شخصي بوصفي مسلما أو قبطيا، فلم أر تفرقة في معاملة الأساتذة المسلمين والأقباط لنا على الإطلاق، ولم يكن الأمر واردا في خواطرهم أو عقولهم، أو حتى تركيبهم أو تركيبنا الفكري كل ما كان يميز المدرسة عن غيرها أن يوم العطلة فيها كان الأحد لا الجمعة، لكن يوم الجمعة لم نكن ندرس فيه سوى ثلاث حصص فقط، تنتهي قبل صلاة الجمعة، كي يتمكن التلامذة المسلمون من الذهاب إلى صلاة الجمعة، بناء على التعليمات الصارمة من الأساتذة الأقباط والمسلمين على السواء، وكنا نعبر باب المدرسة الخشبي الضخم لنتوجه إلى باب جانبي صغير لمسجد «أبو الفضل الوزيري» يواجه باب المدرسة، لا يفصل بينهما سوى زقاق ضيق يجعل المسافة بين بابي المسجد والمدرسة خطوات قليلة معدودة.

وبالطبع، كنا نذهب إلى صلاة الجمعة، بناء على أوامر أساتذتنا الأقباط والمسلمين بلا فارق، وندخل إلى ساحة المسجد المستطيلة لنستمع إلى خطبة الجمعة في خشوع إذا كان الخطيب مجيدا مؤثرا، أو نجلس غير مهتمين شاردي الذهن إذا كان الخطيب مملا، أو يتحدث في قضايا صعبة، لكننا كنا نحافظ على الخشوع في الصلاة، مع انتظام الصفوف الذي أصبح طبعا راسخا، خصوصا بعد أن نسمع إعلان إمام المسجد مع ابتداء الصلاة: «ساووا صفوفكم، يرحمكم الله». وكنا، بعد أن تنتهي الصلاة، نخرج من باب المسجد الكبير الذي ينفتح على الميدان الفسيح للطلاب، فنجد بعض زملائنا الأقباط يلعبون «الكرة الشراب» فننضم إليهم في ثوان،

في مرح الطفولة وصخبها وبراءتها. ولا أذكر قط أن توزعنا على فريقين متنافسين ينقسمان إلى أقباط أو مسلمين، بل كان كل فريق يضم الأقباط والمسلمين معا دون تمييز. كل ما كان يحدث من تمييز هو القسم على أن الكرة لم تخرج عن الخط الطباشير الذي يقسّم الملعب، والمرسوم على أرض الميدان الفسيح، فقد كان إخواننا الأقباط يقسمون بالمسيح (عليه السلام) ، ونحن نقسم بالنبي محمد ﷺ. وأذكر أننا كنا نواصل اللعب إلى أن تخور قوانا، ويهاجمنا الجوع فنفترق إلى بيوتنا لتناول الغداء، وما أكثر ما كان بعض زملائنا الأقباط يصحبون بعض أصدقائهم المسلمين لتناول الغداء معهم في بيوتهم، أو يتواعدون على اللقاء مساء للمذاكرة في بيت أحدهم. وأذكر أنني لم أكن أفارق زميلا وصديقا لي - اسمه ميلاد إن لم تخني الذاكرة - وكنا نلتقي في بيته في المساء، ونذاكر معًا، وبالطبع يتزايد وقت المذاكرة مع اقتراب موعد امتحانات آخر العام. وكنا ننام معًا على فراش واحد، بعد أن تنهكنا المذاكرة في بيته أو بيتي. ولا أنسى، قط، لمسات أبيه الحانية، وكان مدرسا في مدرستنا، وهو يرفع الغطاء ليغطينا معا ونحن نيام، وهو أمر لم أتعود عليه في منزلنا الذي لم يعرف هذا الحنو لأسباب لا محل لها من الذكر.

ولا أنسى كذلك ملاحظتي أن الطلاب الأقباط كانوا يندفعون - في الوقت الذي نمضي فيه إلى جامع «أبو الفضل الوزيري» - إلى الممر المعتم الذي كان يقع في نهايته مكتب ناظر المدرسة. وكان الفضول ينتابني، فسألت أحد أصدقائي المقربين عن الذي يفعلونه في الوقت الذي نقضيه في المسجد، فأجابني قائلا : نصلي مثلكم. ولم أعلّق كثيرا على الإجابة، ولكنني أذكر - ذات يوم - أن الفضول قد غلبني، فطلبت

منه أن يصحبني معه إلى الكنيسة، فرحب بذلك، وذهبنا معا - عبر الممر المعتم الذي ظللت أخشى المرور فيه إلى أن تركت مدرسة الأقباط إلى المدرسة الثانوية - وكان حولنا عدد من زملائنا الذين تقبلوا حضوري معهم في بساطة كاملة، وخرجنا من الباب الذي كان يفصل بين الممر المعتم والكنيسة، إلى أن دخلنا المستطيل الذي تشغله واخترنا أحد الصفوف المتراصة والمتعاقبة. وكان السكوت مهيبا، وأخذ أصدقائي يؤدون صلاتهم، ولا شعوريا أخذت أقرأ السور التي تعودت على قراءتها في مسجد «أبو الفضل»، ولم أشعر بأي فارق بعد أن استغرقت في جو الخشوع والشعور بأنني في حضرة الله الواحد الأحد الذي يرعانا جميعا بلا فارق بين قبطي ومسلم، وأخيرا خرجنا من الكنيسة فوجدنا زملاءنا يلعبون الكرة، فانضممنا إليهم، واستغرقنا في اللعب إلى أن دفعنا الجوع إلى التفرق، ليعود كل منا إلى ذويه. الطريف أنني وجدت بعض زملائي يفعلون ما فعلته، فكان بعض زملائنا الأقباط يذهبون معنا إلى مسجد «أبو الفضل الوزيري»، دون أي إحساس أننا ارتكبنا خطأ، فقد كنا ندرك، على نحو غامض، أن إلهنا واحد في النهاية، وأنه لا فارق بين مسلم وقبطي في آخر الأمر. وكان يدعم هذا الشعور في نفوسنا ما كنا نسمعه من أئمة المسجد عن احترام الإسلام للمسيحية، وأن الأقباط إخوتنا في التوحيد.

ولذلك لم أكن أستغرب شعور الأمومة الذي كانت تغمرني به جارة لنا اسمها «دميانة» كانت تتركني لها أمي - وأنا رضيع - حين تذهب إلى العمل، ولم تكن خالتي دميانة - كما عرفت فيما بعد - تتردد في إرضاعي حين أبكي جوعا. ولذلك ظللت أعاملها مثلما أعامل أمي، كما ظلت تعاملني كابنها إلى أن توفاها الله، فبكيت عليها، تماما كما بكيت على

أمي. ولم أكن وحدي في ذلك، بل كنت أشبه عشرات غيري من الذين ظلوا يلعبون معا، ويأكلون معا، ويذهبون جماعات في رحلات الدراجات التي كنا نجوب بها القرى المجاورة لمدينة المحلة الكبرى لنزور أصدقاءنا المسلمين والأقباط.

- 2 -

لم أعرف إلا منذ عهد قريب أن الكنيسة التي كانت تقابل مسجد «أبو الفضل الوزيري» هي كنيسة للأقباط الأرثوذكس إلا قبل تخرجي من مدرسة الأقباط بقليل. وقد عرفت ذلك بسبب بعض أصدقاء الصبا الذين كانوا يشاركونني محبة لعبة البنج بونج في ذلك الزمان البعيد واصطحبوني معهم إلى أحد الأندية. وكان النادي يشغل شقة تقع في الدور الأول من مبنى قديم بالقرب من المدرسة. وكانت هناك لافتة فوق باب النادي - وكان ناديا اجتماعيا - عليها اسم الأقباط الأرثوذكس، فأدركت على نحو ما أن الكنيسة التي كنت أذهب إليها خلسة، مع أصدقائي الأقباط الذين كانوا يذهبون معي إلى المسجد خلسة، بدورهم، تنتسب إلى الطائفة الأرثوذكسية. ومع ذلك، فقد ظللت لسنوات عديدة بعد ذلك لا أعرف الفارق بين الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية، والأهم من ذلك أنني ظللت لسنوات طوال لا أعرف، ولا حتى أهتم بمعرفة ديانة أصدقائي. بعد ذلك، وما أكثر المفاجآت التي لا تزال تقع لي في هذا المجال بسبب الديانة، ولا أزال أعلم علم اليقين بسبب خبرة العمر الذي أحمله الآن على كتفي، أن الصداقة التي لا تتمايز كالمواطنة تجمع أفرادا أكفاء، لا فارق بين واحد منهم وقرينه، في العلاقة التي تجمعها المحبة التي كنت أراها كثيرا مكتوبة على اللوحات المعلقة على جدران هذا النادي الذي كنا

نذهب إليه لنستأجر منضدة البنج بونج لوقت يقصر أو يطول، حسب ما يتوفر معنا من مصروفنا اليومي. ولذلك لا أزال - إلى اليوم - لا أهتم بديانة زميل أو صديق، ولا أزال أقيس الصداقة بدرجة المحبة والإخلاص والوفاء والولاء لمعنى الصداقة النبيل الذي يمثل معنى آخر للمواطنة لا يعرف التمييز إلا بدرجة الانتماء إلى الوطن والعمل من أجل رفعة شأنه وتقدمه المستمر. ولذلك ورثنا بسهولة ويسر واقتناع داخلي عفوي شعار ثورة 1919 : «الدين لله والوطن للجميع» لأننا كنا نعيش هذا الشعار فعلا، أخذناه عن آبائنا الذين أخذوه عن آبائهم، وظللنا نمارسه إلى اليوم، على الأقل بين الذين أعرفهم من أبناء وبنات جيلي.

ولا أزال أذكر حرب 1956 التي تجاور شهداؤها من الأقباط والمسلمين الذين اصطحبنا أساتذتنا إلى تأبينهم في الكنيسة والمسجد معا، ولم ينتبه أحدنا إلى أن من مات شهيدا في هذه الحرب ينتسب إلى المسلمين من الأقباط أو المسلمين، فالكل كان في حداد والكل كان حزينا على شهداء الوطن بلا تفرقة أو حتى تفكير في الديانة. ولا أزال أذكر أن بعض الأقباط الكبار من جيراننا رقص عندما استمع إلى عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس، وأن مدرسينا الأقباط كانوا يحدثوننا - كأقرانهم من المسلمين - عن معنى استكمال استقلال الوطن بالتأميم الذي يعيد لنا ما هو حق لوطننا، بل لا أزال أذكر هتافنا في فناء المدرسة كثيرا بحرية الوطن وضرورة الاستقلال والعداء للاستعمار، الذي غرسه جميع الأساتذة في نفوسنا الغضة التي بدأت تحمل معنى الاستقلال الوطني في داخلها مع إعلان التأميم، وخلال مقاومة العدوان الثلاثي وبعد الانتصار عليه. أقصد المعنى الذي كان يحفره في نفوسنا أئمة المسجد وقُسس الكنيسة على

السواء. وما أكثر الأمثلة التي لا تزال محفورة في ذهني خلال تلك الأيام المجيدة التي لا أزال أذكرها بالفخار.

وقد توقفنا عن الذهاب إلى النادي للعب البنج بونج طول فترة معركة التأميم، ولم نذهب إليه إلا بعد أن انتهت المعركة، وعاد السلام إلى وادي النيل، بعد الكفاح المجيد، فيما رددنا من أغنية فايدة كامل التي كانت في بداية نجاحها وشرخ شبابها في ذلك الوقت، حين كنا نتبادل أعداد الجرائد والمجلات، ومنها مجلة «الرسالة الجديدة» التي نشر فيها صلاح عبدالصبور قصائده عن المعركة، واستمعنا - بعد ذلك بقليل - إلى قصيدته عن «شنق زهران»، رمز الكفاح ضد الاستعمار البريطاني في دنشواي، بصوت آمال فهمي التي كانت شابة في ذلك الزمان.

وعلى ذكر الكتب والمجلات، أذكر أنه كان على مبعدة قريبة من المدرسة بائع كتب قديمة، يبيعها في جانب من جوانب ميدان «أبو الفضل الوزيري» (ولم أشهد أو أسمع احتجاجا على تسميته باسم المسجد لا الكنيسة، فقد كانت الأسماء سواء في ذلك الزمن الذي لم نعرف فيه سوى التسامح والأخوة الصادقة بين فئتي الأمة). وشيئا فشيئا، جذبتني الكتب المستعملة التي كان يعرضها البائع العجوز على عربته اليدوية التي كانت تتكدس عليها صفوف الكتب الأدبية والدينية التي لا تعرف الفرق بين كتب قبطية وإسلامية، فقد تعودنا على مجاورة الكتب التي لم نشعر بأي فارق بينها، كما لم نشعر - نحن القراء الصغار - بما يمايز بيننا سوى محبة هذا الكاتب أو ذاك، فقد كان الجميع مثلنا. ولذلك لم أعرف، ولم أهتم، بأن أمين يوسف غراب أو يوسف الشاروني يفترقان في الديانة

عن نجيب محفوظ أو علي أحمد باكثير. والأطرف من ذلك أنني لست متأكدا من ديانة أمين يوسف غراب - إلى وقت كتابة هذا الجزء - وقد هاتفت صديقي محمد المخزنجي - كاتب القصة القصيرة المبدع، فإذا به لا يعرف مثلي، ووعدني بأن يبحث في الإنترنت ويأتيني بالخبر اليقين. وبالطبع، ضحكت أنا وهو من السؤال، فلم يفكر أحدنا من قبل فيه. كل ما تعودنا، وتربينا عليه سويا، هو الفارق الفني بين كتابة نجيب محفوظ وكتابة أمين يوسف. أما الديانة فهي لله الذي لا يعرف التفرقة بين مخلوقاته الذين تسطع عليهم شمس الطبيعة وبقية مظاهرها بوصفهم مخلوقات الخالق الذي لا يعرف التمييز بين مخلوقاته، شأن الإبداع الذي لا يعرف هذا التمييز، ويدفع القراء والمتلقين إليه على نحو مباشر أو غير مباشر، فيتحدثون عن طبقات الشعراء أو مراتب المبدعين، لا فارق في ذلك بين ديانة وغيرها، أو بين عربي وأعجمي.

تجذر الوعي الديني

نشأت محاطا بعبق من معتقدات الدين الرسمي والشعبي، في مدينة المحلة الكبرى، تلك المدينة التي وعيت على أهلي، وهم يحدثونني عنها بوصفها مدينة محمية ببركة أولياء الله الصالحين الذين يصونونها من كل شر. وكنت أصدق ذلك وأقتنع به، ولم لا، وأينما توجهت في طرقات المدينة لم أكن أجد أكثر من المساجد أمامي وورائي، ناهيك عن الزوايا الصغيرة التي كانت سرعان ما تتحول إلى مسجد، عندما يتبرع لها أحد الأغنياء، ويكمل سكان الشارع التبرع ماليا وعينيا. وكان هناك من يتبرع بالمال، ومن يتبرع بالعمل اليدوي في البناء، ومن يقدم بعض المواد اللازمة للبناء بالطبع، كان لبعض المساجد مكانة بالقياس إلى غيره، إما لقدمه الذي أدخله، بعد ذلك، تحت حماية مصلحة الآثار، أو لأن خطيب الجمعة فيها كان مفوها بليغا، يجذب إليه الناس الذين يفضلون الاستماع إلى خطبة جمعته عن الاستماع إلى خطباء المساجد الأقرب إلى منازلهم أو محال عملهم. وكان بعضهم يجذب الانتباه بالدرس الديني الذي يقدمه بعد صلاة العشاء، في بعض أيام الأسبوع، ويشد انتباه أنصاف المتعلمين بعلمه. وكان مسجد سيدي عطاء الله هو الأقرب إلى منزلنا الجديد، وإلى محل أبي، وقد ظللت لوقت قريب، لا أعرف أن مسجد ابن عطاء الله، ينسب إلى الصوفي الكبير أحمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن

عيسى بن عطاء الله السكندري، أحد أركان الطريقة الشاذلية الصوفية التي أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي وخليفته أبو العباس المرسي. وينتسب الرجل إلى ما يسميه مؤرخو الصوفية التصوف السني، وهو تصوف مغاير للتصوف الإشراقي الذي دخلته عناصر فلسفية خاصة، مايزت بينه في المنزع والمذهب والتصوف السني الذي يمثله ابن عطاء الله الكسندري، مقابل المذهب الذي يبدأ من قبل الحلاج ولا يتوقف عند ابن عربي. وكان أستاذنا المرحوم أبو الوفا التفتازاني يحدثنا كثيرا، في الجامعة عن التصوف السني الذي يميل إليه، فقد كان هو نفسه قطب الطريقة التفتازانية، ولذلك قرأ معنا نصوص كتاب «الحكم العطائية» دون أن ينسى الإشارة إلى كتبه الأخرى مثل: «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه «أبو الحسن» و«القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد» و«تاج الحاوي لتهذيب النفوس». وقد تتلمذ ابن عطاء الله على شيخه أبي العباس المرسي الذي قال له، يوما: «الزم، فوالله لئن لزمت لتكون مفتيا في المذهبين». يقصد إلى علم أهل الباطن وعلم فقهاء الشريعة.

ولا أعرف لماذا رحل ابن عطاء إلى القاهرة، وظل فيها، إلى أن توفي بها، ولا يزال قبره موجودا ناحية المقطم بالقرب من جبانة الإمام الليثي. ويبدو أن أحد أتباعه، أو أحد المتأثرين بمذهبه، قد تقرب إلى الله ببناء مسجد باسمه في مدينة المحلة الكبرى. وقد عرفت من مراجعة سجلات الآثار في المدينة، أن المسجد بناه الأمير محمد جوربجي باشجاويش سنة 1160 هـ (ت 1746م). وقد أطلق عليه اسم مسجد ابن عطاء الله السكندري، ولكن سرعان ما نسي أهل المحلة صفة السكندري، وبقيت

تسمية المسجد الذي لا مقام لصاحبه فيه مع حذف كلمة ابن، ولا أظن أن أناسا من أمثال أبي قد شغل نفسه بحقيقة اسم المسجد الذي أطلقوا عليه مسجد عطا الله، أو معرفة صاحبه الذي دفن في القاهرة، قبل بناء المسجد الذي بناه الأمير المملوكي، تقربا إلى الله ببناء مقام الصوفي الذي تبع مذهبه أو تأثر بسيرة صاحبه.

الدالّ حقا أن الوسط العائلي والاجتماعي الذي نشأت فيه لم يكن، رغم عمق المعتقدات الدينية الشعبية في وعيه الجمعي، متطرفا في إيمانه بهذه المعتقدات ولا متعصبا دينيا، ولذلك ما كنا نشعر بأي فارق بين المسلمين والأقباط، وكانت أمي تصحبني إلى مولد السيد البدوي، مع أختي الشقيقة، في طنطا، وأذكر أننا ذهبنا وأبي مرة واحدة إلى مولد سيدي إبراهيم الدسوقي في دسوق، وقد قضينا ليلة في أحد فنادق المدينة المتواضعة، وحضرنا الليلة الكبيرة، وقمنا بزيارة ضريح سيدي إبراهيم الدسوقي، وقبّلنا السور الذي يفصل قبره عن الجمهور، ولا أزال أذكر الرائحة العطرة المنسربة في هواء المقام، وهي نفسها التي ملأتني بإحساس آمن مريح بالسكينة حول ضريح السيد البدوي. وفي الوقت نفسه، كانت أمي تصحبني كثيرا، وأختي، إلى مولد سيدي أبو جرج الذي يقع في قرية قريبة من المحلة، أظنها ميت دمسيس، كنا نقضى فيها يوما كاملا، وكانت كنيسة هذه القرية مليئة بصور القديس مار جرجس وهو يصارع التنين. وقد تسمرت أمام اللوحة عندما طالعتها للمرة الأولى، فقد كان القديس على صهوة حصانه، مستقيم البدن، مهيب الطلعة، وجهه مليء بالعزم والإصرار الذي ينتقل من عينيه إلى يديه القابضتين على ساق الرمح الذي

غرسه في قلب التنين الذي بدا مذعورا. ورغم أني لم أكن أعرف أي شيء عن المسيحية وتاريخها، فما رأيت في الصورة سوى رمز ديني، شعرت به، حدسا، وفهمت منه أن قوة الإيمان ترفع مقام صاحبها، وتنصره على الشر، وتجعله، دائما، رمزا يستمد منه الناس القوة في الدفاع عن الحق. الطريف أنني لاحظت أن أمي، وهي تمسك بي بإحدى يديها، وأختي باليد الأخرى، كانت تقرأ الفاتحة، وتتلو الدعوات نفسها التي ظلت تدعوها في مساجد الأولياء الآخرين الذين كنا نذهب إليهم للبركة والعون على مواجهة نوازل الدهر. وكنت متلهفا، بعد أن استوعبت مشهد القديس مارجرجس، أو سيدي أبو جرج، كما كانت تسميه أمي، أن نخرج من زحام الكنيسة، وأتمتع بأطايب المولد، وعلى رأسها أنواع الحلوى المختلفة : البالوظة، العسلية، البسبوسة، وغيرها من الأنواع التي كنا نجدها هي نفسها في مولدي سيدي إبراهيم الدسوقي والسيد البدوي.

وكان منزلنا الأول غير بعيد عن جيران أقباط، كانت أمي لا تثق بأحد تتركني في رعايته سوى الخالة دميانة، كما سبق أن كتبت في أكثر من مكان، وكانت جارة الخالة أمونة التي أطلقت أمي اسمها على إحدى بناتها من أخواتي غير الشقيقات اللائي رعاهن أبي وإخوتهم كما رعى إخوتي. وكان دكان أبي يواجه عمارة لراعي إحدى الكنائس، وكنا نسميه «أبونا ميخائيل» طيبته لا حد لها، يرانا امتدادا لأهله. وهو الذي أخذ أوراقي من أبي، عندما أكملت الدراسة الابتدائية، وقدّم لي في مدرسة الأقباط الخيرية التي كانت مدرسة مجانية، لا تمييز فيها بين المسلمين والأقباط، وهو الذي كان يلجأ إليه لحل بعض المشكلات التي كانت تمر به في تجارته،

وكان الرجل على استعداد للمساعدة والعون دائما. وكان له ابن من سني، ما أكثر ما لعبت معه في الساحة المفضية إلى بيتهم الكبير. ولم يكن «أبونا ميخائيل» - وهو محاط بأكثرية مسلمة يجد منهم إلا كل تقدير، بل كانت العلاقة بينه والشيخ عبد السلام إمام مسجد عطاء الله في أفضل أحوالها، دائما كلاهما كان يبادل الآخر الاحترام والمودة والتهنئة في الأعياد، وهذه هي طبيعة المصريين التي نشأنا عليها والتي جعلتنا نتخذ من بعض أعياد الأقباط أعيادا لنا، كما فعلنا مع الأعياد الفرعونية.

ورغم أنه كانت هناك شعبة للإخوان المسلمين في المحلة الكبرى، وكنا نلمح بعض ذوي اللحى ممن كنا نطلق عليهم اسم «سُني» - أي شخص ذي لحية - دون إشارة إلى مذهب بعينه، فلم نعرف في المحلة أي نوع من الطائفية أو أي شكل من التمييز الديني، فمن الواضح أن شعارات ثورة 1919 كانت لا تزال قائمة مؤثرة. وهو أمر يؤكد لي، عند تأمله بعد هذه السنوات، أن حساسيات التمييز الديني أو الطائفي وافدة على مصر، ابتداء من الزمن الساداتي، وأنه حتى الإخوان المسلمين والمتعاطفين معهم، ممن كنا نطلق على الواحد منهم «سُني» لم يكونوا يعرفون هذا المرض الذي استشرى مؤخرا، والذي يبرؤ الإسلام السمح منه.

ويبدو أن وفاة شقيقي التوأم، قبل مرور شهر على ولادته، كان يسبب لأمي وأبي الخوف على حياتي، خصوصا أني ولدت بعد سبعة أشهر من الحمل، ولذلك كانت أمي، مثل أبي، يلجآن إلى أولياء الله الصالحين كي يحموني من مخاطر المرض، ويبعدا عني شبح الموت. ولم أكن أعي شيئا من ذلك كله في طفولتي الباكرة، ولكني لا أزال أذكر البهجة التي كانت تصحب زياراتي مع أمي للأولياء المسلمين والأقباط المحليين، فلم يكن

في ذهنها، ولا في محيطها، أي نوع من التميز. وأزور مع أبي كل صيف أولياء الإسكندرية، بادئين بسيدي جابر بالطبع، وننتهي بسيدي أبي العباس المرسي، ونصلي في مسجده، حسب أوقات الصلاة، وذلك بعد أن نعرج على مسجد ومقام سيدي الأباصيري، وهو النطق الذي اعتدت عليه، وأهل بحري، وفيما بعد عرفت أنه الإمام البوصيري (نسبة إلى مدينة أبو صير في جنوب مصر) الذي كتب قصيدة «البردة» الشهيرة التي نظم أحمد شوقي على نهجها قصيدة «نهج البردة» التي لا نزال نسمعها بصوت أم كلثوم. ومن يدخل صحن جامع البوصيري سيجد أن عددا لا بأس به من أبيات «البردة» منقوش على جدران المسجد، قرب الأسقف، وذلك لتحيط بركاتها بالمصلين، في أثناء صلاتهم، وقد طلب مني أبي، بعد أن تعلمت القراءة والكتابة، أن أقرأ له هذه الأبيات التي لفتت انتباهي، ولعله لاحظ تحديقي فيها، وكنت خائبا في الامتحان إلى أبعد حد، فقد كانت الأبيات مكتوبة بطريقة جمالية، ولذلك كانت تحتاج إلى تركيز في القراءة. لكنها أصبحت، منذ ذلك الوقت، بمثابة تحدٍّ لي، فكنت أعاود قراءتها كلما زرت المسجد، وسنة بعد أخرى كانت المعرفة تتحسن، إلى أن عرفت ديوان البوصيري، وقرأت «البردة» التي هي درة الديوان، فاستطعت أن أقرأ الأبيات على جدران المسجد بسهولة. وظللت، بعد ذلك، كلما صحبت صديقا إلى مسجد البوصيري، أقرأ وإياه أبيات البردة، إلى أن أصبح الأمر عادة.

وقد سبق أن حكيت عن نذر أبي لسيدي جابر الذي رزقه بابنه جابر، وحفظه له ببركته. وهو أمر جعلني أرث عن أبوي حب أولياء الله الصالحين الذي تطور، عندي، إلى حب القصص الديني. ولا أزال أذكر

الخشوع الذي قرأت به سير الأنبياء للثعالبي فيما أذكر، ووجدت في مكتبة سيدي عطاء الله بالمحلة كتاب مناقب الصالحين، وكنت أطالع فيه كلما انفردت بنفسي في هذا المسجد الذي تعودت الذهاب إليه، والتتلمذ على إمامه الشيخ عبد السلام أبو الفضل الذي كان يفرغ لي، أحيانا، فيحتمل إلحاحي عليه بالأسئلة التي كان يجيب عنها في سماحة وصبر وحنو أبوي، فظل أقرب الناس لي، طوال سنوات إقامتي بالمحلة. وما أكثر ما كنت ألجأ إليه، إذا أرقني أمر من الأمور، وكان رحمه الله يدرك ما أنا فيه، دون أن أتحدث إليه، خصوصا حين كان يجدني منزويا في المسجد، دمعي يتساقط، أحيانا، على خدي، فكان يقترب مني، ويجلس إلى جانبي، إلى أن أفرغ من الصلاة والدعاء، فأجلس ملتصقا به، وأسلم نفسي إلى يده التي تحيط بكتفي في حنو، فأحكي عن كل شيء. ولا أزال أذكر أنه كان نصيري الوحيد في مرض أبي، والضمير اليقظ الذي كان ينتشلني مما كان يلقيني فيه طيش الشباب وطموحه، والصدر الحنون الذي كنت ألجأ إليه من خوفي على أبي الذي كان يعاني من مرض السكر، وهو مرض لا قيمة له إذا عاملته بحزم، أما إذا استهترت به، مثل أبي، فتأتي الكوارث، وكانت الكارثة تحوّل جرح في منطقة حساسة في جسد أبي إلى تقيح، وتحول التقيح إلى غرغرينا، فاضطر الأطباء إلى استئصال هذا الجزء وما حوله، وظل أبي بين الحياة والموت، وكنت في سنتي الجامعية الثالثة، فتركت الجامعة لأبقى إلى جواره، وانقضى ما يقرب من شهرين إلى أن عافاه الله، وأعاده لنا، وما أكثر ما كنت أخرج المصحف الذي كنت أحتفظ به في مكتبتي، وأقرأ منه بصوت عال، كي تهدأ نفسي بالاستماع إلى كلمات الله الذي كنت أدعوه أن يحفظ أبي، وأحيانا، كنت أكتب ابتهالاتي الذاتية

على بعض الأوراق، وبعد أن أفرغ أثني الورقة وأودعها في المصحف الكريم. وللأسف، ضاعت هذه النسخة من المصحف فيما ضاع من كتبي وكراساتي التي كنت أحتفظ بها في غرفتي بمدينة المحلة الكبرى، لكن عادة الاحتفاظ بمصحف في كل مكان أحل فيه، ظلت باقية إلى الآن، فهناك مصحف في سيارتي، وأكثر من واحد في غرفة مكتبي، وآخر في غرفة النوم، ولولا انفرادي عن الآخرين، ووجودي في مكتبتي، مع القرآن الكريم، عندما ماتت ابنتي الكبرى الدكتورة سهير، وكانت ولا تزال قرة عيني ونور قلبي، لكنت أصبت بالجنون. وكانت كارثة لا تزال لها آثارها الغائرة في قلبي.

ولا تزال ذاكرتي تمتلئ بحنو الشيخ عبد السلام أبو الفضل الذي كان يحب مجال الدعوة إلى الله التي وهبها كل وقته، وكان سلوكه بين الناس دافعا لهم على احترامه وتوقيره ومهابته، فتكاثر المقبلون على المسجد للاستماع إلى خطبه، يوم الجمعة، فقد كانت مليئة بالتقوى والمعرفة، باعثة على الهداية. وذاع صيت الرجل وانتشر في المحلة والقرى التي تجاورها إلى الحد الذي ضاق معه المسجد بالمصلين الذين فاق عددهم ما تستوعبه الأرصفة المجاورة لواجهة المسجد ومؤخرته. وقد عرفت بعد رحيلي من المحلة أن وزارة الأوقاف نقلت الشيخ عبد السلام إلى مسجد المتولي وهو أكبر مساجد المدينة مساحة، فأصبح إماما له سنة 1977 ، وبقي الشيخ القريب إلى نفسي إماما لمسجد المتولي إلى أن توفي سنة 2000 فحزنت على موته، واسترجعت في نفسي حنوه عليَّ، وفرحه بي عندما كان يراني في صلاة الفجر بوجه خاص، وكيف كان ينظر إليَّ في عطف وتشجيع عندما يراني منكبا على كتاب من الكتب التي كانت مقررة

في المدرسة. وقد تحوّل تسامحه المقترن بوجهه البشوش السمح، إلى تشجيع لأمثالي من الصغار على طلب العلم والتزود من المعرفة، في ذلك الزمن البعيد، وظل حضوره، في وجداني، نموذجا أقيس عليه غيره من رجال الدين الذين يجادلون بالتي هي أحسن، ويبشون في وجه الجميع بلا استثناء. وقد قرأت، أخيرا، أن إمام مسجد المتولي الحالي الشيخ الدكتور أحمد عبد السلام ابن الشيخ عبد السلام أبو الفضل الذي بارك الله له في ذريته، وفي سيرته وعلمه بما جعل أبناء المحلة يعدونه من أولياء الله الصالحين. رحمه الله فقد كان تأثيره كبيرا في تجذر الشعور الديني في عقلي ووجداني.

ولا أنسى من ذكريات مدينتي، في هذا السياق، الاحتفالات الدينية، فقد كانت المدينة كلها تخرج من بعد صلاة الفجر لكي لا تفوتها صلاة العيد، وكانت الخطوة التالية للصلاة هي زيارة القبور، وكانت وسيلة للبر بالفقراء، فقد كانت كل أسرة تحمل معها ما توزعه على الفقراء المحتاجين: كعكا، وخبزًا مليئًا بالفول النابت، وقطعة لحم إذا تيسر الحال، ونقودا يوزعها البعض. أما العيد الكبير، فكان للفقراء نصيب في الذبائح حين يمرون على بيوت الميسورين لنيل قطعة من الذبيحة ملفوفة في ورق، معدة للتوزيع، وكل أسرة حسب طاقتها. المهم أن لا يمضي العيد الكبير إلا ويكون الجميع أكلوا لحمة العيد، ولا يمر العيد الصغير إلا ويكون الجميع حصلوا على كعك العيد. ولم نكن نعرف الكعك الجاهز في ذلك الوقت، بل الاحتفال الذي يجمع الأسرة لصناعة الكعك : إعداد الدقيق وإضافة السمن، والتفنن في النقش بأدوات بدائية، ورص الكعك على الصواني، ثم حمل الصواني إلى الفرن الذي تمتلئ ساحته بالعائلات

التي تنتظر دورها، ولا عراك، فعبارة : كل سنة وأنتم طيبون، وأعاده الله عليكم بالخير تمحو الغضب على الفور، ويعم الصفاء، وكان السهر مع بنات الأسرة في ساحة الفرن مجالا للضحك والغناء ومرح الطفولة البريء الذي يجمع البنات والبنين.

أما الاحتفال الموازي للأعياد في الأهمية فقد كان مولد النبي، إذ كانت البلد كلها تتفرج على موكب المولد، ومشايخ الطرق الصوفية، وراء أصحاب الحرف الذين تفننوا في الاحتفال، فكانوا يقيمون صناعاتهم فوق عربة طويلة، يجرها حصان. وسرعان ما دخلت الكهرباء، علامة تحديث، فكان الكهربائية، أي باعة اللمبات ومحلات إضاءة السرادقات، يتبارون في صناعة عربات زجاجية الجوانب، يضيئها ضوء النيون الساطع، وشيئا فشيئا ظهرت أجهزة التسجيل ومكبرات الصوت، فكانت توضع شرائط الابتهالات الدينية، وتصل مكبرات الصوت بها إلى كل أنحاء المدينة. وكانت الأغنية الدينية التي أصبحت شهيرة جدا، هي أغنية محمد الكحلاوي: «لاجل النبي لاجل النبي، تقبل صلاتي على النبي لاجل النبي». أما قبل شيوع الأغاني الدينية، فكانت الابتهالات التي تتحدث عن مطالب المسلمين، وتعبر عن عمق الشعور الديني لكل أبناء المدينة، وكنا نمضي مع الموكب، ونذهب إلى منزل نقيب الأشراف، وكان يجلس في صدارة الساحة التي يحيط بها صيوان قماش بهيج الألوان، يتلقى التهاني بقدوم الاحتفال بمولد النبي، وتوزع القرفة على الحضور. وكنت حريصا على احتسائها، خصوصا في أيام الشتاء الباردة، وكان المقرئون يتلون سور القرآن، ويتوقفون عند الآيات التي تتناول شخص النبي ﷺ وبعدهم، يأتي المنشدون الذين ينشدون الحضور عن مناقب الرسول، وليس بعيدا عنهم

تتحلق مجموعات الذكر، كل مجموعة يقودها من يوجّه الحركة والإنشاد كالمايسترو. وكنت أسمع، في بعض السنوات، من ينشد البردة، ولم يخل المشهد، قط، من المتصوفة، بل كان النقباء أنفسهم مشايخ طرق صوفية، تتوارثها الأسرة، فهناك الشاذلية، والتفتازانية، وغيرها من طوائف النقباء الذين كان المنتسبون إلى كل طريقة يجلّون نقباءهم إجلالا دينيا. وكانوا من الأشراف الذين ينتسبون إلى العترة المحمدية التي كانوا يتميزون بها على غيرهم من المسلمين.

وكنت أجلس، في ساحة منزل نقيب الأشراف، بعد أن سمح لي بالسهر في هذه المناسبات كما أشاء، أرقب كل شيء في انبهار، تختلط مشاعري الدينية بالبهجة. وقد حاولت مرة أن أشارك في إحدى حلقات الذكر، لكن طال التطوح، وترداد لازمة : الله حي، إلى أن شعرت بالتعب فانسحبت، ولم أعاودها، واكتفيت بالتجوال والجلوس والانبهار بما حولي، وعدم الشعور بمضي الساعات إلى أن يؤذن المؤذن للفجر، فيؤم النقيب الحضور، ويؤدون صلاة الفجر، ويقبِّل الجميع يد النقيب بعد الصلاة، ويتسابق الأطفال مثلي على بركة تقبيل اليد، والسعيد منا من يربت النقيب عليه حانيا أو داعيا. ولا أذكر أني نلت هذا الشرف مرة، فلم أسهر إلى صلاة الفجر إلا مرة واحدة، وأحيانًا كنت أكتفي بالفرجة لبعض الساعات إلى أن ينتابني الملل، فأعود للمنزل. ولا أعرف لماذا وجدت نفسي أتباعد عن ذلك، أغلب الظن أنني فقدت الاهتمام برؤية المتطوحين، وربما لكرهي للضجيج الذي بدأت ألاحظه على نفسي مع سنوات المدرسة الإعدادية، وانقطعت عن هذا الموكب كله بعد أن أنهيت المرحلة الثانوية، ودخلت الجامعة، لكنني تعلمت، في القاهرة، المداومة

على مولدين : مولد الحسين، ومولد السيدة زينب، لكن كانت الشعائر قد اختلفت، والأحوال تغيرت، غير أن الشعور الديني العميق الذي تثيره ذكرى المولد النبوي لا يزال قائما في نفسي إلى اليوم، لم تغيره القراءات، ولا التقلب بين المذاهب المختلفة، وذلك على نحو يجعلني أشعر، أحيانا، أني شخصان : عقلاني يموج رأسه بالأفكار والمذاهب التي درسها، ووجداني لا يزال منتسبا إلى الجذور التي تربى عليها والتي لا تزال متأصلة فيه. والحق أنني لم أفهم إمكان المصالحة بين هذين الشخصين إلا بعد أن ذهبت إلى اليابان، ووجدت أن أبناء هذه الأمة متدينون إلى حد بعيد، سواء كانوا ينتسبون إلى الديانة البوذية أو عبادة الأرواح الشنتوية. وقد شاهدت في أكثر مصانع اليابان، تقدما وتعقيدا، معابد صغيرة للعمال، يلجأون إليها في أوقات الراحة، وسط العمل، فأدركت إمكان التعايش بين أنواع العقيدة الدينية وأعقد أشكال العلم، فلكل من الطرفين مجاله وحضوره.

ولم يكن يقترب من الاحتفال بمولد النبي سوى الاحتفال بعاشوراء. وهو احتفال يؤكد قدرة المصريين على تحويل المناسبة الدينية الحزينة إلى مناسبة مفرحة. ويبدو أننا ورثنا هذا الاحتفال عن الشيعة، أيام الدولة الفاطمية فيما يبدو، ولكن أسقط المصريون تعذيب الجسد بالضرب بالسلاسل أو الأدوات الحادة إلى الحلوى المعروفة باسم «عاشوراء». وتتكون من السكر والحليب والنشاء والقمح المقشور. وأذكر أن هذا الاحتفال كان يصحبه نوع من إشعال للنار في الأحياء الشعبية، وكنا نجتمع حولها صغارا، ونقفز فوقها، إذا كان حجم النار يسمح بذلك، صارخين: «يا أم موكيه خدي البراغيت اللي عليه». ولا تفسير لهذا الفعل سوى أنه نوع من ممارسة بعض شعائر التطهر الرمزي. وكنا إذا فرغنا من هذا النوع

من اللهو الخطر، نعود إلى منازلنا وننعم بأطباق «العاشورة» اللذيذة التي تشبه أطباق الأرز باللبن التي كانت تصاحب الاحتفال بالمولد النبوي. وعندما أسترجع، الآن، هذه العادات التي اختفت تدريجيا، حتى قبل أن أنهي المرحلة الثانوية، أجد فيها نوعا من البهجة التي تجعل من الطقس الديني الشعبي نوعا من الطقس البهيج، فالدين يسر لا عسر في النهاية، ولابد من إجمام النفس ببعض الباطل حتى تقوى على الحق. ولذلك أميل، دائما، إلى رجال الدين الباسمين الذين يعاملون الناس بالحسنى، ولا يفصلون الدين عن الدنيا بحلوها ومرها.

هل كانت تربيتي وسط أسرة مليئة الوجدان بالمعتقدات الدينية الشعبية هي السبب في بقاء بعض آثار هذه المعتقدات في تكويني؟ أعتقد أن الإجابة ستكون بالإيجاب، فأحيانا أضحك من نفسي عندما أجد ما أندفع إلى تسميته بالحسد، وأثر عين الحسود، وكانت أمي، إذا حاولت السخرية من إيمانها بالحسد، تجيبني في ثقة، إنه مذكور في القرآن يا أفندي يا متعلم. وكانت تفعل معي ذلك لو حاولت الاستهزاء بوجود العفاريت، وكنت أداعبها بقولي : ما عفريت إلا ابن آدم، وهي إجابة كان الرد عليها قذفي بأقرب شيء إلى يديها.

ولقد توفيت، رحمة الله عليها، وهي على يقين أن كل الشهادات التي حصلت عليها هي بدعاء والديَّ ورضاهما عني. وقبل ذلك، بركة أولياء الله الصالحين. وكانت تذكرني بالشيخ محمد الزغبي، مع كل شهادة. وكان محمد الزغبي، في الأصل، أحد المجاذيب، أو الدراويش الذين كنا نراهم هائمين على وجوههم في شوارع المحلة. ولم يكن هناك من يجرؤ على إلحاق الأذى بهم، وكان عقاب الطفل غير المهذب الذي

يجرؤ على قذف أحدهم بالحجارة علقة لا ينساها. ولذلك كان هؤلاء المجاذيب الدراويش يتحركون أحرارا، يدخلون البيوت طالبين ماء، أو طعاما أحيانا، وكل طلباتهم مجابة، فهم بركة. وكان أشهر هؤلاء، وأقربهم إلى ذهول المتصوفة الذين يعيشون في حال دائم من الشهود أو التجلي، هو الشيخ محمد الزغبي. وكان طويلا نحيلا شاحب الوجه، لا ينزل وجهه إلى الأرض. وحدث أن مرّ الشيخ محمد الزغبي (فقد تحول لقبه إلى شيخ بعد وفاته في الطريق) أمام منزلنا القديم، وكنت صغير السن لم أدخل المدرسة بعد، وكنت ألعب وبعض الأقران أمام عيني أمي التي كانت جالسة مع بعض الجيران من صديقاتها. وكان الشيخ الزغبي مارا في الطريق، مذهولا كالعادة، لا ينظر إلى الأرض. لكنه توقف، فجأة، فلفت انتباه النسوة الجالسات بما فيهن أمي، وانحنى على الأرض، ملتقطا علبة دخان معسل ملقاة على الأرض، وأخذها بين يديه، وأخذ ينزع جوانبها في حركة بطيئة، فلا يبقى منها سوى الوجهين اللذين أمسك بهما في يديه، واتجه بعينيه إليَّ، وجاء ناحيتي، فتسمرت أقدامي من الذعر، ومدّ يديه بالورقتين إليَّ، فأخذتهما منه كالمخدّر دون أن أنطق ومضى عني بعد ذلك في طريقه، رافعا رأسه الذي لا ينظر إلى الأرض. وكانت أمي ترقب المشهد واجفة القلب، فلما انصرف الرجل عني عاد لي الوعي، فجريت إليها صارخا، واستقبلتني في حضنها، وهي تربت على ظهري لتوقف بكاء خوفي الذي انفجر، وقالت لي : يا عبيط، هذه هي الشهادات التي ستحصل عليها بإذن الله، يعطيك إياها الشيخ الزغبي علامة وبركة. وأمّنت على كلامها بعض صاحباتها، وظللن يضحكن فرحات، مستبشرات، إلى أن توقفت عن البكاء، وظلت تتلو الرُّقى، خوفا من حسدهن فيما يبدو.

ومضت الحادثة، ونسيتها، لكن أمي لم تنسها، وعندما حصلت على الشهادة الإعدادية قالت لي : هذه هي الورقة الأولى، وجاءت الثانوية العامة، فكانت الورقة الثانية، ثم جاء الليسانس ولم تعجز أمي أو تسكت أو تنسى، وإنما قالت : الورقتان علامة على كل الشهادات القادمة إن شاء الله. وهكذا كانت الماچستير ثم الدكتوراه بعض بركات الشيخ الزغبي، ولم تنس أمي القصة، فقد حكتها لابنتي سهير رحمها الله، وبعدها ابني أحمد، وظلت مؤمنة بأنه كما حفظتني من الموت بركة سيدي جابر وبركات غيره من الأولياء، فإن رضاها عني، ودعوات أبي التي كانت آخر كلماته (ولم تشهد هي ولا أنا وفاة أبي الذي مات وحيدا في إحدى غرف القصر العيني، أثر أزمة قلبية فاجأته) هي التي ستؤمّن لي، دائما، النجاح.

والحق أنني كنت ابنا بارا بوالديه، أرعى فيهما وصية القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1]، وكيف لا أكون كذلك، وقد كنت قرة عينهما، وفتى الأسرة المدلل الذي لا يكفون عن زيارة الأولياء بصحبته، كي يحفظه الله، ويحميه، ويبارك لهما فيه. ولا أدري هل نجح هذا الابن البار في أن يكون كما أراد والداه أم لا؟ لكن ما أعرفه أنني ما دخلت مسجدا من المساجد إلا وأذهب إلى مقامه، وأقرأ لهما الفاتحة، إلى أن لحقت بهما سهير، فصرت أقرأ الفاتحة للثلاثة. وحتى عندما ذهبت إلى العمرة، ولم أستطع تسلم الحجر الأسود بقصد تقبيله، وذلك بسبب جحافل حجاج إفريقيا السوداء الذين أحاطوا بالكعبة، إحاطة السوار بالمعصم، يمنعون غيرهم من الاقتراب مثلهم، فأطاحوا بي أكثر من مرة إلى أن أصابني اليأس، فجلست مستندا إلى سور قبر إبراهيم

(1) الإسراء : 23.

عليه السلام، وأتأمل الكعبة والدموع تنسال من عينيَّ، ولا أمنع نفسي من الشعور بالحزن لأن العمر لم يطل بأبي وأمي، كي أتيح لهما فرصة الحج التي ظلا يحلمان بها دون أن تتحقق، فقد ضحيا بأي فائض مالي كي أكمل تعليمي، وأكون مثل طه حسين الذي كانا يدعوان الله أن أكون مثله، رحمهما الله.

المعلم الأول

كنت أقرأ مقالا للكاتب واسع الانتشار أنيس منصور عن ذكريات تلمذته في مدرسة المنصورة الثانوية، حيث استهل مقاله بالإشارة إلى حبه لأستاذ الفلسفة الذي رأى فيه مثلا أعلى، وكان هذا الأستاذ يدفع أنيس منصور الطالب الصغير إلى المقارنة بينه والمدرسين الآخرين. مدرس العربي الذي كان أستاذا بعمّة، وله كرسي، وصوته غليظ مرتفع، ولا يعرف كيف يتكلم بهدوء ولا كيف يهمس. ومدرس اللغة الإنجليزية الذي كان يصرخ دائما، ومدرس الجغرافيا الذي كان لا يقل عن أقرانه تنفيرا. فقط، مدرس الفلسفة الذي كان يجذب إليه الطلاب بمظهره الرصين، ودروسه التي لم يكن الطلاب يفهمون منها شيئا، وتعاليه الظاهري الذي كان يبدو بمثابة استعلاء على الصغائر التي ينجذب إليها أولئك المشدودون إلى الأرض لا الذين يحلِّقون في سماوات الفكر. ولم يترك هذا الأستاذ مكانه في وعي أنيس منصور إلا بعد أن غرس في داخله محبة الحكمة والرغبة في دراسة الفلسفة، فاندفع إلى قسم الفلسفة بكلية الآداب بعد حصوله على شهادة التوجيهية، وهناك انمحت صورة أستاذ الفلسفة الأول لتحل محلها صورة عبد الرحمن بدوي الذي فتن طلابه بصفاته الغريبة والاستثنائية منذ أن رأوه في كلية الآداب جامعة القاهرة للمرة الأولى.

ولقد استوقفتني كلمات أنيس منصور عن أستاذه الأول الذي قاده إلى حب الفلسفة، وأشعل في داخله رغبة التخصص فيها، ودفعه إلى اختيار قسمها في كلية الآداب سبيلا إلى المستقبل، كما استوقفتني مقارنة أستاذ الفلسفة بأساتذة اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية والجغرافيا والتاريخ وغيرهم، أولئك الأساتذة الذين نفَّروا الطلاب من علومهم، وأبعدوهم عنها، أو على الأقل جعلوهم يكتفون منها بما ينقلهم من صف إلى صف في امتحانات آخر العام، وبما لا يدفعهم إلى الاستزادة من هذه المعارف التي بدت بعيدة عن الجاذبية بسبب الأساتذة الذين قاموا بتدريسها، والذين أسقطوا شخصياتهم المنفِّرة على العلوم التي يقومون بتدريسها، فاكتسبت منهم العلوم المقررة صفاتهم المنفرة، الأمر الذي أدى إلى بُعد الطلاب عنها والنفور منها.

ولا أظن أن هذه حالة خاصة بأنيس منصور الطالب الثانوي وحده، وإنما هي حالة متكررة على اختلاف الأجيال الدراسية على امتداد المدارس الموجودة في مدى الكرة الأرضية كلها، فمن الواضح أن أثر المدرسين بالغ العمق على الطلاب في سنواتهم الدراسية الباكرة، وأن العلاقة بين شخصية الأستاذ والمقرر الدراسي الذي يقوم بتدريسه متبادلة، وذلك على نحو ينقل النفور من الأستاذ إلى المادة، والنفور من المادة إلى الأستاذ، في حال من تبادل الأثر والتأثير في تأكيد النفور في نفس الطالب الذي يكره المقرر الدراسي لذلك الأستاذ إلى الأبد. والعكس صحيح بالقدر نفسه، حيث تنتقل جاذبية الأستاذ وروحه الساحرة (المرحة أو السمحة) إلى المقرر الدراسي الذي يقوم هذا الأستاذ بتدريسه، فيتحول المقرر إلى مادة علمية بهيجة، محبوبة، جذابة، الإقبال عليها هو الوجه الآخر من محبة

الأستاذ السمح المرح الذي أحبه طلابه فأحبوا علمه أو مقرره الدراسي، نتيجة حبهم إياه.

وما أكثر هذا النوع من الأساتذة في حياتنا بالسلب أو الإيجاب، ففي تقديري أن ذاكرة كل واحد منا مليئة بنماذج هذا النوع من الأساتذة الذين دفعونا إلى حب مقرراتهم، والذين دفعونا إلى كره مقرراتهم على امتداد حياتنا المدرسية، ابتداء من المرحلة الابتدائية وانتهاء بنهاية المرحلة الثانوية. وإذا كان الروائيون من أمثال إحسان عبد القدوس يتحدثون عن الحب الأول الذي يراه بعضهم خالدا في النفس، بينما يراه بعضهم الثاني عميق الأثر الذي يبقى طويلا في النفس، ويراه بعضهم الأخير مرحلة ضرورية للتطور سرعان ما نمضي إلى غيرها في مرحلة النضج، فإن أثر الأستاذ الأول مثل هذا الحب الأول، مرحلة تأسيسية في النفس، وعملية تأصيلية للوعي الذي سرعان ما يعمر بحب هذا المجال العلمي أو كرهه، منطويا على ما يشبه العقدة أو الأثر بعيد الغور الذي يظل عالقا في النفس، لا يمكن محوه من الذاكرة، خصوصا عند استرجاع ذكريات الصبا واستعادة سنوات الدراسة التي لا تخلو من فرح أو حزن.

أنا شخصيا ظللتُ كارها للرياضيات وكل ما يرتبط بها، ولا أزال على نفوري منها إلى اليوم، وأكره أن أقوم بعملية حسابية بسيطة، بل إني أسرع الناس نسيانا للأرقام إلى درجة مضحكة، أذكر أن زميلي وليام جرانارا في جامعة هارفارد كان يسخر مني كثيرا بسبب نسياني أرقام بطاقة التأمين الاجتماعي الخاصة بي، ورقم الرمز البريدي للمنطقة التي أسكن فيها، وهي أرقام مطلوبة من المرء في كل ورقة رسمية في الولايات المتحدة،

وكان على زميلي أن يحفظ كل هذه الأرقام نيابة عني كل مرة، ويكتبها نيابة عني، فرحا بما يتيحه له ذلك من سخرية من زميله الذي تحفظ ذاكرته عناوين الآلاف المؤلفة من الكتب والأبيات الشعرية والتواريخ الخاصة بالأحداث المهمة في تخصصه، ولا تستطيع هذه الذاكرة أن تستوعب حفنة أرقام، أو تقوم ببضع عمليات حسابية بسيطة. وكنت أضحك من سخرية صديقي، تماما كما أضحك من نفسي في كل مرة أختبر فيها خيبتي في عمليات الحساب، أو العمليات الأولية البسيطة للإحصاء أو الأرقام عموما، ففي كل مرة تكون النتائج فاضحة إلى درجة الضحك الذي لا يخلو من أسى.

وأعترف أنني في كل مرة أقع فيها في فخ الأرقام يمتزج ضحكي من خيبتي الحسابية بالأسى الذي هو تعبير عن رغبة محبطة بتجاوز هذه الخيبة. وأعترف، كذلك، أنني كل مرة من هذه المرات أتذكر الأستاذ الأول الذي جعلني أنفر من الرياضيات نفوري من شخصه الذي كرهته في سنوات الصبا إلى أبعد حد، فقد كان مدرِّسا جهما، غاضب الوجه دائما، ناقما على الدنيا والناس، كارها لعمله الذي كان يؤدّيه على مضض، قاسيا قسوة بالغة دون مبرر. وكان عقابي الأول منه على هفوة بسيطة علقة بشعة بحافة «المسطرة» على ظهر اليد، وكانت حافة «المسطرة» تنزل كالسكين على عقل أصابع اليد في ذلك الصباح الباكر البعيد، فتترك في الوعي جراحا غائرة لا يمكن نسيانها. صحيح أنني كنت أذاكر مقرر هذا الأستاذ، ولم أنل عقابه إلا في مرات قليلة، لكن عقابه الوحشي لي ولزملائي على السواء، دفعني إلى كرهه إلى الأبد، خصوصا أن ملامح وجهه لم تكن تخفي تلذّذه السادي بضربنا، كما لو كان يضرب فينا كل ما كان يكرهه في هذه الحياة.

الغريب أنني لا أذكر اسم هذا الأستاذ في حين أذكر جيدا أفعاله التي نفَّرتني من المقرر الدراسي الذي كان يقوم بتدريسه لي. ربما كان نفور الوعي من شخصيته هو الباعث اللاشعوري على نسيان اسمه الذي هو رمز لحضوره. كل ما أذكره عنه، الآن، بعد كل هذه السنوات، هو أنه كان من أسرة متواضعة الحال، وكان والده العجوز يملك محل «طرابيش» في المدينة التي تلقَّيتُ تعليمي الثانوي بها. وكنت أعجب لذلك، فقد كان أغلب الأساتذة الشبان الذين قاموا بالتدريس لنا في بلدتنا الصغيرة من أسر فقيرة، لكن فقر أسرهم لم يجعل منهم وحوشا ضارية، بل ترك في نفوسهم سمات الرحمة والتعاطف مع الطلاب الذين تتشابه ظروفهم العائلية مع ظروف أساتذتهم، إلا هذا الأستاذ الذي كان صنفا وحده، سواء في غرامه بضربنا كما لو كان يضرب الفقر الذي عاناه، أو في عقابنا بسبب أو بغير سبب كما لو كان يعاقب الأيام التي لم تمنحه ما أراد!

ولكني إذا كنت نسيت اسم هذا الأستاذ الأول الذي اقترن في ذهني بحالة الكره الأول لمقرر دراسي، ومن ثم أصبح رمزا لعلاقة التبادل بين المقرر الدراسي ومن يقوم بتدريسه، فإنني أذكر اسم الأستاذ الأول الذي جعلني أحب اللغة العربية، وأفتن بالأدب العربي، وأعشق الشعر إلى الدرجة التي جعلتني - لسنوات طويلة - أحفظ كل قصيدة جيدة عن ظهر قلب - كما يقولون - بمجرد الاستماع إليها. ولقد ظللت محافظا على هذه العادة العقلية التي مصدرها حب الأدب إلى عهد قريب، وذلك من قبل أن تتدخل عوامل السن، ويؤدي ضعف الشرايين إلى ضعف الذاكرة التي لم تكن تترك شعرا جميلا تسمعه أو تطالعه إلا وحفظته حفظها للنفيس الرائع من الكنوز التي لا تقدر بثمن!

الحب الأول

هل صحيح أننا لا ننسى حبنا الأول، وأننا نظل نحمله في جوانحنا طول العمر، حتى لو أصابه الفشل كما يصيب أغلب حالات الحب الأول؟! وما السرّ في أن هذا الحب الذي يحدث مع تفتح الوعي للمرة الأولى على الحياة يظل كامنا في النفس كالأصل الذي لا يقبل الفناء؟! لقد نمت داخلنا أسطورة الحب الأول بوصفها بعض حنين البداية إلى اللحظة المعرفية الأولية التي اكتملنا فيها بمعرفة الآخر، المرأة، فتعرَّفنا الحياة في صورتها التي كنا نجهلها، ودخلنا أفق الغواية الساحرة التي قادتنا إلى عوالم بهيجة سعدنا بها زمنا. وحتى عندما كان الحب الأول يفشل، نتيجة اصطدام مثاليته بواقع الحياة الخشن، أو نتيجة التفريق بين المحبّين لأسباب عديدة، كان هذا الحب يظل باقيا في النفس كالواحة الظليلة التي تلجأ إليها الروح هربا من جحيم الحياة ولظى مشكلاتها.

ولكن هل يمنعنا الحب الأول من أن نحب بعد انتهائه؟ وهل نظل في شوق إلى محبوبنا الأول بالقياس إلى أي محبوب نقع في غرامه بعد ذلك؟ ولماذا - إذا كانت الإجابة بالإيجاب - يظل المحبوب الأول كالحب الأول هو النموذج الأعلى الذي تتضاءل إلى جانبه كل النماذج اللاحقة في الحب؟ أو ليس في هذا ضرب من السذاجة العاطفية أو الرومانسية التي سرعان ما نغادرها حينما نفارق عالم الصبا وندخل عالم النضج؟

وهل للحب الأول وجود حقا أم أنه مجرد وهم نصنعه لأنفسنا في مرحلة الأوهام من حياتنا، حين نستسلم لخيالنا كي نحلّق معه إلى سماوات من الحب الخيالي الذي نعيش في أوهامه متصوِّرين أنه الحقيقة؟ وقد يكون للحب الأول أصل من الواقع، ولكن ألا يضيف إليه خيال صبانا الكثير الذي ينقله من عالم الواقع إلى عالم الرغبة التي لم تتحقق، والتي تظل قرينة الحلم الذي يشير إلى شيء غائر في النفس.

أجاب الشاعر العباسي أبو تمام عن مثل هذه الأسئلة التي لابد أن بعضها شغله كما شغل غيره على امتداد العصور، وصاغ إجابته في بيتين يقولان:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيثُ شِئْتَ مِنَ الهوى ... مَا الحبُّ إلَّا لِلحَبِيبِ الأوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأرْضِ يَألَفُهُ الفتَى ... وَحَنِينُهُ أبدًا لأوَّلِ مَنْزِلِ

وهما بيتان تنبني صياغتهما على تشبيه التمثيل الذي يثبت الدعوى التي يقومان عليها، فالبيت الأول يحمل الدعوى الجازمة التي تقول إن الإنسان مهما تنقَّل من حب إلى حب، فإن حبه الأول يظل الأصل الأجمل، بل يظل هو الحب بألف لام التعريف أو العهد. وحال الحب الأول في اكتماله بالقياس إلى غيره اللاحق عليه حال المنزل الأول الذي يألفه الفتى في الأرض التي عاش عليها، والذي مهما بعد عنه يظل حنينه الأول إليه بوصفه أول المنازل وأجملها في المخيلة. ويعتمد أبو تمام في البيتين على العادات العربية التي تتجسّد في شعرها، خصوصا الشعر الجاهلي الذي كان أقرب إلى البداية، والذي كان يقترن بتصوير حياة البادية التي كانت تضطر القبيلة إلى الارتحال عن منازلها طلبا للماء، والتي كان ارتحالها نفسه سببا في الذكرى التي كانت تشد الشعراء إلى المكان المرتحل عنه

بوصفه المكان الأول، المكان الذي كان يزداد توهجا في الخيال حين يقترن بالحب الأول، ذلك الحب الذي كانت تجسّده القصيدة الجاهلية على مستوى التذكر الذي تبدأ به، التذكر الذي كان يحرِّكه الوقوف على الأطلال، وتذكر الحبيب الأول المقترن بالمنزل الأول في الوقت نفسه.

وربما كانت براءة الحب الأول هي السبب في الهالة السحرية التي تحيط به، خصوصا من منظور الحرمان من الحبيبة، أو عدم الاقتراب منها بالمعنى الذي يبتذل حضورها، فالحبيبة الأولى في سنوات العمر الباكر كالهلال الذي أفرط في العلو، وضوؤه قريب جدا من السائرين في الصحراء، وإفراطه في العلو هو الباعث على تخيل ما ليس بقائم، وتصور ما لا يوجد، كالحب الأول الذي يبعث النفس الغضة على تخيل صفات الكمال والجمال في موضوعها الذي يظل فاتنا في مدى الرؤيا، بعيد المنال على مستوى الوصال المادي العملي. ولذلك تظل ذكراه في النفس مثل الاكتشاف الأول للحضور، أو المعرفة الأولى لمبدأ الرغبة قبل أن تتحول الرغبة نفسها إلى موضوع للتأمل أو التحليل، بل قبل أن تصبح الرغبة نفسها موضوعا قابلا للتحقيق، فتكتسب صفات المألوف المعتاد من أشياء الحياة اليومية. ولذلك يظل الحب الأول وضعا خياليا كالجنّة المتوهمة التي ننزل منها بخطيئة ملامسة الواقع الخشن، فنظل نحلم بالعودة إليها، خصوصا كلما أوجعتنا جهامة هذا الواقع، أو نفرنا من شدة ألفته وابتذاله.

لا أظن أن شيئا من ذلك دار بخيال الشاعر العباسي أبي تمام. ولكن بعضه على الأقل كان في وعي الشاعر الحديث أحمد عبد المعطي حجازي عنـدما ألقـى سؤالـه :

أَرَأَيتَ إلى وَرَقٍ غَادَرَ شَجَرَة
هَل يَستَوطِنُ شَجَرًا آخر؟
أرأيتَ إلى امرأةٍ حُرّة
هَل تَهوى إلَّا صَاحِبَهَا الأوَّل؟

والسؤال نفسه يتضمن جوابه الذي يلتقي مع الدعوى التي صاغها أبو تمام حين جزم بأن القلب يظل دائما ميَّالا إلى الحب الأول الذي يحن إليه الفتى مهما تنقل بين المنازل اللاحقة. ولكن الحب الأول يتداخل مع معنى الهوية الأصلية عند حجازي، فهو المعنى الذي يكتمل به وجود الهوية في النفس للمرة الأولى، فيغدو راسخا يقاوم عوامل التغير، شأنه في ذلك شأن الشجرة التي تنجذب إليها كل الأوراق مهما تباعدت أغصانها، وشأن الصاحب الأول الذي لا يمكن أن تنساه المرأة الحرة التي اكتمل حضورها بهذا الصاحب للمرة الأولى. الحب الأول الذي يشبه أصل الهوية لا يمكن التخلّي عنه أو هجره بهذا المفهوم، حتى لو باعدت بيننا وبينه السنون.

هذه الهالة الأسطورية للحب الأول هي ما حاول إحسان عبد القدوس أن ينقضها في روايته «الوسادة الخالية». وهي الرواية التي شدتنا إليها، ونحن نفارق سنوات مراهقتنا.

ولا أزال أذكر الحب الأول الذي مررت به. كان حلما وهميا عذبا، أكثر رومانسية من وسادة عبدالحليم حافظ، ربما لأن عبدالحليم كان في المرحلة الثانوية، وأنا في المرحلة نفسها، إن لم تخني الذاكرة. ولكني أذكر، جيدا، أنني قرأت بين الأطلال ، وإني راحلة ليوسف السباعي وروايات محمد عبد الحليم عبدالله، فضلا عن الترجمات المتاحة لرواية

«غادة الكاميليا» وغيرها من الروايات التي كانت تؤكد فينا أفكارا عجيبة لأغاني التذلل للحبيب، ولا أنسى ما كانت تنشد به أم كلثوم : «عزة جمالك إيه، من غير ذليل يهواك». وهو المعنى الذي وجدته، فيما بعد، في بيت على محمود طه الذي أذكره :

وإنَّ أشْـهَى الأغَانـي فِـي مَسَـامِعِنَا مَا سَالَ وَهُوَ حَزِينُ اللَّحْنِ مُكْتَئِبُ

هكذا صار الحب، عندي، معاناة لا يعرفها المحبوب، وتضحية بالنفس في صمت. وكان لواحد من أصدقاء صباي البعيد أخت صغيرة، صبوحة الوجه، عذبة الملامح لم تفارق براءة الطفولة رغم دخولها في سنوات المراهقة الأولى. وكنت أراها كثيرا بسبب علاقتي بأخيها، ويبدو أن حاجتي إلى الحب، أو حاجتي إلى أن أقوم بدور العاشق الحالم، دفعتني إليها، وأن أجعل منها ملاكي الذي أحتوي صورته، في فؤادي، فأسميتها ربة الوحي والإلهام، وصرت أكتب لها أشعارا ساذجة، ولكنها صادقة في تجسيد ما كنت أشعر به حينذاك. وبالطبع، لم أقل لها شيئا، فما كنت أجسر على ذلك، مع أن ارتباكي كان يتزايد كلما كنت في حضرتها، وكانت تمنحني بسمة بريئة دائما، ولم أكن أتردد في تفسير هذه البسمة حسب أوهامي، وفي الوقت نفسه، لم أكن أجرؤ أن أقول لأخيها شيئا عما في داخلي، فقد كان الحديث عن خطوبة مستحيلا لطالب لم يتجاوز المرحلة الإعدادية، وما كنت أجرؤ على أن أسلمها خطابا واحدا من الخطابات التي كتبتها، فقد كان إحساسي الأخلاقي يرى في ذلك خيانة لصداقتي لأخيها، وظللت أعاني في صمت، وأتتبعها دون أن تلاحظني في بعض تجولاتها، وظل الأمر على هذا الحال إلى أن دخلت المدرسة الثانوية، وانتقلت من قراءة العشاق الحالمين في الروايات الرومانسية، حيث التوحد والعذاب

في صمت من أجل الحبيب. ووضعتني روايات نجيب محفوظ عن الواقعية النقدية على أرض صلبة، خصوصا بعد أن عرفت تضحية أحمد عاكف في «خان الخليلي» وانتهازية حسنين في «بداية ونهاية». ولكنني تعاطفت كثيرا مع «كمال» الذي ذرف الدمع من أجل «عايدة رياض» في «الثلاثية».

لكن كان العامل الحاسم الذي ألقى بي على أرض الواقع الخشنة محطما كل أحلامي وأوهامي الرومانسية هو مطلقة شابة تسكن في المنزل الذي نسكن فيه، كانت تعيش في الدور الأول في رعاية والدتها التي كانت تاجرة، تجوب أسواق القرى القريبة من المحلة لرعاية أسرتها، بعد أن توفي زوجها وقد زَوَّجَتْ ابنتها الشابة زواج مصلحة، أشبه بالبيع، لكن بعد فترة من الزمن، ملَّ الزوج من الزوجة الشابة، فطلقها، وبحث عن غيرها ليشتري. وعادت الشابة إلى بيت أمها المكافحة. وكنت أراها في غدوّي ورواحي، باسمة الوجه دائما، تبحث عن مبررات لتبادل الحديث معي، فقد كنت أقرب إليها عمرا، وكنت أفنديا في المدرسة الثانوية، وشيئا فشيئا دون أن ينتبه أحدنا، تعلق كل منا بالآخر، فكنت أعرج على شقتهم بعد عودتي من المدرسة. ولا أدري كيف انزلقت من هذا التعلق الذي ظننته بريئا إلى تعلق من نوع آخر، أبعد ما يكون عن الرومانسية، وكانت النتيجة هي الوقوع المقدور في شراك هذه الساحرة التي فتحت أمامي أبوابا من الغواية لم أكن أعرفها من قبل. فكنت كل مرة أذهب إليها، بعد أن ترحل أمها في الصباح الباكر جدا، حاملة بضاعتها لأسواق القرى المجاورة للمحلة. أحلف بيني ونفسي أن تكون هي المرة الأخيرة، وأخرج من عندها، وأنا أبكي بدمع صامت شعورا بالإثم، وأستحم مرارا كما لو كنت أغسل عن جسدي أوزار الخطيئة، وأبدأ صلاة طويلة أستغفر

فيها الله، وأدعو أن أكف عنها، وأقاوم غوايتها. ولكني أصبحت كالمدمن عليها للأسف، وكل مرة كنت أقوم بالفعل التكفيري نفسه، خصوصا بعد أن فتحت أمامي غوايات الجسد التي كانت تشدني بقوة إليها، وفي مقابلها تجذبني تربيتي الدينية، وتجذر الوعي الديني في نفسي. فقد دفعتني إلى فضاءات لم أقاوم غواياتها، خصوصا بعد أن اقتطفت الثمرة المحرمة التي أخرجتني من جنة الطهر والبراءة. وتعددت الغوايات والغاويات في هذه الفضاءات التي غُصت فيها كالرمال المتحركة، فقد كان كل ما فيها يجذب فتى لم يعرف سوى البراءة، ولكن الثمرة المحرمة التي قطفها، أو قطفت له، فعلت فيه ما يشبه سحر ألف ليلة، فانتقل من دنيا البراءة إلى دنيا نقيضة، كل ما فيها يخرس قوى المقاومة فيه، لكن هذه القوى كانت تستبقي من القوة ما يمكنها من عدم الاستسلام الكامل أو المطلق. ولذلك ظل الفتى الذي كنته ممزقا بين غواية الجسد وبراءة الروح، لا يرفع راية الاستسلام نهائيا، وكلما وقع فيما حسبه إثما سعى إلى التكفير عما فعل بالاغتسال والصلاة. وأصبحت بمعنى من المعاني شبيها بالليدي مكبث التي هَوّسها الشعور بالذنب بعد أن لطخ الدم يديها في الجريمة التي حَثّتْ على ارتكابها، فانتابها هوس تنظيف اليدين من الدماء التي ظلت تراها في تهوّسها بالشعور القاهر بالذنب. ولكن الأمر لم يقتصر على اليدين، في شعوري القاهر بالذنب، بل جاوزهما إلى الجسم، رغم تعجب والدي من هوس النظافة الذي تقمصني، مقرونا بهوس الصلاة. وحاولت الخروج من هذا العذاب بالاستعانة بمنقذ، يمنحني الخلاص أو الأمل. وأذكر أنني فعلت ما فعله بطل رواية «زينب» لهيكل، فذهبت إلى الشيخ عبد السلام أبو الفضل في جامع ابن عطاء الله القريب من المنزل، ربت الرجل على

رأسي، وقال لي : إن مجيئك إليَّ دليل على تأصل الخير فيك، قم تطهر واغتسل إن كنت لم تفعل، فأومأت له أنني فعلت مرارا، فأمرني بالصلاة، وقمت لأصلي، وأخذ الرجل عهدا عليَّ أن لا أعاود هذا الإثم مرة أخرى، وألزمني بحضور صلاة الفجر معه كل يوم. وهكذا، كنت أخرج يوميا، قبل أن تشرق الشمس، وأذهب إلى المسجد، واستمر الأمر على هذا الحال طيلة شهر كامل. وكان العلاج ناجعا، فقد انصرفت عن الغاوية التي فتحت لي أبواب الجنس المحرم التي أغلقها الشيخ عبد السلام بتسامحه الرحيم، فإذا بي أعود إلى ما كنت فيه : المواظبة على الصلاة، العودة إلى القراءة، توهج رغبة التفوق العلمي مرة أخرى.

إلى أن جاء يوم، كنت سائرا في طريقي، فإذا بي أواجه الحبيبة الأولى، ربة الإلهام والكتابة، فابتسمت عندما اقتربت مني، ومدت يدها لتصافحني، وأنا كالمنوم تنويما مغناطيسيا بسبب الابتسامة البريئة التي غمرت وجهها، فتذكرت الصفات التي عددها أبو القاسم الشابي في قصيدته «صلوات في هيكل الحب». وأراها تمضي في طريقها، بعد أن سألتني : لماذا لم نعد نراك؟ فأُرتِج عليَّ، لأني لم أكن أجرؤ أن أقول لها : شغلتني عنك شياطين الجسد التي أبعدتني عن ملائكية حضورك. وهمهمت ببعض كلمات غير مفهومة، لكنها قالت لي : كلنا في المنزل نسأل عن سبب غيابك عنا، فوعدتها بالعودة إلى زيارتهم، وتركتني ومضت في حال سبيلها، وظللت أنشد بيني ونفسي : عذبة أنت، كالطفولة، كالأحلام... وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتمثل فيها معنى صلوات الشابي في هيكل حبه. والعجيب أن هذا اللقاء بربة الوحي والإلهام كان الأخير، فقد شغلتني المذاكرة عنها، بعد أن أصبحت في المرحلة الثانوية، واقترب تحقيق الحلم الأكبر بأن أدرس

على يدي طه حسين، وأحقق معجزة تشبه معجزته، بعد أن أجلس على كرسيه.

وتحقق حلمي وأصبحت طالبا في قسم طه حسين، وكتبت على كل كشاكيل المحاضرات التي أسجّل فيها ما يقوله الأساتذة عبارة تؤكد أن الشاب إذا لم ينغمس في مغامرات عاطفية فإنه ينبغ في العلم. وكانت النتيجة أنني قاومت كل الغوايات الجسدية التي مررت بها، ومضيت في طريق العلم لا ألوي على شيء سواه. وأذكر أنني عدت إلى المحلة في عطلة ما بعد العام الدراسي الثاني، وكنت أمضي في الطريق إلى منزلي، قريبا من منزل الحبيبة الأولى، ربة الوحي والكتابة، وإذا بي أقابلها وجها لوجه، ولم أملك نفسي من التعبير عن دهشتي، لا لأني رأيتها فحسب، وإنما لأن وجهها وجسمها تغيرا تماما، كأنها هبطت من عليائها، واكتسبت غير الصورة التي حفظتها ذاكرتي وصانها وجداني. كانت قد امتلأت بالشحم واللحم، وفقد وجهها بسمته الصافية كأوراق الورد في الصباح الندي. وحل محل البسمة نوع من الملامح المستسلمة المذعنة لصعاب الحياة اليومية، وجسدها النحيل تحوّل إلى جسد شحيم وبطن منتفخ، فقد كانت حاملا في شهورها الأخيرة. وبادلتها السلام، وعيناي تكاد أن تقول لها : ما هذا الذي فعلته بنفسك أيتها العذبة كالأحلام وابتسامة الوليد؟! وكأنها أدركت ما كادت تقوله عيناي فحدثتني عن زوجها الموظف البسيط، وعن حملها، وعن اضطرارها للعمل لكي تساعد زوجها محدود الدخل، فهذا هو واجبها الذي توارثته عن أمها، كما توارثته أمها عن جدتها.

وتركتها وأنا أدعو لها بالتوفيق، وأرثي في نفسي الحلم الذي انطويت عليه، والذي انتهى بعد أن أذابته شمس الواقع القاسية، واقتنعت بما كتبه

إحسان عبد القدوس في «الوسادة الخالية» من أن الحب الأول وهم، تصنعه أحلام الصبا البريئة، لكنها تبقيه في نفوسنا ذكرى لزمن جميل مضى ولن يعود أو يتحقق، لكن على الرغم من ذلك تبقى صورة الحبيبة الأولى، كالحب الأول، نضرة في الذاكرة، عذبة كالطفولة والأحلام. وأظن أن هذا هو السبب الذي جعل محيي الدين بن عربي يحدثنا عن الفارق بين الصورة الخيالية والصورة المادية. الأولى تبقى في الذاكرة بعيدة عن سهام الأزمان وغوائل الأحداث. والثانية تتأثر بالزمن وتتغير بتعاقب الأيام والسنوات. وذهب ابن عربي إلى أن مجنون ليلى ظل يحب صورة ليلى الأولى التي حفظها لها، في خياله، مبرأة من كل نقص أو عيب. ولولا ذلك ما قال أحمد شوقي على لسان قيس في مسرحيته الشهيرة عن مجنون ليلى:

لَـــمْ تَـــزَلْ لَيْلَى بعيني طِفْلَةً   لَمْ تَـــزِدْ عَـــنْ أمـــسِ إلَّا إِصْبَعَا

وقد فعلت مثلما فعل قيس بن ذريح، نسيت صورة ربة الوحي والكتابة، الحامل التي كسر الزمن براءتها. وتحالفت مصاعب الحياة مع الزمن لإزالة ملامح الوجه البشوش البريء الذي لا أزال أضمه إلى جوانحي، معتزا به، حريصا عليه، فهو ذكرى عزيزة من زمن جميل مضى، ولم أعد أومن بما قاله أبو تمام: «ما الحب إلا للحبيب الأول». ولا حتى ما قاله حجازي عن المرأة التي لا تنسى فارسها الأول، أو ما كتبه يوسف السباعي عن الحبيبة التي يظل يتذكرها الحبيب كلما غربت الشمس التي تشهد على أن حبه لها خالد لا يموت، وأصبحت مؤمنا بما كتبه إحسان عبد القدوس عن الحب الأول الذي تجعله الأيام حلما، تنسجه أوهامنا، كي تنقضه أنامل الزمن، فلا يبقى منه سوى النسيان أو الذكرى الجميلة

كما حدث معي في حبي الأول الذي سرعان ما نسيته بعد لقائي الأخير مع صاحبته، وأسلمت نفسي لطريق العلم الذي قادني إلى حب آخر أكثر واقعية، وقدرة على مقاومة أحداث الحياة بخيرها وشرها، حلوها ومرها. لكني أدركت، أخيرا، بعد أن اشتعل الرأس شيبا، ما كنت أدركه حدسا من قبل، وهو أن الحياة نفسها لا معنى لها دون حب دائم، فالحب هو اللهب المقدس الذي يمنحنا القدرة على الإبداع، تماما كما يمنحنا الإبداع القدرة على الحضور في الوجود.

اكتشاف سحر القص

لا أعرف لماذا بدأت رحلتي مع الكتّاب بالرواية على وجه الخصوص؟! مؤكد أنني كنت أعرف الشعر في صباي البعيد، وكنت أحفظ بعض قصائد الشعر التي كنت أدرسها في المدرسة، وكان الأستاذ أحمد شلبي أستاذ اللغة العربية، في مدرسة الأقباط، هو أول من جذبني إلى عالم الشعر، سواء بقراءته التي كنت أراها بالغة العذوبة، في ذلك الزمان، لقصائد الشعر وتعليقه عليها، وأظنه كان شاعرا ومتذوقا للشعر، حفيا به، بارعا في إنشاده، وتنغيم صوته، وقت الإنشاد. ومن المؤكد أن إنشاده كان يدفعني إلى التأثر بما ينشد، أو يقرأ، وكنت، في مطلع الصبا، أحفظ على الفور ما أهتز لسماعه. ومع ذلك لم يكن الشعر هو مجال إبحاري الأول في عالم القراءة، فقد سرقتني دنيا القص من الشعر، ودفعت بي إلى عوالمها الساحرة. وربما كان ذلك بتأثير ما قرأته منذ عهد باكر جدا، سواء القص الديني الذي طالعته في قصص الأنبياء للثعالبي، أو ألف ليلة وليلة، وكلاهما كتابان اشتريتهما من حر مالي، بعد أن ادخرت من مصروفي الخاص ما أتاح لي شراءهما. وكان من اليسير أن أفرغ من كتاب الثعالبي الذي أذكر أنه كان في جزء واحد، يسهل على من كان مثلي أن يلتهمه في يومين على وجه التقريب، مزيحا كتب المدرسة جانبا، خصوصا الكتب غير الأدبية التي لم تكن تغوي بالقراءة، شكلا ومضمونا. وربما كان الحس الديني المبكر هو الذي دفعني إلى البدء بالثعالبي، والاتحاد الوجداني

مع قصص الأنبياء، خصوصا ما كانت تتضمنه من خوارق ومعجزات، وشخصيات نقية كالملائكة، مقابل شخصيات مناقضة كأنها الشياطين التي تتقمص صور البشر. وما أن انتهيت من الثعالبي حتى هرعت إلى ألف ليلة وليلة، بأجزائها الأربعة التي عرفت فيما بعد، وبعد أن تعمقت في دراسة الطبعات القديمة لألف ليلة، أن طبعتها الأولى في المطبعة الأميرية التي أنشأها محمد علي في بولاق كانت في مجلدين فحسب، راجعهما وذيل الجزء الثاني منهما الشيخ عبد الرحمن الصفتي الذي كان أحد علماء الأزهر البارزين، ومر أكثر من عقدين من الزمان نفدت فيهما طبعة الشيخ عبد الرحمن الصفتي، وكان لابد من طبعة جديدة، تولاها وأشرف على تصحيحها الشيخ قطة العدوي الذي أخرج حكايات الليالي في أربعة أجزاء، هي الأجزاء التي لا تزال أكثر تداولا إلى اليوم، والتي لا تزال تصدرها المطابع المتخصصة في هذا النوع من المأثور الشعبي الذي يجمع، إلى جانب الليالي، السير والملاحم المختلفة، وغيرهما من السرديات التي نجدها في المطابع والمكتبات القديمة التي لا تزال قائمة في حي الحسين والأزهر، مثل مكتبة صبيح والحلبي وغيرهما من المكتبات الأحدث التي تعوّدت الذهاب إليها في المرحلة الجامعية، وكان في صحبتي، دائما، الشيخ رمضان، رفيق مجموعة أصدقاء المحلة الكبرى التي وصلت بينها، إلى الآن، محبة الكتاب التي قادت إلى محبة الأدب.

كل هذه أشياء متأخرة، ارتبطت بمعارف متأخرة، حين جاوزت مرحلة الصبا الباكر، لكن ما لا يمكن أن أنساه، في مرحلة الصبا، هو اقتناء الأجزاء الأربعة من ألف ليلة، ولا أزال أذكر أنني قرأت اسم الشيخ قطة العدوي على صفحة الغلاف بوصفه المراجع اللغوي والمشرف على الطباعة. وبالطبع لم تكن النسخة التي اشتريتها هي الطبعة التي صدرت

عن مطبعة بولاق، وإنما إحدى الطبعات المستنسخة منها بفضل مطبعة أحدث، اتخذت من إعادة طبع وبيع الطبعات المأخوذة عن طبعة الشيخ قطة القديمة مصدر رزق لها.

المهم أنني حصلت على مجلدات ألف ليلة الأربعة، وأخذت ألتهمها واحدا بعد الآخر، وأحسبني تقمصت شخصية السلطان الجبار الذي سحرته شهر زاد التي جمعت بين جمال الخلقة ورجاحة العقل، وتطوعت لتتزوج السلطان لكي تحمي بنات جنسها من بطشه، خصوصا بعد أن جنّ جنون السلطان الذي ذهب ليسرِّي عن أخيه الذي خانته زوجته، وعاد من عند أخيه دون إعلان ليفاجأ بالحقيقة الموجعة، وهي أن زوجه التي لم تكن تكف عن التظاهر بحبه، كانت تخونه بدورها، ومع عبد حبشي زنيم، كان لابد من قطع رأسه والتمثيل بجثته، عقابا له على الجرم الذي ارتكبه في حق سيده، والجحود الذي بدا أنه فُطِر عليه، والذي كان سواد وجهه وقبح خلقته علامة عليه. وأحسب أن ألف ليلة هي النص الأدبي الأول الذي كرّس في وعيي كراهية فطرية، ظلت مستقرة في اللاشعور طويلا ناحية السود الذين كانت حكايات الليالي تصورهم دائما، بوصفهم كائنات جاحدة، ناكرة للمعروف، مطبوعة على الشر والإثم والخيانة، لا أمان لها، ولا ينال من يثق فيها إلا أوخم العواقب، وأظن أن مصدر هذا الازدراء للسود الذي تقرنه ألف ليلة وليلة بالحضور المدان، سلفا، للسود المتناثرين على صفحاتها، كان نوعا من التجاوب مع الكتب التراثية التي ظلت تزرع وتروي وترعى بذور التمييز العرقي في الثقافة العربية القديمة التي انتسبت إليها ألف ليلة. أعني الثقافة العربية التي شاركت غيرها من الثقافات في التمييز نفسه ضد السود، ولنتذكر ما كنا قد أخذنا نعرفه من وقت بعيد عن

عنترة بن زبيبة الحبشية الذي كان ينتسب إلى أمه تحقيرا له، وزراية به، على طريقة العرب التي تنسب الأدنى منها إلى أمهاتهم على سبيل التهوين من شأنهم، فمن لا يجوز نسبته إلى أبيه فالنسبة إلى أمه علامة على هوان مكانته الاجتماعية ووضاعة أصله على السواء، يشبه عنترة في ذلك السُّليك بن السلكة وقيس بن الحدادية من صعاليك العرب في الجاهلية.

ولذلك لم يستغرب الصبي، الذي كان في داخلي، خيانة العبد الزنيم الذي اعتدى على شرف سيده، ومولاه، شهريار، ولم نأبه كثيرا بقتل شهريار لزوجه الخائنة، بقدر ما انتبهنا لقراره الزواج كل يوم بامرأة جديدة، يتمتع بها طوال الليل، ويقتلها في الصباح، كي لا تتكرر جريمة الخيانة التي ظلت جرحا داميا لا يتوقف عن الإيلام والنزف. وعندما ضجت المدينة من كثرة قتل الملك للأبكار من فتياتها، ولم يكن هناك من يستطيع أن يوقف شهريار عن الاستمرار في انتقامه الرهيب، تقدمت شهرزاد، ابنة الوزير الحكيم الذي ورثت حكمته، وجمعت بفضل حسن رعايته بين علوم الأوائل والأواخر، والعرب والعجم، قرأت ودرت كما تصفها الليالي، وأعلنت لوالدها أنها قررت أن تتزوج الملك لكي توقف استمرار النزعة الوحشية التي سيطرت عليه، وأن تعيده إلى صورته الإنسانية بفضل السحر الذي تمتلكه، وهو سحر الحكايات العجيب الذي يوقظ الإنسان من أعماق الوحش، ويحرر الملك المتسامح من وحشية الملك المنتقم الجبار. ولا تفلح مقاومة الأب، فيرضخ في النهاية لابنته التي طلبت أن تصحبها أختها دنيازاد لتؤدي دور البطل المساعد. ويتم الزواج، وتستهل شهرزاد حكاياتها التي تحثها على أدائها أختها دنيازاد، ويبدأ سحر الحكي

مفعوله في السلطان الباطش، وتتوقف شهرزاد مع علامات الصباح عند نقطة حاسمة في الحكي، وتترك الملك نهب الفضول المتأجج في معرفة ما انتهى إليه الحكي! وتمهله شهرزاد إلى يوم آخر، فيتركها الملك تنام آمنة، وينام هو، أيضا، ناسيا ما قطعه على نفسه من عهد بأنه لابد أن يقطع رأس امرأة (فتاة) جديدة، بعد نيل وطره منها كل يوم. وتتكرر حيلة شهرزاد، ويؤجل شهريار قراره كل يوم، إلى أن تمضي الليالي، وتعقب الليلة الأولى عشرات، بل مئات الليالي إلى أن نصل إلى الليلة الأولى، بعد الألف، فيكون الملك قد برئ مما فيه، وفارقته رغبته الوحشية في الانتقام تدريجيا، إلى أن يستعيد أجمل الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الملك الصالح من حكمة وتسامح وغفران ونسيان لذكريات الشر التي يستبدل بها ذكريات الخير، وتكون شهرزاد في منجاة تامة من بطش الملك الذي استعاد إنسانيته ورحمته بفضل القص الذي أصبح يرادف الحياة التي تنتزع حضورها من الموت. وفي الوقت نفسه يتأكد دور القص، من حيث هو إشارة إلى غيره من أنواع الفن، بوصفه السحر البشري الذي يحيل العدم إلى وجود، والنزعة الحيوانية إلى نزعة إنسانية ترتقي بالكائن إلى ذرى التسامي النبيل والإيثار الكريم وليس القص. من هذا المنظور، سوى القدرة على تحرير الوجود، والارتقاء به من وهاد الضرورة إلى آفاق الحرية، وتحرير الوعي من العوامل التي تعكّر عليه صفو الرؤية، كي يرى أوسع مما اعتادت حدقتاه على الرؤية، فيرى الجمال في النظام، ويفرض النظام على الفوضى. أما شهرزاد التي تحولت إلى رمز للمبدعة فقد نالت مكافأتها، فحررت بنات جنسها. ونقلت حياة الملك من جدب العقم، كي تشارك

في غنى الخصب، فتحمل من الملك ما يضمن له استمرار ملكه، وتواصل قيمه الجديدة، ويقر الملك بفضل شهرزاد، فيمنحها الحق المقدس في الحياة، ويبقيها إلى جانبه، حرصا على حضور الحكمة المقترنة بالعدل، والمعرفة النافية للشر المرتبط بالجهل، والنزعة الإنسانية النافية للنزعة الحيوانية.

وبالطبع لم أنتبه إلى كل هذه الدلالات، وأنا قابع في ركن صغير من البيت، ألتهم أسطر ألف ليلة بعيني مراهق يثيره مشهد الأجساد العارية، ويستثيره تتابع الأحداث كأنه يشاهد أفلام مغامرات لا تنتهي، ولا يريدها المشاهد أن تنتهي. ومن يدري؟ لعلي كنت أستجيب، لا شعوريا، إلى الميراث الثقافي الذي انطويت عليه، والذي كان معاديا للمرأة إلى أبعد حد، ولا أزال أذكر من مرويات هذا التراث ما يقول: النساء شر كلهن، لا تثق بامرأة، ذلّ من أسند أمره إلى امرأة، من علامات اقتراب الساعة طاعة النساء، لا تطلعوا النساء على حال ولا تأمنوهن على مال، كرامة النساء دفنهن. وهل يمكن أن أنسى الأبيات التحذيرية التي تستهل بها ألف ليلة حكاياتها بقولها:

لَا تَـأْمَنَـنَّ إلى النِّسَـاءِ ... وَلَا تَـثِـقْ بِعُـهُودِهِـنْ
يُبْـدِيـنَ وُدًّا كَـاذِبًـا ... والـغَـدْرُ حَشْـو ثِيَابِهِـنْ
بِحَـدِيـثِ يُـوسُـفَ فَـاعْـتَـبِـرْ ... مُـتَـحَـذِّرًا مِـنْ كَيدِهِـنْ
أَوَ مَـا تَـرى إبـلـيـسَ أخْـرَجَ آدمًـا مِـنْ أجْلِهِـنْ

وأغلب الظن أن هذا الميراث القائم على التمييز ضد المرأة لا يزال يمارس تأثيره في الأجيال المتلاحقة، خصوصا تلك الأجيال التي لم تنل قدرا كافيا من التعليم القائم على المساواة بين الرجل والمرأة، أو - على الأقل - تحرير المرأة من هذه النظرة المزدرية لها. ويبدو أن مثل هذا الموروث انسرب إلى «الليالي» وظهر، مثلا، في حكاية المرأة التي خطفها جني، ظن أنه يستطيع ترويضها لرغباته، والهيمنة المطلقة عليها، لكن المرأة التي خطفها استطاعت بما فطر عليه جنسها من دهاء ومكر أن تتغلب عليه، وأن تخونه كلما نام وغفل عنها، ويظهر ذلك عندما تلتقي بعابري سبيل، إن لم تخني الذاكرة، فتغويهما كي يأثما معها، وبعد أن يفعلا ما أرادت تأخذ خاتميهما، وتضعهما في خيط، يضم عشرات الخواتم التي تدل على عدد المرات التي استغفلت فيها الجني الذي رأى نفسه قادرا على حجزها لنفسه دون شريك، ناسيا أن المرأة الأولى هي التي أخرجت آدم من الجنة، وأن امرأة العزيز هي التي دبرت ليوسف الذي لم يستجب لغوايتها أمر المكيدة التي ألقت به في السجن. ولكي تؤكد الليالي هذه الترابطات الدلالية التي تسجن المرأة في دائرتها، في مدى الخيانة والغدر، فإنها تضيف حكايات كثيرة لخيانة المرأة التي يتسم جنسها كله بصفات السلب. ويبدو أنني بقدر استجابتي لهذه الصورة السلبية للمرأة في ألف ليلة، دون أن أنتبه أن جنس المرأة هذا يشمل أمي وأختي وقريباتي اللائي لم أر فيهن هذه الصفات السلبية، مضيت على ما أكدته النظرة السلبية إلى المرأة في ظاهر نص ألف ليلة، فقد كنت أصغر من أن أضع أفكاري موضع المساءلة، أو أزن الموروث الذي يؤكده ظاهر الليالي بميزان العقل، إلى أن تعاقبت السنوات، وتركت سنوات المراهقة، إلى سنوات المعرفة الناضجة،

والقراءات الواسعة، فأخذت أنتبه إلى أن «ألف ليلة» - ككل نص يشبهها - له ظاهر وباطن، وأن ألف ليلة، من هذا المنظور، تشبه «كليلة ودمنة». أعني أن شهرزاد هي الصورة الأنثوية للحكيم بيدبا، كلاهما قرأ ودرى، وجمع بين علوم العرب والعجم، وأتقن معارف الأوائل والأواخر. وكلاهما يواجه بسحر القص سلطانا باطشا، ينتهي الأمر بكليهما إلى ترويضه بما يؤكد انتصار العقل على عنف القوة الجسدية، وكما يحدث في حكايات «كليلة ودمنة» حين تنتصر هاتان الثعلبتان الصغيرتان على أكبر الحيوانات وأضخمها وأكثرها بطشا وفتكا، فإن العقل الذي يمثله بيدبا ينصره على السلطان دبشليم الذي يعنو لحكمة الحكيم في آخر الأمر، ويتخذه مرشدا له ودليلا يقوده إلى الحق والخير والجمال، فإن العقل نفسه الذي تمثله شهرزاد ينتهي إلى النتائج نفسها، فتقوم الحكايات بتقليم أظافر شهريار الوحشية، وقص هذه الأظافر تماما في النهاية، ويكتمل سحر الحكايات بتحويل شهريار من صورته الوحشية إلى صورته الإنسانية، مستبدلا - أي سحر الحكايات - بسفاح النساء عاشق الجمال البريء، صاعدا منه إلى المحب الحاني الذي يتخذ من شهرزاد زوجا وحبيبة وأما لأولاده على السواء.

ولكي تؤكد ألف ليلة هذا المعنى، كما تفعل كليلة ودمنة، فإنها تخلق لممثلي العقل معادلين موضوعيين من جنس الحكي، فتضع حضور كليلة ودمنة في موازاة بيدبا، بينما تضع شخصيتَي الأسد والثور في موازاة دبشليم، ويحدث الأمر نفسه في ألف ليلة وليلة، حين يضع السرد الجارية تودد في موازاة شهرزاد، وتجعل الكثير من قصص الحب تنتهي بالانتصار على العقبات التي ما كان أحد يتوقع الانتصار عليها، بل تعاقب الآثمين

الذين يخرجون على قيم الشرائع، كما حدث في حكاية الأخ والأخت اللذين يقعان في المحظور، ويتعلق كلاهما بالآخر، ويبنيان لهما سردابا تحت الأرض، بعيدا عن رقابة الناس ووالدهما الملك، لكنهما ما كادا يهمّا بارتكاب زنا المحارم حتى تهبّ عليهما نار تحرقهما معا، فلا تترك منهما سوى عظام متفحمة، وتحيل كل ما في السرداب إلى رماد، يشهد بأن عين الله لا تنام حتى لو نامت أعين البشر. هكذا ينتصر الخير على الشر، دائما، في ألف ليلة وليلة، والعدل على الظلم، وذلك في عالم تسقط فيه حدود الزمان والمكان، ويتعايش الإنسان مع غيره من الكائنات التي يعرفها ولا يعرفها، فندخل – نحن القراء – إلى فضاءات تجاوز الواقعية السحرية، كي نجد أنفسنا في مواجهة السحر ورقاه التي تخرج الكائن من صورته الإنسية إلى صورة حيوانية، بفعل ساحرة عجوز، أو ساحر شرير. وتحمل الطيور الضخمة ، (ومن ينسى الرخ في ألف ليلة وليلة) الإنسان من مكان إلى مكان آخر بالغ البعد، أو من قمم الجبال إلى الأرض. ويتنكر الشيطان في هيئات كثيرة، منها هيئة الشيخ العجوز الذي خدع سندباد في إحدى رحلاته، وحمله السندباد على كتفيه فأطبق قدميه على رقبة السندباد، ولم يتركه إلا بعد أن احتال عليه السندباد بالشراب من أعناب مسكرة، حتى إذا تعتعه السكر ألقاه السندباد، ضاربا رأسه – أي الشيطان – بحجر، كي ينقذ غيره من شره. وكما نرى تعدد صور الشيطان وتحولات العفاريت، ما بين الخير والشر، نرى حوريات البحر، والبنات اللائي يرتدين الأجنحة، إذا خان من ائتمنه على السر، فالحفاظ على السر كالوفاء بالعهد من القيم التي تضرب لها الليالي المثل بعد المثل. ودائما، يتكرر الرقم الثلاثي والسباعي، ابتداء من تعدد السكك أمام المرتحل: سكة السلامة، وسكة

الندامة، وسكة اللي يروح ما يرجعش. ويبقى الغدر كأنه طبيعة إنسانية مثل بقاء السحر والساحرات. وينطوي الأبطال على رغبة المعرفة التي لا تهدأ، وأوضح ما يكون ذلك في رحلات السندباد، فالسندباد كالإعصار إن يهدأ يمت، وكل رحلة للسندباد اكتشاف لأفق جديد، ولابد من دفع ثمن رغبة الاكتشاف التي تدني بالسندباد، دائما، من حافة الهلاك، ولكن عناية الله تنجيه، فيما يشبه المكافأة على تأجج رغبة المعرفة في الإنسان، ابتداء من البحث عن التركيب الكيميائي الذي يحيل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، وانتهاء بالأسفار التي تجوب الأرض والبحر لتعرف كل ما تزخر به المعمورة الفاضلة من نفائس المعادن والمعارف والحكايات التي تكتب بالإبر على آماق البصر.

ولا أنسى الحضور اللا نهائي لصور المرأة الذي كان يسحر عيني الصبي الذي كنته ملتهما الأسطر والصفحات، كأنني واقع في أسر سحر من ذلك الذي وقع على شهريار وعلى دبشليم فتحولا إلى كائنات أغنى وأكمل، وأكثر رغبة في معرفة المزيد من القص، والتحليق أكثر وأكثر في عوالمه التي لم تنته إلا بالنضج، لكن بما يجعل أثر السحر باقيا لا يبلى مع الأيام. وأحسب أن «ألف ليلة» لم تكن غوايتي الأولى فحسب، بل الجسر الذي انتهى إلى اكتشاف الرواية، والمضي في اكتشافها إلى أن أدركت أننا نعيش «زمن الرواية». وهو عنوان الكتاب الذي أثار، ولا يزال يثير، الجدال حوله منذ أن صدر سنة 1999.

رواياتي الأولى

عندما أسترجع الكتب التي كنت أقوم باستئجارها أو شرائها من عربة العم كامل أو الذين لحقوا به من الذين تعلموا الحرفة على يديه أجد أن أغلب الكتب التي كنت أشتريها كانت روايات، كأني كنت أتنبأ على نحو غير مباشر، ودون أن أنتبه، أن الزمن القادم هو زمن الرواية. صحيح أنني كنت أعثر بين حين وآخر على ديوان شعر، فقد عرفت الطبعات الأولى من ديوان شوقي، وبعده ديوان حافظ إبراهيم، وبعده الرومانسيين من أمثال : أبي القاسم الشابي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي، قبل أن أعرف جيل صلاح عبد الصبور، سواء من عربات اليد التي كانت تتيح لنا الحصول على مثل هذه الدواوين، أو من المكتبات التي كنا نقرأ فيها، أو نستعير منها هذه الكتب وغيرها. ولكن الرواية كانت تجذبني أكثر من غيرها، ربما بسبب اكتشاف سحر القص الذي وجدته في ألف ليلة وليلة، وربما لأن أي رواية تقوم على سرد، يحمل القارئ على أجنحة الخيال، محلقًا به ليرى تفاصيل الواقع الذي يشبه واقعه من منظور جديد، فيزداد خبرة وثراء في تجاربه الإنسانية، ذلك لأن كل عمل روائي هو، في واقع الأمر، تجربة إنسانية لفرد أو أفراد، تواجههم أحداث الحياة، أو يواجهونها، متيحين للقارئ تجارب لم يكن يملكها من قبل، فيزداد هذا القارئ غنى، خصوصا حين يضيف إلى تجاربه المحدودة تجارب البشر غير المحدودة، فتتسع دائرة خبرته بالحياة، ومعرفته بخيرها وشرها، فضلا عن نماذجها العديدة

التي هي، في نهاية الأمر، موازيات رمزية لما هو واقع في الحياة، لكن بما يضيف إلى النماذج الموجودة ما يمكن أن نسميه رؤية العالم. وما أذكره، جيدا، بعد كل هذه السنوات الطوال، أن دواوين الشعر كانت قليلة على عربة العم كامل ومن مضى على دربه، وأن الأكثرية كانت للروايات التي ظلت تجذبني ولا تزال.

وبالطبع، كان لابد أن نعثر على روايات جيل الروّاد الذين عاصروا ثورة 1919، وكان إبداعهم من غرسها، وكانت البداية، إن لم تخني الذاكرة، لكن بما يؤكده التاريخ رواية «زينب» التي كتبها محمد حسين هيكل، وأصبحت فيلما ناطقا، بعد أن كانت فيلما صامتا. وأذكر أن الفيلم هو الذي دفعني إلى البحث عن الرواية، فقد كانت تقوم بدور زينب راقية إبراهيم، وكان الحبيب الذي حرمها الفقر منه هو يحيى شاهين. وكان جمال زينب فاتنا في الفيلم، كما في الرواية. وأحسب أن الذي وصلني بها، كما وصلها بأبناء جيلي، هو هذا الجانب الرومانسي الذي جعل الرواية نسخة أخرى من «غادة الكاميليا» التي كان عليها أن تضحي بحبها في سبيل الحبيب الذي كان أحب إليها من الحياة نفسها. وكانت «زينب» المصرية نسخة ريفية من «غادة الكاميليا» الفرنسية. ولم أكن وصلت إلى درجة الوعي النقدي الكافي للمقارنة والنقد التحليلى، لكن فكرة الحب، والتضحية بالحياة التي لا تغدو لها قيمة بعد موت الحبيب، كانت تيمة رومانسية لابد أن تجتذب الذين بلغوا مرحلة المراهقة من أمثالي. ولذلك كانت رواية «دعاء الكروان» أقرب إلى وجدان مراهقتي من «الحب الضائع» و«أحلام شهرزاد» بل و«شجرة البؤس» التي أنسانا جمالها اللغوي مأساة أبطالها التي جعلها الكاتب عبرة للذين يجدون ما لا ينفقون. والذين لا يجدون

ما ينفقون ولكن درة طه حسين الفريدة التي غطت على «أحلام شهرزاد» و«شجرة البؤس» التي تعاطفت مع فقر أبطالها وأجيالها التي تتوارث البؤس كما لو كان قدرا مقدورا هي «الأيام» التي لم يدن منها عمل روائي، أو سيرة ذاتية، في عقلي وقلبي، فقد كانت كشفا عن سر معجزة حيرتني طويلا، وإجابة عن سؤال لم أجد إجابته المضمرة إلا في «الأيام» التي كانت، ولا تزال، مفتاح السر الذي قادني إلى اكتشاف أسباب «المعجزة» التي أصبح عليها طه حسين، ذلك الكائن الاستثنائي الذي أصابه الجهل بالعمى، والفقر بعذاب المحرومين من الفقراء، ويا لسحر المشهد الذي ينساه فيه أهله، وينزلون دون أن ينتبهوا إليه في القطار، كأنه إحدى قطع الأثاث المهجورة التي لم ينتبه أحد إلى حضورها، في هرولة النزول من القطار كما لو كان حضورها وغيابها يستويان .

وقد مستني «الأيام» وسحرتني إلى درجة قلبت مجرى حياتي رأسا على عقب، فقد علمتني أنه لا شيء مستحيلا مع الإرادة، ما ظل الإصرار موجودا، والقدرة على مغالبة الدنيا قائمة، فذلك هو الذي أحال فقر طه حسين إلى غنى، وعماه إلى بصيرة ترى ما لا يراه المبصرون، وجهله إلى معرفة لم يختزنها لنفسه، بل سعى إلى مشاركة الآخرين فيها، فما أن جاءه منصب وزير المعارف العمومية، في وزارة النحاس، وأظنها الأخيرة، حتى أصَرّ على أن يكون التعليم كالماء والهواء، حقا لكل مواطن. والمؤكد أنه لولا هذا القرار ما دخلت الشرائح الدنيا، من أبناء الطبقة الوسطى التي أنتمي إليها، مجال التعليم وتفوقت، نموذجها الأول طه حسين الذي أوصله العلم إلى كل ما كان يفوق سقف أحلامنا، فأصبح وزيرا، وعميدا للأدب العربي، ورائد مدرسة حديثة في النقد الأدبي والدرس التاريخي.

وكان هذا كافيا لمن كان مثلي، في ذلك الزمن البعيد، لكي أجعل من طه حسين مثالا أحتذيه، وقطبا أتعلم من كتبه، وأسعى إلى أن أكون مثله دارسا للأدب العربي بمنهج جديد، ومثقفا يصل معنى الجامعة بعملية تطوير المجتمع وتحديثه، مؤكدا الدور الحيوي للأستاذ الجامعي الذي لا يغلق على نفسه أسوار الجامعة، بل يصلها بالمجتمع خارجها، ويجاوز برسالته حدود الجامعة الضيقة مهما اتسعت إلى حدود المجتمع الأوسع. ولولا ذلك ما كان إنجاز طه حسين على مستوى المنهجية الجامعية، ولا إنجازه الموازي على مستوى الحياة الثقافية العامة التي حقق فيها الكثير، واصلا بين الخاص والعام.

وأحسب أن هذا النموذج على وجه التحديد هو الذي أسرني في «الأيام»، أعني نموذج الطفل الصغير الذي يركب بساط المعرفة السحري الذي تحركه رياح الإرادة، والرغبة في مجاوزة شروط الضرورة إلى التحرر الكامل من عوائقها ، والانتصار الكامل على قيود الفقر والجهل والمرض. أما لغة الأيام فكانت أمرا آخر، بدا لي أنه إعجاز لغوي ساحر، حققته قدرة طه حسين على التأمل في الذات التي انقسمت على نفسها، لتصبح ذاتا فاعلة للتأمل واسترجاع الماضي لكي تغدو هذه الذات موضوعا للمراجعة، وذاتا مفعولا بها، أعني موضوعا للتأمل الذي تنظر به الذات إلى نفسها، كأنها تنظر إلى ما يشبه الضمير أو الوعي على حد سواء. ولم يكن من الغريب، والأمر كذلك، أن تغدو «أيام» طه حسين مرآته التي يجتلي فيها تاريخه كله، ويسترجع ماضيه متأملا فيه، ليسترجع عناصر القوة التي جعلته يحتمل «الأيام» الصعبة التي مرّ بها، والتي يمنحه تأملها طاقة تعينه على الأزمة النفسية العنيفة التي عاناها، بعد أن نشر كتابه «في الشعر

الجاهلي» 1926 فقامت الدنيا ولم تقعد، وناله أذى كبير، هدد سلامته الشخصية، وسلامة أسرته على نحو ما تحكي زوجه سوزان - في كتابها «معك» - وآذى والده الذي كاد يظن بابنه السوء، كما لو كان هذا الابن تخلى عن عقيدته التي أنشأه عليها الأب. ولذلك اختار طه حسين لكتابه أسلوب ضمير المتكلم غير المباشر الذي يقوم بتجريد المتكلم، ويتيح له الكلام عن نفسه كأنه آخر، بما يتيح للذات قدرة التأمل في حضورها كما لو كانت تطالع نفسها في مرآة فعلها في الوجود الحي لصراعها مع الحياة.

وبالتأكيد فإن هذا كله، وغيره، هو ما جعلني أقترب من «الأيام» التي لا أزال أعاود قراءتها بلا ملل، ذلك في الوقت الذي نفرت فيه من «سارة» العقاد، فلم أستطع إكمالها، ولا التعاطف مع بطلها همام الذي خانته حبيبته، وربما كانت على حق، فمن تلك التي تحتمل ثقل ظل هذا الحبيب الذي لا يكف عن فلسفة الأشياء، ويكتب عن حبه بطريقة جافة، لا نضارة فيها، إلى أن ينتهي الحب، وتتركه الحبيبة إلى غيره، متجاهلة مكان هذا الحبيب، وتصوره عن نفسه. ولقد أجبرتني كثرة الكتابة عن «سارة» الرواية على قراءتها حتى النهاية، فقلت لنفسي : خيرا فعل العقاد عندما لم يكتب غير هذه الرواية. ولم آبه كثيرا بما أبداه من ازدراء لفن الرواية على صفحات كتابه «في بيتي». وما أسخف قوله : إن الرواية ينطبق عليها القول عن الخرنوب : قنطار خشب ودرهم حلاوة، فهذا القول كان ينطبق على الكثير من كتابته في وعي الفتى الذي كنته. وبقدر ما كرهت «سارة» أحببت «عودة الروح» و«يوميات نائب في الأرياف» و«عصفور من الشرق»، فقد كان أسلوب الحكيم سلسا بسيطا، ودرجة الحوارية عالية، ولغة المنظور غالبة، بحيث جعلتني الرواية أشعر كأني إزاء مسرحة للأحداث، أو - على الأقل - أقرأ

رواية متأثرة ببنية المسرح، سواء في محدودية الأماكن، أو اعتماد الرواية على الحوار، أو اللغة التي تجعلنا نشاهد ما يجري في سياقات السرد كأننا نراه، فضلا عن خفة ظل الكاتب التي تظهر في بنائه للأحداث. ولا أنسى مشهد الطبيب الذي يدخل الغرفة الكبيرة بأسرَّتها العديدة التي نام عليها كل أفراد الأسرة، مصابين بالبرد، كأنهم جسد واحد، يصيب الكل فيه ما يصيب البعض، والعكس صحيح، ولا غرابة في أنهم يقعون جميعا في حب فتاة واحدة، سنية. وهي فتاة مهزارة، فهمت - فيما بعد - أن الحكيم أرادها رمزا لمصر، كما جعل روح الجماعة والحركة الجماعية المتحدة، في الرواية، موازيا سرديا للأسطورة الفرعونية عن نهوض أوزيريس بعد أن جمعت إيزيس (مصر) أشلاءه المتناثرة، ويأتي ولده حوريس ليطالبه بالنهوض، تماما كما نهضت مصر في ثورة 1919. وأعترف ان خفة ظل كتابة توفيق الحكيم، وقدرته على السخرية الباسمة هي التي جعلتني أبحث عن بقية أعماله، فأقرأ «يوميات نائب في الأرياف» وأهيم مع الموال الذي كان ينشده المجذوب الشيخ عصفور، إن لم أنس الاسم، وهو يغني: «ورمش عين الحبيب يفرش على فدان». وتشغلني الجريمة الغامضة التي شغلت وكيل النيابة في الرواية، ولكني لم أهتم كثيرا بالبحث لها عن حل، فقد تركت ذلك لوكيل النيابة، وغرقت في تخيل جمال الفتاة البريئة، وكان اسمها (ريم) تلك التي كانت صورة أخرى من جمال زينب هيكل، مع فارق أنها لم تمت، واختفت من الرواية كندى الصبح البهيج الذي يتبدد مع وقدة الشمس. وقد رأيتها فيلما، بعد أن كبرت، وقام بدور وكيل النيابة الممثل أحمد زكي الذي تحول إلى الإخراج فيما بعد. وكان صديقي توفيق صالح، مدّ الله في عمره، هو مخرج الفيلم الذي سيظل علامة في

تاريخ السينما المصرية. وأذكر أنني ذهبت لمناقشة الفيلم في برنامج من إعداد الصديقة سلمى الشماع، وكان سؤالي الأول لتوفيق صالح : من أين حصلت على هذه الفتاة ساحرة العيون التي يصف الموال رمش عينيها الذي يفرش على فدان؟! فأخبرني أنها كانت المرة الأولى والأخيرة لها في مجال التمثيل الذي سرعان ما تركته بعد انتهاء الفيلم!

وأظن أن إعجابي برواية «يوميات نائب في الأرياف» هو الذي دفعني إلى قراءة «عصفور من الشرق» التي أسرتني بطبيعتها الرومانسية، وتعاطفي مع بطلها الذي شاهدته، في الصفحات الأولى، وهو يسير بثيابه السوداء تحت المطر، يلوك قطعة من العجوة التي يواجه بها شعوره بالغربة، وأتابعه في غرامياته الرومانسية الفاشلة في النهاية، لكن على نحو جعلني أتعاطف معه، كما لو كنت إياه، فقد كنت إلى السنة التي قرأت فيها الرواية لم أعرف الحب على نحو حقيقي، ولم يستغرقني حب فتاة، فلم أكن أعيش في مجتمع، يتيح لأبنائه، خاصة الرومانسيين من أمثالي، قصص حب واقعي. ولذلك كنا نهرب من الواقع إلى الخيال، وكنت أتقمص شخصيات العشاق الذين كنت أرجو أن أكون مثلهم يوما. ولذلك لم أكن أضحك وأنا أرى بطل «عصفور من الشرق» - ويا للرومانسية التي ينطوي عليها العنوان - وهو يشتري باقات الزهور للحبيبة التي كانت تعمل بائعة تذاكر، ولا حتى الببغاء الذي اشتراه لها، وبالطبع كنت متعاطفا مع البطل الذي كان محكوما على حبه بالفشل، نتيجة اصطدام شخصية الحالم بالواقع الذي لم يكن متقبلا للأحلام.

وأحسب أن سلاسة أسلوب توفيق الحكيم وخفة ظله، في حوار الشخصيات، وقلة اعتماده على الوصف لم تجعلني أقترب اقترابا حميما

من روايات إبراهيم عبد القادر المازني الذي خرجت من روايته «إبراهيم الكاتب» بشعور محايد، فلم أكره الرواية، ولكني لم أحبها حبي للسيرة الذاتية «الأيام». لكن إبراهيم الكاتب - على الأقل - كان أخف وطأة من همام، ذلك العاشق الغليظ، وأقرب إلى خفة ظل أبطال توفيق الحكيم، لكن أكثر جدية، والمؤكد أني لم أعرف، إلا بعد سنوات وسنوات، ماذا تعنيه رواية «السيرة الذاتية»، وأن «سارة» و«إبراهيم الكاتب» و«إبراهيم الثاني» و«عصفور من الشرق» تدور كلها، وغيرها، حول شخصية كاتبيها، وذلك على نحو يمكن فيه إيقاع نوع من التطابق بين أحداث الرواية وأحداث حياة كتَّابها،فـ«يوميات نائب في الأرياف» لا تختلف عن «عصفور من الشرق» أو عن «عودة الروح» في صلتها بمراحل مختلفة من حياة توفيق الحكيم، وقد لفتني المازني إلى هذه الخاصية عندما أطلق على روايتيه اسم «إبراهيم الكاتب» و«إبراهيم الثاني» كما لو كان يلفت انتباهنا إلى أوجه الصلة بالكاتب الأصلي والقناع الروائي الذي يرتديه. وينطبق الأمر نفسه على «سارة» التي قيل إنها قصة حب حقيقية مرّ بها العقاد في علاقة بممثلة معروفة، لا تزال حية ترزق إلى اليوم، مَدَّ الله عمرها.

والآن، عندما أسترجع هذه الروايات التي قرأتها في زمن بعيد، أكتشف أنها جميعا لا تخلو من عنصر رومانسي غالبا، وأن هذا العنصر هو الذي جعلني أقترب منها، وأتعاطف مع أبطالها وبطلاتها. وهذا أمر طبيعي على أي حال، فالمرء في سنوات المراهقة والحلم يميل إلى هذا النوع من الروايات، فإذا تركته النفس انتقلت إلى الفضاء الأقرب للرومانسية، وأحسب أن هذا هو السبب الذي دفعني إلى قراءة روايات يوسف السباعي

الذي كان ملء السمع والبصر في الخمسينيات، خصوصا أنه كان ينتمي إلى الجيل الأحدث بالقياس إلى جيل هيكل وطه حسين والعقاد الذين فرغوا من نشر أعمالهم الأساسية مع اقتراب الحرب العالمية الثانية في الأغلب الأعم. أما الجيل الأحدث الذي ينتسب إليه أمثال : يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله، فقد بدأ الكتابة، على نحو متزامن، وبدأ النشر في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية في نوع من التتابع الزمني، تجاور فيه محمد عبد الحليم عبد الله الذي نشر روايته الأولى «لقيطة» سنة 1947، بينما أصدر السباعي روايته الأولى سنة 1949، فكانا بذلك قريبين في التتابع من عبد الحميد جودة السحار الذي نشر روايته الأولى أحمس : بطل الاستقلال سنة 1943. شأنه في ذلك شأن علي الجارم الذي بدأ رواياته التاريخية برواية «شاعر ملك» سنة 1945. ويشبهه في تاريخ النشر ونهج الكتابة التاريخية محمد سعيد العريان الذي نشر روايته الأولى «قطر الندى» سنة 1945. ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء، من حيث الزمن لا مذهب الكتابة، يحيى حقي الذي أصدر «قنديل أم هاشم» سنة 1944، وأصدر بعدها بعشر سنوات «صح النوم» سنة 1955. وقد تأخر إحسان عبد القدوس في نشر كتابه الأول «أنا حرة» إلى سنة 1954 التي أصدر فيها عبد الرحمن الشرقاوي روايته «الأرض»، كما أصدر محمد كامل حسين «قرية ظالمة» وثروت أباظة «ابن عمار» سنة 1954.

وكان من الطبيعي أن أبدأ بالكتّاب الأقرب إلى الرومانسية من غيرهم، وكان أولهم يوسف السباعي الذي عبرت من «أرض النفاق» 1949 بما فيها من سخرية وتعرية لانحدار الأخلاق والقيم، في المجتمع، وذلك من منظور بطل لا يخلو من رومانسية، تدفعه إلى تصور إمكان إصلاح العالم،

بدلا من تقبله على ما هو عليه، أو الكشف عن العوامل التي أدت بهذا العالم إلى الانحدار على هذا النحو. وكانت درجة الرومانسية أعلى في «إني راحلة» التي تنتهي بانتحار الحبيبة أو موتها، ومثلها «بين الأطلال» التي أشعرتني بالحزن على مصير البطلين، وظللت أذكر المونولوج الذي يخاطب به البطل الشمس الغاربة، طالبا منها أن لا تغرب، قبل أن تشهد على خلود حبه للحبيبة التي كان لابد أن يفقدها، وهو قدر العاشقين، دائما، في الروايات الرومانسية، ابتداء من زينب التي ماتت بداء الصدر مثل غادة الكاميليا، مرورا ببطلة إني راحلة، وليس انتهاء برواية بين الأطلال. لكن الرواية التي كان لها تأثيرها على رؤيتي البسيطة للعالم هي رواية «رد قلبي» التي صدرت سنة 1955، وكانت سردا روائيا لبعض الأسباب التي أدّت إلى ثورة يوليو، حيث وقع علي ابن الجنايني في حب مستحيل لابنة الباشا قريب الملك (أفندينا). وهو حب ما كان يمكن أن يتحقق إلا في مجتمع مغاير تماما، فينضم علي إلى الضباط الأحرار، ويصبح واحدا منهم، إلى أن يأتي فجر الثالث والعشرين من يوليو بزمن جديد، هو النقيض التام لكل أزمنة الظلم التي تسببت فيها أسرة محمد علي. ولا أزال أذكر الهزة العاطفية التي شعرت بها حين قرأت الرواية، وتعاطفي مع شخصية علي الذي اتحدت معه وجدانيا، وحزني لما أصاب أسرته نتيجة سطوة الباشا الإقطاعي الذي كان نموذجا لغيره، وهللت في داخلي عندما وصلت إلى نهاية الرواية، بعد قيام ثورة يوليو، وكيف انحلت كل المشاكل، فتزوج علي من إنچي وعاد النطق إلى الأب الذي أصيب بالخرس. وعندما شاهدت الفيلم هتفت مع المتظاهرين، فقد كنت واحدا من أبناء ثورة يوليو التي انتقلت بنا من الظلام إلى النور ومن الظلم إلى العدل، فيما تصور خيالي المراهق، وقد أكد هذه المعاني في داخلي الممثلون الاستثنائيون الذين أدوا أدوارهم على نحو

رائع في الفيلم (شكري سرحان، ومريم فخر الدين، وصلاح ذو الفقار، وزهرة العلا، ورشدي أباظة، وهند رستم، وحسين رياض، وفردوس حسن، وحسين كمال، وأحمد مظهر، وزكي طليمات). كوكبة لا نظير لها تليق بتحويل رواية الثورة التي كتبها ضابط (يوسف السباعي) كان على صلة بالضباط الأحرار، وحضر عرضها الأول عبد الناصر الذي كان في طريقه إلى أن يصبح حبيب الملايين. ولم تحقق «نادية» بجزأيها ما حققته «رد قلبي» فقد كان الموضوع أقل حماسية، ولكنه لم يكن أقل رومانسية، خصوصا في بناء القص على علاقة حب تثير وجدان المراهقين من أمثالي، في ذلك الزمان البعيد.

ولم يكن محمد عبد الحليم عبد الله بعيدا عن السباعي في منحاه الرومانسي الذي كان يثير تعاطفنا مع الأبطال الفقراء الذين يجاهدون في الحياة، دون سلاح سوى الرغبة في العلم، ويقودهم الإخلاص، والطيبة التي تنطوي عليها قلوبهم، إلى العبور إلى بر الأمان. وكالعادة، كانت قصة الحب ذات الأبعاد الرومانسية هي أصل الحبكة، في تتابع الروايات التي تبدأ بلقيطة أو ليلة غرام، وتمضي عبر «بعد الغروب» و«شجرة اللبلاب» و«الوشاح الأبيض» و«شمس الخريف» و«غصن الزيتون»، وليس انتهاء بروايات مثل من «أجل ولدي» و«سكون العاصفة» و«الجنة العذراء» التي أظنها آخر روايات محمد عبد الحليم عبد الله.

ولن أنسى، في هذا الاسترجاع، الدور الرائد الذي قامت به روايات جرجي زيدان في اهتمامي بالرواية التاريخية التي لا تزال لها متعتها الخاصة في تذوقي للرواية. وقد كان لهذا الرائد الذي سبق أجيال رواد الرواية بسنوات عديدة فضل صياغة تاريخ التمدن الإسلامي صياغة روائية

شائقة، فقد كان يحرص على رواية الأحداث التاريخية كما هي واردة في كتب التاريخ، ولكن يجمع بينها وقصة حب، تنطوي على العديد من التوابل التي تجعل لرواياته مذاقا خاصا وجاذبية آسرة للقراء الصغار من أمثالي. وبالطبع، لم ألتفت، في أثناء قراءتي الباكرة لهذه الروايات إلى حرص جرجي زيدان على اختيار لحظات زمنية دالة، وأنه أراد لرواياته أن تكون تاريخا روائيا لتعاقب التمدن الإسلامي، لا التاريخ المجرد. أعني أنه كان حريصا على تجسيد قيم التسامح الديني، والتسوية بين البشر على أساس مدني يجاوز الدين، أو لا يتحول فيه الدين إلى عائق للتمدن، ولذلك كان التركيز على دور المثقف الذي تتجسد في حضوره مبادئ التسامح واحترام الاختلاف وحرية الفكر تركيزا له دلالته التي ترتبط بوعيه بأهمية الدولة المدنية التي لا تمايز بين مواطنيها على أساس من دين أو عقيدة أو عرق. وأظنه نجح في تسريب هذه القيم إلى وعيي دون أن أنتبه، فقد كان بارعا في تذويب أفكاره عن الدولة المدنية التي هي مرادفة للتمدن في سياقات السرد والشخصيات.

ويبدو أن الذين مضوا في الكتابة الروائية التاريخية قد تعلموا من جرجي، وخرجوا من عباءته، خصوصا علي الجارم الذي حرص على إبراز اللحظات المضيئة في شعره، فمزج ما كان يسميه المرحوم عبد المحسن طه بدر الرواية التعليمية بأمشاج الرواية الفنية، وقدم ما بين 1943 - 1949 ما لا يقل عن ثماني روايات، منها: «شاعر ملك» 1943، و«مرح الوليد» 1943 ، و«غادة رشيد» 1945 ، و«فارس بني حمدان» 1945، و«الشاعر الطموح» 1947، و«خاتمة المطاف» 1947، و«هاتف من الأندلس». وكان الجارم شاعرا ينتمي إلى مدرسة الإحياء على طريقة

أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، ولذلك حرص على أن يكتب رواياته بلغة صقيلة، لا تفارق عقلانية الوعي الذي يفرض نفسه على عواطف الشخصيات وطموحاتهم، ولكن على نحو يمتع القارئ بهذه القصص، كما يمتعها شعره المتاح في الأعمال الكاملة ودواوينه التي يهتم بنشرها ابنه الوفي لذكرى والده.

ولا يختلف اتجاه علي الجارم عن اتجاه محمد فريد أبو حديد، وكلاهما من كبار رجال التعليم، فكانت الرواية الأولى للثاني بعنوان : «ابنة المملوك» التي أصدرها سنة 1928 وأشرفْت على إعادة طبعها في المجلس الأعلى للثقافة، حين احتفلنا بذكراه، فطبعنا الرواية التي سبقت «جحا في جانبولاد» 1944 ، و«الملك الضليل : امرؤ القيس»، و«المهلهل سيد ربيعة» 1944، و«أبو الفوارس عنترة» 1947. وقد أصدر بعد هذه الروايات التي حددت مكانته في روايات التاريخ العربي رواية: «آلام جحا» 1948 ، و«أزهار الشوك»، و«الوعاء المرمري». وختم حياته الروائية برواية «أنا الشعب». وهي عمل بعيد عن مدى الرواية التاريخية وأقرب إلى الرواية الواقعية التي لا تخلو من عرق رومانسي، يتجلى في شخصية البطل المكافح الذي يعي فرديته، ولا يتوقف عن تحدي الظروف، فيتحقق له ما أراد في موازاة ما حققه الشعب الذي ثار للحصول على حقوقه.

ولا يفارق علي الجارم ومحمد فريد أبو حديد زميلهما الذي هو أقرب إلى أن يكون تلميذا لهما، أعني محمد سعيد العريان الذي كان اكتشافي له وليد قراءتي «على باب زويلة» التي تدور أحداثها في فترة الغزو العثماني لمصر، وفشل المقاومة المصرية، بسبب الخيانة التي أدت إلى كسر إرادة المقاومة، والقبض على طومان باي الذي خذله المحيطون

به، وباعوه لأعداء الوطن، كما فعل الذين خانوا عرابي سواء بسواء. وقد دفعني إعجابي بهذه الرواية (ولا أشك أنها كانت كامنة في لا وعي جمال الغيطاني عندما كتب «الزيني بركات») إلى متابعة بقية أعمال العريان في الروايات التاريخية، حيث اكتشفت نزوعا دينيا محافظا، لكن أقل في تأثره مما انطوى عليه عبد الحميد جودة السحار. وللأخير صلة زمالة بنجيب محفوظ، فقد بدأ حياته الروائية بروايته «أحمس : بطل الاستقلال» 1943 و«أميرة قرطبة» 1949 و«قلعة الأبطال». وكانت روايته الأولى تتوازى مع روايات نجيب محفوظ التاريخية «عبث الأقدار» 1939 و«رادوبيس» 1943 و«كفاح طيبة» 1944 التي لا تبعد كثيرا عن موضوع رواية السحار الأولى، مع فارق التوجه بين الكاتبين. وكان محفوظ في اختيار التاريخ الفرعوني، لا العربي الإسلامي، متأثرا بأستاذه سلامة موسى الذي نصحه بترجمة كتاب «مصر الفرعونية». وأضيف إلى ذلك تأثره بالحماسة للتاريخ الفرعوني الذي ارتبط بالنزعة الوطنية الصاعدة مع ثورة 1919 واكتشاف مقبرة توت عنخ أمون سنة 1923. وما كانت قراءاتي وتفكيري يسمحان لي باكتشاف الفروق الأعمق بين التوجه إلى التاريخ الفرعوني، والتوجه إلى التاريخ العربي الإسلامي، فما كان يلفت نظري في ذلك الوقت هو النزوع الرومانسي الذي كان يتجلى متسقا مع ليبرالية محفوظ التي لم تفارق الأفق الوفدي، ومتسقا مع النزوع الإسلامي لكل من الجارم والعريان وأبو حديد وأمثالهم.

لكن المؤكد أنني لاحظت التحول في مجرى كتابة نجيب محفوظ بعد روايته التاريخية الأخيرة «كفاح طيبة» وهجره النزعة الرومانسية إلى نزعة مغايرة أقرب إلى الواقعية النقدية التي كتب بتأثيرها «خان الخليلي»

1945 ثم «القاهرة الجديدة» 1946 و«زقاق المدق» 1947 و«السراب» 1948 و«بداية ونهاية» 1949. وهي أنضج روايات مرحلة النقد الاجتماعي، السابقة على الثلاثية التي اكتمل نشرها سنة 1957. وكانت أصوات الدعوة إلى الواقعية قد أصبحت أكثر ارتفاعا، خصوصا مع دعاة الواقعية الاشتراكية الذين وجدوا نموذجها المثالي في رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي التي لم تكن، في حقيقة الأمر، سوى رواية تنتسب إلى الواقعية النقدية، على النقيض مما ذهب إليه محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس «في الثقافة المصرية»، وهو الكتاب الذي كان الموازي المصري لكتابات حسين مروة في لبنان. وبالطبع لم أكن أفهم هذه الفروق عندما قرأت روايات نجيب محفوظ، ابتداء من خان الخليلي إلى الثلاثية وانتهاء برواية الأرض. كانت هناك اختلافات يسهل ملاحظتها، مثل أن روايات نجيب محفوظ تدور في القاهرة وأبطالها أفندية، بينما رواية الأرض تدور في القرية وأبطالها فلاحون، لكن مع تتابع سنوات العمر، وتراكم الخبرة، عرفت أن أبطال نجيب محفوظ أقرب، طبقيا، إلى شخصيات البرجوازية الصغيرة، الممزقة بين خوفها من الهبوط إلى الأدنى ولهفتها في الصعود إلى الأعلى، وأن هؤلاء الأبطال ممزقون، فكريا، بين نقيضين: أقصى اليمين وأقصى اليسار، وأن الفشل يصيب الحديين منهم، بينما لا ينجو سوى أبطال الوسط الذين يجمعون بين الدين والعلم، ويؤمنون أن الاشتراكية لا تتعارض مع العلم على نحو ما رأيت في شخصية حسنين في «بداية ونهاية» وكان التحليل النقدي لهذه الرواية هو البحث الذي كلفني به أستاذي المرحوم عبد المحسن طه بدر في السنة الأخيرة من الدراسة بقسم اللغة العربية، وذلك قبل أن أتخرج، وأتخصص في دراسة الشعر، وأفرغ له سنوات دون الرواية التي كانت مدخلي إلى دراسة الأدب العربي الحديث كله.

لكن الذي لم أتنبه إليه إلا فيما بعد أن روايات نجيب محفوظ الواقعية النقدية هي التي قطعت ما بيني وبين الروايات الرومانسية، بما فيها الروايات البوليسية، وأنها مثل مجموعات يوسف إدريس، أنضجت وعيي الأدبي، وفصلت ما كان يربطني بيوسف السباعي أو إحسان عبد القدوس أو السحار أو محمد عبد الحليم عبد الله، فأصبح نجيب محفوظ هو كاتب الواقعية الأول الذي يشدني إلى الواقع، كي أغوص فيه فهما، فأخرج أكثر خبرة ونضجا، وأكثر إدراكا لمحدودية الرواية الرومانسية التي أزاحتها أعمال نجيب محفوظ، مع قصص يوسف إدريس ورواياته القصيرة. وعندما وصلت إلى هذه الدرجة من الوعي أدركت أن مراحل المراهقة قد ولّت كالأحلام التي لابد أن نفيق منها على الواقع الذي يشدنا، ويدفعنا إلى اتخاذ موقف من الصراع الاجتماعي الدائر فيه. ولكن ماضي القراءات الرومانسية ظل باقيا كالذكرى البعيدة التي تثير الحنان إلى ماض مغرق في الضباب، لكن لا يمكن عودته. وما أكثر ما شعرت باختلاف الأجيال عندما قرأت لنجيب محفوظ، ذات مرة، أنه من جيل قرأ كثيرا وبكى كثيرا، وأن المنفلوطي كان يبكيه بقصصه، فضحكت في سري على الهوة بين الأجيال، والاختلافات الجذرية بينها، فأنا لم أستطع إكمال المنفلوطي بأسلوبه التقليدي الذي يتناقض مع مضمون الهشاشة العاطفية الذي لم يكن يفارق أبطاله. وما أكثر ما ضحكت عندما حاولت أن أقرأ «العبرات»، ولم أكمل قراءة قصصه الغارق في الدموع، فقد كنت ابن جيل مختلف، لا يحتمل ذوقي هذه الزخارف اللغوية ولا كل هذا الكم من الدموع التي تنهمر من أعين الأبطال والبطلات لأهون الأسباب.

أوائل الكتابة

كلما حاولت أن أتذكر متى عرفت أن أمسك بالقلم لأكتب أدبا، غامت الذكرى ولم أجد سوى رجع أصداء مستهل طه حسين لكتابه «الأيام» حين قال : «لا يذكر لهذا اليوم اسما، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتًا بعينه، وإنما يقرِّب ذلك تقريبًا. وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو في عشائه. يرجّح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم تذهب به حرارة الشمس. ويرجح ذلك لأنه، على جهله حقيقة النور والظلمة، يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نورا هادئا، خفيفا لطيفا، كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه، ثم يرجّح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء، لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية، وإنما أنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه».

هذه الأسطر كانت، ربما، أول ما اهتززت وانفعلت به من كلمات. ويبدو أنها حركت في داخلي، على نحو غير واعٍ، الرغبة في أن أكتب مثلها، وأن أصوغ بالكلمات ما أود التعبير عنه من «مشاعر وانفعالات». اللافت لانتباهي، الآن، أنني لم أكتب الشعر، بل خواطر ذاتية، في قالب من النثر المرسل، وأخذت أسجّل بالقلم أحوال الفرح والحزن، مشاعر ما حسبته الحب الأول، وما تخيلته من حبيبات وهميات كن من صنع خيالي،

ومن وحي قصص الحب الرومانسية التي قرأتها في هذا الزمان، ولم أنس أحوال غضبي من أمي، حين تدفعني إلى الانزواء وحيدا، حريصا على أن لا يرى أحد الدموع الصامتة التي كانت تنهمر من عيني. وأضفت إلى ذلك خوفي على أبي، فقد رأيت آثار إهماله لإصابته بمرض «السكر» والأزمات الصحية التي كان يتعرض لها والتي ترعبني. وكنت في أحوال مرض أبي أبث خواطري على أي ورق أجده أمامي، وأبتهل إلى الله بالكلمات، كي يحفظ لي أبي، ويصونه من كل سوء، فقد كان نبع الطيبة الذي ألجأ إليه دائما، والصدر الأحن الذي كنت أدفن رأسي في أمانه، وأشم رائحة الشعيرات النابتة فيه، وأسلم نفسي ليديه اللتين كانتا تحوطانني دائما، وتربتان على رأسي، فأشعر بالأمان والاطمئنان. وما أكثر ما كتبت عن الشعور بافتقاد الأمان، وهي خصلة نفسية، ظلت تنضج في داخلي، ربما دون أن أنتبه، وذلك بسبب صدمات الدهر التي لاحقتني، ابتداء من الخوف من انفجار مشاعر غضب أمي وثورتها على نحو غير متوقع، مرورا بالخوف من عدم النجاح والتفوق، وانتهاء بما أسماه أمل دنقل «الخسة الإنسانية»، وهو تعبير استخدمه عندما طردنا نظام السادات من الجامعة، بحجة أننا أسهمنا في إشعال نيران الفتنة الطائفية. وجاء أمل حاملا الخبر الحزين الذي قابلته باستخفاف، ربما هربا من التعبير المباشر عن الصدمة التي شعرت بها، فقابل أمل دنقل استخفافي بصرامة لم أعهدها فيه، وقال لي جملة لم أنسها، قط : «أخاف عليك من الخسة الإنسانية التي سرعان ما تراها في البشر من حولك». وقد رأيتها بالفعل!

المؤكد أن عوامل كثيرة ظلت تدفعني، إلى عدم الشعور بالأمان والاطمئنان الكامل لدوام حال، أو وفاء شخص، أو حتى امرأة. ولا أدري

لماذا لا أزال أتوقع الاحتمالات السلبية قبل الإيجابية، وأظل قلقا واجفا إزاء المستقبل والناس على السواء. وأحسبني لم أعرف الحب العاصف الذي يأخذ بالألباب، ويتغلغل في الشرايين والأفئدة، على نحو ما قرأت وشهدت بين من عرفت. وأحسبني، لهذا السبب، كنت أحافظ على وصية أوصتني بها أمي، عندما بدأت أعي حضور المرأة، وأعرف ما يبدو من مشاعر حب لهذه الفتاة أو تلك ممن عرفت في حياتي، فقد قالت : «أقبل على من تحبك، ولا تقبل على من تحبها». وقد تجاوزت هذه النصيحة التي أفسد الالتزام بها تجارب كان يمكن أن تصل إلى ذرى رائعة، لكنها سرعان ما انبترت، بسبب خوفي الدائم من أن أسلم كياني كله لأحد مهما كان، فضلا عن خجل لا أعرف من أين ورثته في التعامل مع الفتيات، خصوصا الجميلات.

ولهذا لم أعرف الحب الأول إلا خيالا، فيما كتبته عن «ربة الوحي والكتابة» التي كان حبي الحالم بها يدفعني إلى كتابات رسائل وهمية. ولم أكتب بعدها سوى عن خوفي على أبي، أثناء مرضه الذي انتهى بعملية جراحية خطيرة. لأنها كانت الوحيدة التي كانت تدفعني، دون أن تدري أو تعرف، إلى الكتابة عن خيالاتي المجنحة الطائرة بها، في سماوات الخيال.

ولا أعرف متى انتقلت خواطر الحب والخوف على أبي إلى كتابة تفارق الرومانسية، وتتباعد عنها. أغلب الظن أن ذلك كان في مطلع المرحلة الثانوية، حين كان الجميع يتحدثون عن الواقعية، ويفرون من الرومانسية التي أصبحت أقرب إلى حبي الوهمي. هل كان نجيب محفوظ وبداية معرفتي لرواياته : خان الخليلي، زقاق المدق، بداية ونهاية، هي

السبب في ذلك؟ الأمر ممكن، لكن ما أذكره على نحو واضح، الآن، أن رسم شخصيات واقعية جذب انتباهي، وأخذت أتمثل شخصيات محفوظية لا أنساها إلى اليوم : المعلم كرشة، زيطة صانع العاهات، نونو الخطاط، أحمد أفندي عاكف... إلخ. فأخذت أتطلع إلى البشر حولي في ضوء جديد، وأحدّق فيهم، كأني أراهم للمرة الأولى، وكان دكان والدي يقع في منطقة السوق الذي يمتد بامتداد شارع سعد زغلول في المحلة. وكنت أجلس إلى جوار الدكان أرقب الشخصيات التي تمر حولي من التجار والمعلمين والسائقين والتباعين والحمالين... إلخ.

ويدأت أكتب صورا أدبية أقرب إلى الوصف منها إلى السرد عن الشخصيات التي تجذب انتباهي. وأوضح ما أتذكره، الآن، شخصية «عبده - الملك» وكان حمالا، خشن الملامح، بارز الكرش، ربعة، يرتدي جلبابا متسخا دائما، وفوقه «چاكت» من قماش سميك بلا أزرار. ولم أره يبتسم مرة واحدة. وكان قوي البنية، يحمل الأجولة أو الأقفاص من عربات النقل لينزلها في «وكالات» معلمي الفاكهة أو الخضروات. ولم يكن يشكو التعب قط، يمسح عرق جبينه - إذا زاد - بكم الچاكت الذي حال لونه، فإذا فرغ من عمله، مشى مشية مترفعة، ناظرا إلى كل ما حوله، ومن حوله، كما لو كان ملكا يشرف على رعاياه الذين يتفقدهم. ولذلك أطلقوا عليه اسم «عبده - الملك». وقد فتنتني شخصيته فكتبت عنه صورة قلمية، وفعلت الأمر نفسه مع عبده الجزار الذي كان قريبا من سني، لا يكبرني كثيرا، ورغم ذلك اشترى له أبوه محل جزارة ليستقل فيه، وكان أقرب إلى الصديق، وكتبت عن العم دسوقي القهوجي، وكان طويل القامة، سريع الحركة، تتحرك يده بالصينية التي يضع عليها الشاي أو

القهوة برشاقة. وكان حريصا على أن يبدي علمه ويفتي في ما يعرف وما لا يعرف، فتناله ضحكات الزبائن وابتساماتهم الماكرة، لكنه كان خدوما، وفيا، أسرع الناس إلى نجدة من يطلب النجدة، شهما لا يتردد في تقديم العون. وهناك إبراهيم الذي كان يحل محل أبيه في محل القماش المواجه لمحل والدي على الناحية الأخرى من شارع سعد زغلول نفسه. ولم يدعه أبوه تاجر الأقمشة يكمل تعليمه، لكي يساعده في تجارته. ولم يكن يفارق جريدة الأهرام التي لا يتركها إلا إذا دخل شارٍ محل الأقمشة الذي يتركه أبوه في رعايته، دائما، وكنت ألجأ إليه للعون المالي إذا ضاقت الأحوال. ولا تزال في ذمتي بضعة جنيهات أدين بها له، ولا أعرف، إلى اليوم، لماذا لم أردها إليه، ولماذا لم يذكرني بها قط، فقد نسيها كما نسيتها، عندما تخرجت واشتغلت وصار لي دخل ثابت شهريا. مؤكد أنه كان يراني بمثابة أخيه الصغير الذي لا يسترد منه ما أخذ. وقد ظل يفرح بنجاحي بما أكد لي مشاعره الأخوية، وجعلني أعامله، كما لو كان أخي الكبير.

هذه الشخصيات وغيرها هي ما كتبت عنها صورا أدبية، وصلت إلى حوالي عشرين نموذجا بشريا، كل نموذج تتراوح الكتابة عنه بين صفحتين أو خمس صفحات. وقد كتبتها في كشكول خاص، وضعت له عنوان «في السوق» وتفلسفت بما يجعل «السوق» يؤدي معنى الحياة بخيرها وشرها، وتعدد وتنوع وتعقد الشخصيات التي نقابلها فيها. وقد ظللت حريصا على هذا الكشكول الذي لم أفكر، يوما، في نشر شيء منه، فقد كان حسي النقدي عاليا، ربما لأن ميولي الفكرية ظهرت مبكرا، ولذلك لم أفكر في نشر شيء من هذه الصور القلمية التي ظللت أعتز بها كلها، وإن كنت أخص بإعجابي اللوحة القلمية التي كتبتها عن عبده - الملك. وقد ظل

هذا الكشكول أحد ممتلكاتي الأثيرة، القريبة إلى القلب، زمنا طويلا، لكن ذهابي إلى الجامعة، وتركه في المحلة، أديا به إلى الضياع ضمن ما ضاع من الكتابات (الأدبية؟!) الأولى التي كتبتها طوال المرحلة الثانوية.

ولم يأت الشعر إلا في سنوات الجامعة، وإذا كان إيقاع أسلوب طه حسين، في «الأيام»، دافعا بارزا من دوافع البداية، كان شعر صلاح عبد الصبور دافع الكتابة الشعرية، خصوصا بعد أن عرفت أنه تخرج قبلي من قسم اللغة العربية، مع رجاء النقاش وفاروق خورشيد وأحمد كمال زكي وعز الدين إسماعيل، وأغلبهم جمع بين الدرس الأدبي والإبداع. وكان صلاح عبد الصبور قد نشر ديوانه الأول «الناس في بلادي» في يناير 1957، وألحق به ديوانه الثاني «أقول لكم»، والثالث «أحلام الفارس القديم». وهو آخر ما صدر له من دواوين قبل تخرجي من الجامعة. ومن الطريف أن أستاذتي سهير القلماوي، رحمها الله، قرأت معنا في السنة النهائية بعض قصائد أحمد عبد المعطي حجازي الذي تعاطفت مع كل ما كتبه عن غربة القروي في المدينة (القاهرة). وكان تعاطفي شعوريا، لا يصل إلى مرحلة الاقتناع العقلي، فقد أحببت القاهرة منذ لقائي الأول بها، وربما كان ذلك لأني ابن مدينة صناعية وكبيرة نسبيا، ولست ابن قرية.

وقد حاولت كتابة الشعر، أولا، على طريقة النظم القديم، وما كان أسهلها، فيكفي بيتا من الأبيات على وزن البحر الطويل أو الكامل أو المتقارب أو المتدارك... إلخ، وأنظم المعاني في إطاره، لكن دون مشاعر حقيقية في الغالب، ولذلك تخلصت من كل ما كتبته في الوزن العمودي، وتركت نفسي للتفعيلة، تحملني إلى الآفاق التي توافق هواي، خصوصا

أنني تعلمت التأمل الشعري في الحياة والأحياء من صلاح عبد الصبور. لكني كنت أقاوم رغبتي في الكتابة خوفا من أن يلهيني الشعر عن المذاكرة، ولأن ما أكتب منه لم يكن يرضي الناقد في داخلي، فقد أدركت أنني مهما كتبت لن أكون «الأول» في كتابة الشعر. خصوصا بعد أن تعودت على التفوق، وأن أكون أول زملائي. ولكني لا أنسى قصيدة انفجرت، رغما عني، في لحظة إحباط متعددة الأبعاد، فوجدت نفسي أكتب :

أرْضٌ عَفِنَة
شَقَّ جَوانِبَها الجدبُ
والدُّودُ الملْعُون
مِنْ بَينِ جَوَانِبِها يَبْدُو
بَشْمًا بَعدَ شِبَعِ
كَانَتْ أَرْضًا مُزدَهِرَة
كَانَتْ جَنَّـة
حَصْبَاهَا مُرجَان
وَثَرَاهَا مِسكٌ أزفَر
نَبَتَتْ فِي تُرَبتِها أزَهارُ الحِكْمَة
هَبطَتَ فِيها كَلِماتُ الرَّب
وَهَبَتْ عِيسَى وَمَحمَّدَ أزهار السَّلَام
وَبدايَةَ نُور فِي الدُّنيَا
لَكِنَّ الأمطَارَ انقَطَعَتْ عَنْها

لمْ يأتِ الغَيث

صَمَدَتْ أرضِي أعْوَامًا تَنتَظِرُ الغيث

مَاتَتْ فِيهَا الثَّمَرَات

وانتَشَرتْ فِيهَا الدِّيدَان

وانقَلَبَ العِطْرُ عَفَن

وَلِذَا أَسْأَل

لِمَ كَفَّتْ أمطَارُكِ عَنْهَا وانقَطَعَ الغَيث

لِمَ يَا رَبِّي إنِّي لَا أفْهَم

وَهَاأنَذَا مَحمُومٌ عُذِّبتْ

لَو قُلتُ سُؤالًا لِلرَّبِّ لَجدَّفتْ

هَذَا مَا قَالَ شُيُوخِي

لَكنِّي مَنْبُوذٌ أُخرِسْتْ

ظَمِئَتْ رُوحِي مِنْ طُولِ جَفَاف

وَثُغَاءُ شُيوخِي لَغْوٌ طَائِش

لَا يَشْفِي الغِلّ

لَو هَطَلَتْ أمطَارُك

لانقَشَعَتْ أفكَارِي المحْمُومَة

وَوَجَدتُ الرِّيّ

لا أعرف لماذا أذكر هذا الذي أسميته قصيدة منذ أعوام طويلة ؟!، ولماذا هي دون غيرها ؟!. ليس عندي إجابات تقنعني تماما. ربما لأن ما فيها من رؤية لا يزال قريبا من نفسي، لكن طابع صلاح عبد الصبور غالب على القصيدة، وثغاء الشيوخ يذكرني بضيق أفق قضاة الحلاج، والنثرية كالخطابية عالية في القصيدة التي لا تعرف التدفق وانطلاق الصور، ولا التدوير، فكل سطر أشبه بجملة مغلقة. المهم أن المثالب كثيرة، فيما انتهى إليه الناقد الذي كنته ولا أزاله . وقد كتبت هذه القصيدة، فيما أذكر في أحد أيام سنتي الرابعة في قسم اللغة العربية ، وكانت آخر عهدي بالشعر والكتابة، وذلك بسبب غلبة الفكر النقدي على تكويني واتجاهي.

صحيح أنني لم أكن مقتنعا بذلك تماما، فقد كنت أعرف نموذج ت. إس. إليوت الشاعر الناقد وغيره. وأهم أساتذتي جمعوا بين البحث الأدبي والإبداع، سهير القلماوي لها قصائد منشورة في مجلة «أبوللو» ومجموعة قصصية، أظنها بعنوان : «الشياطين تلهو». ويوسف خليف كان شاعرا عموديا لافتا، في روحه الرومانسي، ولا أزال أذكر بعض أبيات من ديوانه «نداء القمم». وشكري عياد كان دارسا للتفسير القرآني، وناقدا أدبيا نادر المثال، ولم يمنعه ذلك من كتابة رواية بعنوان : «الطائر الفردوسي» نشرتها روايات الهلال، أهداني إياها سنة 1998. وهناك مجموعات قصصه القصيرة، وأولها : «ميلاد جديد»، ثم «طريق الجامعة»، وبعدها «زوجتي الرقيقة الجميلة»، و«رباعيات»، و«كهف الأخيار»، و«حكايات الأقدمين». وأخيرا، هناك سيرته الذاتية المؤثرة التي لم يتح لي الوقت للكتابة عن تميزها. وكل هذا صحيح، ولا أزال موافقا عليه. ولكنني لا أتحدث عن أفكاري الآن، وإنما عن أفكار الستينيات التي تفصل بيننا وبينها عقود عديدة.

ومن المؤكد أن يقظة الإحساس النقدي في داخلي، منذ وقت مبكر، هو الذي عاق الكتابة، إذ يصعب أن يلتقي التفكير العقلاني النقدي، خصوصا إذا كان مهيمنا، مع التفكير التخيلي الذي يذيب النزعة العقلانية في موجات الوجدان، فلا يبقى منها ما يشير إليها.

وقد عرفت كتابة النقد في المرحلة الثانوية، وكان لي صديق اسمه محمود عبد الرازق يسبقني في قراءة الأدب، أعطاني ذات يوم مقالا صغيرا عن ثلاثية نجيب محفوظ الذي كنت قرأتها. وأعجبني المقال إلى الدرجة التي دفعتني إلى الكتابة عن انطباعاتي النقدية على بقية روايات نجيب محفوظ، والتمييز بين رومانسية الروايات التاريخية، وواقعية المرحلة التي تبدأ من «فضيحة في القاهرة» إلى آخر الثلاثية. وفعلت الأمر نفسه عن الشعر، فكتبت بحثا مطولا عن الشعر، جعلته على شاكلة كتاب، احتل «بلوك نوت» خطابات. ونقله عني صديقي شوكت فضل، ليستدر إعجاب مدرس اللغة العربية في الثانوية الصناعية التي كان يدرس فيها. أما أنا فقد أعطيت البحث للأستاذ محمود الحداد الذي كان أمين المكتبة، في السنة الأولى لي، في مدرسة طلعت حرب الثانوية، ضمن نشاط جماعة أصدقاء المكتبة. وقد قام زميلي سعد الدين السياجي بتعريفي بمجلة «المجلة» التي صرت من قرائها، ومن أشد المتابعين لمقالاتها النقدية التي كنت أقرؤها أكثر من مرة، لأعرف ما النقد الأدبي؟ وإلام يهدف الناقد؟ وعلام يركز على النقاط التي يعالجها؟ وكيف يبني دراسته فقرة بعد فقرة؟ وقد ظللت أتابع هذه الطريقة التي ظهرت آثارها في الجامعة، خصوصا في الأبحاث التي قمت بها طوال السنوات الأربع للدراسة، وأذكر بحثا كاد يصبح أطروحتي للماجستير، وكان عن «الديارات النصرانية في الشعر العباسي». أعجب

أستاذي يوسف خليف، وأقنعني أن أجعله مشروعا لدرجة الماچستير، لكني عرفت سهير القلماوي وعبد المحسن بدر في السنة الرابعة، فأغواني الأدب الحديث وسرقني النقد الحديث من الأدب القديم، كما سرقتني الرواية من الشعر، وأعادت إليَّ كاتب اللوحات القلمية القديم. وكان البحث عن شعراء الديارات النصرانية في العصر العباسي والشعر الذي كتب فيها. وأذكر أنني توقفت بشكل خاص عند القصائد التي كانت تسعى إلى تصوير شعري للوحات والأيقونات الموجودة في الأديرة. وكان ذلك بداية علاقتي بدرس قضية العلاقة بين الشعر الذي هو تصوير ناطق والرسم الذي هو شعر صامت. وكانت محاولتي النقدية الجادة في السنة الرابعة، في نقد الرواية، تحت إشراف أستاذي عبد المحسن بدر، رحمه الله، وكان موضوع المحاولة قصة «قرية ظالمة» للطبيب المفكر محمد حسين، وكان من جيل العقاد وطه حسين. أما المحاولة الأكثر أهمية فكانت بحثا نقديا كتبته عن شخصية حسنين في رواية «بداية ونهاية» لنجيب محفوظ، وكان عنوانه : «حسنين قمة المأساة في بداية ونهاية». وكنت، وقتها، متأثرا بطريقة محمد مندور في «نماذج بشرية». فضلا عن اهتمامي القديم الذي دفعني إلى الكتابة الباكرة عن النماذج البشرية التي عرفتها في سنوات الصبا في المحلة الكبرى. وللأسف ضاع هذا البحث الذي منحه عبد المحسن بدر الدرجة النهائية، مع أني ظللت محتفظا به لوقت طويل، وفكرت جديا في نشره. ولكنه ضاع مني، في النهاية، هو وغيره من الأوراق العزيزة.

أما البحث النقدي الذي جرؤت على نشره للمرة الأولى فقد كان في السنة التمهيدية سنة 1966، وكان شكري عياد يدرس معنا «موسيقى الشعر» ويطلب منا بحثا في الموضوع فكتبت بحثا بعنوان : «تطور الموسيقى

والإيقاع في شعر صلاح عبد الصبور». وأعجب البحث أستاذي شكري عياد، رحمه الله، وقام بنشره في مجلة «المجلة» التي ما أكثر ما تعلمت منها، وكان أيامها يعمل نائبا لرئيس التحرير يحيى حقي وكان آخر رؤساء تحرير مجلة «المجلة». وما أكثر سعادتي عندما قرأت البحث منشورا في «المجلة» أرفع المجلات الأدبية قاطبة في ذلك الزمان، وتزايدت سعادتي عندما أخذت أسمع عبارات الإعجاب بالمقال - البحث، والتنبؤ لي بأني سأكون ناقدا بارزا. وأرجو أن أكون قد حققت هذه النبوءة.

صحبة قصر الثقافة

بدأت أحلامي الثقافية في التشكل والنضج منذ أواخر الخمسينيات، وكانت مصادر المطالعة المفتوحة تبدأ بالمكتبات العامة التي ضمت مكتبة البلدية أولا، ثم مكتبة مدرسة طلعت حرب الثانوية التي شهدت تجمعا صغيرا من الطلاب المحبين للقراءة، أطلق على نفسه اسم «أصدقاء المكتبة». وكنا نجتمع يوما في الأسبوع لمناقشة ما قرأناه، وكانت تجربة بالغة الثراء لأنها علمتنا القراءة بعمق، والاستعداد الجدي لاطلاع أصدقائنا في المجموعة على خلاصة ما أفدناه من قراءة هذا الكتاب أو ذاك. وإلى جانب مكتبة البلدية ومكتبة المدرسة، كان هناك العم كامل الذي كان يبيع ويقوم بتأجير الكتب المستعملة، أو المرتجعة، على عربة يدوية، كانت هي النواة الأولى لمكتبتي الخاصة التي بدأت في تكوينها منذ السنة الأولى في المدرسة الثانوية، حيث كانت عربة العم كامل تقبع في الطريق إليها. وقد أنتجت عربة العم كامل مكتبتين صغيرتين أنشأهما اثنان من الذين تعلموا منه، وتلقوا أسرار التجارة بالكتب المرتجعة والمستعملة منه، وكان أولهما طلعت قنديل، وثانيهما محمد أبو العلا، وكلاهما كان المركز الأول لعشاق القراءة في مدينة المحلة الكبرى.

وقد انقطعت صلتي بذلك كله حين ذهبت إلى الجامعة، واخترت قسم اللغة العربية في كلية الآداب، إلى أن فوجئت في إحدى الإجازات

الصيفية بانتقال مبنى قصر الثقافة من مقره القديم إلى مقر جديد، هو أحد القصور الفارهة لأحد أثرياء المحلة الذي تركته أسرته لوزارة الثقافة، بعد موته، فأصبح قصرا للثقافة في أرقى حي بالمدينة في ذلك الزمان البعيد في مطالع الستينيات. وقد عرفت من أحد رفاقي المغرمين مثلي بالقراءة أن هناك جماعة أدبية تشكلت في القصر، وتجتمع أسبوعيا في مكتبته. وأغراني بأن أصحبه إلى يوم اجتماعها، ولم أكن أعرف أحدا من أفرادها، فذهبت معه، وحضرت الاجتماع الأول، بعد أن قدمني لهم الصديق الذي غاب عن ذاكرتي، وقدمهم لي.

وكنت في ذلك الوقت قد أكملت عامي الجامعي الأول، والتحقت بالقسم الذي كنت أحلم بالالتحاق به في كلية الآداب - جامعة القاهرة، وهو قسم طه حسين الذي فتنت به منذ أن قرأت رواية «الأيام» رائعة طه حسين التي جعلتني مسحورا بهذا الفتى الفقير الذي أدّى به جهل الأهل إلى العمى نهائيا. ورغم ذلك فإن ذلك الفتى ظل ينتصر، دائما، على التحديات العسيرة التي واجهته في حياته، ونهل من العلم والمعرفة بما جعله صاحب بصيرة ثاقبة، يرى بها ما لا يراه المئات من المبصرين الذين ألقى بهم التعصب والتطرف في عوالم أكثر إظلاما من العوالم التي تحيط بالكفيف. وسرعان ما عرفت، في الجامعة، وبعد التهامي كل كتب طه حسين التي وقعت بين يدي، أن طه حسين كتب «الأيام» بعد محنة كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي انهالت عليه اتهامات التكفير بسببه. وقد سعى الرجل إلى استعادة تاريخه الشخصي والتطلع إليه في صفحات الذاكرة، كي يؤكد لنفسه أن الفتى الأعمى الصغير الذي انتصر على محنة العمى والجهل قادر - وهو كبير - على الانتصار على محن أقل شأنا في النهاية.

أعني أن الكتاب كان محاولة للعودة إلى ماضي الذات لاستخلاص معدنها الذي يمكن أن يكون مصدر قوة في مواجهة خصوم الحاضر الذين تكالبوا على طه حسين بعد نشر كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي أصدره في شهر مارس 1926.

ومضت أيام دراسة العصر الجاهلي في السنة الأولى من الكلية، ودخلنا إلى دراسة العصر الأموي في السنة الثانية، وانتهى العام وبدأت العطلة الصيفية الطويلة التي تعوّدت قضاءها في المحلة الكبرى. وبالفعل عدت إلى البلدة التي جعلتني أعشق الأدب من قبل أن أعرف الأدباء الذين فتنت بأعمالهم. وبعد أن قضيت أيامي الأولى في المحلة، ذهبت إلى لقاء الجماعة الأدبية في قصر الثقافة، وتعرفت على عدد من الشبان، يماثلني بعضهم في العمر، وبعضهم أكبر أو أصغر مني بقليل، أي أننا ننتمي جميعا إلى الجيل نفسه، وأحسب أن هذا ما أسس حبال المودة بيننا سريعا.

وكانت المجموعة يتصدرها زكريا التوابتي، رحمة الله عليه، ونصر حامد أبو زيد، وسعيد الكفراوي، ومحمد صالح.. وأحمد الحوتي وأحمد عسر رحمة الله عليهما، ورمضان جميل الذي لم يكن قد تخرج من الأزهر بعد. أما زكريا التوابتي فكان كاتب قصة قصيرة، وحصل على جائزة نادي القصة للأدباء الشباب أكثر من مرة، وكان عضوا قياديا في جماعة الإخوان المسلمين في المحلة الكبرى، ولم نكن نعرف هذه الحقيقة، فقد كنا أكثر تركيزا على قضايا الأدب. لكن من الواضح أن تأثير زكريا كان ممتدا إلى نصر حامد أبو زيد الذي كانت رؤيته للعالم أقرب إلى التعاطف مع رؤية الإخوان المسلمين، لكن مع قدر كبير من الانفتاح والتسامح الفكري، فقد كان نصر يكتب في تلك الأيام، شعرا عاميا على طريقة صلاح چاهين الذي

أسهم إسهاما أصيلا في تأسيس ما أصبح يطلق عليه قصيدة العامية، في موازاة قصيدة التفعيلة التي كان مثلها الأعلى في ذلك الوقت صلاح عبد الصبور وأمل دنقل الذي أصبح شاعرنا المفضل بعد عام 1967. ويبدو أن نصر قد شعر أنه لن ينجز إنجازا أساسيا في الشعر العامي فتوقف عن كتابته، لكنه لم يتوقف عن قراءته والاستمتاع به. ويبدو أن سعيد الكفراوي دخل إلى عالم كتابة القصة القصيرة متأثرا بنجاح زكريا التوابتي في الحصول على جائزة نادي القصة. وقد تفجرت موهبته في هذا الاتجاه الذي سعى فيه إلى تصوير الأحداث والشخصيات التي كانت تمر به في أثناء عمله صرافا في بنك التسليف الزراعي إن لم تخني الذاكرة، وهو الأمر الذي كان يدفعه إلى الإقامة في مدينة القاهرة، والعودة إلى قريته «كفر حجازي» التي كانت قريبة من المحلة الكبرى، وما أكثر ما كان يدعونا إلى القرية للغداء، فتعرفنا، هناك، على أبيه رحمة الله عليه، وكان فلاحا شهما كريما بكل معنى الكلمة، ميسور الحال بسبب الأفدنة التي يملكها ويفلحها، ويعيش من دخلها معيشة مستورة.

وكان سعيد دائم المناكفة لأبيه الذي كان يحنو عليه حنوا خاصا، لعل سعيد يكتب عنه في إحدى مجموعاته القصصية، أو حتى في مذكراته، فسعيد حكاء من الطراز الأول. وأذكر أننا كنا نستمتع إلى حد كبير بطريقته الدرامية في حكيه للأحداث التي كانت تمر به، والتي سبق أن قصها علينا، ولم نكن نمل من سماعها أكثر من مرة، وذلك لبراعة أدائه الدرامي في الحكي الشفاهي. وقد ظل سعيد يبعث الكثير من البهجة في نفسي، عندما كان يقص علينا حكايات يخترعها عن جنية آخاها وآخته، وكنا لا نعلق إلا بالضحك على براعته في التخييل الذي يمزج الواقع بالخيال، بل

يتباعد عن الواقع بما يشد السامع إلى الأحداث التي تبدو أشبه بالواقع مع أنها ليست منه. والحق أنني كنت شديد التعلق، ولا أزال، بقدرة سعيد الحكائية، وأدفعه دفعا إليها في كل مجلس يضمنا، مؤمنا دائما بقدرته على إشاعة البهجة في المجلس الذي يجلس فيه. ولقد ظهرت موهبة سعيد الحكاء في كتابه الذي أصدره مؤخرا بعنوان: «حكايات الناس الطيبين» الذي رسم فيه لوحات قلمية فاتنة عن شخصيات تركت فيه أثرا كبيرا من جيل العمالقة الذي يضم نجيب محفوظ ويحيى حقي وغيرهما من الشخصيات التي عرفها الكفراوي وتأثر بها، وبالتأكيد ازددت حبا له لما فيه من خصال أبرزها البراءة التي لم تفارقه والنوادر التي يطالبه الجميع بذكرها، ولا يملون من سماعها. وأعتقد أن سعيد الكفراوي الذي كان من أسبق أبناء صحبة قصر ثقافة المحلة سفرًا إلى القاهرة لم يجد من ينافسه في مقدرة الحكي، إن لم يتفوق عليه في حالات بعينها سوى خيري شلبي، صديقي الحكاء الأعظم الذي تتسلل إلى رواياته خصائص الحكي الشفاهي في اللغة والسرد، وتراكيب المجازات، فضلا عن تتابع الأحداث وبناء الشخصيات.

ويبدو أن حكايات سعيد الكفراوي أنستني، في غمرة تذكرها، الإشارة إلى ما أذكره عن زكريا التوابتي الذي كان بمثابة المعلم الروحي لسعيد لفترة غير قصيرة، فقد كان زكريا متميزا في كتابة القصة القصيرة بالفعل، يستمدها غالبا من حياة القرية التي ينتسب إليها. ولم أكن أعرف أن سكنه (شقته) التي كان يعيش فيها، وحيدا، أمام سور شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة لا يفصل بين البيت الذي كان يقطنه والسور سوى شارع صغير. ولم يكن أغلب الصحبة التي تعودت اللقاء في سكن زكريا التوابتي تعرف

أن المسكن هو مركز سرِّي من مراكز الإخوان المسلمين، فالرجل، رحمة الله عليه، لم نكن نرى منه سوى التدين والحرص على أداء الصلوات في مواعيدها، والتعاطف الحماسي مع أفكار أعلام الإخوان المسلمين، وبخاصة حسن البنا وبعده سيد قطب. وما كان أحدنا يخطر على باله أن الغرف المغلقة في مسكن زكريا هي قاعات مخصصة للقاءات أعضاء تنظيم الإخوان المسلمين، ومقر عيادتهم الصحية، بل مخزن أسلحتهم فيما زعم لي البعض، ولا أدري وجه الحقيقة في هذا الزعم. وكان من الطبيعي أن أصطدم بأفكار زكريا وأن أقارعه الحجة بالحجة، فقد كان في أقصى اليمين، بينما كنت أنا متأثرا بأفكار اليسار التي عرفتها في سنوات الجامعة، وجذبتني إليها في مناخ، كان الاتحاد السوڤيتي هو الحليف والسند لنا في معاركنا ضد الاستعمار القديم والجديد، فضلا عن الأعمال الأدبية الروسية التي كانت متاحة لنا بقروش زهيدة في مكتبة الشرق التي كانت تبيع كتب أعلام الماركسية اللينينية وروائع الأعمال الأدبية الروسية.

ولا أزال أحتفظ، في مكتبتي الخاصة، بعدد غير قليل من الكتب الفكرية التي اشتريتها من هذه الدار التي كانت تحمل اسمها مجلة ثقافية رأس تحريرها المرحوم محمد مندور الناقد الأدبي الفذ الذي توفي سنة 1965 أثناء تأديتي امتحان الليسانس. وأعتقد أن اختلاف التكوين الثقافي كان سبب التنافر الفكري بيني وزكريا التوابتي، ولكن هذا الاختلاف لم يقطع ما بيننا من أواصر صنعتها هواية الأدب بالدرجة الأولى. ولم أكن أتخيل، قط، أن زكريا التوابتي، وهو المنغمس في هواياته الأدبية، والحريص على كل لقاءاتنا، والإسهام الحماسي في كل نقاشاتنا ومجادلاتنا حول الأدباء الكبار في ذلك الوقت هو قيادي إخواني خطير إلا بعد أن قبض عليه،

ضمن محاولة الإخوان قلب نظام الحكم الناصري، في أواسط الستينيات تقريبا، وهي المحاولة التي انتهت بإعدام سيد قطب وسجن البقية الباقية من الجماعة. وكان زكريا أحد الذين حكم عليهم بالسجن خمسة عشر عاما. وقد خرج قبل نهاية مدة العقوبة مع الانفراجة التي كان سببها تحالف السادات مع الإخوان المسلمين، بعد موت عبد الناصر، للقضاء على التيارات المعادية للسادات: القومية واليسارية والناصرية... إلخ.

وقد التحق زكريا التوابتي، بعد خروجه من السجن، بكلية الآداب، واختار قسم اللغة العربية الذي كنت قد عينت فيه معيدا، أثناء سجنه، وظللت أترقى إلى أن أصبحت أستاذا مساعدا. وكان من الطبيعي أن أرعى الصديق القديم، وأن أقدّم له ما أستطيع من مساعدة. وكان هو، بدوره، يسألني، كلما ذهب إلى المحلة الكبرى للزيارة، عما إذا كنت أريد شيئا، فأحمّله ما كان يمكن أن أتدبره من مال ليحمله إلى أمي التي ظللت أرعاها إلى أن توفّاها الله، راضية عني مرضية من كل ما حولها. وكان زكريا لا يتردد في الثناء عليَّ بسبب رعاية أمي، فذلك - في نظره - دليل على أنني عميق الإيمان في تقديره. وتخرج زكريا من الجامعة، وانقطعت أخباره، ولم أره إلا في زيارة لجامعة صنعاء محاضرا، حيث فوجئت به بين الحاضرين. وعندما انتهت المحاضرة أقبل عليَّ هاشا باشا، ودعاني إلى الغداء في منزله ووعدته بالقبول. وذهبت بالفعل. وعلى السجادة المتواضعة التي جلسنا عليها لتناول الطعام، حكى لي حكاية لا أنساها. وقال لي إنه عندما دخل إلى السجن انهالت عليه أبشع صنوف التعذيب، مع سؤاله عن أسماء أعضاء التنظيم، ولم يجد خلاصا إلا بتضليل زبانية التعذيب الذين قال لهم الأسماء التي خطرت على باله من الخصوم الفكريين. وكان اسمي أول

الأسماء التي خطرت على باله، لأنني كنت أرفض فكر الإخوان المسلمين ولا أتقبل دعوتهم إلى إقامة دولة دينية، أو أننا نعيش في جاهلية معاصرة، أو أن الحاكمية لله، فقد كنت، ولا أزال، أرى أن الحاكمية هي للبشر في كل الأحوال، حتى لو نسبوها إلى الله، فهي تتحقق، إذا تحققت بواسطة جماعة بشرية، تنسب نفسها إلى الله - سبحانه وتعالى - الذي تدعي الإنابة عن دينه، غير معصومة أو منزهة عن الخطأ بحكم طبيعتها البشرية.

وتركت لزكريا إكمال الحديث عن الحوارات التي كانت تدور في السجن، وذكر لي كتاب الهضيبي الذي تعرض لمبادرات العنف، رافضا إياها، على نحو ما يبين عنوان كتابه : «دعاة لا قضاة». ولم ينس زكريا أن يخبرني أن رأيه فيَّ قد تغير بعد خروجه من السجن، وبسبب ما رآه من بري بأهلي، وبخاصة أمي التي لم تكن تتوقف عن الدعاء لي وله، في كل مرة يزورها، حاملا كل ما كنت أرسله لها. فقد كان ذلك علامة إيمان يعصمني من الخطر الذي بعدت عنه بتحولي إلى يساري معتدل، لا يجد تناقضا بين هويته الإسلامية والانحياز إلى الأفكار التي تدعو إلى العدل الاجتماعي والحض عليه. وللأسف انقطعت علاقتي بزكريا التوابتي بعد ذلك، فقد توفيت والدتي، رحمها الله، وشغلتنا الحياة، وظل هو في صنعاء، إلى أن عاد منها، وسمعت بوفاته منذ وقت قريب، رحمه الله، فقد أخلص لما اعتقده، وتعذّب في سبيله دون أن يغريه مال أو خوف عما آمن به.

ويشترك محمد صالح مع سعيد الكفراوي وزكريا في النشأة الريفية، فقد كان من قرية قريبة من المحلة اسمها «منية شنتنا عياش» تربى في كنف أخيه الأكبر بعد وفاة أبيه. وأذكر أنه كان يأخذ الشلة لزيارة القرية والتمتع بجمال الخضرة في الحقول التي كانت تمتد على مدى البصر. وكان منتسبا

إلى قسم الفلسفة في كلية الآداب، جامعة عين شمس. لكن بعد أن درس في قسم اللغات الأوربية القديمة في جامعة القاهرة التي هجرها، في رحلة تمرد حياتية أعادته إلى الجامعة مرة أخرى. ولذلك كان يحدثني كثيرا عن المرحوم محمد صقر خفاجي الذي كان معجبا به، ولم يحدثني عن أحد من قسم الفلسفة الذي أكمل الدراسة فيه، إرضاء لأخيه، دون رغبة حقيقية في مواصلة طريق العلم، ولا أزال أذكر أن محمد صالح كان متمردا على كل شيء. الشيء الوحيد الذي آمن به هو الشعر الذي كان مقلا في نظمه، وقد جمع قصائده بعد سنوات عديدة ديوان جميل بعنوان: «الوطن الجمر». وكانت قصائد الديوان صرخة احتجاج على الثورة المضادة التي قادها السادات ضد التوجه الناصري، ولا أزال أذكر قصيدة من قصائد هذا الديوان عن عودة السادات من زيارة إسرائيل، وكيف استقبلته فرقة موسيقية، قادها محمد عبد الوهاب الذي كان يرتدي زيا عسكريا بدرجة لواء تحية لعودة «بطل الحرب والسلام» الذي استقبلته الفرقة الموسيقية التي قادها «الشيخ الخريفي» كما تصفه القصيدة. وكانت هذه القصيدة مع غيرها من القصائد دالة على موهبة محمد الشعرية الصافية، وعلى ميله إلى التجريب الذي تجلى في قصيدة «آنية وأباريق». ويبدو أن ميل محمد صالح إلى التجريب هو الذي دفعه إلى هجر قصيدة التفعيلة والإقبال على قصيدة النثر، خصوصا بعد أن أغوته لغة الصحافة. وقد أصدر أكثر من ديوانين في قصيدة النثر، جامعا قصائده بالغة التميز، التي أصدر في شكلها خصوصا وسط طوفان قصائد النثر التي لا قيمة لها. ولم يفارق محمد صالح، رحمه الله، صفة الإقلال في الكتابة. ويرجع ذلك إلى مشاغل الحياة والعمل الذي التهم الكثير من وقته، خصوصا بعد أن أصبح مدير تحرير مجلة «كل

الناس». وبعدها عمل معي في المركز القومي للترجمة، إلى أن خطفه منا السرطان اللعين، فلحق ببقية الأصدقاء الذين سبقونا إلى المصير الذي ينتظرنا جميعا. وقد ظللنا على علاقة وثيقة، وكنت أراه بشكل منتظم، عندما كان سكنه قريبا مني، وظللت أراه، يوميا، في الأعوام الأخيرة من حياته بحكم عملنا المشترك الذي كان فيه نعم العون والمساندة رحمه الله، فقد فقدت بموته أخا وصديقا ورفيق درب وذكريات عمر طويل.

يبقى من أفراد شلة قصر الثقافة اثنان أصغر سنا بسنوات قليلة، أولهما جار النبي الحلو الذي جذبه عالم القصة القصيرة وبرز فيها، ثم انتقل منه إلى عالم الرواية، وأحسبه الوحيد بيننا الذي كتب رواية عن المحلة، بعنوان: «منزل على نهر» هي أقرب إلى السيرة الذاتية التي يصور فيها نشأته في منزل كان يقع مباشرة على نهر، كان يحيط بمدينة المحلة، وقد تم ردمه بعد ذلك بسنوات عديدة، بحيث لم يعد يذكره إلا الذين عاشوا طويلا في المحلة، تلك التي آثر جار النبي الحلو أن يبقى فيها إلى اليوم، ولا يزال فيها، بعد أن أصبحت مكانته الروائية تفرض نفسها على القراء.

وكان جار النبي أقرب إلى المنسي قنديل بحكم السن المتقاربة، فلم يكونا يفترقان، حتى حين كان المنسي طالبا في كلية الطب بجامعة المنصورة القريبة من المحلة، وسرعان ما تخرج فيها، ولكنه آثر طريق يوسف إدريس، وأسلم نفسه تماما إلى موهبته الأدبية التي سرعان ما رأينا تفجّرها، خصوصا بعد أن استقر في القاهرة، وأخذ ينشر سرديات عن شخصيات وأحداث من التاريخ العربي التي واصل كتابتها في مجلة «العربي». ولم يتوقف عن الكتابة إلا بعد سنوات قضاها مغتربا في قطر، وعاد إلى القاهرة، وهو يحمل رواية بعنوان: «بيع نفس بشرية» أحسبها هي

التي لفتت الأنظار إليه، ولا يزال المنسي يواصل إنجازاته الروائية المتتابعة التي كان آخرها رواية «سمرقند» التي حصل بها على جائزة مالية ومعنوية مؤخرا. وكان المنسي قبل ذلك بأعوام قد عاد إلى الكتابة في مجلة «العربي» التي أصبح أحد المحررين البارزين فيها، ولم أعد أراه إلا في زياراتي إلى الكويت.

ويصعب عليَّ أن أتناسى - في تذكر شلة قصر الثقافة - أربعة أصدقاء أعزاء، أولهم محمد فريد أبو سعدة الذي بدأ كتابة الشعر وهو طالب في الجامعة، وقد انضم إلينا في سنوات التلمذة، وكنا نقرأ قصائده التي كانت تحمل علامات التأثر بأمل دنقل وأشباهه من شعراء الرفض، لكن فريد سرعان ما استقل بنفسه الشعري، خصوصا بعد أن عمل في القاهرة، وبدأ في مواصلة النشر، وقد ناقشت أحد دواوينه في أتيليه القاهرة. ويحزنني أنني لا أتابعه، نقديا، بالعناية الكافية، ولكنها مشاغل الحياة التي تشغلنا عن أحبابنا.

وقد سبق فريد إلى كتابة الشعر المرحوم أحمد الحوتي الذي كان من أوائل من أخذ ينشر من مجموعتنا في القاهرة، وتوالبت دواوينه إلى أن داهمه مرض مفاجئ، انتهى بموته، تاركا في أنفسنا ذكرياته التي جمعتنا به وجمعته بنا. وقد كان أحمد عسر هو أول الراحلين في مجموعة قصر الثقافة. وكان أكبرنا سنا، وأسبقنا إلى التخرج من كلية الآداب في جامعة القاهرة وكان فلاحا كريما، ما أكثر ما ذهبنا إلى بيته، وإلى قريته، لنكمل مناقشاتنا إلى أن نجوع، فتبادرنا زوجه الكريمة بالطعام. وأظنه كان يضيق بقسوة نقدنا لبعض قصصه الضعيفة. وأذكر أننا ذهبنا إلى الطعام عنده، بعد جلسة قاسية في نقدي إحدى قصصه، وكنا مستغرقين في الطعام

والضحك، وفي غمرة المرح ربت على ظهري قائلا : كلْ، فإن النقد يحب التغذية، وظلت هذه العبارة نادرة نتذكرها إلى اليوم، مع تعليق آخر له على قسوة نقدنا له، هو لابد من عشرة في المائة مجاملة في أي نقد. ولكننا لم نعرف المجاملة في هذه السنوات، بل الصراحة الكاملة التي أوقن أنها أسهمت إسهاما إيجابيا في تطوير أعمالنا الإبداعية والنقدية.

ولا يبقى سوى رمضان جميل «الأزهري الآبق» كما كنا نسميه، وقد عرفناه طالبا أزهريا. وكنت تعودت زيارته في الغرفة التي كان يقطنها مع أربعة من أقرانه في حي الحسين، ولا أنسى سيره في الصباح مرتديا «القبقاب» الذي يحدث صوته المعروف على بلاط الحارة إلى بائع الفول الذي يملأ من عنده وعاء عميقا من الفول، فوقه طبقة كاملة من الزيت الحار. وقد أفطرت معهم مرة واحدة ولم أكررها. وكان رمضان أخبر مني بكتب التراث، وأذكر أنه ساعدني في إعداد أطروحتي للماچستير عن شعراء الإحياء بأن جمع لي دواوينهم من باعة الكتب القديمة التي يعرف محتويات ما عندهم التي يحفظها عن ظهر قلب. وكان لهذا «الأزهري الآبق» إنجاز بديع في القصة القصيرة. أذكر أن أولى قصصه التي شهدنا لها بالتميز كانت بعنوان: «موت عامل نسيج يدوي». وهي قصة عن التحول الذي حدث في المحلة الكبرى بعد أن انتقلت صناعة النسيج فيها من الاعتماد على الأنوال اليدوية إلى الماكينات التي سحبت البساط من تحت العمال اليدويين الذين كان عليهم، إما أن يهجروا الأنوال اليدوية أو يظلوا متمسكين بها، معادين للتطور الصناعي الذي أنهى عالم الأنوال اليدوية وأصحابها الذين حطمهم التطور الطبيعي لصناعة الغزل والنسيج في المحلة الكبرى. وينتقي رمضان جميل في قصته شخصية عامل نسيج

يدوي، تنتهي حياته بسبب الفقر والإحباط والمرض والإصرار على عدم الاستجابة إلى التطور. وكانت القصة جميلة ومؤثرة، تبين عن تأثر رمضان بكتابات تشيكوف التي أسرتنا في هذه السنوات، وكانت مصدر إعجابنا الباكر بيوسف إدريس الذي جعلناه تشيكوف المصري. وأذكر أن أحد المحررين في جريدة الجمهورية، وكان مشرفا على صفحة أدباء الأقاليم، قد أعجبته القصة، وكان ذلك حدثا فريدا مفرحا لنا جميعا، فقد كان بالفعل العمل الإبداعي الأول الذي ينشر لواحد منا. ولكن للأسف، لم يستمر رمضان جميل في الكتابة، فقد ألهته واجباته العائلية التي كان عليه النهوض بها بعد تخرجه، فتباعد عن الأدب شيئا فشيئا إلى أن انقطعت علاقتي به، خصوصا بعد سفره إلى أحد أقطار النفط التي قضت، فيما يبدو، على موهبته الواعدة في ذلك الزمن البعيد. وقد دهمتنا مشاعر الحزن العميق الغامر بخبر موته ولحاقه بزكريا التوابتي وأحمد عسر من الذين سبقونا، جميعا، إلى الرحيل.

أما الشخص الاستثنائي في هذه المجموعة الذي لا يزال مثالا فريدا للعصامية وبناء الذات فهو نصر حامد أبو زيد الذي عرفناه فني لاسلكي، يعمل في شرطة نجدة المحلة الكبرى، بعد تخرجه من مدرسة الصنائع الثانوية بمدينة طنطا التي كانت قريته - قحافة - متاخمة لها. وقد انتقل نصر للعمل بالمحلة التي استقر فيها هو وأسرته التي كان يعولها. ولم يمنعه العمل من مواصلة القراءة في المجالات التي جمعتنا وإياه. وقد سعى إلى إكمال تعليمه العالي رغم أعبائه الأسرية، فحصل على الثانوية العامة من منازلهم، وانتقل إلى القاهرة ليعمل فني لاسلكي في شرطة نجدة

العجوزة، ليكون قريبا من الجامعة، حيث أصبح طالبا منتسبا إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب. وهو القسم الذي كنت أعمل فيه، وحصل نصر على درجة الليسانس بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وهو أعلى تقدير، ولذلك تم تكليفه معيدًا في القسم.

واختار له الأساتذة الأقطاب العمل في مجال الدراسات الإسلامية التي لم يكن بها معيد. وقبل نصر التكليف مع أنه كان يريد التخصص في المجالات الأدبية أو النقدية، لكنه مضى في الطريق الذي اختير له، فحصل على درجة الماچستير في موضوع «المجاز عند المعتزلة» وانتقل منه إلى «التأويل عند ابن عربي». ومضى في نجاح في هذا المجال، وغاب لسنوات قضاها في اليابان، أستاذا معارا في جامعة أوساكا، حيث بدأ تأليف كتابه «مفهوم النص» الذي لفت إليه الأنظار بقوة بعد أن طبعته الهيئة العامة للكتاب، وكان أعلى كتب الهيئة توزيعا في السنة التي طبع فيها. وترقى نصر إلى درجة أستاذ مساعد، ومرت السنوات اللازمة لكي يترقى أستاذا، وتقدم بأبحاثه التي رفضها أحد الأعضاء الذي استطاع التأثير في اللجنة التي رفضت الترقية، ومع ذلك لم يمض وقت طويل إلا وكان نصر قد تقدم بأبحاث جديدة، فتمت الترقية. لكن البعض تعلق ببعض العبارات في كتبه وفهمها على غير المراد منها، فبدأت محنة نصر أبو زيد التي لم تنته بحكم محكمة النقض، بعد الاستئناف، بقرار الفصل بينه وزوجه، بعد اتهامه في دينه. ولكن قرار محكمة النقض قد ناقضه حكم محكمة موازية بإيقاف القرار الأول. واضطر نصر إلى الهجرة إلى الخارج، حيث استقر به المقام

في أعرق جامعة هولندية، ولا يزال الرجل مقيما هناك، أستاذا جامعيا في هولندا، مع احتفاظه بدرجته الجامعية في الجامعة. ونسى الجميع محنة التكفير التي مر بها، لكننا لم ننس صديقنا الذي عرفناه وظللنا على يقين من إيمانه الديني والظلم الذي حاق به.

هكذا، تكتمل صحبة قصر ثقافة المحلة الكبرى التي لا تزال مستمرة، رغم السنوات التي باعدت ما بيننا، ورغم الموت الذي أخذ منا ما أخذ.

فتنة القاهرة

الرحيل إلى القاهرة

عندما حصلت على الثانوية العامة في سنة 1960، لم أكن ذهبت إلى القاهرة سوى مرة واحدة، في الرحلة العلمية التي كانت تنظمها المدارس الثانوية في ذلك الزمان، كي تتيح للطلاب معرفة أهم عواصم وطنهم القديمة والحديثة، وهو تقليد لم يعد موجودا، خصوصا بعد انتشار الجامعات في المحافظات المصرية، وهو أمر ترتب عليه وجود خريج جامعة، لم ير من وطنه سوى حدود المحافظة التي وُلِدَ وتعلم فيها، وكانت النتيجة أن بعضهم لم ير مسرحا في حياته، ولم يعرف التنوع الجغرافي والثقافي والبشري لوطنه. وهو أمر يلازم ضيق الأفق، وضآلة الثقافة، والقابلية لتلقي بذور التعصب والتطرف، خصوصا في محافظات الجنوب التي ظلت بعيدة عن الاهتمام الحكومي طويلا. وكان أبناء جيلي أسعد حظا، خصوصا في الوجه البحري، فقد كانت الرحلات العلمية تتجه إلى الجنوب، حيث الأقصر وأسوان، أو إلى الشمال، حيث الإسكندرية وكم كنت أود أن أذهب إلى السد العالي الذي دفعت رغبة بنائه، في مواجهة رفض البنك الدولي وسلبية الحكومة الأمريكية، عبد الناصر إلى تأميم قناة السويس، ومواجهة العدوان الثلاثي الذي خرجت منه مصر زعيمة للوطن العربي، وعبد الناصر بطلا قوميا. وكانت الرحلة العلمية لمدرستي إلى القاهرة التي كنت أحلم بالالتحاق بجامعتها، خصوصا القسم الذي ينتمي

إليه طه حسين الذي سيطر على مخيلتي وعقلي، منذ أن قرأت له «الأيام» التي دفعتني إلى التهام بقية كتبه المتاحة في مكتبة المدرسة ومكتبة البلدية، قبل أن أحصل على الثانوية العامة. ولحسن الحظ، كان مقررا في رحلتنا إلى القاهرة زيارة حديقة الحيوان الملاصقة لمباني الجامعة، فتسللت مع بعض الزملاء إلى بوابة جامعة القاهرة التي لا تزال قائمة، وما إن عبرناها حتى وجدت كلية الآداب على يمين الداخل، حيث يقع قسم اللغة العربية في طرف الدور الثاني، مطلا على ساحة جامعة القاهرة الشهيرة.

وتمنيت ساعتها أن أنجح في الثانوية العامة، وأن أحصل على المجموع الذي يدخلني كلية وقسم طه حسين الذي يهفو إليه فؤادي. وقررت أن أذاكر المقرر الدراسي المطلوب بما يؤهلني للحصول على المجموع اللازم. ولم أكن أذاكر من قبل سوى ما يضمن لي النجاح، فقد كنت مشغولا بقراءة الكتب التي هي خارج المقرر، وأغلبها - فيما عدا كتب طه حسين - كتب أدبية، روايات ودواوين ومسرحيات وبعض الكتب الدينية التي كانت قراءتها أمرا طبيعيا في بلد أكثر ما فيه المساجد، وكان الكبار من أهلنا يزعمون أن مآذن المحلة الكبرى لا تقل، عددا، عن مآذن القاهرة، ذات الألف مسجد ومئذنة فيما قيل لنا في ذلك الوقت. وهو أمر اقترن بارتفاع الحس الديني ومظاهره ولوازمه في المدينة التي نشأنا فيها، والتي كانت تضم - ربما نتيجة لذلك - مقرا للإخوان المسلمين، ومركزا رياضيا وثقافيا من مراكزهم التي تجذب المتعاطفين معهم والصغار الذين يستميلونهم، ولم أكن منهم، فقد نفرت من جهامة وجوههم وصرامة طرقهم التي كانت تبدو لي كأنها استعداد لمعركة ضد أعداء لا وجود لهم.

وحصلت على الثانوية العامة بمجموع أكثر من ستين في المائة، ولم نكن نعرف في ذلك الوقت المجموع الذي يجاوز الثماني والتسعين أو التسع والتسعين، كالانتخابات الناصرية والساداتية. وقد كان ما حصلت عليه كافيا لتحقيق حلمي القديم فأخذت بعض النقود من أبي، وذهبت إلى القاهرة، ضيفا على أحد المعارف القدامى لأبي، وقدّمت ورقي في مكتب التنسيق، وكتبت «آداب القاهرة» الرغبة الأولى، وعدت إلى المحلة منتظرا النتيجة، واثقا منها في الوقت نفسه. ولم يطل انتظاري، فقد جاء خطاب مكتب التنسيق بقبولي طالبا بآداب القاهرة، وفي طياته موعد الكشف الطبي بالإدارة الطبية التي كانت تقع بالقرب من ميدان الجيزة. وكان عليَّ معاودة السفر إلى القاهرة، والمرور بكشف طبي، كانت نتيجته طيبة. وهكذا أصبحت طالبا رسميا في كلية الآداب بجامعة القاهرة. ولم يبق سوى دفع المصروفات لأن مجموعي لم يكن يصل إلى النسبة المرتفعة التي تمنح المجانية. ولم يكن هذا الأمر يشغلني، خصوصا بعد أن مررت على الكلية، وسألت عن شروط القبول في قسم اللغة العربية، وفرحت باكتشاف أن مجموع درجاتي في مادة اللغة العربية، يجاوز بكثير الحد المطلوب للالتحاق بالقسم. وعدت إلى المحلة فرحا باقتراب تحقق حلمي في الدخول إلى قسم طه حسين.

ولكن بقدر فرحي الذي أعلنته لأبي وأمي، وكان أبي الأكثر إعلانا للفرح، كان الطابع العملي الغالب على أمي يمنعها من إظهار الفرح الكامل، فقد أدخلتنا في المطالب المالية التي لابد من توفيرها، أولا بشراء أثاث للغرفة التي سوف أسكنها في القاهرة، وثانيا لتسديد المصروفات

الجامعية، والشهرية التي لابد من إرسالها لي في مطلع كل شهر. وبدأت أحمل الهم، لكنها عندما لاحظت تغير ملامح وجهي أظهرت إشفاقها عليَّ، وقالت لي : لا تشغل بالك، ولا تحمل الهم، فسوف أدبّر لك كل شيء بإذن الله.

وسرعان ما عرفت أنها كانت تدخر، دون أن يعلم أبي، ما نحتاج إليه في هذا اليوم، كعادتها في تدبير الأمور، والاستعداد لكل شيء، فقد كانت أمي، رحمها الله، أكثر من عرفت استعدادا لطوارئ المستقبل. وقد رأيت ذلك عندما اصطحبتني معها، في اليوم التالي، وذهبنا إلى محل «النمرسي» الشهير في المحلة الكبرى، وكان أكبر محلات المحلة في بيع الأثاث والأدوات المنزلية. واختارت لي أمي سريرا حديديا يكفي لفرد واحد، ومعه مرتبة، وملاءتي سرير وكيسين للمخدتين اللتين أكملتا حاجيات السرير، وظلت تفتش بين المكاتب على أرخصها وأمتنها على السواء. وأخيرا، استقر رأيها على أحدَ المكاتب التي رأتها صالحة، ومع المكتب كرسي بشَلْتة، وانتقلت بعد ذلك إلى الأدوات المنزلية، واختارت برادا من الألومنيوم للشاي، أو غلي الماء، وحلة متوسطة الحجم وطاسة مثلها. وقالت لي : ها نحن قد أكملنا أثاث غرفتك، يبقى تدبير المصروفات اللازمة للدراسة. المهم أن تجتهد، وتكون من الناجحين دائما، فرددت عليها في تأثر : بل من الأوائل. وهل كان يمكن أن أرد بغير ذلك، فهذا أقل شيء أفعله، تقديرا لأسرتي التي بذلت أقصى جهدها في سبيل تعليمي.

وكانت المشكلة الثانية: كيف نحصل على غرفة بإيجار معقول بالقرب من الجامعة؟ ولحسن الحظ، وجدت زميلا لي، قبلته كلية الآداب،

في قسم تاريخ، وأعلن عن رغبته في مشاركتي الغرفة، واقتسام إيجارها. وكان علينا، نحن الاثنين، أن نعود إلى القاهرة للبحث عن غرفة، ووجدنا غرفة صغيرة على سطح منزل قديم في إحدى حواري قلب الجيزة، بالقرب من كازينو الحمام الذي يلي «كوبري الجيزة» القديم الواصل بينها ومنطقة المنيل. وطلب أبي من جارنا المعلم خليفة، وكان رحمه الله تاجر جملة للخضروات والفواكه، أن تنقل عربة النقل التي تحمل بضاعته أثاثنا البسيط إلى القاهرة مجانا. ولم يتردد الرجل فأمر سائقه أن يحمل أثاثنا، أنا وزميلي، بعد أن يفرغ حمولته من أقفاص البلح الأَمْهات لتوصيل الأثاث إلى القاهرة، وأن يأخذني معه لكي أقوده إلى المنزل الذي استأجرت غرفة من غرف السطح الذي يطل على المنازل المحيطة به في الحارة التي تنتهي عند شارع المحطة الذي يبدأ من محطة الجيزة، وينتهي عند شاطئ النيل. وربما بسبب العجلة، لم يقم السائق بغسل العربة وتنظيفها من بقايا البلح الأمهات التي تساقطت في السيارة، وكانت النتيجة آثار البلح الأمهات التي علقت بالمرتبة والمخدات ولذلك كان علينا، زميلي وأنا، أن نزيل الآثار ونقسم الأثاث على الغرفة. كل سرير إلى جانب أحد الجدارين في الحجرة الصغيرة المستطيلة نسبيا، وكل مكتب إلى جانب سرير صاحبه. والأدوات المنزلية، ومعها موقد الكيروسين، تحت السريرين، يخفيها طرفا الملاءتين. وقام زميلي بفعل مضحك، وهو أنه رسم بقطعة طباشير خطا يفصل بين القسم الخاص بي في الغرفة والقسم الخاص به. وأخبرني أن على كل منا تنظيف وترتيب الجزء الخاص به وحده، ورأيت في ذلك جمودا وتزمتا، ينذر ببداية سيئة، ولم تمض أيام إلا ودب الشقاق بيننا، بسبب

هذا التزمت، وانتهى الأمر إلى معركة صبيانية، ترك بعدها الغرفة ليقيم في منزل عم له، يقطن قرب ميدان الدقي، وانقطعت أخباره عني بعد ذلك، ونسيت اسمه بمرور الوقت. وأصبحت الحجرة ملكا لي وحدي، صحيح كان عليَّ أن أدفع وحدي ثلاثة جنيهات إيجارا لها، من السبعة جنيهات ونصف التي يرسلها أبي كل شهر على مرتين، أول الشهر أربعة جنيهات ونصف جنيه، وفي نصف الشهر الجنيهات الثلاثة الباقية. وبدأت حياتي في الجامعة، بعد أن ترك لي أبي عشرة جنيهات لشراء الكتب والمراجع، وسرعان ما بدأت أشعر بالضائقة المالية بعد أن نَفِدَ المبلغ الذي تركه لي أبي لشراء الكتب والمراجع و«الشبرقة» فيما قال لي ضاحكا. وما إن مضى الشهران الأول والثاني، وأخذنا في الاقتراب من الفصل الثاني حتى بدأت أحمل هَمَّ مصروفات هذا الفصل، وأضرب أخماسا في أسداس عن كيفية تدبيرها، فقد أخذت تجارة أبي في الكساد الذي ظل يتزايد يوما بعد يوم، وظل الهَمَّ ينتابني عن كيفية إكمال السنوات الباقية. ولم يكن أمامي سوى أن أفرغ همي في كتبي حتى أتفوق، وكانت المفاجأة السارة أن عبد الناصر أعلن مجانية التعليم الجامعي، استكمالا لمجانية التعليم بكل مراحله، وكان ذلك في موازاة قرارات التأميم، وإعلان مرحلة التحول الاشتراكي، وذلك في فترة صعود المدّ القومي.

وللأسف، لم يستطع سقف الغرفة أن يحتمل مطر الشتاء الذي أخذ يتساقط من السقف. وزاد الطين بلة أنني كنت أجد صعوبة في الذهاب إلى الحمام المشترك الذي كان يذهب إليه كل سكان غرف السطح، وكان بعضهم من العمال، وما أكثر ما كان البرد يصيبني بسبب الخروج من

دفء الغرفة، والنوم تحت «اللحاف» إلى الحمام في الخارج، وتبادلت الشكوى مع زميلين من أقاصي الصعيد، كانا جارين لي، واتفق ثلاثتنا على البحث عن شقة تسعنا مع أحد الطلاب من معارفهما، وكان طالبا في السنة النهائية من كلية الطب البيطري. وعثرنا على شقة في بيت قديم، أخذت أصغر غرفة فيها، وحصل الثلاثة الباقون على الغرف المطلة على الشارع الضيق الذي كان قريبا من نيل الجيزة. ولم أشتك من ذلك، فقد كان الوضع أفضل من الغرفة التي كانت تغرقها مياه المطر. وكان الصديقان الصعيديان أحدهما مسلم والآخر مسيحي، اسمه ميشيل، من قرية ماشطة مركز أسيوط، وكنت أضاحكهما بسبب عيش «الزلوط» الذي يخزنانه في حجرتهما، ويستخدمانه بدل الخبز البلدي الأسهل في الأكل. وكنت أشتري جريدة الجمهورية، ويشتريان هما الأهرام، وذلك للتوفير. وكنت أتندر على ميشيل، حين كان يعود من كلية الزراعة التي يذهب إليها مع زميله، صائحا في وجهي : دبت درنال الدمهورية يا دابر، يقصد: جبت جرنال الجمهورية يا جابر، فقد كان ينطق الجيم دالا حسب لهجة موطنه الجنوبي. وطاب لنا المقام في الفصل الدراسي الأول الذي أنهينا امتحاناته على خير. ولكننا فوجئنا مع بداية النصف الثاني بإلحاح أصحاب المنزل على إخراجنا، وسرعان ما اكتشفنا أن ذلك كان بسبب زميلنا الكبير طالب بكالوريوس الطب البيطري، فقد دأب على معاكسة جارة لنا، كانت مطلقة، ويبدو أنها لم تحتمل شخصيته، فشكت لوالدها صاحب المنزل الذي أخذ الكل بذنب واحد منهم.

وأصبحت مضطرا للبحث عن سكن ثالث، وكنت قد عرفت مجموعة من الطلاب بلدياتي، يسكنون في شقة تقع في بدروم عمارة بأحد شوارع

العجوزة، وقد رحبوا بي للسكن معهم، خصوصا أن واحدا منهم كان يسكن بالقرب من منزلنا في المحلة الكبرى، والثاني كان أبوه يعمل في مدرسة المحلة الثانوية التي تخرجت منها، واحتفى بي من سكنت معه في غرفته الواسعة لكنه كان عجيب الأطوار، فقد كان يبدأ المذاكرة بإخراج كل ما في أدراج مكتبه، ويقضي أكثر من ساعة في ترتيب محتويات المكتب، وبدل أن يقوم بالمذاكرة، كان يضيع وقته فيما لا معنى له من الاطمئنان على محتويات الشقة. أما بقية ساكني الشقة فكان من بينهم عباس الذي عرفت والده في مدرستي الثانوية وأخاه الصغير الذي يعيد الثانوية العامة. وأما الأخير، فقد كان في كلية الهندسة، وكان مهووسا بالفتيات. أذكر مرة أنني عدت من المحاضرات فوجدتهم يحاصرون إحدى الخادمات في العمارة، في صالة الشقة، بعد أن استدرجاها للنزول إلى الشقة. وقد أصابني الخوف، فقد كان من الممكن أن ينتهي الأمر بنا جميعا في قسم الشرطة، ولذلك أخذت الفتاة من يدها، وفتحت لها باب الشقة، فخرجت هاربة. وكان لابد أن أتحمل صرخاتهم في إضاعة صيد ثمين. وبالطبع لم تخل حياتهم من المغامرات النسائية التي كنت أمتنع عن المشاركة فيها، خوفا وخجلا، وكان على ناصية العمارة المجاورة دكان رجل عجوز (على المعاش) يسكن في العمارة. وكانت له ثلاث بنات جميلات، كان لابد أن يسلط زملائي أنظارهم عليهن لفتا للانتباه. وأذكر أن الصغرى منهن كانت تبتسم لي كثيرا، لعلي أتشجع وأبادلها الحديث، لكنني ظللت على خوفي وخجلي الذي لم يفارقني، فقد كنت شديد الخجل من الفتيات. وكم أوقعني هذا الخجل في مواقف طريفة، أذكر منها أنني كنت أترك مقعدي في الأتوبيس إذا جلست فتاة بجواري، حتى لو كان الأتوبيس غير مزدحم

وأذكر أن أستاذتي سهير القلماوي لاحظت هذا الخجل الزائد عن حده فعالجته علاجا قاسيا. وكنت قد عملت معيدا، تحت إشرافها، فأمرتني بالتدريس للفرقة الرابعة من قسم اللغة الفرنسية. وكان عدد الطلاب حوالي مائة، ثمانية وتسعون منهم طالبات وطالبان فقط. ولم يكن فرق السن بيننا مذكورا ولاحظت الطالبات خجلي، فاستغللن نقطة الضعف هذه أفظع استغلال، وكنت أقوم بتدريس ترجمة كتاب رفاعة الطهطاوي لرواية فينلون الفرنسي، وأقارن بين لغتها القديمة المسجوعة، وحرية رفاعة في الحذف منها والزيادة بترجمة حديثة لعادل زعيتر. وفوجئت في إحدى المحاضرات أن عددا كبيرا من الطالبات يرتدين أساور لها أطراف (شخاليل) فإذا حركن أذرعهن علا صوت «الشخاليل». وكن ينتظرن اللحظة التي أندمج فيه في الشرح، فتتحرك الأذرع لتصدر أصواتا، تقطع اندماجي. وكن يفعلن ذلك، وهن لا يخفين ابتسامات ماكرة لا تخلو من براءة العبث بالمعيد الطيب «الخام» الذي كنته، وأخذت قطرات العرق تنسال على وجهي، ويزداد اضطرابي الداخلي كلما ازداد عبث الطالبات الماكرات بي. ولا أعرف كيف انتهت المحاضرة التي هرعت بعدها إلى سهير القلماوي التي اندهشت من حالتي. وظلت تضحك مما أنا فيه. لكنها قالت في لهجة تجمع بين حنو الأم وصرامة الأستاذة : لا تخف، احتمل، وشيئا فشيئا سوف يفارقك الخجل من الطالبات، وكان ذلك درسا لا أنساه.

وإذا عدت من هذا الاستطراد إلى صحبة العجوزة، أذكر أن الفصل الدراسي انتهى بخير، رغم ما سببته صحبة المحلة من تشويش على

مذاكرتي. وفوجئت، بعد انتهاء الامتحان، بعباس يحاول إقناعي بعدم العودة سريعا إلى المحلة، فقد جاءت لهم فرصة العمل في مدينة للملاهي كانت مقامة، ذلك الصيف، في أرض المعارض وأغراني عباس، سامحه الله، بالمبلغ المالي الذي سوف أتقاضاه، وأقنعني بالبقاء فعلا، وعملت معه في مدينة الملاهي التي كانت تضم فتيات من كل نوع. ولكنني بقيت على خجلي الذي جعلهن يعاملنني معاملة طيبة، ربما فيها عطف، أو على الأقل عدم خوف بسبب خجلي البالغ، وسرعان ما انتهى العمل بعد شهر، وكانت تجربة إنسانية لا تنسى تفاصيلها، انتهت معها السنة الأولى، وعدت بعدها إلى المحلة الكبرى، منتظرا النتيجة النهائية للعام الأول في الجامعة التي أحببتها قبل أن التحق بها.

ولا أزال أذكر أحداث اليوم الأول في حياتي الجامعية، وقد بدأ اليوم برحلة على الأقدام من غرفتي إلى ميدان الجيزة، ومن ميدان الجيزة إلى الجامعة. وظللت أسير على الرصيف الأيسر، مارا بكلية الزراعة المواجهة لكلية الطب البيطري، على الناحية الأخرى من الشارع، مستظلا بأغصان الأشجار الكبيرة التي تحمي السائرين من الشمس وكنت طوال الطريق، أتطلع إلى الأشجار وإلى العمارات التي كانت على الرصيف الأيمن، حيث يصب شارع فرعي، يفصل بينها وسور حديقة الحيوان على الجانب الأيمن، ممتدا إلى بداية سور كلية الهندسة .

وكانت عيناي لا تكفان عن التحديق في الطالبات اللائي كن يسرن مثلي في طريق الجامعة، وكنا في الساعة الثامنة والنصف، وقت بداية المحاضرات التي لم تنتظم في اليوم الأول، ربما كي نتعود على الجامعة. وكانت عيناي تتطلعان إلى ذلك العدد الكبير من الطالبات، متعددات

الأزياء، لا يرتدين زيا موحدا كطالبات المدارس الثانوية، وكان مرآهن متعة لعين هذا الفتى الذي كنته، والذي لم ير هذا العدد من الطالبات اللائي فتنه جمال وشياكة وصباحة وجوه الكثيرات منهن، وكانت الأعين متوثبة بالحياة والأمل، لا فارق بين الطالبات والطلاب في ذلك : الخطوة عفية، والتحيات متبادلة بين الطلاب والطالبات بلا حرج أو خجل. وهاأنذا أذكر، في أثناء كتابة هذه الصورة الفرحة المتطلعة إلى الغد، أنني لم أجد طالبة واحدة محجبة، ولا طالبا واحدا بلحية، فالبنات جميعا سافرات، كأنهن يستعرضن الأزياء المختلفة، بسيطات، منطلقات، كل واحدة تدخل كليتها، ومضيت سائرا في طريق الجامعة مع البنات والأولاد، الذين أصبحوا زملاء لي، وعقلي يموج بإصراري على التفوق، وخيالي يطير إلى يوم أن يتحقق حلمي، فأصبح مثل: طه حسين، أو محمد مندور، أو لويس عوض، أو محمد غنيمي هلال، وغيرهم من الذين كنت أقرأ لهم في مجلة المجلة، وفي الملحق الأدبي لجريدة الأهرام الذي وصل إلى ذروة نجاحه بإشراف لويس عوض عليه. ولم أكن أعرف، في ذلك الوقت، أن كل الأسماء التي كانت تدور في رأسي خرجت من معطف طه حسين، وأنهم جميعا، ومعهم سهير القلماوي (التي أنزلتني فيما بعد منزلة الابن) تتلمذوا على طه حسين بشكل مباشر أو غير مباشر مثل لويس عوض وأقرانه من المختصين في الآداب الأجنبية، ومنهم ريمون فرنسيس ومؤنس طه حسين المتخصصان في اللغة الفرنسية.

وكانت أحلامي تترى مع انتظام خطواتي التي تقطع طريق الجامعة. وهو اسم يذكرني، الآن، بمجموعة قصصية بديعة لواحد من أكثر أساتذتي الذين فتنت بهم، وهو شكري عياد. وقد ظل ، طوال حياته ممزقا بين الإبداع ونقده، فكتب عددا من مجموعات القصص القصيرة التي كان

يعشق كتابتها، منها مجموعة «طريق الجامعة» إلى جانب سيرة ذاتية، لعل تأثيرها، في وعيي أو لاوعيي، هو الذي دفعني إلى استرجاع هذه الصورة الحميمة من حياتي.

وأخيرا، وصلت إلى الجامعة، وعبرت البوابة إلى الكلية التي حلمت بدخولها، وتوجهت إلى إدارة شؤون الطلاب، وكتبت استمارة اختيار قسم اللغة العربية الذي كان موجودا في الدور الثاني من الكلية، وصعدت السلم من الدور المسروق الذي تحتله شؤون الطلبة إلى قسم اللغة العربية، فوجدت جمعا من الطلاب والطالبات ينقلون الجدول الدراسي، ونقلت مثلهم الجدول، وعرفت أن خليل يحيى نامي سيقوم بتدريس مادة فقه اللغة، ويوسف خليف نصوص الشعر الجاهلي، وشوقي ضيف المحاضرات العامة عن العصر الجاهلي. وشكري عياد البلاغة، وعلوم القرآن، وكامل جمعة عروض الشعر ودواوينه، وعلي سامي النشار الفلسفة الإسلامية. وقد ذهب هؤلاء الأساتذة جميعا، عليهم رحمة الله، ولم يبق منهم سوى عزت عبد الموجود مَدّ الله في عمره، فقد كان لا يزال معيدا، ويقوم بتدريس النحو الذي كان اختصاصه، وكان يضيف إليه مادة المكتبة العربية التي توقف تدريسها، وكانت تتولى تعريفنا بأمهات الكتب في التراث العربي بمعناه العام والخاص الذي يقترن بالأخذ من كل شيء بطرف كما في كتب الموسوعات الأدبية العامة، وأشهرها «عيون الأخبار» لابن قتيبة و«الكامل» للمبرد وغيرهما من الكتب التي لابد أن يعرفها كل دارسي التراث الأدبي. ولم يكن هناك شيء من العلوم التي ندرسها في السنة الأولى إلا وأعرف شيئا عنه بدرجات متفاوتة، فيما عدا النحو والصرف وفقه اللغة، فالنحو كنت مهملا في دراسته، معتمدا على الإنشاء

وغيره من مجالات اللغة العربية، أما الصرف فلم أكن أعرف عنه شيئًا قط. يبقى فقه اللغة الذي كان يدور على المقارنة بين اللغات السامية، ولم يسبق لي أن قرأت أو درست شيئا من هذه اللغات التي تنتسب اللغة العربية إلى دوحتها السامية التي تتميز عن الآرية والحامية، ولم أكن أعرف أين تقع الدوحة الهندوأوربية بعد.

ومرّ الفصل الدراسي بسلام، وانتهينا من امتحان المواد التي درسناها فيه، وخرجنا بإجلال علي سامي النشار الذي درّس لنا الفلسفة الإسلامية من منظور مغاير، مؤكدا أصالتها وأنها ليست تابعة شارحة للفلسفة اليونانية، وأن من يريد أن يدرس الفلسفة الإسلامية في تفردها لابد أن يبدأ بالفقه وأصوله، ومنه إلى علوم الكلام، وقد كان، رحمه الله، متحمسا لما يرى، انفعاليا في نقاشه معنا، عصبيا، لا يكف عن التدخين في المحاضرة. وقد أكبرناه عندما أخبرنا أساتذة قسمنا أنه كان صديقا لعبد الناصر وقريبا منه، وقد كان يأتي إلينا، منتدبا، من جامعة الإسكندرية، فقد كان أستاذا من أساتذة قسم الفلسفة في كلية آدابها. وأما الأستاذ الذي سرعان ما غزا قلوبنا فهو يوسف خليف. وكان شاعرا، رحمه الله، يتميز بأسلوب جميل في إلقاء الشعر، أسلوب كان يدفعني إلى حفظ ما كان يلقيه بمجرد إلقائه. وكانت هذه الخاصية إحدى ميزاتي التي هجرتني مع تراكم السنوات واكتظاظ الذاكرة. أما صناجة الفصاحة اللغوية، كتابة وإلقاء، على طريقة الأعشى صناجة العرب القدماء، فكان طه حسين الذي لم أسمع إلى اليوم أفصح منه في نطق اللغة العربية. عرفت ذلك من أحاديثه في الإذاعة، ومن كتبه التي كانت تتميز بطلاوة أسلوبها وتفرده. وكم كان إحباطي كبيرا حين عرفت أنه لن يقوم بالتدريس لنا، فمنيت نفسي أن ألقاه يوما.

لكن القاهرة لم تكن جامعة القاهرة فحسب، فقد كانت تقع خارج أسوارها عوالم عجيبة غريبة مغوية لمن كان مثلي قادما من مدينة صغيرة، بالقياس إلى القاهرة التي جذبتني إليها لكي أكتشفها، وأتعرف على عجائبها ومباهجها : شوارعها، الطرز المعمارية لبناياتها، بعض ما حسبته يدخل في دائرة ناطحات السحاب، كالبرج الشهير في المنيل، عمارات إسماعيل باشا، القصور الملكية، الميادين، الحدائق، المتاحف، المسارح، الأوبرا القديمة، دور السينما، مكتبات سور الأزبكية، حي السيدة زينب، حي الحسين، الأزهر الشريف، فضلا عن التماثيل التي تتوسط الميادين، مجسّدة رموز التاريخ المصري الممتد من العصر الفرعوني إلى العصر الحديث : رمسيس الثاني، إبراهيم باشا، مصطفى كامل، طلعت حرب، أحمد ماهر. باختصار كل ما سمعت عنه، ولم أره من قبل.

وكانت البداية من حول جامعة القاهرة التي كانت حديقة الحيوان تقع على جانبها الأيمن وحديقة الأورمان على جانبها الأيسر، وبينهما في مواجهة كوبري الجامعة تمثال نهضة مصر الذي كان، أولا، في مواجهة محطة السكك الحديدية، وانتقل منها إلى موقعه الحالي ووضع مكانه تمثال رمسيس الثاني الذي سمي ميدان المحطة باسمه. وكنت في الأيام التي تقل محاضراتها أبدأ بمعرفة تاريخ الجامعة، ابتداء من اللوحة التي تسجل فضل الأميرة فاطمة إسماعيل في إنشاء الجامعة، وليس انتهاء بالنصب التذكاري الذي أقيم على شكل زهرة لوتس كالمسلة، على قاعدتها أسماء شهداء الجامعة الذين سقطوا قتلى، حين فتح الجند عليهم النار، في زمن إسماعيل صدقي، وفتح كوبري الجيزة القديم (كوبري عباس) على المتظاهرين الذين كانوا محاصرين بين الرصاص والسقوط من

على الكوبري، وتقدم القادة الذين صاروا أبطالا خلّدت الجامعة ذكراهم بالنصب التذكاري الذي أقيم تحية لهم. ولم يكن يوقفني في الطريق إلى كوبري الجامعة سوى تمثال مختار «نهضة مصر» الذي دفعني إلى ملاحظة قدرته على الجمع بين قيم النحت الفرعوني وتقنيات النحت الأوربي، وقد كان اسم مختار دافعا لي لأشتري من سور الأزبكية كتاب بدر الدين أبو غازي عنه. وكان بدر الدين أبو غازي وصدقي الجباخنجي وغيرهما من نقاد الفنون الذين كانوا يعرضون الإبداعات في مجلة «الهلال» التي أخذت في الحرص على اقتنائها مع رئاسة كامل زهيري لتحريرها على وجه الخصوص. وكنت قد حصلت على كتابه «مذاهب غريبة» من على سور الأزبكية، مع أعداد مجلة الهلال التي لم تكن عندي.

وكنت مشّاءً لا يبارى في ذلك الزمن البعيد، ولذلك كنت أترك العنان لقدمي، أمضي من الجامعة إلى كوبري الجامعة، متأملا تمثال مختار الذي لا يزال يفتنني إلى اليوم، وأنحرف يمينا من كوبري الجامعة لأمضي على كورنيش النيل جنوبا، إلى أن أصل إلى كوبري عباس (الجيزة حاليا) وأعبره إلى حيث أسكن، وفي أحيان أخرى أمرّ أمام كوبري عباس على شاطئ النيل لأصل إلى نهاية جزيرة الروضة، وأشاهد مقياس النيل، ثم أمضي هائما بلا هدف في شوارع جزيرة الروضة التي كانت محاطة بالعمارات والقصور الجميلة، وأمامها أشجار مزهرة بهيجة. وسرعان ما عرفت أن شوقي ضيف ودريني خشبة ومحمد مندور ومحمد غنيمي هلال كانوا يسكنون الروضة. أما وسط البلد، فكانت له جولات خاصة، في أيام الإجازات، حين كنت أركب أتوبيس رقم (8) المتجه إلى ميدان

التحرير، وأظل أتجول في الشوارع المحيطة بالميدان، إلى أن أصل إلى الشوارع التي كنت أعرفها بالمكتبات التي تقع فيها. هكذا عرفت شارع عدلي بمكتبة النهضة المصرية وعبد الخالق ثروت بمكتبة النهضة العربية ودار الآداب التي كانت ملاصقة لفندق الكونتننتال المواجه لشارع الجمهورية. وكانت «هاشيت» مكتبة الكتاب الفرنسي في ميدان طلعت حرب، قبل أن تفلس، وتتحول إلى محل للأحذية، إلى أن ينصلح الحال وتشتريها دار الشروق. وكانت دار المعارف تقع على تقاطع عبد الخالق ثروت وشريف، والأنجلو في محمد فريد. وإذا عبرنا الأزبكية وميدان العتبة إلى الأزهر وجدت الحلبي وصبيح. أما دار المعرفة فكانت في شارع صبري أبو علم... إلخ. وفي جولاتي بين مكتبات وسط البلد، لم أكن أنسى السير من باب اللوق إلى ميدان قصر عابدين، ومنه إلى ميدان الأوبرا القديمة، حيث أتأمل جمال معمار الأوبرا القديمة التي احترقت في زمن السادات، وقد عرفت أنها بنيت بأوامر الخديوي إسماعيل باشا لتكون جاهزة لحفلات افتتاح قناة السويس، وقد أنشئت على الطرز الإيطالية، وكلف الخديوي إسماعيل الموسيقار الإيطالي فردي بإعداد موسيقى أوبرا عايدة للعرض على خشبة الأوبرا، ولكن فردي تأخر عليه الإلهام، فاضطر الخديوي إلى عرض أوبرا أخرى، أظنها ريچيوليتو، أثناء الاحتفالات التي زانتها الإمبراطورة أوچيني التي وقع الخديوي إسماعيل في غرامها، وقام برصف الطرق إلى الهرم، خصيصا لها، وبناء القصر الذي أصبح فندق عمر الخيام ليكون محلا لإقامتها في القاهرة. وقد كنت أشعر وأنا أسير في وسط القاهرة، بأني أسير وسط التاريخ المصري الحديث، فأمر على

قصر إسماعيل صدقي باشا، عابرا شوارع عدلي يكن باشا، وعبد الخالق ثروت باشا، وصبري أبو علم، ونوبار، وشارع الجمهورية الذي كان باسم شارع إبراهيم باشا. وقس على ذلك شارع الألفي الذي كان يضم داري سينما صيفيتين، لا أنسى أنني شهدت في إحداهما فيلما رائعا عن إلكترا، ابنة أجاممنون وأخت أورست، عن تراچيديا سوفوكليس، فأصبحت من يومها حريصا على معرفة التاريخ اليوناني، الأسطوري والواقعي، لحضوره الكثيف في الآداب الأوروبية التي تأثرنا بها. وقد حزنت عند هدم هاتين السينماتين في شارع الألفي، خصوصا أنهما كانتا تكملان المثلث الذي يضم سينما صيفية أخرى بالقرب منهما، تطل على شارع إبراهيم باشا الذي أصبح شارع الجمهورية في العصر الناصري، وأصبح اسم السينما سينما حديقة النصر. وكان ذلك في تيار جنون العمارة الحديثة والانفجار السكاني الذي أطاح بالسينمات الصيفية. وكانت اثنتان منها في شارع المنيل، واثنتان على كورنيش النيل المواجه للمنيل، فضلا عن اثنتين كانت إحداهما تواجه كوبري عباس والأخرى في ميدان الجيزة.

وما أكثر ما تركت قدميَّ تهيمان في شوارع أحياء جاردن سيتي والزمالك، إذ كنت أبحث عن عبق الزمن الملكي، أو أهيم في الشوارع المحيطة بالعتبة والموسكي إلى منطقة الحسين والأزهر والسيدة زينب.. إذ كنت أسترجع الأزمنة الإسلامية التي تنتهي بالزمن التركي. وكان التنوع المعماري لمدينة القاهرة في مطلع الستينيات مبهرًا لعيني ذلك الفتى الذي كنته، والذي كان يؤثر السير على ركوب الأتوبيس، توفيرا للقروش القليلة التي يحتفظ بها في جيبه، ولم يعرف ركوب الأتوبيس أو الترامواي أو

الترولـي باص الـذي أقاموه موضع الترام الذي أزالوه من بعض الشـوارع، وما أكثر ما ركبت الخط الذي كان يبدأ من العتبة، وينتهي في ميدان الجيزة، وكنت أسـتمتع بركوبه أكثر من ركوب عربات الترام الصاخبة أو سـيارات الأتوبيـس المزدحمـة. وقـد تعلمت من أقرانـي - أبناء المحلـة الكبرى - الذي سـبقوني إلى جامعة القاهرة، أو دخلوها معي لكن في كليات مغايرة أن نقضـى أيـام العيد في الحدائق التي كانت تزدحـم بها القاهرة، ابتداء من حديقـة الحيوان، مـرورا بحديقـة الأورمان، وانتهـاء بحديقـة الحرية التي أقيـم فيها متحف مختار، فكنـا نلهو اللهو البريء، ولـم يكن الأمر يخلو من التعرف على بعض الفتيات اللاتي كن ينسيننا بمجرد عودتهن إلى بيوتهن، وكنـا نقوم بالأمر نفســه فقد كنـا رقباء علـى بعض. ولـم يحـدث فيما أذكر أن امتـدت علاقة عابـرة بريئة إلى قصة حب، كما حدث في رواية إحسـان عبـد القـدوس التي شـهدناها على شاشـات السـينما بعنـوان : «الوسـادة الخالية».

ولا أذكر أنني كنت أذهب إلى السينما في أيام الدراسة، فقد كنت أفعل ذلك في أيام الصيف، قبل عودتي إلى المحلة، وفي أيام الأعياد والعطلات، فيما عدا الأفلام التي كان يعرضها اتحاد الطلاب في الكليات. وأذكر أنني شاهدت فيلم عبد الحليم حافظ «الخطايا» في أحد مدرجات كلية الهندسة. وكان ذلك في سنتي الجامعية الأخيرة، أما قبل ذلك فقد كنت أفضل الذهاب إلى السينمات الصيفية، خصوصا بعد الفراغ من الامتحانات في الصيف.

أما أيام الدراسة، فلم أكن أضيع وقتي في الطهو، وكنت بعد الفراغ من المحاضرات أتغذى حسب الأحوال المادية، إذا كانت جيدة ولا أزال

أحتفظ بالمكافأة الشهرية التي ينالها الطلاب المتفوقون، أذهب إلى مطعم جيد الطعام في ميدان الجيزة، وإذا كان الجيب ليس فيه سوى القروش، كنت أكتفي بسندوتش فول وسندوتش طعمية، أشتريهما بقرشين من ميدان الجيزة، وأعود بهما إلى حجرتي، وأحمد الله قبل أن أواصل المذاكرة. وكنت أكافئ نفسي، يوم الجمعة، بالذهاب إلى ميدان السيدة زينب، وأتناول وجبة «كوارع» ترمّ العظم، ويكون الحلو إما طبق أرز باللبن، عليه قطعة من القشدة، عند المالكي في ميدان الحسين، أو سلطانية شعرية باللبن عند الركيب في ميدان السيدة زينب. وما أكثر ما ترددت على ميدان الحسين في رمضان، فقد كانت وزارة الثقافة تقيم خيمتين كبيرتين لعرض الكتب وبيعها بتخفيض 20٪. وأذكر أني كنت أشتري أي كتاب من سلسلة أعلام العرب بثلاثة قروش، واشتريت مجلدات الأغاني وبدائع الزهور الجزء بعشرين قرشا. لكن الذي لا ينسى حقا هو معرض القاهرة الذي حضرته للمرة الأولى، وأنا في السنة الأولى، وكان جناح مكتبة «دار الشرق» التي أنشأها القسم الثقافي بالسفارة السوڤيتية، يبيع روائع الأدب الروسي بقروش قليلة. وقد اشتريت ما يربو على عشرين كتابا بأقل من جنيهين، وكان منها روايات «الدون يجري هادئا» ومختارات تشيكوف وكتاب نقدي عنه، فضلا عن غيرها من الروايات التي كان معها كتابات چوركي وتولستوي وتورچنييف وغيرهم من الكتّاب الروس الذين خرجت بحقيبة مليئة بأعمالهم من جناح دار الشرق الذي أصبحت أترقبه وأهرع إليه في كل معرض.

زمن جميل مضى

كنت من عشاق المشي، بل من كبار المشائين الذين يهيمون بشوارع وسط المدينة في القاهرة على وجه التحديد. وما أكثر ما كنت أركب الأوتوبيس من ميدان الجيزة إلى ميدان التحرير، وأترك نفسي أهيم بالساعات في الشوارع المتفرعة من ميدان التحرير إلى العتبة، والمتفرعة من الميادين الواقعة بين الميدانين الكبيرين، ميدان طلعت حرب وميدان عابدين، أرقب المحلات، وأدخل المكتبات التي أنسى فيها نفسي وأنا أتصفح كتابا يشدني عنوانه، أو أتطلع إلى ما يجاوره من كتب كتابا كتابا. والطريف أنني عندما جئت من بلدتي المحلة الكبرى إلى القاهرة لم أجد وسيلة سهلة في سرعة معرفة أسماء شوارع وسط المدينة إلا بأسماء المكتبات الشهيرة الواقعة في هذه الشوارع، فقد كانت الكتب - ولا تزال - خير رفيق أعرفه في الحياة.

ولم يكن يعدل متعة مطالعة واجهات المكتبات عندي سوى مطالعة طرز العمارة في شوارع قصر النيل وطلعت حرب وعماد الدين والألفي وعبد الخالق ثروت وعدلي وغيرها من الشوارع التي لا تزال تحتفظ إلى اليوم ببقايا العمارة الجميلة التي لا تعرف الكتل الإسمنتية الشائهة القبيحة الموجودة في عمارة هذه السنوات. وأذكر أنني كنت أسير في هذه الشوارع، قبل أن ينتهي بي المطاف إلى سور الأزبكية القديم لاقتناص ما

يمكن اقتناصه من نوادر الكتب والمطبوعات. وهي هواية لازلت أمارسها إلى اليوم بالحماسة القديمة نفسها. وكانت متعة السير تتزايد بهدوء هذه الشوارع ونظافتها ونضارة الوجوه التي تسير فيها فضلا عن بهجة الأزياء التي كانت سائدة، وكانت واجهات العمارات القديمة لوحات تشكيلية تجذب العين الباحثة عن الجمال، وتغري بالوقوف أمامها، والاستغراق، في تفاصيلها، وتذوق ما فيها من جمال النظام أو نظام الجمال.

دارت الأرض دورتها، وحملتنا الشواديف من هدأة الماضي إلى غابة الحاضر الشرسة، وانقلب مشهد وسط المدينة رأسا على عقب. وفقدت دائرته الجغرافية أهميتها بعد أن تشكلت طبقات جديدة، حملت ثرواتها الوافدة إلى مناطق سكنية جديدة، فانتقل مركز الثقل التجاري من قلب المدينة إلى ضواحيها البعيدة، خصوصا مدينة نصر التي استقر فيها أغلب العائدين من أقطار النفط من الباحثين عن الاستثمار المربح في السكنى والتجارة، فأصبحت مدينة نصر رمزا لزمن جديد، وفضاء لحركة رأس مال مغاير في أهدافه ومطامحه وأساليبه. وضاقت شوارع المدينة القديمة بالسيارات التي خنقتها، وحل محل الهدوء الضجيج والصخب، وتلوّث كل شيء بعادم السيارات، وأصبح المارة أنفسهم أكثر اندفاعا إلى العنف الذي يبدو استجابة طبيعية لكل ما حولهم، وهجر العشاق الصغار أماكنهم المعتادة في قلب المدينة إلى الأطراف التي لا تزال تتميز ببعض الهدوء، وتركوا الشوارع المختنقة المكتظة لشباب من نوع مختلف، تتناقض ملامحهم وملابسهم التي تجمع ما بين جهامة الوجه الملتحي واستخفاف ملامح أصحاب الألقاب الجديدة من «الخرتية» وغيرهم.

ولم يعد أحد يستطيع أن يسير في هدوء، أو أمان، أو اطمئنان، ليرقب المشغولات الحديدية للبلكونات أو الأبواب، أو أفاريز العمارات، أو المنحوتات التي تزين الأطواق، أو تتوسط الأقواس، أو تترأس الوحدات الزخرفية للواجهات. ولم تعد ملامح القباب الدائرية، أو الأبراج التي تتصدر البناء، أو المثلثات المستطيلة (القوصرات) التي تعلو الأبواب، متناغمة مع الأعمدة المتوازية المشغولة بالوحدات الزخرفية المتكررة كأنها رجع لحن قديم، أقول لم يعد ذلك يشغل انتباه أحد، أو يثير إعجاب أحد، خصوصا بعد أن اقتحمت المكان الكتل الخرسانية البشعة، والمزيج الممل في تكراره من وحدات الحديد والزجاج، واختناق الزحام والغبار الذي لا يدع للعين سبيلا إلى تأمل ذلك النحت البارز على هذه الواجهة أو تلك، أو ذلك التمثال الذي لا يزال يقاوم القبح على طرف نافذة هذا المبنى أو ذاك.

اختفى جمال العمارة القديمة مع طوفان الزمن الذي لم يعد يعرف من العمارة إلا معنى الفائدة الخشنة، أو المنفعة العملية الفظة، ولم يعد يعرف من المباني إلا استغلال كل سنتيميتر للتمليك أو الإيجار، سعيا وراء الربح السريع المبالغ فيه، ولم يعد يدرك من وظيفة للشوارع إلا أنها مجرد مسالك تخلو من جمال البشر والحجر والنبات. وما زلت أشعر بالأسى عندما أقارن بين جمال العمارة في البنايات القديمة التي لا تزال تحيط بتمثال طلعت حرب أو تمثال مصطفى كامل، في وسط القاهرة العجوز، كما يحيط الحراس القدامى بالرموز العزيزة التي تظل شاهدا على عظمة ما كان حولها، وقبح العمارة الذي يصدم العين فيما أطلق عليه اسم مجمع التحرير، الذي يبدو كأنه إحدى البنايات الصارمة الجهمة التي

بناها ستالين في مدينة موسكو رمزا لزمنه الذي لم يعرف معنى الحرية أو حق الاختلاف.

ويحلو لي، كثيرا، أن أستمع إلى صديقة عزيزة، أتعلم منها محبة العمارة، والاستمتاع بتكويناتها الجمالية، وهي تحدثني عن التقابل المعماري بين مباني القاهرة القديمة ومبانيها الجديدة. وتقف بي على المعاني التي لم ألاحظها من قبل. ومن ذلك مثلا التقابل الذي حدثتني عنه بين مباني جامعة القاهرة في الجيزة ومباني جامعة عين شمس في العباسية. وتقرأ صديقتي في هذا التقابل الفارق بين العين الليبرالية التي ترى الجمال في التنوع، وترد الوحدة الجمالية إلى التناسق الذي تفرضه بين المكونات التي تصل ميراث الماضي بتطلع الحاضر إلى المستقبل الواعد، وبين العين الشمولية التي لا ترى، ولا يسمح لها أن ترى، التنوع في الوحدة، ولا الجمال في تجاوب المختلفات، ومن ثم لا ترى إلا الوحدات الخرسانية المكرورة في تتابع جهم، تؤكده نوافذ زجاجية لا تختلف في دلالة تكرارها عن دلالة تكرار نوافذ سجن من السجون. وقد تعودت صديقتي، عاشقة العمارة، أن تلفت انتباه عيني إلى علاقة الكتلة بالفراغ في النوعين المتقابلين من العمارة، حيث تمرح العين في الفراغات المتسعة للخضرة التي تضيف إلى معنى الامتداد في مباني جامعة القاهرة، مقابل الانحصار المكتوم المفروض على المكان قسرا، في مباني جامعة عين شمس، كأنه ترجيع لمسارات مقموعة سلفا.

ولقد عادت هذه المعاني إلى ذهني، وتفجرت ترابطاتها في ذاكرتي، عندما أهداني صديقي طارق حجي كتاب سينثيا مينتي عن عمارة القاهرة

في حقبتهـا الجميلة «Belle Epoque». وترجمة عنوان الكتاب المكتوب بالإنجليزية «باريس على النيل». وقد تولت شركة «شل» للبترول – القاهرة – تمويل هذا الكتاب، حين كان يشرف على إدارتها (1986 – 1006) طارق حجي ضمن المشروعات الثقافية التي كانت تدعمها الشركة. وقد صدر الكتاب أخيرا عن مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة، في طبعة جميلة، مزودة بعشرات الصور من عمارة القاهرة القديمة، حيث تجولت عينا المؤلفة في افتتان لافت بشوارع القاهرة ومبانيها، متأملة جمال الإبداع المعماري في أدق تفاصيله، ابتداء من دلالات الشوارع التي تؤكد الأفق الكوزموبوليتاني المفتوح، مرورا بالمباني الحكومية الكبيرة ومباني السكنى الموازية، وانتهاء بتقنيات المشغولات الحديدية والأبواب والقباب والأقواس (الحنيات) والبلكونات والدعامات والزخارف النباتية والحيوانية التي لا تخلو من صور الملائكة أو أبي الهول.

وقد ظللت أطالع صور الكتاب بمتعة بالغة، وأنا أقرأ ما فيه بنصف عقل، فقد كان النصف الآخر يستعيد ترابطات الذاكرة التي تثيرها كل صورة، وأولاها الصورة التي تتصدر غلاف الكتاب، والتي نرى فيها ظهر تمثال طلعت حرب في الميدان المسمى باسمه، يواجه العمارة التي تقع على زاوية تقاطع شارع سليمان باشا وشارع قصر النيل، كأنه علامة على زمن جميل مضى من العمارة التي ينبغي الحفاظ عليها، والتي لا ينبغي تركها فريسة سهلة لأنياب «البلدوزورات» وبراثن الكتل الإسمنتية القبيحة.

لقد أعادني كتاب سنثيا مونتي إلى ذكريات وسط المدينة في العهد الخلي، وظللت أتأمل صور المباني القديمة التي التقطتها عدستها

اللماحة، من ميادين القاهرة وشوارعها، واقفة على تفاصيل العمارة الدالة، كاشفة عن تاريخها وسياقاتها الجمالية. وما أكثر ما عرفته من فصول الكتاب والتعليقات المصاحبة للصور الدالة، ابتداء من عمارات إسماعيل باشا التي لا تزال قائمة في شارع عماد الدين، مرورا بالمبنى الجميل لبنك مصر الدولي (وكان في الأصل مبنى لبنك فرنسي) الذي بني في حوالي سنة 1880، وانتهاء بعشرات المباني التي تذكر المؤلفة أسماء مهندسيها المعماريين، متوقفة وقفات تفصيلية على أساليبهم الجمالية في العمارة التي اقترنت بحلم القاهرة القديم في أن تضارع عواصم أوربا. أما كيف تم تشويه هذا الحلم، واقتحامه بغيلان الكتل الإسمنتية، وانتهاكه بالبنايات العشوائية، فالإجابة عنه ماثلة في الصور التي تنطق بالغوغائية المعمارية التي أُغرقت فيها القاهرة عمدا، الصور التي تقتحم فيها المشهد سيارات من كل طراز، تنفث دخانا أسود يترك ظله على التنافر المعماري الذي استبدل القبح بالجمال، والفوضى بالنظام، وبالبشر الباحثين عن متعة العين.. البشر المستبيحين والمستباحين الذين تتجدد رحلتهم كل صباح، بحثا عن الخبز والمؤونة، في مشهد يتربص به الموت من كل حدب وصوب.

قاهرة إسماعيل باشا

أحسبني تعلمت احترام الخديوي إسماعيل (1830 - 1895) والإعجاب به من عشقي القديم للمشي في شوارع وسط القاهرة، حيث المباني التي لا تزال تشير إلى هذا الخديوي المفترى عليه، والذي حلم ذات يوم أن يجعل من مدينة القاهرة قطعة من أوربا، ووصلت به آماله الكبرى في تحديث مصر إلى العمل بطريقته على وضعها في صدارة العالم المتمدن وطليعته، ولم تفتر همته طوال فترة حكمه (1863 - 1879) عن تنفيذ ما حلم به وما تطلع إليه، فنجح في تحقيق الكثير الذي ما كان ممكنا لولاه.

ودليل ذلك ماثل في « الأوبرا » التي خلفها أو حديقة الأزبكية التي أمر بتخطيطها، ومسرح الأزبكية الذي وجّه بإنشائه، ودار الكتب التي تمت في عهده، والشوارع الفسيحة (البوليڤارات) التي شقها، واصلا بينها بالميادين والجسور التي عبرت النيل وجمعت ما بين ضفتيه، والأحياء الجديدة التي حلت محل الخرابات والمستنقعات. وأضيف إلى ذلك إضاءة مدينة القاهرة للمرة الأولى في تاريخ المنطقة العربية، وتوصيل مياه الشرب النظيفة إلى المنازل للمرة الأولى، وإنشاء شبكات الصرف الصحي الأولى، جنبا إلى جنب إنشاء المدارس الحديثة في مختلف الفنون والمعارف ومنها المدرسة السنية التي كانت المدرسة الأولى لتعليم

البنات. وكان تحديث التعليم يمضي جنبا إلى جنب تحديث المدينة في سباق محموم، لا يمايز بين إنشاء المسرح أو المتحف أو المعهد العلمي أو الحديقة الجميلة أو القصور والبنايات التي كانت مثلا يحتذيه الأثرياء في الأحياء التي خططها علي مبارك زميله القديم في البعثة.

صحيح أن إسماعيل باشا ارتكب الكثير من الأخطاء السياسية القاتلة، وأسرف في الإنفاق على نفسه وأسرته إنفاقا هائلا، ووصل إلى حد السفه الشخصي في الاحتفالات التي أقامها بمناسبة ما عرف باسم «زفاف الأنجال». يضاف إلى ذلك ما اقترفه من أقصى حالات السفه الوطني، سواء حين أمر بإقامة جناح لمصر في معرض باريس سنة 1867 وما أنفقه شخصيا أثناء افتتاح المعرض، أو في الاحتفالات التي أقامها بمناسبة افتتاح قناة السويس للملاحة في السابع عشر من نوفمبر سنة 1869. وكانت النتيجة استنزاف موارد الدولة وبعثرة ثرواتها وخراب ميزانيتها، الأمر الذي أدّى إلى إغراق مصر في الديون الأجنبية، ومن ثمَّ الخضوع إلى النفوذ الأجنبي الذي وصل إلى ذروته بالاحتلال البريطاني لمصر سنة 1882 في عهد ابنه الخديوي توفيق (1852 - 1892) الذي تولى الحكم بعد عزل أبيه سنة 1879 نتيجة تآمر الدول التي أوقعته في فخاخها.

كل ذلك صحيح وقد تحدث عنه باستفاضة المؤرخ المصري الرائد عبد الرحمن الرافعي من وجهة نظر الحزب الوطني الذي انتسب إليه، وبالغت فيه أجهزة إعلام ثورة يوليو 1952 ضمن سياستها التي أوهمت الكثيرين أن ما قبل يوليو 1952 كان زمنا قبيحا من الخراب المطلق والفساد الكامل. وكان من الطبيعي - في ظل هذه الإيديولوچيا - أن تغدو صورة إسماعيل صورة كريهة، تجمع السفه إلى الجشع والطمع والفساد

الشخصي والغرق في الملذات وبيع الوطن للأجانب، والتضحية بكل شيء من أجل عيني الإمبراطورة أوچيني التي قيل إنه هام بها حبا. ولا أزال أتذكر الأفلام المصرية التي امتلأت بمشاهد تؤكد هذه الصورة الكريهة، جنبا إلى جنب المسرحيات التي جعلت من الخديوي إسماعيل نموذجا فاسدا تولَّدَ منه فساد حفيده الملك فاروق.

وأتصور أننا لم نعرف كذب الكثير من عناصر هذه الصورة إلا بعد أن هدأت حماسة البلاغة الإيديولوچية للحقبة الناصرية، ودخلنا في زمن الأسئلة التي أخذت تناوش تخييلات الأجهزة الإيديولوچية الناصرية عن أزمنة ما قبل يوليو 1952 . وشيئا فشيئا أخذنا نكتشف أن صورة إسماعيل الكريهة تخلو من الحقيقة في جوانب كثيرة من ملامحها، وأن وراء الملامح الشائهة ملامح جميلة أخفيت عمدا. وأحسب أن المسلسل التليڤزيوني الناجح «بوابة الحلواني» الذي كتبه الكاتب القدير محفوظ عبد الرحمن هو علامة من العلامات الدالة على تحول النظرة الإبداعية إلى زمن الخديوي إسماعيل، ومحاولة أصيلة لإنصاف هذا الخديوي المفترى عليه. وما كان محفوظ عبد الرحمن يستطيع الكتابة عن الخديوي إسماعيل بعين الإنصاف إلا في سياق جديد، سياق اكتشفنا فيه الحقيقة عندما عدنا إلى كتابات المؤرخين الثقات، وتعلمنا مما كتبه بالدرجة الأولى مؤرخون من طراز إلياس الأيوبي الذي ترك لنا كتابه الضخم «تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا» الذي أصدرته دار الكتب المصرية في مطلع العشرينيات من هذا القرن.

ولم تكن بداية شكي في الصورة المتوارثة عن زمن الخديوي إسماعيل راجعة إلى الكتب في أول الأمر، وإنما كانت راجعة إلى

الأسئلة التي خلفتها في نفسي مشاهدة آثار عصر إسماعيل المعمارية. لقد اكتشفت، وأنا أتجول في شوارع القاهرة العجوز، أن أجمل مبانيها الباقية هي المباني التي أنشئت في زمن إسماعيل، كما اكتشفت أن هذه القاهرة لم تعرف المسرح والأوبرا والحديقة ومدرسة البنات ودار الكتب والمتاحف والشوارع الواسعة (البوليڤارات) والمواصلات الحديثة وإنارة الشوارع والمياه الصحية والأحياء الجديدة والجسور الكبيرة على النيل والميادين التي تتوسطها التماثيل... إلخ إلا في زمن إسماعيل وبتشجيع منه، ومتابعة شخصية لم تتوقف عن التشبث بتنفيذ حلم عظيم على أرض واقع متحول يتطلع إلى تحقيق الأحلام الكبرى.

وكانت بداية هذه المعرفة الملاحظات والانطباعات الأولى التي كنت أخرج بها من جولاتي في شوارع وسط القاهرة التي ظللت أعشق السير فيها على الأقدام طوال سنوات الشباب. وكانت هذه الملاحظات والانطباعات تدفعني إلى أن أضع كل ما كنت أعرفه عن الخديوي إسماعيل موضع المساءلة، بادئا من السؤال البسيط : هل يعقل أن يكون الذي ترك لنا كل ذلك الجمال والجلال من أوجه التحديث والمعمار فاسدا آبقا كارها لوطنه؟! وكان ما أمضي فيه من شوارع زمن إسماعيل، وما آراه من عمائره الباقية، يستحثني على ضرورة أن أعرف حقا زمن إسماعيل الذي لا نعرفه تماما إلى اليوم.

هكذا، عرفت أن زمن إسماعيل بدأ بحلم أن تصبح مصر متقدمة مثل غيرها من أقطار أوربا، وأن تصبح مدينة القاهرة مدينة تضارع باريس، خصوصا بعد أن رأى إسماعيل ما أصبحت عليه باريس بعد الإنجازات المعمارية الهائلة التي قام بها المهندس چورچ يوچين هاوسمان

(1809 - 1891) محافظ باريس. وقد انبهر إسماعيل بما حدث على يدي هاوسمان، خصوصا عندما زار باريس سنة 1867 بمناسبة افتتاح المعرض العالمي، ورأى التحول المعماري الذي أحدثه هاوسمان في باريس التي أصبحت تفخر بشوارعها الواسعة (البوليڤارات) الجديدة وحدائقها المتسقة وميادينها وشبكات صرفها... إلخ، فقابل هاوسمان الذي كان صيته قد ذاع في أنحاء أوربا في ذلك الوقت، وطلب منه أن يضع تخطيطا جديدا لمدينة القاهرة، كما قابل المهندس بيير جران الذي أصبح من كبار مهندسي القاهرة فيما بعد، والمهندس باريللي ديشان الذي أنشأ غابة بولونيا في باريس، واتفق معه على وضع تخطيط جديد لحديقة الأزبكية.

وعاد إسماعيل إلى القاهرة ليرسل علي مبارك إلى باريس، كي يرى ما رآه هو ويكمل دراسته للتخطيط الحديث للمدن، وعاد علي مبارك ليشرف على تنفيذ حلم إسماعيل في إعادة تخطيط مدينة القاهرة بأسرها، استعدادا لافتتاح قناة السويس، وبداية لزمن جديد من التحديث. وتولى علي مبارك في قاهرة إسماعيل مهمة شبيهة بالمهمة التي قام بها هاوسمان في باريس نابليون الثالث، وترك لنا ما كان البداية التي أورثتنا أجمل شوارع مدينة القاهرة وأروع مبانيها المعمارية إلى اليوم.

وكان حلم إنشاء قاهرة جديدة تضارع باريس على ضفاف النيل صدى لحلم التحديث الذي لم يخل من رغبات الاتساع والامتداد والتطلع إلى المزيد من الاستقلال عن الدولة العثمانية : الرجل المريض في أعين الدول الأجنبية. وكما قيل عن رغبة نابليون الثالث الذي أراد لعاصمته، باريس، أن تكون تمثيلا مجسدا لقوة إمبراطوريته المتسعة، يمكن أن يقال الأمر نفسه عن إسماعيل الذي حلم بالاستقلال عن الدولة العثمانية،

وتحويل مصر من ولاية تابعة إلى دولة كبيرة ناهضة قادرة على الامتداد والاتساع. وكما اتهم المنتقدون نابليون الثالث ومهندسه الأول هاوسمان ومهندسه الثاني شارل جارنييه (الذي صمم أوبرا باريس التي افتتحت سنة 1875) بالإسراف في الإنفاق على المباني الإمبراطورية الجديدة، داخل حلم التوسع والامتداد الإمبراطوري، فإن الانتقاد نفسه يمكن توجيهه إلى الخديوي إسماعيل، ولكن مع التحفظ الذي يقول إن هذا الإسراف قد جعل من باريس أجمل مدينة في عالم القرن التاسع عشر، كما جعل من القاهرة مجلى من مجالي العمارة والتخطيط الباريسي على ضفاف النيل، ومن ثمَّ سبق أسبق المدن العربية إلى التحديث العمراني الشامل.

وكان من الطبيعي أن يستعين إسماعيل على إنشاء حلمه بالمهندسين الفرنسيين وأقرانهم الإيطاليين في الوقت نفسه. ولم يكتف بذلك بل أنشأ مدرسة الري والعمارة في العباسية، وهي المدرسة التي تحولت بعد سنوات عديدة إلى كلية الهندسة، وأنشأ مدرسة للحرف والصناعات في بولاق لتدريب العمالة الفنية. وكما استقدم المهندس الذي قام بتخطيط غابات بولون لتخطيط حديقة الأزبكية، استقدم الكثير من المهندسين الذين أقاموا العمائر له وللطبقة المحيطة له من علية القوم الذين يسيرون على سُنة ملوكهم. وترك هؤلاء المهندسون بصماتهم على المباني التي تركوها، كما فعل المهندس الإيطالي بيترو أڤوسكانتي الذي بنى دار الأوبرا المصرية على طراز أوبرا سكالا الإيطالية وأكمل العمل في ستة أشهر ليلحق حفل افتتاح قناة السويس. وارتبط اسم المهندس الإيطالي جيولسيبي كارّوزو ومن بعده ابنه بإنشاء دار الآثار المصرية وقصر عابدين وفندق شبرد القديم ومحطة الإطفاء في ميدان العتبة.

ولذلك استمد الكثير من عمائر إسماعيل - خصوصا تلك التي بناها المهندسون الإيطاليون - عناصرها المعمارية من جماليات مباني النهضة الإيطالية، وذلك بكل ما تتميز به من اتساع الأبهاء الرخامية، والواجهة التي تقوم على الأعمدة التوسكانية أو الأعمدة الأيونية التي تعلوها مثلثات مستطيلة (قوصرات). ولم يخل الذوق الباروكي السائد من عناصر قوطية، ومن محاولات لمزج عناصر معمارية تراثية، تصل بين خصائص العمارة الإسلامية والعمارة الفرعونية في مركبات لا تتخلى عن طابع الفخامة الباروكية. وتناثرت الزخارف النباتية المتناغمة مع الأعمدة الأيونية على الأفاريز، جنبا إلى جنب المقرنصات التي تجاوبت مع التماثيل التي لم يعد واضعوها يأبهون باحتجاج المشايخ التقليديين، وذلك في سبيل تحقيق حلم إسماعيل الذي مسّ معاصريه بوعوده الغاوية.

* * *

أطرف ما تعلمته من القراءة عن عصر إسماعيل باشا أن ميادين القاهرة الأساسية، خصوصا في منطقة وسط المدينة، قد أنشئت في عهده، وأن إنشاءها كان جانبا أساسيا من تخطيط الشوارع العريضة (البوليڤارات) التي نقلها إسماعيل من تخطيط هاوسمان لباريس الجديدة، واستعان على تنفيذها بمجموعة من المهندسين الذين أسهموا في تخطيط باريس في زمن هاوسمان، فضلا عن مجموعة كبيرة من المهندسين الإيطاليين. وقد كتب عن هذه الميادين علي مبارك باشا (1823 - 1893) الذي أوكل إليه إسماعيل باشا مهمة الإشراف على وزارتي الأشغال والمعارف، كما لو كان يوكل لزميله القديم في البعثة مهمة تحديث مدينة القاهرة ومساعدة أبنائها على دخول أزمنة الحداثة الفكرية.

وقد ذكر علي مبارك هذه الميادين بالتفصيل في كتابه الضخم «الخطط التوفيقية» الذي أراد به أن يكمل ما كتبه المقريزي في «خطط المقريزي» الشهيرة، أو يضيف إلى الخطط القديمة الخطط الجديدة التي وصلت إلى ذروة تسارع إيقاعها في زمن إسماعيل. وهناك مصدر آخر قريب في الأهمية من «الخطط التوفيقية»، وهو كتاب أمين سامي «تقويم النيل» بمجلداته المتعددة التي أصدرتها مطبعة دار الكتب المصرية. وقد أضاف الرافعي بكتابه عن «عصر إسماعيل» إلى ما كتبه المؤرخون السابقون عليه، لكنه لم يتوقف طويلا عند الجوانب المعمارية التي بدأت تجذب انتباهي، والتي أخذت أبحث عنها في كتابات المؤرخين منذ أن فتنت بعمارة قاهرة إسماعيل وتاريخها، ولم أجد بعض ما يشبعني إلا في الجهد الذي بذله أمثال الدكتور عبد الرحمن زكي الذي كتب عن «قاهرة إسماعيل العظيم» في مجلة العمارة سنة 1945. وهي السنة التي نشر فيها مصطفى فهمي في المجلة نفسها بحثه عن «الآثار المعمارية الباقية من عهد المغفور له الخديوي إسماعيل».

وقد شعرت بسعادة بالغة عندما عرفت من زميلي الصديق الدكتور عماد بدر الدين أبو غازي أن هناك كتابا متميزا عن قاهرة إسماعيل باشا. ولم أدع اليوم يمضي دون أن أحصل على الكتاب الذي يضم أكثر المعلومات المتاحة إلى اليوم عن مدينة القاهرة في زمن إسماعيل. أعني كتاب الدكتور محمد حسام الدين إسماعيل عن «مدينة القاهرة من ولاية محمد علي إلى إسماعيل». وهو كتاب مهم لمن يريد أن يعرف تفاصيل القاهرة من حيث هي مدينة متحولة، بدأت رحلة تحديثها من زمن محمد علي إلى أن وصلت هذه الرحلة إلى ذروتها في عهد إسماعيل باشا.

ولكن إعجابي بالكتاب لم يمنعني من التحفظ عليه ببعض الملاحظات السلبية. وهي ملاحظات ترتبط أولا بامتداد الفترة الزمنية التي درسها، فقد كان الأفضل الاقتصار على فترة واحدة وتعمقها، سواء الفترة التي تبدأ من محمد علي باشا وتنتهي مع وفاة الخديوي سعيد باشا، أو الفترة الأساسية في عصر إسماعيل. وترتبط هذه الملاحظات، ثانيا، بعدم التركيز على المؤثرات الأجنبية، وغياب المقارنة بين الأصل المعماري الباريسي الذي احتذاه مهندسو الخديوي إسماعيل والتجليات المعمارية القاهرية التي كانت إعادة إنتاج لنموذج هاوسمان، وذلك في ظل شروط من الخصوصية التي لا يمكن إغفالها. وأضف إلى ذلك الدور الذي قام به المعماريون الإيطاليون في بناء مباني قاهرة إسماعيل، جنبا إلى جنب أقرانهم الفرنسيين الذين تولوا عملية إعادة تخطيط الأحياء وإنشاء أحياء جديدة تتصل بطرق واسعة (بوليڤارات). والمقارنة بين ما كتبته سنثيا نيلسون في كتابها «باريس على النيل» عن دور المعماريين الأجانب في تحقيق حلم إسماعيل بقاهرة جديدة وما نقرؤه في كتاب محمد حسام الدين إسماعيل تنتهي إلى فقر الكتاب الثاني البالغ في هذا الجانب.

ويتصل بهذه الملاحظة السلبية ما يكملها من عدم التوقف المتأني عند المباني الدالة على درجة التحضر المقترنة بالتحديث، مثل: المتاحف والمسارح ومطابع الكتب والمجلات، ومن ثمَّ المنشآت الصحفية، جنبا إلى جنب الفنادق التي أخذت تكتسب دلالة مضافة منذ ذلك العصر. ولعل آخر الملاحظات السلبية ما يتصل بالعلاقة الوثيقة بين الحراك الاجتماعي والحراك الجغرافي، وهو الحراك الذي يوازي بين إنشاء الأحياء الجديدة وصعود طبقات أو شرائح اجتماعية جديدة، وهو حراك لا يمكن فصله

عن فئات الزوار الذين أخذوا يدخلون إلى حدائق الأزبكية بعد تخطيطها الحديث، مقابل أجر رمزي بسيط، بالإضافة إلى انطباعات هذه الفئات عن نتائج تحديث المدينة المتحولة، أعني القاهرة التي وصفتها الأعمال السردية لعصر إسماعيل وابنه توفيق.

ومع ذلك كله، فكتاب محمد حسام الدين إسماعيل مفيد إلى حد كبير لأمثالي المهتمين بتاريخ المدن وتحولاتها، وأهم من ذلك أنه أشبع نهمي في معرفة الميادين التي أنشئت في زمن إسماعيل باشا وبعض أخبارها. ويذكر محمد حسام إسماعيل عشرة منها، معتمدا على خطط علي مبارك بالدرجة الأولى. وأولها ميدان باب الحديد الذي يصل شارع باب الحديد بشارع كلوت بك بشارع الفجالة، وهو الميدان الذي أصبح يحمل اسم ميدان رمسيس بعد أن انتقل إليه تمثال رمسيس من موقعه الأصلي، وحل محل تمثال «نهضة مصر» للفنان محمود مختار. وغير بعيد عن هذا الميدان ميدان الخازندار بحري جنينة الأزبكية، ولا يزال يحمل اسمه. ويمكن أن نقول الأمر نفسه على ميدان العتبة الخضراء الأكثر أهمية، وكان ناحية سراي العتبة الخضراء، وقد تحول اسمه إلى ميدان العتبة، بعد أن حمل لفترة اسم ميدان الملكة فريدة. وعلى بعد خطوات من هذا الميدان، ميدان التياترو غربي التياترو (دار الأوبرا التي احترقت) وقد عرف بعد ذلك بميدان إبراهيم باشا ثم عرف بميدان الأوبرا. ويقترب ميدان باب اللوق من ميدان الأزهار بالقرب من ميدان التياترو، أما الأول فيقع عند تقاطع شارع البستان مع شارع عماد الدين، والثاني هو ما أطلق عليه فيما بعد اسم ميدان الفلكي بسبب وجود قصر محمود باشا الفلكي.

ولا أريد أن أمضي في إحصاء هذه الميادين التي تتقاطع فيها الشوارع الواسعة (البوليڤارات)، والتي عرفت للمرة الأولى في تاريخ المدن العربية التماثيل المخلّدة للأعلام والرموز الوطنية. حسبي التوقف على أثر التغيرات السياسية على تنظيم هذه الميادين وتسميتها، فمن اللافت للانتباه أن كل تحول سياسي كان يحمل تسمية جديدة تحل محل التسمية القديمة وتنقضها، كما لو كان كل عهد يريد القضاء على أثر العهد المناقض له. والبداية هي ما يذكره إلياس الأيوبي في كتابه عن عهد الخديوي إسماعيل من أن تمثال إبراهيم الذي يتوسط ميدان الأوبرا إلى اليوم كان موضوعا في ميدان العتبة الخضراء على عهد إسماعيل، ولكن العرابيين أزاحوه من مكانه أيام حوادث الثورة العرابية. وبعد فشل هذه الثورة، نقل التمثال إلى حيث يوجد الآن في ميدان إبراهيم باشا الذي تحول إلى ميدان الأوبرا في عهد ثورة يوليو 1952.

ويشبه ذلك ما حدث في ميدان عابدين الذي تحوّل إلى ميدان الجمهورية بعد ثورة يوليو 1952 ورغبتها في القضاء على تسميات أسرة محمد علي التي ظلت تحكم مصر طويلا. والواقع أن هذا الميدان يعد أهم ميادين عصر إسماعيل من حيث الدلالة التاريخية، وهي دلالة مقترنة بكونه الميدان الذي اقترنت به سراي عابدين المركز الرسمي للحكم في مصر. وكان إسماعيل عندما أمر بإنشاء السراي يفكر في مقر جديد يقوم مقام المقر القديم في القلعة، وتمتد أمامه رحبة فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف، لتنبسط أمام سراي عابدين كما تنبسط ساحة الكونكورد في باريس أمام قصر التويلري الإمبراطوري.

وكان إسماعيل، في الوقت نفسه، يريد أن يتخذ من سراي عابدين مركزا يتفرع من ميدانها الفسيح عدة شوارع، بعضها تم في عهده وامتد إلى حي الإسماعيلية الجديد الذي سمي باسمه مثل الشارع الذي أصبح يحمل اسم شارع التحرير، ومنها ما امتد إلى الأزبكية وأطلق عليه شارع إبراهيم باشا، وفيما بعد شارع الجمهورية، ولا يزال، على هذه التسمية إلى اليوم.
وقد اكتملت بقية الشوارع بعد زمن إسماعيل، مثل الشارع الذي يمتد من عابدين إلى جامع الشيخ صالح، والشارع الذي يمتد من قبلي سراي عابدين إلى أن يلتقي بشارع محمد علي. وكانت المنطقة التي أصبح عليها ميدان عابدين تعرف ببركة الشقاف وبركة اليرقان. وقد أمر إسماعيل بردم بركة اليرقان وجعلها ساحة أمام قصر عابدين الذي يقع إلى الشرق منها. ويذكر علي مبارك أن هذا الميدان دخل فيه ما كان يسمى بحدرة المرادنيين ودخل معظمه في الحديقة التي كانت تتوسط الميدان.

مكتبات سور الأزبكية

كانت جولاتي الهائمة على الأقدام تنتهي، دائما، إلى حديقة الأزبكية لاستراحة قصيرة من التجول الذي كان يأخذني إلى العوالم التي تفتحها أسماء شوارع عدلي وثروت وسليمان باشا ومحمد فريد وغيرها، متوقفا عن تأمل الطرز المعمارية التي لم يتوقف إعجابي بها إلى اليوم، فإذا انتهى بي المطاف إلى حديقة الأزبكية جلست للراحة في الحديقة التي قيل لي إن الخديوي إسماعيل استقدم المهندس الذي قام بتصميم حدائق التويلري الفرنسية لتخطيطها، وبالطبع لم تكن الحديقة التي كنت أرتاح على إحدى «الدكك» المتناثرة في جنباتها هي الحديقة التي كانت في عهد إسماعيل باشا، فقد اقتص منها الكثير التخطيط المعماري الجديد لمدينة القاهرة، ونالت منها يد التحولات العمرانية، لكن بقيت منها الخضرة التي يفصل ما بين قسميها الشارع الذي هو امتداد لشارع فؤاد الذي انقلب اسمه إلى شارع 26 يوليو، كما انقلب شارع نازلي إلى شارع رمسيس، وإبراهيم باشا إلى الجمهورية، وشارع فاروق إلى شارع الجيش، وسليمان باشا إلى طلعت حرب، وعماد الدين إلى قسمين : قسم ترك باسمه القديم، والثاني باسم محمد فريد، ويبدو أن الذين فعلوا ذلك لم يكن يحمل اسم عماد الدين لهم سوى دلالة شارع الملاهي والمسارح والخمارات، مع أن عماد الدين اسم شيخ له ضريح، لا يزال قائما بالقرب من شارع

الشيخ ريحان الذي هو شيخ آخر، والطريف أن الجزء الذي يضم مقامه هو الذي أطلق عليه محمد فريد.

المهم أنني كنت عندما أنتهي من تجوالي في شوارع القاهرة (الإسماعيلية) وأرتاح في حديقة الأزبكية، أتركها إلى ميدان الأوبرا الذي كان ميدان إسماعيل باشا. وأحيانا كنت أتأمل الذاكرة الجمعية التي كان يصعب عليها تغيير الأسماء التي ألفتها، بعيدا عن كراهة النظام السياسي الجديد لأصحابها الأصليين، ولا نزال، إلى اليوم، نستخدم اسم الملك فؤاد دلالة على شارع 26 يوليو وميدان سليمان باشا. وأطرف مثال على ذلك شارع مصدق في الدقي الذي أطلق على الشارع الذي أسكن فيه أيام الثورة في الخمسينيات، عندما قام مصدق بتأميم البترول ومحاولة التخلص من النفوذ الأمريكي، وهو الأمر الذي ألهم عبد الناصر فكرة التأميم، وظل الشارع باسم مصدق، طوال أيام عبد الناصر، حين ظللنا ننظر إليه بوصفه بطلا مقاوما للاستعمار، ومدافعا عن استقلال وطنه واسترجاع ثروته القومية من مغتصبيها، وعرفنا أن مصدق هو لقب محمد بن هدايت (1881 - 1967) السياسي الإيراني الذي تولى رئاسة الوزارة، في عهد والد الشاه محمد رضا بهلوي، وهو صاحب قرار إلغاء معاهدة النفط الإيرانية البريطانية سنة 1951. وهو الأمر الذي أدّى إلى غضب الدول الاستعمارية المحتكرة للبترول العربي، فأجبرت شاه إيران على عزله سنة 1953 وسجنه لثلاث سنوات. وقد تحول مع سجنه إلى أحد أبطال ثورات التحرر الوطني التي سطع في تيار صعودها نجم عبد الناصر الذي أصبح زعيم الأمة العربية، بل زعيم العالم الثالث الساعي إلى الاستقلال

في الوقت نفسه. ومن الموافقات العجيبة موت مصدق في العام نفسه الذي حدثت فيه هزيمة 1967. وسرعان ما توفي عبد الناصر قبل أن يستطيع أن يمحو آثارها، وجاء السادات الذي نقض السياسة الناصرية القومية والتحررية، خصوصا بعد أن استخدم انتصار أكتوبر 1973 لدعم الأهداف التي كان ظاهرها الديموقراطية والسلام، وباطنها التحالف مع الولايات المتحدة وأتباعها في المنطقة، وعلى رأسهم شاه إيران الذي صدرت الأوامر بتغيير اسم شارع مصدق ليصبح باسم الشاه الذي أصبح حليف السادات، واستمر الحال إلى أن سقط حكم الشاه، وقتل السادات، فعاد اسم الشارع إلى ما كان عليه. وأعود من هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه من إشارة إلى تأبي الذاكرة الشعبية على الأسماء التي تطلقها التغيرات السياسية على أسماء الشوارع، فقد ظل شارع مصدق يحمل الاسم نفسه رغم المتغيرات، ولا يزال اسم شارع فؤاد باسم شارع فؤاد، ونادرا ما أسمع أحدا يشير إليه بوصفه شارع 26 يوليو إلى اليوم.

وعندما كنت أرتاح من عناء السير في شوارع القاهرة متأملا عماراتها القديمة التي شوّهت الكثير منها العمارة الحديثة في السنوات اللاحقة، وعناء تأمل المكتبات التي كنت أراها في شوارع وسط البلد، كنت أتجه إلى سور الأزبكية، وكان، وأظنه لا يزال، مجموعة من الأكشاك الخشبية التي تلاصق سور حديقة الأزبكية، ابتداء من تقاطع الشارع الصغير الذي يفصل بين العمارة القديمة التي كانت تقع عليها قهوة (مقهى) متاتيا، حيث كان يجلس جمال الدين الأفغاني وتلاميذه، وسور مسرح الأزبكية الذي تنتهي قبله، مباشرة، سلسلة الأكشاك الخشبية التي تبيع الكتب القديمة

والمرتجعة، وقد حملت هذه السلسلة اسم سور الحديقة التي شيدها الخديوي إسماعيل، والتي ظلت بمثابة مغناطيس يجذبني إليها دائما، مهما طال تجوالي في الشوارع الموصلة إلى الأزبكية وإلى ميدان العتبة بعدها. وكنت أبدأ بتأمل الكتب المعروضة على أرفف الأكشاك وعلى المناضد الموضوعة أمامها، وأتوقف عند كل كشك لفترة تقصر أو تطول، حاملا في جيبي، عادة، ما يعينني على شراء ما يستحق الاقتناص من كتب. ولم أكن أترك كشكا واحدا دون أن أتأمل ما يعرضه كتابا كتابا، وأقف لفترات تقصر أو تطول، متأنيا إزاء العناوين المعروضة. وما أكثر ما تمنيت الغنى كي أشتري كل ما أشتهي، فقد كنت، ولا أزال، مهووسا باقتناء الكتب والحصول عليها ووضعها مع غيرها من الكتب التي كنت أملكها، وأضعها في صفوف متراصة في ركن من أركان كل حجرة سكنتها منذ مجيئي إلى القاهرة، وكنت أحملها معي في إجازة الصيف التي أقضيها في المحلة الكبرى لأضعها في سحارة «كنبة طويلة» كنت أنام عليها، عندما أعود إلى أسرتي في مدينتي، قبل أن تنصلح أحوال الأسرة، وتستأجر بيتا صغيرا بأكمله، تعيش معنا فيه شقيقتي المتزوجة وأولادها الصغار. وللأسف، كان ابنها الكبير من زوجها الأول، وكان صغيرا، يكره المدرسة التي سرعان ما هجرها، وكان يحتاج إلى نقود ينفق منها على السجائر التي بدأ في إدمانها، فلم يجد أسهل من كتبي التي كنت أقوم بتخزينها في السحارة، وكدت أفقد عقلي، عندما اكتشفت في إحدى الإجازات الصيفية أنه باع أغلبها للبقالين بثمن بخس، كي يشتري السجائر اللعينة التي أدمنها. ومن يومها، لم أعد أحمل كتبي إلى المحلة، وكنت أتركها عند زملائي القاهريين إلى أن تنتهي الإجازة، وأعود إلى القاهرة لأستأجر غرفة جديدة، فقد كان من الصعب،

ماليا، أن أحتفظ بالغرفة التي أستأجرها أيام الدراسة، وأتركها في أشهر الصيف، كي أعود لأجد أخرى مع بدء الدراسة في العام التالي، وكانت المساكن ميسورة، وكان العثور على شقة أشترك فيها مع زملائي أمرا في غاية اليسر والسهولة، فقاهرة مطلع الستينيات كانت مختلفة عن قاهرة اليوم كل الاختلاف في كل مجال، فقد كانت كونا لا تنفد عجائبه ومباهجه التي أغوت الفتى القادم من مدينة صغيرة إلى عالمها الذي تعلقت به منذ أسبوعي الأول، وشعرت بأن القاهرة هي المكان الذي أنتمي إليه حقا. صحيح أنني كنت أتعاطف، أحيانا، مع قصائد حجازي عن المدينة التي رآها «مدينة بلا قلب» حين فارق قريته، ولكني سرعان ما كنت أنسى مثل هذه الشكوى، وأستغرق في مباهج القاهرة، وعلى رأسها، المكتبات العامة والخاصة، إلى جانب الكتب التي يعرضها سور الأزبكية.

ولا أزال إلى اليوم أذكر بعض الكتب التي اشتريتها من سور الأزبكية، وقد ضاع بعضها، لكن البعض الآخر، لا أزال محتفظا به، ومعتزا به كما لو كان كنزي الخاص. ومن هذه الكتب الترجمة العربية لكتاب اللورد كرومر عن مصر الحديثة، وديوان عائشة التيمورية، وبعض أجزاء مختارات البارودي، وديوان حافظ إبراهيم في طبعته الأولى، والشوقيات القديمة، وكتاب «أبي شوقي» لحسين شوقي، ابن أحمد شوقي، وكتاب سكرتير أحمد شوقي بعنوان: «اثنا عشر عاما في صحبة أمير الشعراء». والكتاب مليء بعدد من الصور بالغة الأهمية، وغير ذلك من الكتب والمجلات القديمة التي هي في ذاتها ثروة قيمة لكن الكتاب الذي لا أنساه، ولا أزال أحتفي به هو كتاب «هدية الإلياذة». وقد اشتريته بقرشين. ولو كنت فاصلت البائع لكان من الممكن أن أحصل عليه بمبلغ أقل، والكتاب صدر من مطبعة

المعارف ومكتبتها وهي التي أصدرت ترجمة سليمان البستاني لإلياذة هوميروس نظما. وقد حرر الكتاب نجيب متري صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها، وجمع فيه كل ما قيل في الاحتفالات المتعددة بصدور ترجمة البستاني سنة 1904، وكل ما قيل في هذه الاحتفالات من كلمات، وكل ما كتبه أرباب المقامات السامية وأصحاب الصحف والمجلات والأدباء والشعراء بمناسبة صدور الإلياذة. ووضع نجيب متري عنوان كتابه «هدية الإلياذة» تحية إلى سليمان البستاني وهدية له، وتركه لنا وثيقة من وثائقه ولا يزال يبهرني في هذا الكتاب المغزى الفكري لكلمة الشيخ محمد عبده، وتجمع أصحاب العمائم والمطربشين، وممثلي الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية، احتفالا بترجمة أصبحت من عيون تراثنا الحديث. وقد شعرت أننا ننحدر في مسيرتنا الثقافية عندما قارنت بين عظمة الاحتفاء بصدور ترجمة الإلياذة وصدور ترجمة الكوميديا الإلهية لدانتي، تلك الترجمة التي نهض بها العالم الجليل حسن عثمان، وأنجزها بعد عشرين سنة من العمل الذي صدر عن دار المعارف دون حسّ أو خبر.

ولا أنسى كذلك كتاب العقاد الذي اشتريته من الحاج إبراهيم الذي أصبح صديقا لي لكثرة مروري عليه، وأنزلته منزلة العم كامل الذي تركته في المحلة الكبرى. وأذكر أنني رأيت الحاج إبراهيم مبتسما في يوم من الأيام التي مررت عليه فيها سنة 1962، إن لم تخني الذاكرة، وبادرني بقوله: عندي لك هدية للأستاذ العقاد، أصبحت نادرة وقَدّم لي كتاب عباس العقاد «عالم السدود والقيود». وهو كتاب أصدره العقاد بعد أن صدر ضده حكم بالسجن بتهمة العيب في الذات الملكية. وكان ذلك بعد أن صرخ العقاد صرخته الشهيرة في البرلمان الذي عقد اجتماعا خاصا

للنظر فيما يدبر للحياة النيابية : «إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدي عليه»، وعرفت «السراي» أنها المقصودة، ولكنها لم تكن تملك محاكمة العقاد وهو يتمتع بالحصانة البرلمانية، فدبرت له قضية العيب في الذات الملكية من مقالاته التالية التي كان يكتبها عن الذين يعملون ضد مصلحة البلاد، فتم تقديم العقاد للمحاكمة، وقضت المحكمة بحبسه تسعة أشهر. وداخل السجن، ونتيجة التجربة، كتب العقاد هذا الكتاب الذي سبق به كل ما كتب من روايات وذكريات عن السجون، وأصبح العقاد رائد أدب السجون بهذا الكتاب الفريد. وقد فرحت بالكتاب وأخرجت من جيبي «الشلن» (خمسة قروش) الذي طلبه الحاج إبراهيم ثمنا للكتاب. وذهبت إلى المنزل بعد الجولة المعتادة على سور الأزبكية. ولم يأت الصباح إلا وكنت قد فرغت من قراءة هذا الكتاب الذي لا يذكره النقاد، عادة، وهم يتحدثون عن أدب السجون، وقد عرفت، فيما بعد، من ديوان العقاد أنه بعد أن خرج من السجن محاطا بمحبيه، ذهب إلى ضريح سعد زغلول، وألقى قصيدة حماسية في الجمع الذي أحاط به، معلنا ثباته على المبدأ، وإصراره على محاربة أعداء الأمة المصرية مهما بلغت قوتهم أو مكانتهم، وأذكر قوله في هذه القصيدة :

وكُنتُ جَنِينَ السِّجنِ تِسْعَةَ أشْهُرٍ ... فَهَأنَذَا فِي سَاحَةِ الخُلْدِ أُولَدُ

فَفِي كُلِّ يَومٍ يُولدُ المرءُ ذُو الحجَى ... وَفِي كُلِّ يَومٍ ذُو الجَهَالةِ يَلْحدُ

وَمَا أَفْقَدَتْ لِي ظُلْمَةُ السِّجْنِ عَزْمَةً ... وفِي كُلِّ لَيلٍ حِينَ يَغْشَاكَ مَرقَدُ

وَمَا غيَّبتني ظُلْمَةُ السِّجنِ عَنْ سِنَى ... مِنَ الرَّأي يَتلُو فَرقَدًا مِنْه فَرقدُ

عِداتِي وَصَحْبِي لا اختِلافَ عَلَيهِمُ سَيَعْهَدُنِي كلٌّ كَما كَـانَ يعْهَـدُ

وقد أصبحت بمرور الوقت طوال سنوات الدراسة مدمنا على سور الأزبكية، وعرفت أغلب باعة الكتب فيه وعرفوني، ولذلك كان بعضهم يعاملني معاملة خاصة، ولا يجادلني كثيرا في السعر وأذكر واحدا منهم، فتح الله عليه، فاستأجر محلا في شارع كلوت بك، فكنت أذهب لزيارته والحصول على بعض ما عنده، خصوصا أنه كان خبيرا بقيمة الكتب، ويحتفظ بالنفيس منها. لذلك لم أكن أذهب إليه إلا بعد حصولي على مكافأة التفوق التي أصبحت منتظمة، منذ عامي الثالث في الجامعة. وكنت قبل أن أذهب إليه أمر على مكتبات الفجالة التي كان شارعها عامرا بالمكتبات، ففيه مكتبة نهضة مصر التي أسسها سعيد السحار شقيق عبد الحميد جودة السحار الذي جلب إلى المكتبة أصدقاءه وأولهم نجيب محفوظ، وكانت مكتبة المعارف في الشارع نفسه، وإلياس، والبستاني وغيرها من المكتبات الذي لا يزال بعضها قائما، حتى بعد أن زاحمته المكتبات المتخصصة في بيع الأدوات المكتبية.

وللأسف، لم تدم السعادة التي كان يمنحني إياها سور الأزبكية، طوال أيام الدراسة، العليا وما قبلها، فقد صدر قرار من أحد الموظفين الكبار الذين لا يعرفون أن هناك ما يشبه سور الأزبكية على نهر السين في مدينة باريس، وآخر على نهر التيمز في مدينة لندن. وصدر قرار أبله بنقل سور الكتب إلى أطراف حي الباطنية بجوار الأزهر (ربما ليجاور تجار الكتب تجار المخدرات). وبالطبع أصبح من الصعب الإكثار من زيارة السور كما تعودت قديما، ذلك على الرغم من تيسر الحال، بعد

أن أصبحت معيدا ثم مدرسا في القسم الذي تخرجت فيه، وأخذت في الإسهام بالكتابة في المجلات الثقافية العربية، وبالأحاديث والمناقشات في البرامج الأدبية في البرنامج الثاني بالقاهرة. ولكن قطع الطرق وركوب المواصلات إلى أقصى حي الأزهر كان من الصعوبة بمكان. ولكني لم أتخلَّ عن زيارة سور الأزبكية بعد انتقاله، وكان إحباطي هائلا فقد تغيرت معالمه تماما، وأصبح صورة مصغرة مشوهة لمعرض الكتاب، كل الفرق أن التركيز كان على الكتب القديمة والمرتجعة، مع بعض الكتب الجديدة. واختفى البائعون القدامى الذين يعشقون الكتب، ويقدرون قيمة المعرفة، ويجلبون لك نوادر الكتب إذا كنت تبحث عنها، وكان حافزهم، دائما، حب الكتاب وتقدير المحبين له، ولكن تغير الوضع في المكان الجديد، فأصبح الحافز هو الربح واستغلال المثقف الذي يقوده حب الكتاب إليهم. وأذكر أن واحدا من هؤلاء اللصوص خدعني وباعني كتابا بمبلغ ضخم، بعد أن رأى فرحتي بالعثور على العنوان الذي كنت أريد أن أكمل به مكتبتي البلاغية، ودفعت ما طلب، وخرجت من الناحية الأخرى حاملا الكتاب، فوقعت عيناي على الكتاب نفسه في ممر قصي نسبيا قرب الشارع، وكان صاحب المحل الذي يبيعه يعرضه بعشر الثمن، فخرجت مهموما مغتاظا لاعنا الذي تسبب في انتقال سور الكتب الذي تربينا عليه، وتجولنا في جنبات بقايا الحديقة الملاصقة له، واسترحنا فيها من عناء النزهة والتجول على الأقدام، فقد كنت من عشاق المشي.

ولا أذكر أنني عدت إلى هذا المكان مرة أخرى. ويبدو أن محافظة القاهرة، قامت بإلغائه بعد حملات عديدة عليها من المثقفين، فأعادته إلى حديقة الأزبكية، ولكن بعد أن اقتطعت من الحديقة جزءا، مواجها

لمسرح الطليعة والعرائس، وجعلته في مربع مغلق، يمكن الدخول إليه من جوار مسرح الأزبكية، أو من امتداد الشارع الذي يصل ميدان العتبة بميدان رمسيس. ورغم قرب المكان، ووجود قلة من الباعة الذين احتفظوا بالتقاليد القديمة، فقد اختلف الحال، ولم يعد السور القديم كما كان عندما عرفته، وأصبحت مدمنا للتردد عليه في مطالع الستينيات، وكان ذلك قبل أن يفقد سحره الذي تناقص مع الزمن، خصوصا بعد أن دخلنا عصر التليفزيون، وانتقلنا منه إلى عصر النت الذي جعلنا نعرف كيف نقرأ الكتب on line.

وأذكر أن المكان الوحيد الذي كان ينافس سور الأزبكية لفترة، كان سورا تكوّن في ميدان السيدة زينب في منطقة محاطة بخطوط الترام. وقد تعودت زيارته في السنوات المعدودة الذي ظل باقيا فيها، خصوصا بعد أن اختفى «صوان» الكتب الذي كانت تقيمه وزارة الثقافة كل رمضان، أو في مولد السيدة زينب. وقد نفعني هذا السور في استكمال المجموعات التي كنت أحرص على اقتناء ما ينقصني منها، وكانت تضم مجلة «المجلة» و«الهلال» و«المسرح» التي كان يرأس تحريرها رشاد رشدي و«القصة» التي كان يرأس تحريرها فخريًا نجيب محفوظ وعمليًا يوسف الشاروني، و«الشعر» التي كان يرأس تحريرها، ويخوض معاركها ضد أنصار الشعر العمودي عبد القادر القط الذي فتح صفحات المجلة لشعراء الشعر الحر، فنشر لصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي وبدر توفيق، بل لبدر شاكر السياب وأقرانه من الشعراء العرب. وكنت أعرف مجلة «المجلة» أيام أن كنت طالبا في ثانوية المحلة الكبرى. أما المسرح والقصة والشعر فقد عرفتها في القاهرة، جنبا إلى جنب مجلة «الآداب»

البيروتية التي كانت الأكثر شهرة في الستينيات بسبب اتجاهها القومي الذي كان يدفعها إلى مهاجمة مجلات «شعر» و«أدب» و«حوار» وغيرها من المجلات التي اكتسبت سمعة رديئة بسبب ما تردد عن دعم المخابرات الأمريكية لها بشكل غير مباشر. وقد أدى ذلك إلى رفض يوسف إدريس لجائزة منحتها له إحدى هذه المجلات، وقد أمر جمال عبد الناصر بصرف قيمة الجائزة له، تقديرا لموقفه الوطني والقومي على السواء. وما أكثر الروايات ومجموعات القصص القصيرة التي اشتريتها من سور السيدة زينب، وكانت لكتَّاب من جيل الخمسينيات. وسرعان ما انضم إليهم أسماء سرعان ما خفت ضوؤها واختفى، مثل إسماعيل ولي الدين وغيره. ولم يكن جيل الستينيات (بهاء طاهر والغيطاني والقعيد والبساطي وصنع الله إبراهيم) قد ظهر نتاجه في السنوات الأولى من الستينيات، إذ لم يبدأ هذا الجيل في الظهور واجتذاب جيل جديد من القراء إلا بعد هزيمة 1967، ذلك على الرغم من أن مجلة «المجلة»، في عهد يحيى حقي، قد نشرت عددا خاصا سنة 1965 أو 1966 يضم عددا من الذين أصبحوا نجوما بارزة لأبناء هذا الجيل، وأذكر منهم يحيى الطاهر عبد الله الذي أخذ يلفت الانتباه إلى أعماله بالقصة التي نشرها هذا العدد الخاص من «المجلة».

ولكن كان ذلك بعد أن اختفى سور كتب السيدة زينب نتيجة تعديلات تخطيطية للميدان، وبقي سور الأزبكية يواجه متغيرات الزمن إلى أن أجبر على الرحيل إلى أقصى الباطنية، ثم عاد إلى حديقة الأزبكية، بعد أن أصبح الزمن غير الزمن، وأحوال الثقافة غير أحوالها في الحقبة الناصرية.

مسرح الأزبكية

لم يكن من الممكن أن أدمن المرور على سور الأزبكية، حيث باعة الكتب الذين وجدوا مقرهم الأثير على امتداد سور الحديقة، في اتجاه ميدان العتبة، دون أن أختم جولاتي بالمرور على مسرح الأزبكية، حيث أقف متطلعا إلى إعلانات المسرحيات التي كان يعرضها هذا المسرح العتيد، في النصف الأول من الستينيات التي شهدت نهضة مسرحية لم يكن لها مثيل، خصوصا بعد أن تشكلت فرق التليفزيون المسرحية الأربع التي تعددت عروضها ابتداء من موسم (1962 – 1963). وهي الفرق التي أتاحت السبيل لتحول الشباب الذين تخرجوا من معهد الفنون المسرحية، فضلا عن مؤلفي المسرح الشبان (في ذلك الوقت) إلى أن يصبحوا نجوما بارزين في المسرح أولا، ثم في السينما والتليفزيون. وكانت بوابة المسرح تفضي إلى باحة واسعة، تدخلها سيارات نجوم العرض المقدّم، وكبار الكتّاب والنقاد الذين يشاهدون العرض للكتابة عنه ونقده. وقد جذبني المسرح إليه، وقررت دخوله، خصوصا بعد أن قرأت فوق شباك التذاكر أسعار التذاكر، ووجدت أن سعر تذكرة أعلى «التياترو» يمكن أن تحتملها ميزانيتي. وقد حدث ذلك بالفعل، وحضرت عرضا مسرحيا مع صديق لي من المحلة، وانبهرنا من صالة المسرح التي كانت تشبه صالة الأوبرا في تصميمها، وفي زخارفها الذهبية. وقد كان المسرح من الداخل، خصوصا وأنت تراه من أعلى التياترو، قريبا من زخارف السقف ومقرنصاته الذهبية،

فضلا عن مقاصيره العليا والمحيطة بالمسرح كالسور البيضاوي الشكل، ولمحنا «بنوارا» خاصا، يحمل التاج المصري مذهبا، وعرفنا أنه البنوار الملكي. ولا تزال هناك، إلى اليوم، لوحة رخامية تحمل أسماء مديري المسرح.

وقد دفعني الفضول، ممزوجا برغبة المعرفة، إلى الإلمام بتاريخ هذا المسرح الذي كان اسمه تياترو حديقة «الأزبكية» حين أمر بإنشائه الخديوي إسماعيل ليكون على مقربة من الأوبرا التي صمم معمارها ومعمار المسرح، فيما أظن، مهندس إيطالي، وذلك ضمن استعانة الخديوي إسماعيل بالمهندسين الإيطاليين، إلى جانب الفرنسيين، لتحقيق حلمه الذي كان يهدف إلى جعل القاهرة أشبه بالعواصم الأوروبية في كل شيء. ولذلك استعان بالمهندس الفرنسي الذي صمم حدائق التيوليري في باريس لتصميم حديقة الأزبكية، بعد ردم بركتها الشهيرة، وبناء الأوبرا التي كلف الموسيقار الإيطالي ڤردي بأن يكتب أوبرا خاصة بمناسبة افتتاحها، ضمن حفلات افتتاح قناة السويس سنة 1869.

وقد ظل مسرح الأزبكية يحمل اسم «تياترو حديقة الأزبكية» إشارة إلى الأثر الإيطالي الذي يتجلى في استخدام اللفظ الإيطالي الدال على المسرح. وقد ظل المسرح، على مدى نصف قرن، مكانا مفضلا للفرق المسرحية الزائرة التي كان أكثرها أجنبيا، رغم وجود فرق عربية قدّمت عروضها عليه، وكان سر كثرة العروض الأجنبية راجعا إلى تزايد هجرة الأجانب إلى مصر، خصوصا من فرنسا وإيطاليا واليونان، فضلا عن إنجلترا التي أصبح جيشها يحتل مصر منذ سنة 1882 ويضم «قاموس المسرح» الذي أعدته لجنة علمية تحت رئاسة فاطمة موسى معلومات

وافية عن الفرق الأجنبية الشهيرة التي زارت المسرح، وعروض السينما التي قدّمت عليه، لكن مع غلبة العروض المسرحية، التي تزايد حضورها العربي الذي دعمه چورچ أبيض حين قام بتجديد المسرح وإحيائه في موسم (1912 - 1913) ، وقدم عليه مسرحيات لويس الحادي عشر، والشيخ متلوف، والساحرة، والنساء العالمات، وجرانجوار، وأوديب الملك، وعطيل، والأحدب، وجريح بيروت، وغيرها من المسرحيات التي استمر چورچ أبيض في عرضها سنة 1914.

وتغيرت أحوال المسرح وإدارته التي نهض بها عديدون، إلى أن قامت ثورة يوليو 1952، والتفتت إلى أهمية الفنون، فتولى إدارة المسرح أحمد حمروش الضابط السابق الذي لم يفقد انتماءه لحركة الضباط الأحرار، والمثقف الذي له دور لا ينكر في إشاعة ثقافة ثورية جديدة، غزت عقولنا، ودفعتنا إلى الانتساب إليها. وكانت عروض المسرح قد تغيرت بعد فرقة چورچ أبيض مع شركة ترقية التمثيل العربية فرقة عكاشة التي قرر المسئولون عنها هدم المسرح وتشييد مسرح جديد من رأس مال الشركة. وتم المشروع خلال عامي (1919 - 1920) في سياق ازدهار ثورة 1919. ولذلك لم يكن من الغريب أن يفتتح المبنى الجديد من أول يناير 1927 بعرض أوبريت هدى من تأليف عمر عارف وتلحين سيد درويش فنان الثورة. وبقي المسرح رغم سقوط الملكية وقيام ثورة يوليو، وتولى الإشراف عليه أحمد حمروش الذي نهض به نهضة عظيمة.

وقد استقر اسم المسرح على اسم «المسرح القومي» سنة 1958، ولكننا، نحن المصريين فيما يبدو، لا نقبل تغيير الأسماء الأولى، ونبقي على استخدامنا لها على الرغم مما يحل محلها من أسماء جديدة، وكما

ظل اسم شارع فؤاد قائما رغم تحول اسمه إلى شارع 26 يوليو، بقي اسم مسرح الأزبكية قائما رغم اسم المسرح القومي، ذلك الذي تولى مهمة تقديم جيل جديد من الكتَّاب الذين تشبعوا بالأفكار الثورية في النهوض بالمجتمع. وقد ضم هذا الجيل نعمان عاشور صاحب «الناس اللي فوق» 1957 و«الناس اللي تحت» 1958 و«عيلة الدوغري» 1963... إلخ، وألفريد فرج صاحب «سقوط فرعون» 1957 و«حلاق بغداد» 1964 و«سليمان الحلبي» 1965، ويوسف إدريس صاحب «ملك القطن» و«جمهورية فرحات» 1957 و«اللحظة الحرجة» و«الفرافير» 1964، وميخائيل رومان صاحب «الدخان» 1962. وقد انطلقت من المسرح القومي صحوة المسرح الشعري بعد أن كان قد فقد صوته بوفاة أحمد شوقي 1932. وصمت عزيز أباظة 1973. وقد كانت أصداء مسرحيات الشرقاوي، ابتداء من «مأساة جميلة» وليس انتهاء بمسرحيتيه عن «الحسين» تملأ أسماعنا وتثري وجداننا، مع الأسماء التي تبعته من طراز نجيب سرور وصلاح عبد الصبور.

وكان التليفزيون قد عرض رائعة لطفي الخولي «القضية» مع غيرها من مسرحيات نعمان عاشور ونجوم التأليف المسرحي من شباب ذلك الوقت، الذين كانوا مشبعين بأحلام وشعارات ثورة يوليو عن الحرية والاشتراكية والوحدة. وهو الأمر الذي أدى إلى ترجمة أعمال كتَّاب عظام من أمثال : بروتولت برشت وبرنارد شو وسارتر ولوركا وغيرهم. لكن كان النجم الساطع الذي يفرض نفسه علينا، في هذه السنوات الستينية، بعد نعمان عاشور وألفريد فرج، هو سعد الدين وهبة (1925 - 1997) الذي كانت مسرحياته معروضة، دائما، في التليفزيون المصري الذي كان يقدم

مسرحية كل ليلة، خصوصا بعد أن تكاثرت الفرق المسرحية، في زمن وزير الثقافة عبد القادر حاتم الذي كان يهتم بالكيف أكثر من الكم، لكن كانت مسرحيات المسرح القومي (الأزبكية) متألقة باستمرار، فقد كانت تقدم جيلا جديدا من مؤلفي المسرح الذين جذبوا إليهم الانتباه على نحو غير معهود. الطريف أن أغلبهم جاء من مجالات ثقافية غير مسرحية، فقد كان لطفي الخولي ونعمان عاشور ويوسف إدريس كتَّاب قصة قصيرة، وكتَّاب مقالات بارزة في الصحافة المصرية ولم يكن سعد الدين وهبة، ضابط البوليس الذي استقال من عمله وهو برتبة رائد سنة 1956، استثناء، فقد كتب القصة القصيرة والمقال الصحفي، كما كان مثلهم في الانجذاب إلى فن المسرح بوصفه فنا جمعي التلقي، يمكن أن يحقق وظائف كثيرة في تنوير الأذهان، خصوصا في مدى ما يمكن أن نطلق عليه الواقعية النقدية.

وقد أصدر سعد الدين وهبة مجلة «البوليس» قبل استقالته من الشرطة سنة 1956، وبعدها أصدر مجلة «الشهر» وكان يجتمع فيها الجيل الذي يضم سليمان فياض وأبو المعاطي أبو النجا ورجاء النقاش وغيرهم، وظلت مجلة «الشهر» تصدر ما بين (1958 - 1962)، وكنت أتابعها، وسعيت إلى جمع ما فاتني من أعدادها حين أقمت في القاهرة. وكان سعد الدين وهبة قد انتقل من وظيفة سكرتير تحرير «الجمهورية» جريدة الثورة إلى مدير تحريرها من (1961 – 1964)، حيث تتابعت مقالاته، وأخذت مسرحياته تلفت الانتباه إليها : المحروسة 1961 كفر البطيخ 1962 البنية 1963 كوبري الناموس 1964 سكة السلامة 1965 إلى جانب مسرحياته العديدة التي كان يعرضها التليفزيون، فيزيد من جماهيريتها وشعبيته بين أبناء جيلنا، فضلا عن مسرحياته القصيرة التي ظل ينشرها في الأهرام التي

أصبح كاتبا فيها خلال السبعينيات. وربما كان أهم ما يميز مسرحيات سعد الدين وهبة، قبل هزيمة 1967، هو أنه مضى على خطا توفيق الحكيم في «يوميات نائب في الأرياف». ولذلك استمد وقائع مسرحياته من عالم القرية التي عرفها أولا : بحكم مولده ونشأته الأولى في قرية دميرة مركز طلخا بمحافظة القليوبية، حيث كان والده يعمل بدائرة الأمير عمر طوسون، وثانيا : بحكم تنقله ضابطا للشرطة بين القرى التي اضطره عمله إلى الاحتكاك بأهلها. وكان يشبه نجيب محفوظ في مرحلة ما قبل «اللص والكلاب» في الاهتمام بحياة القرية قبل الثورة، هادفا إلى تعرية الفساد (خصوصا الإداري والحكومي) الذي كان من الأسباب الأساسية لقيام الثورة. وكان مثل نجيب محفوظ أيضا - في مرحلته اللاحقة - في نقد العهد الجديد، وتعرية الثغرات التي أدّت إلى هزيمة سنة 1967. ولذلك كان من الطبيعي أن يلجأ إلى الرمز، ابتداء من مسرحيته «المسامير» 1968 وليس انتهاء بمسرحية «يا سلام سلم الحيطة بتتكلم» 1971 التي وصل مغزاها السياسي إلى ذروته في مسرحية «الأستاذ» 1969 التي لم تعرض إلا سنة 1981. ولذلك لم يكن من الغريب عليه أن يقول : «هناك فكرة عامة في كل مسرحياتي، أعتقد أنها أكثر المشاكل التي صادفت الشعب المصري على امتداد تاريخه، وهي مشكلة الحكم : من الذي يحكم؟ وما هي العلاقة بين الحاكم والمحكوم؟».

ولم يكن من الغريب، والأمر كذلك، أن أصطحب صديقي شوكت (من رفاق المحلة الكبرى) الذي كان يزورني في القاهرة، لكي نذهب معا إلى المسرح القومي، ونشتري تذكرتين، في أعلى المسرح، دفعتهما من جيبي احتفاء بصديقي الذي لا تزال علاقتنا باقية، رغم تقلب المصائر

واختلاف الاتجاهات، ودخلنا المسرح القومي، ودلفنا إلى الممر الجانبي الذي يقودنا إلى السلم، واستقر بنا المطاف على كرسيين متجاورين، منبهرين بكل شيء، نتأمل روعة المبنى الذي كنا نراه للمرة الأولى، ونستعد لمشاهدة المسرحية التي كان يخرجها سعد أردش، عليه رحمة الله، وكانت الموسيقى من إعداد عواطف عبد الكريم. ولم يكن يخطر ببالي أنه بعد حوالي ثلاثين عاما، ستتصل حبال الود بيني وسعد الدين وهبه الذي حرص على أن يهديني أعماله المسرحية الكاملة، ولا أدري لماذا لم أحكِ له عن مكانته في نفسي قبل أن يرحل عن دنيانا، فجأة، بعد مرض فتك به سريعا سنة 1997؟! ولم أكن أتخيل، بالقدر نفسه، أنني سأعرف الدكتورة عواطف عبد الكريم التي عرفتها عن طريق الدكتورة سمحة الخولي التي كانت ترأس لجنة الموسيقى، في المجلس الأعلى للثقافة الذي أصبحتُ أمينه العام لسنوات عديدة، وأن أطلب إليها مدّ الله في عمرها أن تتولى رئاسة اللجنة بعد وفاة سمحة الخولي التي كانت شخصية فريدة. وينطبق الأمر نفسه على سعد أردش الذي ظللت على إعجابي به وصداقتي له إلى أن توفاه الله.

وبدأت مسرحية «السبنسة» التي لا أزال أتذكر أحداثها، فالمسرحية الأولى، دائما، أشبه بالحب الأول الذي لا ينسى، ومن المحزن أن الكثيرين من أبطالها قد توفاهم الله، أذكر منهم: الصول درويش الذي كان يؤدي دوره المرحوم أحمد الجزيري، وحسن البارودي الذي كان يؤدي دور الشيخ سيد، وشفيق نور الدين الذي كان يؤدي دور العسكري صابر، وفردوس حسن التي كانت تؤدي دور فردوس، وتوفيق الدقن الذي كان يؤدي دور خبير القنابل، وإبراهيم الشامي المأمور، وكمال حسين ممدوح،

وفؤاد شفيق الحكمدار. رحم الله الجميع، ومد في عمر رجاء حسين التي كانت تقوم بدور جليلة، وسميحة أيوب التي كانت تقوم بدور سلمى، ومحمود الحديني محفوظ، وعبد الرحمن أبو زهرة عبد التواب، وعادل هاشم رشوان، وغيرهم من الذين عرفتهم معرفة شخصية بعد سنوات طويلة. وما كان يخطر على بالي أنني سأعرفهم. وبقدر ما أشعر بالأسى على فقد العمالقة، أولئك الذين قام على أدائهم الرفيع الصرح الاستثنائي لمسرح الستينيات، أدعو بطول العمر للباقين الذين لا يزالون يضيئون حياتنا بإبداعهم الأدائي : سميحة أيوب ورجاء حسين ومحمود الحديني وعبد الرحمن أبو زهرة وغيرهم.

وها أنذا أسترجع صفحات «السبنسة» المطبوعة ضمن الأعمال الكاملة لسعد الدين وهبة، وأسترجع المنظر الأول في الفصل الأول، وأقرأ: «حجرة ضابط نقطة الكوم الأخضر. مكتب خشبي قديم فوقه جوخة ممزقة جربانة وعليه دواية نحاسية ودانة مدفع. وفوق الحائط صورة الملك وتحتها قصيدة للشاعر خليل مطران، وفي مواجهة المسرح بعض الجنازير والقيود الحديدية معلقة، وأمام المكتب كرسي خشبي، وبجوار الحائط دكة خشبية، وبالجانب الأيمن بابان، أحدهما موصل إلى صالة تفتح على باب النقطة الخارجي، والثاني يوصل إلى داخل النقطة، حيث الإسطبل وحجرة العساكر وسلم موصل إلى سكن الصول في الدور العلوي».

وتبدأ الأحداث التي تدور، واقعيا، حول اكتشاف قنبلة ويقوم العسكري صابر (شفيق نور الدين) بالإبلاغ عن اكتشافه لها على «كوم الزبالة» المجاور لعشة الجميلة سلمى (سميحة أيوب) وأمها. وينقلب المركز ويأتي الحكمدار، وخبير القنابل، ويعلن الخبير (كاذبا بالطبع،

طامعا في مكافأة) أن قطعة الحديد قنبلة شديدة الخطورة، كان يمكن أن تنسف كل ما يحيط بها. وتتكرر الفصول عارضة الصور المتعددة للفساد في كل شيء، والذي يمتد من الصغار إلى الكبار. وتتجلى الشخصيات حية مليئة بالواقعية والحياة، كأننا نشهد أحداثا حقيقية لكنها تحدث في الماضي، وتتجلى عبقرية أداء شفيق نور الدين (العسكري صابر) الذي وجد القنبلة، وفؤاد شفيق (الحكمدار خرب الذمة) وسميحة أيوب (سلمى) الفلاحة النقية وسط هذا المستنقع العفن من الفساد. ويطمع فيها الجميع من اللحظة الأولى لظهورها وسط حشد السادة لكن قبل أن يأتي السادة الذين تم إبلاغهم بالحادث الجلل - اكتشاف القنبلة - يعلن العسكري صابر للصول درويش أن القنبلة سرقت، أثناء ذهابه لقضاء حاجته. ولا يستغرق الصول درويش وقتا طويلا في حل المشكلة، فيتناول قطعة الحديد التي يضعها فوق الأوراق، ويعطيها للعسكري صابر زاعما أنها القنبلة. ويظهر وجه المفارقة المضحكة أن خبير القنابل يعلن أنها قنبلة بالغة الخطورة، وأن العسكري الذي اكتشفها يستحق الترقية، ويقوم الحكمدار فعلا بترقية العسكري صابر. ويأتي العمدة بالأبرياء الذين يلفّق لهم وضع القنبلة الزائفة، وتنتهي المهزلة بالقبض على ثلاثة من الأبرياء، بينهم شيخ الجامع الذي كان يفسر للمصلين قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[1]. ومنهم محفوظ العامل في مصنع الثلج (محمود الحديني) الذي طالب صاحب المصنع بالعدل. ويتحرر ضمير العسكري صابر، فيقرر إعلان الحقيقة، فيُتهم بالجنون، وبالفعل يلبسونه قميص المجانين، ويتم ترحيله

(1) النمل : 34.

مع المتهمين على القطار، لكن بعد أن يوقفهم ناظر المحطة في أماكن حسب درجات القطار، فالمتهمون وصابر المسكين في الموقع الذي يواجه «السبنسة» (أي آخر عربات القطار وأدنى درجاته): وقبيل أن يأتي القطار، يصرخ صابر الذي أصبح رمزا لضمير الشعب المحتجّ، مؤكدا أن الحال لن يستمر على ما هو عليه، وأن الأحوال لابد أن تتحول، ويتغير وضع القاطرة، فتنقلب الأوضاع والأحوال رأسا على عقب، فتصبح «السبنسة» مع ركابها هي الدرجة الأولى، بينما تتحول مكانة درويش أفندي والبشوات والبكوات إلى «السبنسة». يعني أن البلد المظلوم المقموع لابد أن يثور، وأن القنبلة الحقيقية المختبئة في صدور المطحونين لابد أن تنفجر وتنتهي المسرحية، ونحن نسمع صوت صابر (شفيق نور الدين) كالنبوءة «برضه مش حتهرب يا درويش افندي ولا انت ولا البشوات والبهوات بتوعك.. حتهربوا تروحوا فين.. القنبلة حتفرقع وتجيب عاليها واطيها.. الأرض كلها قنابل.. القطر مليان قنابل.. بلدنا انزرعت قنابل خلاص.. وحتفرقع.. وتجيب اللي قدام ورا واللي ورا قدام البريمو حيبقى سبنسه والسبنسه حتبقى بريمو». ويدق جرس المحطة ويعلو صوت القطار، لكن صوت صابر لا يضيع رغم إغلاق الستار، فالمعنى كان واضحا مكشوفا لي وصديقي شوكت، فقد كنا ندرك أن طوفان الظلم الذي عاناه الفلاح المصري، أيام الإقطاع، وفساد الحكم هو الذي أدّى إلى ثورة يوليو التي كان أول شعار لها : ارفع رأسك يا أخي، فقد مضى عهد الاستعباد. ولقد كنت وجيلي مرفوعي الرأس في هذه الأعوام. ولم لا؟! فقد كان عبد الناصر حبيب الملايين وزعيم الأمة العربية، وهو الذي كسر العدوان الثلاثي وانتصر عليه مع ملايين من الشعب العربي التي التفت حول شعارات الحرية والوحدة والعدل الاجتماعي.

وشعرت أنا وصديقي شوكت أن شعارات الثورة في طريقها إلى التحقق بالفعل، وأن القنابل التي تحدث عنها العسكري صابر (شفيق نور الدين) قد انفجرت في فجر الثالث والعشرين من يوليو، وامتدت منها إلى الأقطار العربية، وإلى كثير من أقطار العالم الثالث، وخرجنا من المسرح ونحن ممتلئون بالحبور لجمال التمثيل، وإدراك الدلالة الرمزية للعرض الذي أثار وعينا الناصري في ذلك الوقت، مدركين أننا نسير في سكة السلامة، وأن الآفاق المفتوحة أمامنا لا نهاية لوعودها.

وبالطبع لم نكن نعلم، أو نتخيل، أن قنابل أخرى سوف تنفجر بعد سنوات معدودة، في يونيو 1967، وأن ما حسبناه سكة السلامة تحول إلى سكة الندامة. ولكن على الرغم من كل ما حدث بعد ذلك، على المستوى العام للوطن، وعلى المستوى الخاص في مسار حياتي، فلا أزال كلما ذهبت إلى المسرح القومي أتذكر اسمه القديم الذي ظل باقيا في القلوب، وأشعر بهزة اللقاء الأول للمسرحية الأولى التي شاهدتها فيه، والدفء الذي شعرت به عندما وجدت نفسي ماضيا محاطا بالخارجين من المسرحية. وها أنذا، وبعد كل هذه السنوات البعيدة، وبعد كل ما شاهدت من مسارح، أتذكر النهضة العظمى للمسرح المصري في الستينيات، وأولئك العباقرة الأفذاذ من الكتَّاب والممثلين الذين أغنوا نفوسنا بجمال الإبداع الذي انتقل منهم إلى أجيال لاحقة، لا تزال تدين لهم بما كسبته منهم وعنهم من قيم الحق والخير والجمال.

أما سعد الدين وهبة، فها أنذا أتطلع إلى أعماله الكاملة، وألمح من بينها كتابه «من مفكرة سعد الدين وهبة». وصورته التي رسمها له مصطفى حسين تفترش الغلاف بابتسامة واثقة من الإنجاز، وأفتح الصفحة الأولى

فأرى إهداء كتبه لي، وأقرأ فيه : إلى الصديق العزيز جابر عصفور تحية إلى جهاده المتصل في خدمة الثقافة. وألمح التاريخ 10 / 4 / 1994 فأكتشف مرور خمسة عشر عاما على الإهداء، فأضمها إلى ما يقرب من خمسين عاما حين كانت مسرحيته «السبنسة» أولى المسرحيات التي شاهدتها في مسرح الأزبكية، فأجد أن الزمن قد جرى أسرع مما ينبغي، ولكن الذاكرة تقاوم الزمن بفعل التذكر الذي هو نوع من مقاومة العدم. وأنتقل إلى الكتاب الثاني الذي يسبق الأعمال المسرحية فأجد كتاب «معارك آخر العمر وموقف أمة» وهو الكتاب الذي حرره الأمير أباظة وأصدره الاتحاد العام للفنانين العرب الذي كان يرأسه سعد وهبة. وقد صدر الكتاب بعد وفاته تكريما لذكراه، وفيه سلسلة مقالات «معارك آخر العمر» التي تحدث فيها عن صراعه مع المرض اللعين، في مستشفيات أوربا، ثم مئات الكلمات التي كتبت وقيلت بعد وفاته، وآخرها عشرات الصور التي أثارت في نفسي شجنا وحزنا، هربت منهما إلى الذاكرة، وقادتني الذاكرة إلى السؤال عن من يذكر سعد الدين وهبة وأبناء جيله، وأساتذتهم من الأجيال التي أسعدني زمني بمعرفتها، فلا أجد إجابة أصلح من جملة نجيب محفوظ في «أولاد حارتنا» : آفة حارتنا النسيان. رحم الله الجميع.

سهرة مسرحية

كانت أستاذتي سهير القلماوي تقوم بتدريس «النقد الأدبي الحديث» في عامنا الدراسي الأخير. وكانت أميل إلى مدرسة «النقد الجديد» التي تضم إليوت وريتشاردز وبروكس ووارن وغيرهم، انسجاما مع ميولها الليبرالية، ومواقفها الفكرية التي كانت تنفر من الفكر الماركسي على وجه التخصيص، ولكن سماحة فكرها جعلتها تتقبل الاختلاف الفكري معها أو عنها على نحو ما ظهر في أطروحات تلامذتها. وقد ظلت، رحمها الله، تؤمن أنه لا معنى للتنظير دون التطبيق، ولذلك كانت تقوم بتدريبنا على النقد التطبيقي في أنواع الأدب المختلفة، فكانت أول من قرأ معنا قصيدة من الشعر الحر، ومارسنا نقد القصيدة معها، وهي تقوم بتوجيهنا، ولفت انتباهنا إلى ما لم نكن نلتفت إليه، وكانت القصيدة لأحمد عبد المعطي حجازي من ديوانه الأول : مدينة بلا قلب، وكانت عن وحدة الشاعر في المدينة، وأذكر أن درس النقد التطبيقي لهذه القصيدة، كان بداية معرفتي بشعر حجازي ونقد رجاء النقاش على السواء، فقد دفعني درس أستاذتي إلى قراءة ديوان الشاعر كاملا، وإلى التوقف عند المقدمة - الوثيقة التي كتبها رجاء النقاش للديوان. وقد انتقلنا، بعد ذلك، إلى القصة القصيرة، واختارت لنا أستاذتنا قصة «زعبلاوي» من مجموعة «دنيا الله» لنجيب

محفوظ، وأظن أن اختيارها لهذه القصة كان نابعا من رغبتها في تدريبنا على قراءة الكتابة الرمزية، فقد كان «زعبلاوي» رمزا، ولكن إلى ماذا يرمز؟ كان هذا هو السؤال المهم في عملية التفسير، ورأى بعضنا في «زعبلاوي» رمزا للفن، وبعضنا الآخر رأى فيه رمزا للخير، ورأت قلة، وأنا منهم، ضرورة وصل «زعبلاوي» بشخصيتين أساسيتين في روايات نجيب محفوظ الرمزية الأولى «جبلاوي» في «أولاد حارتنا» (وجبلاوي قريبة من زعبلاوي) والثانية «صابر الرحيمي» في رواية «الطريق» التي يجاوز فيها الطريق المعنى الحقيقي، متكئا على الدلالة الرمزية التي تصل بينه و الطريق بالمعنى الصوفي، خصوصا أن صابر الرحيمي، بطل «الطريق»، كان يشبه بطل «زعبلاوي» في أن كليهما لن يعثر على الأمان والسلام والكرامة وتناغم العالم إلا بالعثور على الأب الموجود لكن غير المتاح، أو زعبلاوي الذي يملك القدرة على إعادة الاتزان إلى الدنيا التي شقلبوا حالها. ولحسن الحظ ناصرت سهير القلماوي الرأي الذي ذهبنا إليه. وكانت قد تركت النقد التطبيقي الخاص بالرواية لعبد المحسن طه بدر الذي قرأ معنا رائعة محمد كامل حسين «قرية ظالمة» وغيرها من روايات المازني ويحيى حقي ونجيب محفوظ. وجاء دور المسرح، عندما فاجأتنا أستاذتنا أنها حجَزت لنا جميعا في مسرح توفيق الحكيم لحضور عرض مسرحي لعدد من مسرحيات الفصل الواحد، ولم تنس الدكتورة سهير أن تنبهنا إلى أنه لا سبيل إلى اعتذار الطالبات، فقد حجزت المقاعد بعددنا جميعا، وأن الطالبات سيكنَّ في حماية زملائهم الذين هم في منزلة

إخوتهم. وبالفعل تجمعنا عند الباب الرئيسي للمسرح الذي يقع في شارع محمد فريد (عماد الدين سابقا) وكان مخصصا لفرقة من فرق التليڤزيون المسرحية، أطلق عليها اسم توفيق الحكيم، وأسند الإشـراف على الفرقة إلى لجنة تنفيذية برئاسة رشاد رشدي الذي كان رئيسا لقسم اللغة الإنجليزية في كليتنا (كلية الآداب بجامعة القاهرة) وناقدًا من المتأثرين كل التأثر بنظرية الشاعر والناقد ت. إس. إليوت، وكانت اللجنة تضم : السيد بدير الممثل الذي اشتهر بدور الابن الساذج لعبد الرحيم بك كبير الرحيمية قبلي، ونبيل الألفي المخرج الكبير الذي اشتهر بالمسرحيات التي أخرجها، وكان قد أصدر كتابا عن آرائه في الإخراج. وقد تأثرت كل التأثر - بعد ذلك بسنوات - بإخراجه مسرحية شعرية عن ثورة الزنج من تأليف معين بسيسو، وكان لطفي الخولي ثالث الأعضاء وقد عرفناه كاتبا مسرحيا في «القضية» التي جعلت جملة «أفتح الشباك ولا أقفل الشباك»، جملة شهيرة تتردد على كل لسان.

وكانت اللجنة تقوم، إلى جانب اختيار العروض ، بإصدار مجلة شهرية عن المسرح تنشر ضمن أعدادها نصوص مسرحيات مختارة، وتسجيلا لحلقات النقاش حول المسرحيات المعروضة. وأذكر أنني أعجبت بمحمود أمين العالم، رحمه الله، من آرائه المسرحية التي نشرتها المجلة في إحدى ندواتها، وكان ذلك بعد إفراج عبد الناصر عن الشيوعيين المعتقلين سنة 1964. المهم أننا جلسنا في أماكننا أمام المسرح، وكان بعضنا يدخل المسرح للمرة الأولى في حياته، ولولا أن الذي أمرنا

بالذهاب هي سهير القلماوي التي كنا نهابها، ونعمل لها ألف حساب، لما ذهبنا. ويبدأ العرض الذي اكتشفنا أنه يتكون من مسرحيتين كل منهما ذات فصل واحد. المسرحية الأولى كانت مترجمة لا أذكر - على وجه الدقة الآن - إذا كانت «الجلف» لأنطون تشيكوف أو «الخرتيت» لأونسكو. ما أذكره بدقة هو المسرحية الثانية «البيانو» التي كان كاتبها محمود دياب، وكان من الطبيعي أن أنفعل معها لأن الكاتب مصري أولا، والمسرحية مؤثرة ثانيا. وكانت المسرحية تدور على حوار بين عازف بيانو، موسيقي، فقير، وصاحب المنزل الذي يقطنه، وكان غليظ الإحساس، ماديا، بليد المشاعر إلى درجة بشعة. وكان الحوار بين الاثنين يكشف عن ثنائية ضدية، بين رهافة المشاعر وغلظة المادة، الروح والجسد، الفن والواقع الغليظ، العنصر الإنساني النقي والنزعة الحيوانية. وتبدأ المسرحية بأقصى درجات التضاد، ولكنها تمضي نحو التحول، تدريجيا، مع عزف الموسيقار على البيانو وشرحه ما توحي به النغمات من مشاعر، وكلما مضى الموسيقار في العزف فعلت الموسيقى فعلها كأنها الرقى السحرية التي ترد صاحب المنزل إلى إنسانيته، فيعرف رهافة المشاعر ويغدو قادرا على أن يسمو على نزعته الحيوانية، ويسترد عنصره الإنساني الأنقى. وكانت المسرحية، بوجه عام، تعبيرا بالغ الرهافة والكثافة عن دور الإبداع الذي يرتقي بالإنسان من وهاد الضرورة إلى آفاق الحرية، وكذلك عن الإنسان الذي ليس شريرا على نحو مطلق، فالخير كالحق والجمال كامن في داخله ينتظر التعليم الذي يجاوز به جهله ، ويضعه على عتبات التذوق الجمالي الذي يرتقي بكل ما فيه.

وقد خرجت من المسرحية مع زملائي وزميلاتي مفتونا بإبداع محمود دياب الذي أخذت أتابع أعماله منذ ذلك الوقت، وسرعان ما عرفت أنه من أبرز كتاب جيل الستينيات المسرحي، وأنه واحد من الذين ارتفعوا بالمسرح المصري في هذه الحقبة (الستينيات) التي لا أزال أراها أزهى مراحل المسرح المصري. وقد ولد سنة 1932 ، وتخرج من كلية الحقوق سنة 1955، وجذبته الكتابة المسرحية، ولفت إليه الأنظار مع مسرحية «البيت القديم» التي قدمها المسرح الحديث 1964، في العام نفسه الذي شهدنا فيه «البيانو». وقد استمر في الكتابة، وقدم مسرحية «الزوبعة»، وبعدها «ليالي الحصاد» التي قدمها المسرح الحديث من إخراج أحمد عبد الحليم، وقد شاهدتها مع زميلتي التي أصبحت زوجتي، وقد أعجبني فيها تطويع الشكل المسرحي الذي حاول الإفادة فيه من «السامر» لدى الفلاحين، وهي المحاولة التي حافظ عليها في «الهلافيت» التي عرضت 1969. وكانت محاولة الإفادة من شكل «السامر» الفلاحي بعض اتجاهٍ إبداعي، ظهر بعد هزيمة 1967، كما ظهر في مسرحية محمود دياب «ليالي الحصاد»، وذلك في موازاة التيار الذي ارتبط بالبحث عن الجذور، والسعي وراء الأصالة على نحو ما فعل جمال الغيطاني الذي أفاد من أساليب الكتابة التاريخية في العصر المملوكي، وما فعله الشاعر العراقي حسب الشيخ جعفر في استغلال شكل القصيدة المدورة القديم، وكان من نتيجة هذه المحاولات مسرحية «رسول من قرية تميرة» بعد حرب 1973، وهي من أجمل المسرحيات المستلهمة من هذه الحرب،

وتدور حول الحرب والسلام. وظل محمود دياب يكتب أعماله الرائعة، وأخص بالذكر «باب الفتوح» سنة 1974 التي كانت آخر ما قرأت له مع مجموعة من مسرحيات الفصل الواحد : رجل طيب في ثلاث حكايات : «الرجال لهم رؤوس، الغرباء لا يشربون القهوة، اضبطوا الساعات».

ومن المؤكد أن سهير القلماوي كانت ثاقبة النظر عندما اختارت لنا عرضا يصل معرفتنا بالمسرح الأوربي بضرورة اهتمامنا بمسرحنا الوطني بخاصة والقومي بعامة، ودليل ذلك أننا ناقشنا مسرحية «البيانو» في المحاضرة التي التقينا فيها بعد مشاهدة المسرحيـــــة، لا أذكر تفاصيل ما دار في هذا النقاش بعد مضي تلك السنوات العديدة، لكني لا أزال أذكر عدة دلالات تعلمت منها في سنوات التدريس الذي مارسته لما يزيد على أربعين عامًا.

وتتصل الدلالة الأولى بالنقد الأدبي، وعدم التمييز بين التنظير والتطبيق، فلا قيمة لنظرية نقدية إلا من خلال الممارسة وعبرها، فمن الضروري أن يحدث جدل خلاق بين الطرفين، وذلك بما يوسِّع أفق النظرية إذا كانت عاجزة عن استيعاب التنويعات الهائلة للمادة الأدبية عند التطبيق. وقياس قدرة النظرية في هذه الحالة رهين بمدى المرونة والمطاوعة التي لا بد أن تتسم بهما عند التطبيق. وما أبأس الناقد أو الناقدة، عندما يحيلان النظرية إلى مجموعة من القوالب الجامدة التي يقيسان بها العمل الإبداعي، فجمود القواعد التي يضمها كتاب معياري هو نوع من أنواع الأصولية النقدية، أعني وضعا أشبه بوضع سرير بروكرست الذي

تحدثت عنه الأساطير اليونانية، وهو سرير يقص ساقي النائم إذا كانت أطول من طول السرير. أما الدلالة الثانية فهي ترك الأبواب مفتوحة لكل اجتهاد، ولكل منطلق نظري، فالنقد الأدبي يهدف، في النهاية، إلى إبراز ثراء العمل الإبداعي، حمَّال الأوجه، متعدد المعاني، ولا حِجر على أي وجهة نظر، ما ظلت تهدف إلى إبراز ثراء العمل الإبداعي والإضافة إليه تحليلا وتفسيرا وتقييما.

ولكن تبقى الدلالة الاجتماعية لاختلاف زمننا عن الزمن الذي نعيش فيه الآن، فقد ذهبنا زملاء وزميلات، ولم تكن واحدة منهن محجبة، ودخلنا مسرحية راقية، تبدأ من التاسعة، وتنتهي مع انتصاف الليل، ولم أر أو أسمع ما يشين رفقة الزميلات والزملاء. وقد توزعنا بشكل طبيعي بعد انتهاء العرض، فاصطحب الزملاء زميلاتهن إلى منازلهن، كي يحمي كل زميل زميلته من إمكان تعرضها لمضايقة العودة المتأخرة إلى المنزل. وأنا شخصيا اصطحبت زميلتين : واحدة منهما أصبحت زوجتي وأم أولادي وجدة أحفادي، والثانية لا تزال صديقة عزيزة هي وزوجها. وسعدنا بأفراح أبنائهما ومجيء أحفادهما. ولم تكن الطالبات السافرات أقل إيمانا أو التزاما دينيا، فقد كان العلم يملأ قلوب الجميع، ورغبة المعرفة كانت أشبه بالبيانو الذي ترتفع أنغامه بالإنسان، فيغدو كائنا روحيا.

الطريف أنه بعد نحو ما يقرب من أربعين عاما شاهدت فيلما من روائع السينما العالمية بعنوان مسرحية محمود دياب القصيرة: «البيانو». وكان من إنتاج چان شابمان، وإخراج وتأليف چين كامبيون، وبطولة

هوللي هنتر وهارڤي كيتل وأنّا باكوين وسام نيل، وموسيقى مايكل نيمان. وتدور أحداث الفيلم حول امرأة اسكتلندية (أدا) بكماء تعشق عزف البيانو الذي تملكه، والذي تبثه مشاعرها التي تنطق خلال نغماته. ويفرض عليها والدها الزواج من مالك أرض في نيوزيلندا (ألاستير ستيورات)، فترحل مع ابنتها فلورا التي تترجم للآخرين معاني إشاراتها، ويرحل معهما البيانو الذي يصل بصعوبة بالغة إلى مقر زوجها الذي يرفض إدخال البيانو إلى كوخه الصغير الذي لا يسمح بوجود بيانو فيه. ولكن صديقا له (بينس) تطبع بطباع السكان البدائيين في نيوزيلندا، إلى درجة أنه وضع وشما على وجهه مثلهم، ويتواصل معهم أكثر من البيض الذين ينتسب إليهم. وتذهب فلورا إليه، رسولا من أمه، تطلب منه الإتيان بالبيانو الذي تعمد الزوج تركه على الشاطئ، ويحصل عليه بالفعل ويضعه في كوخه. ويطلب من (أدا) تعليمه، والعزف عليه، مقابل تنازله لزوجها عن قطعة أرض يريدها. وتبدأ (أدا) في العزف، ويعرض عليها أن يعيد لها البيانو الذي أصبح ملكه، مقابل أن تسمح له بلمسها. وتوافق (أدا) التي كانت تري في البيانو حياتها. وتصل الموسيقى بينهما في تلاحم روحي جسدي. وكانت (أدا) نافرة من الاتصال بزوجها الغارق في خجله وحياته الخالية من الإنسانية. ويجمع البيانو بينها و(بينس) البدائي، بعد أن أحالته نغمات البيانو إلى عاشق مرهف المشاعر، فيتورط الاثنان في علاقة حب، سرعان ما يكتشفها زوجها الذي يرى أن البيانو سبب كل الكوارث، فيعاقبها بقطع إصبع من أصابع يدها حتى لا تستطيع العزف، ويقوم بتطليقها وإرسالها إلى موطنها بعد تدمير البيانو

الخاص بها، وترحل (أدا) مع ما تبقى من البيانو الذي يسقط أثناء الشحن، فتربط نفسها به، وتغوص معه إلى أعماق المياه، لكن رغبة الحياة تغلبها، فتجاهد للصعود إلى سطح المياه، وينتهي بها الأمر بالزواج بـ(بينس) البدائي الذي هذبته بنغمات البيانو، ويصنع لها زوجها الجديد إصبعا من الفضة بديلا من الإصبع الذي فقدته، وتقوم بتعليم الفتيات الراغبات في عزف البيانو الذي أصبح رمزا لرغبتها في التواصل الإنساني الحقيقي، وأداة في الارتقاء بالإنسان من مستوى الضرورة البدائية إلى آفاق الحرية الخلاقة للإنسان. وينتهي الفيلم بمقطع من قصيدة الصمت لتوماس هود الذي افتتح الفيلم به.

وقد نال الفيلم ثلاث جوائز أوسكار، أفضل ممثلة للبطلة (هولي هنتر) وأفضل سيناريو (چين كامبيون)، وأفضل ممثلة مساعدة (أنّا باكوين). ونال الفيلم السعفة الذهبية في مهرجان كان وأفضل ممثلة للبطلة (هولي هنتر)، فضلا عن جوائز مهرجان مؤسسة الفيلم في أستراليا ونقاد الفيلم في بوسطن وشيكاغو ودالاس، وكذلك جائزة الجولدن جلوب (أفضل ممثلة)، وانهالت الجوائز على الفيلم وبطلته ومخرجته من كل اتجاه وأصبح ألبوم موسيقى الفيلم التي كتبها مايكل نيمان الأكثر مبيعا عبر أقطار العالم.

والمؤكد أن ما كتبت عن فيلم البيانو، هو عرض قاصر لا يفي هذا الفيلم الرائع حقه، لكنه يؤكد التشابه بين قصة الفيلم ومسرحية البيانو لمحمود دياب. ولا أقول إن أحد العملين أخذ عن الآخر، وإنما هو تشابه

عفوي في الأفكار والقيم، فالعنصر الجامع بين الفيلم والمسرحية هو قدرة الفن على الارتقاء بالإنسان والسمو به، وفاعليته السحرية في تحويل البشر من حال إلى حال مختلف تماما، كما أحالت نغمات البيانو (بينس) الذي أصبح أكثر تحضرا وإنسانية وأرهف مشاعر وأعمق إحساسا. ولذلك لم يكن من الغريب تذكري مسرحية محمود دياب القصيرة بعد أن شاهدت الفيلم للمرة الأولى في الولايات المتحدة، وخرجت بعد العرض مفتونا بالفيلم، الذي جعلني دون أن أدري أسترجع تلك السهرة المسرحية في مسرح توفيق الحكيم منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، فأزداد إعجابا بالفيلم، وأزداد يقينا بأن مسرح محمود دياب مسرح إنساني، يمكن أن نغزو به العالم، لو بذلنا جهدنا في ترجمته وتعريف العالم به، أو على الأقل إعادة تقديمه، وتعريف الأجيال الجديدة به.

ذكريات تلمذة

كلية فاطمة

في مطلع أكتوبر سنة 1961، بدأت رحلتي اليومية إلى جامعة القاهرة، من حيث كنت أقيم بالقرب من ميدان الجيزة، عبر طريق الجامعة الذي لا يزال يمر بمباني كلية الزراعة، ثم المدرسة السعيدية، ثم السور الخلفي لحديقة الحيوان، إلى البوابة الحديدية الضخمة التي لا تزال مشرعة كالوعد منذ ذلك الزمان، في مواجهة النصب التذكاري لشهداء طلاب الجامعة من رموز النضال الوطني ضد القصر والاستعمار. وقد تعودنا المرور كل يوم تحت هذه البوابة، كما لو كنا ننتقل من عالم إلى عالم، لنتوجه صوب اليمين إلى مبنى كلية الآداب التي لم أفارقها إلى اليوم. وكنت أقطع الرحلة الصباحية اليومية سيرا على الأقدام من الجيزة إلى الجامعة، ومن الجامعة إلى الجيزة حسب موعد انتهاء المحاضرات. وظللت محافظا على تقاليد هذه الرحلة الرياضية التي كان مبعثها ضيق ذات اليد، في البداية، إلى أن تخرجت من الجامعة، وأصبحت معيدا بالكلية التي حلمت أن أكون أستاذا بها من قبل أن أعرف مكانها. ولم تنقطع هذه الرحلة الصباحية إلا بعد أن فتح الله عليَّ بالتخرج والعمل والزواج المبكر، ومن ثَمَّ ضرورة الانتقال من الحجرة الصغيرة التي كنت أسكنها بمنزل عتيق، في إحدى حواري الجيزة، إلى منطقة الهرم النائية التي كانت لاتزال تغري الباحثين عن الهدوء بالسكن المعقول لمحدودي الدخل من أمثالي في ذلك الحين.

وكانت فرحتي بكوني طالبا في كلية الآداب لا يعادلها سوى فخري بتاريخ هذه الكلية التي أنتسب إليها، والتي تتصدر الحرم الجامعي في مواجهة زميلتها كلية الحقوق، كما لو كانت الكليتان معا أسدي كوبري قصر النيل الرابضين على مدخل الكوبري كأنهما علامة العبور وبشارته وشارته. ولا غرابة في التشبيه، فتاريخ الجامعة المصرية هو تاريخ يبدأ بهاتين الكليتين بأكثر من معنى، ومن يتحدث عن تاريخ كلية الحقوق التي سبقت الآداب، في الوجود والتأثير معا، يتحدث عن مؤسسي الجامعة والدعاة الأوائل إلى إنشائها، من أمثال : مصطفى كامل وقاسم أمين وسعد زغلول وأحمد لطفي السيد الذين تخرجوا من مدرسة الحقوق العالية، وظلوا يعملون بلا كلل أو ملل، إلى أن حققوا الحلم وتأسست الجامعة التي بدأت عملها في نهاية ديسمبر من سنة 1908 بعد وفاة كل من مصطفى كامل وقاسم أمين بأشهر معدودة. وإذا كانت مدرسة الحقوق العالية التي سبقت الجامعة في الإنشاء قد أخرجت من أبنائها من سعوا بحلم الجامعة إلى التحقيق، وكانوا رواد الحلم ورواد التأسيس معا، فإن كلية الآداب كانت الكلية الأولى الجديدة التي تأسست مع الجامعة، والتي ارتبطت بالجامعة الجديدة، وأصبحت علامة عليها، كما ارتبطت بها الجامعة الجديدة التي جعلت من حضورها الواعد رمزا، ومن خريجيها طليعة التجديد في الأدب والثقافة بوجه عام. ولذلك لم تنقضِ أشهر قليلة على بدء الدراسة في كلية الآداب إلا وكانت دروسها موضع اهتمام الرأي العام. ولم تنقض سنوات معدودة إلا وكانت هذه الكلية تمنح درجة الدكتوراه الأولى في الآداب للشيخ الذي سرعان ما أصبح أفنديا، أعني طه حسين الذي كان طليعة خريجي الآداب في التصدي للتقاليد الجامدة وتأسيس مشروع المستقبل للثقافة في مصر والأمة العربية.

ولم يكن زهونا بكلية الآداب يرجع إلى أنها الكلية الجامعية الأولى فحسب، بل كنا نضيف إلى ذلك أنها الكلية التي أسهمت إسهاما جذريا في حركة تحرير المرأة، وذلك منذ أن فتحت أبوابها للمرأة كي تتعلم بشكل غير رسمي في البداية، ودعت المحاضِرات لإلقاء الدروس العامة، وقاومت العناصر الرجعية في المجتمع إلى أن فتحت أبوابها لتعليم البنات بشكل رسمي، فاتحة الباب لنصف المجتمع كي ينال حقه في التعليم المدني الذي لا يمايز بين أبناء الوطن وبناته. وكما منحت الكلية درجة الدكتوراه الأولى في الآداب لطه حسين الذي تخرج من قسم اللغة العربية، وكان بداية حركة التجديد الأدبي الجذري، منحت الكلية درجة الدكتوراه الأولى في الآداب لسهير القلماوي التي كانت المرأة العربية الأولى التي تحصل على هذه الدرجة من جامعة القاهرة.

ولذلك لم نكن نستغرب الدور الذي قامت به كلية الآداب في الحياة الثقافية والاجتماعية، سواء من حيث كونها طليعة الحداثة الفكرية أو الحداثة الأدبية. وكنا نفخر أنها الكلية التي ارتبطت بأعنف الأزمات السياسية التي حدثت بسبب حرية الفكر بالجامعة، وذلك منذ أن هبّت العاصفة الأولى على طه حسين بعد نشره أطروحته للدكتوراه عن «تجديد ذكرى أبي العلاء» سنة 1915، بعد عام واحد من إجازة الأطروحة، وهي العاصفة التي تكررت بأشكال متباينة، سواء مع رسالة منصور فهمي، عن «المرأة في الإسلام» التي جاء بها من السوربون، أو مع كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» سنة 1926 الذي كان أكبر اختبار للجامعة في تاريخها الغض، والصدام الذي شمل البرلمان والصحافة والرأي العام، وكاد يطيح بالجامعة الفتية لولا صلابة عود القائمين عليها، وإيمان رجال من أمثال:

أحمد لطفي السيد وعبدالخالق ثروت وعدلي يكن وسعد زغلول وعلي الشمسي باستقلال الجامعة، ولولا رئيس نيابة مستنير اسمه محمد نور آمن بحرية الفكر وكرامة العلماء.

وبقدر ما كانت كلية الحقوق كلية إعداد كبار المحامين والقضاة والوزراء ورؤساء الوزراء، باختصار كلية الحكام، كانت كلية الآداب كلية الفكر والفنون التي تقود الحياة الثقافية والإبداعية، بعيدا عن سطوة الحكم وغواية السلطة، وبواسطة القلم الذي كانت تغوينا تقاليده في الكتابة، وتدفعنا إلى أن نمضي في الطريق نفسه الذي مضى فيه طه حسين وأحمد أمين وعثمان أمين وزكي نجيب محمود وسهير القلماوي وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) وأمينة السعيد ومحمود أمين العالم ومصطفى سويف وشوقي ضيف ولويس عوض ومحمد مندور وشكري عياد، ناهيك عن نجيب محفوظ وصلاح عبد الصبور وأمثالهما من المبدعين. ولذلك عرف أمثالي كلية الآداب الرمز والمعنى قبل أن يعرفوا الطريق إليها، فقد كنا نقرأ لأساتذتها في «الشعب» و«الجمهورية» وهما الجريدتان اللتان أنشأتهما الثورة، وسرعان ما توقفت الأولى وبقيت الثانية تتصدرها مقالات: طه حسين ولويس عوض وسهير القلماوي وعبد الحميد يونس وغيرهم، مقابل «الأخبار» التي كان يتصدرها العقاد بجوار سلامة موسى، في موازاة «الأهرام» التي أخذت تجذبنا بعد أن انتقل إليها لويس عوض، وأخذ ينشر في الملحق الأدبي الذي يشرف عليه روايات نجيب محفوظ وقصائد صلاح عبد الصبور وغيرهما من الذين كنا نزهو بهم بوصفهم أبناء كليتنا.

ويبدو أن زهونا كان يغيظ غيرنا من طلاب الكليات الأخرى، وبخاصة طلاب كلية الحقوق التي كان لها «كافيتريا» تشبه «الكافيتريا» الموجودة في دائرة كليتنا، فكانوا يتنابذون وإيانا حول أهمية كليتهم وأهمية كليتنا، كما كنا نناجزهم بالكلمات والمنظومات (الحلمنتيشية طبعا) في فضائل كليتنا ومفاخرها التي نزهو بها عليهم في حماسة الشباب الباكر الذي يخلط الجد بالهزل. وكانت ساحة المناجزة والمنابذة هي «كافيتريا» كليتنا نحن التي كان يأتيها الطلاب من كل كلية. وكانت تقع وراء مكتبة الجامعة التي عرفت منها طريق «الكافيتريا»، إذ كنت أتردد على الكافيتريا كلما شعرت بالجوع أو الإرهاق من كثرة القراءة، أو المذاكرة، فأترك الكتب مكانها على منضدة قاعة الدراسات الشرقية التي كانت تطل على الكافيتريا مباشرة، وتصلها أصواتها العالية، وأجلس مع أقراني من مختلف الأقطار العربية، نهزل ونجد، نأكل ونتناقش، ونتعارك حول قضايا كثيرة كانت - ولا تزال - تشغلنا وتؤرقنا، مطلقين العنان لأحلامنا في زمن قومي واعد بتحقيق كل الأماني والرغبات.

وكانت كافيتريا الآداب جامعة حرة مفتوحة موازية للجامعة الرسمية التي أنتسب إليها، تجمع بين طلاب الآداب الإنجليزية والفرنسية والعربية واللغات الشرقية والأوربية القديمة، وطلاب الفلسفة والاجتماع والتاريخ والمكتبات والجغرافيا، وتضم إلى هؤلاء خليطا يأتي إليها من الكليات الأخرى الحقوق والعلوم والتجارة ودار العلوم والزراعة، ناهيك عن الخريجين الذين لم يبعد بهم العهد فظلوا على علاقتهم بزملائهم وزميلاتهم، يأتون إلينا مزودين بأخبار الحياة العلمية والثقافية، ويلقون على أسماعنا بما كنا لا نعرفه من أخبار الحياة السياسية وصراعاتها، ويتطلعون إلى أوجه الفتيات في لهفة باحثين عن زوجة للمستقبل.

ولم يكن المزيج الغريب غير المتجانس من أصواتنا العالية يكشف عن تلهب أفئدتنا وتوقد مشاعرنا فحسب، بل كان يكشف بالقدر نفسه عن تنوع لهجاتنا العربية وأصولنا القطرية وانتماءاتنا الفكرية، فالنبرة السودانية موجودة في موازاة اللهجات العراقية والسورية والفلسطينية والأردنية والخليجية والمغربية والتونسية والليبية. ولأن المشاعر القومية كانت متوهجة في ذلك الزمان، خصوصا بعد سلسلة من الانتصارات القومية التي وصلت ذروتها في حرب السويس، وظلت واعدة بأحلام الوحدة والحرية والاشتراكية، كانت الحوارات تجمع ما بين البعثيين والناصريين والاشتراكيين والديموقراطيين والماركسيين في نقاشات صاخبة، تبعث عليها الأحداث القومية المتسارعة كل يوم، فقد كنا نحيا أيامها زمن الوعود التي بدت على وشك التحقق.

ولكن لم يكن النقاش سياسيا طوال الوقت، فقد كانت السياسة تختلط بالثقافة، والطموحات العلمية الكبيرة تتداخل مع أحلام الحب والزواج. وأذكر أننا كنا ندخل في الهزل من باب معايرتنا من أبناء الكليات الأخرى بأننا أبناء «كلية فاطمة»، وأننا لذلك أبناء الكلية التي تضم البنات الجميلات اللائي يأتي إليهن الطلاب من كل كلية أخرى ليتمتعوا بقربهن والحديث إليهن، وربما الصداقة فالخطبة فالزواج. وكنا نحن، أبناء كلية الآداب الجدد، نتلفت حولنا، فإذا بطلاب الكليات الأخرى يزاحموننا فعلا في الكافيتريا الخاصة بنا، ويسعون إلى الحديث مع بنات كليتنا اللاتي تصورنا أنفسنا أوصياء عليهن. وما أكثر المشاجرات والاشتباكات الكلامية التي كانت تحدث بسبب ذلك. وكنا ننتصر أحيانا، وننهزم أحيانا أخرى. لكن ظلت مسألة «كلية فاطمة» هذه تؤرقنا إلى أن عرفنا من هي «فاطمة» التي أصبح اسمها - بعد أن عرفناه - موضع فخر آخر بكليتنا العزيزة وأصبحنا نفخر بأنها كلية فاطمة!

طالب مشاكس

أعترف أنني كنت طالبا أميل إلى المشاكسة العلمية لأساتذتي، طوال سنواتي الجامعية الأولى. وأحسبني لم أترك هذا الميل إلا بعد أن انتقلت من مرحلة التلمذة الجامعية التي لا تنتهي إلى مرحلة الأستاذية التي هي - في واقع الأمر - نوع من التلمذة. ويبدو أن تراكم الخبرات مع تتابع السنوات تفضي بالمرء إلى إدراك أن العلم بحر لا نهاية له، وأنه لا يعطي بعضه لإنسان إلا إذا منحه هذا الإنسان نفسه وعقله ووجدانه بالكلية، وأن التبحر في العلم يقلل من حدة المشاكسة، بل يقضي عليها، ويستبدل برغبة الظهور أو الإعلان عن الذات أو التمرد على الأستاذ الذي يتخذ صورة الأب رغبة المضي وراء البحث، ومن ثَمَّ اغتفار الزلات، والنظر إلى الآراء المخالفة، أو حتى المتسرعة، بوصفها محاولات لها فائدتها في آخر الأمر. فخطأ المحاولة يقربنا من صوابها بأكثر من معنى، ولا يعرف أحد الأصوب إلا بعد أن يعرف نقيضه، بل بعد أن يعرف أن الأصوب نفسه ليس النهاية المطلقة، فدائما هناك الأصوب منه، إلى ما لا نهاية في طريق العلم التي هي طريق النسبية المعرفية.

ولكنني لم أعرف ذلك إلا بعد أن وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، أما قبل ذلك، وفي مرحلة الصبا الباكر، حيث سنوات التلمذة التي تظل من أحلى سنوات العمر، فإن المشاكسة تغدو قرينة الحيوية، ولازمة

مهمة من لوازم التمرد في هذا السن، التمرد على سلطة الأب، والتمرد على قيود العرف والتقاليد الجامدة، والتمرد على الآراء المحافظة في الأدب الذي تخصصنا فيه، والتمرد على هدوء الأساتذة الذين كنا نرى فيهم الوجه الآخر من آبائنا، كما كنا نرى في بعض آرائهم ما يدفعنا إلى الثورة عليها، ووضعها موضع المساءلة، أو على الأقل التنبيه العجول والحماسي على ما قد يبدو سهوا أو خطأ.

وأتصور أن بعض أساتذتنا الذين شجعوننا على هذه المشاكسة العلمية، ورأوا فيها وسيلة من وسائل تعبيرنا عن رغباتنا الحماسية في الاستزادة من العلم، كما نظروا إليها بوصفها تجاربنا الأولى في تعلم حرية النقاش ونقد الآخرين، أقول أتصور أن بعض أساتذتنا شقوا بنا رغم تشجيعهم لنا، وتحملوا سفاهتنا في حالات كثيرة، وكظموا غيظهم منا أملا في أن ندرك بأنفسنا الفارق بين المشاكسة الموجبة والمشاكسة السلبية التي هي مراء خالص ومراهقة فكرية لا طائل من ورائها. وقد مضت بنا السنوات وتحولنا من تلامذة إلى أساتذة، فأدركنا سماحة هؤلاء الأساتذة واتساع صدرهم عندما بدأنا نحن نعاني من طلابنا المشاكسين الذين كان علينا، ولا يزال من واجبنا، أن نتحملهم، وأن نقبل نقدهم برحابة صدر، استمرارا للتقاليد النبيلة التي تعلمناها، وتواصلا مع القاعدة التربوية التي تقول: إن التلميذ المشاكس تلميذ نبيه متميز، يعتد بنفسه على نحو يدفع به - لو أُحسن توجيهه - إلى التفوق العلمي. ومن طرائف المشاكسة التي لا أزال أذكرها إلى اليوم ما فعلته مع أستاذي شوقي ضيف، وكانت له مهابة خاصة بيننا، فقد كنا نراه وريث طه حسين في معرفة الأدب القديم. وكان

يتولى تدريس عصور هذا الأدب لنا على امتداد السنوات الثلاث الأولى في قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة. ووصلنا معه إلى السنة الثالثة، نخاف أن نناقشه، ونهاب أن نسأله، فلم يكن وجهه يعرف الابتسام مثل أستاذنا يوسف خليف تلميذه، رحمة الله عليهما، فقد كان الأقرب إلى قلوبنا بعذوبته واقترابه الحميم منا وحرصه على أن يجعل بيننا وبينه علاقة محبة ومودة باسمة. وكان شوقي ضيف على النقيض من ذلك، جهما جادا، يدخل المحاضرة من الدقيقة الأولى دون تأخير، وبمجرد دخوله يمضي في الكلام الذي يشبه الإملاء، وعلينا نحن أن نكتب ما يقول، وأن نستكمل ما يحتاج إلى توسع في المراجع والمصادر الموجودة بالقاعة الشرقية في مكتبة جامعة القاهرة العتيدة، وذلك قبل أن تخرب المكتبة وتنحدر إلى حال يرثى لها.

وتعودنا على جهامة شوقي ضيف، وكتمنا تمردنا على أنه لا يترك لنا مجالا للمناقشة، واكتفينا بأن نتناقش مع تلميذه يوسف خليف الذي كان يقرأ معنا مختارات من العصر الذي يقوم شوقي ضيف بتدريسه لنا. ولست أدري ما الذي دفعني في يوم من الأيام إلى التمرد على هذا الوضع، والخروج عن ما ألفناه من سكوت. وكان ذلك في محاضرة عن شعر المتنبي وعلاقته بالشعر العباسي بوجه عام. وتوقف شوقي ضيف عند قصيدة المتنبي التي مطلعها :

لياليَّ بعد الظَّاعِنِينَ شُكُولُ ... طَوالٌ وَليلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ

ومضى من المطلع إلى البيت :

لقيتَ بِدَرْبِ القُلَّةِ الفَجْرَ لَقيةً ... شَفَتْ كَمَدِي والليلُ فِيهِ قَتِيلُ

واندفعت قبل أن يكمل البيت اللاحق : خطأ يا أستاذنا، لابد من قراءة فعل اللقاء بضم التاء وليس فتحها كما تفعل. وسكت، ولم أكمل شيئا، بعد أن تخلصت على نحو مفاجئ من شيء انحبس في صدري، فاندفعت إلى قوله. وتوقف الأستاذ عن الكلام، وساد الفصل كله سكون عميق، وتطلعت أعين زملائي وزميلاتي إلى شخصي الأحمق الذي تجرأ على أن يقول ذلك للأستاذ الذي نخافه ونهابه، كما تطلعت العيون نفسها إلى الأستاذ الذي نظر إليَّ في اندهاش واستنكار لأني قاطعته، وبدت لي النظرة حادة في استنكارها، مقرونة بجملة : لماذا لا تفهم جيدا ما أقول؟ وحاول أن يشرح سبب فتحة تاء الفاعل، فاندفعت بتسرع الشباب قائلا: أنا أفهم ما تقول، ولكني لا أوافق عليه، فالمتحدث هو الشاعر الذي يشتكي من آلام الحب، ويقول أن انتصار سيف الدولة في هذا المكان، درب القلة، شفاه من آلام الحب، ولذلك ينبغي أن نقرأ البيت على أن لقيتُ أنا بدرب القلة، أما إذا قرأناه بالفتح، عودًا على سيف الدولة، ضاع المعنى الأساسي لحسن الانتقال. ويبدو أن لهجتي كانت حادة، ونبراتي متهدجة. ولعلي استخدمت كلمات حادة، الأمر الذي دفع الأستاذ إلى الصمت الذي أعقبه خروجه من المحاضرة احتجاجا على حمق تلميذه.

وما أن خرج الأستاذ حتى انهال عليَّ زملائي وزميلاتي لوما وتقريعا، واتهموني بالجنون، وأنذروني بالويلات والثبور، وبشرني الخبثاء منهم بأني لن أكون الأول في هذا العام كما تعودت في الأعوام السابقة. وتركوني أعود إلى بيتي حزينا مكتئبا متوقعا العقاب. ولم يطل وقت الانتظار، فقد

حلّت المحاضرة التالية بعد أيام، ودخل شوقي ضيف محملا بعدد كبير من المراجع، وبدأ المحاضرة بالثناء على التلميذ الذي يسعى إلى الخلاف مع أساتذته، ولكنه تلميذ متسرع يقرأ على سطر ويترك سطرا، والدليل في المراجع التي يحملها. ومضى الأستاذ في تبرير ما فعل، وتخطئة ما قلت بالمراجع. ولم أقتنع، وحاولت التعبير عن عدم اقتناعي بأدب وتهذيب قدر الإمكان. وانتهت المحاضرة كما بدأت دون اتفاق.

وكانت تلك البداية لعام دراسي لا أنساه، فقد أصبح من عادة شوقي ضيف في كل محاضرة بعد ذلك أن يسألني أصعب الأسئلة الممكنة، وكان عليَّ أن ألتهم دواوين الشعر العباسي ديوانا ديوانا، ومثلها المصادر القديمة والمراجع الحديثة، كي أكون مستعدا للامتحانات الصعبة التي أخذت تتكرر كل محاضرة. ولم ينته العام الدراسي إلا وكنت قرأت أضعاف أضعاف ما يقرأ الطالب الممتاز عادة، واستطعت مجاوزة الامتحانات الصعبة مع الأستاذ الذي ظلّ على جهامته في أسئلته الموجهة لي طوال الوقت.

وبدأت الامتحانات الشفوية. وكان أولها عن الأدب المصري. والممتحن شوقي ضيف نفسه مع المرحوم عبد العزيز الأهواني، رحمة الله عليهما. ودخلت الامتحان قلقا، خصوصا بعد أن بشرني من كانوا ينافسونني على الأولوية بالرسوب على يد شوقي ضيف. وأسلمت أمري إلى الله ودخلت إلى الامتحان. وجلست أمام الأستاذين. وإذا بوجه شوقي ضيف يفاجئني ببسمة حانية لم أرها من قبل، ويقول لزميله الأهواني: هذا

الطالب أحسن طلاب الدفعة، ولن أوجه إليه أي سؤال فأنا أعرفه جيدا بعد أن ظللت أسأله طوال العام. ولم يتركني الأهواني إلا بعد أن سألني أسئلة عديدة، ربما ليزداد تيقنا من أوصاف زميله. وخرجت من الامتحان أتنفس الصعداء، وأحبطت المنافسين لي بذكر ما جرى. وسرعان ما ظهرت نتائج آخر العام، بعد الامتحانات التحريرية، فإذا بي أحصل على أعلى درجة في الامتحان الشفهي، وأحصل على الدرجة النهائية في مادة الأدب العباسي التي قام بتصحيحها أستاذي شوقي ضيف. ومن يومها تعلمت درسا مهما من معاني الأستاذية الجامعية الأصيلة والجليلة.

الأستاذ الأب

لم يكن عبد العزيز الأهواني (1915 – 1980) في علاقتي به أستاذا أفيد من إنجازه العلمي، وأتعلم من منهجه الفكري، وإنما كان قبل ذلك وبعد ذلك أستاذا بالمعنى الذي يصل تقاليد الأستاذية بحنو الأبوة، فيعطف معنى الأب على معنى الأستاذ، ويؤسس رعاية الأستاذ لطلابه علميا وفكريا على رعايته الأبوية لأبنائه إنسانيا. ولذلك كان الأهواني متابعا لنا في كل أمورنا، حريصا على الاطمئنان على أحوالنا، غير متردد في نقاش مشكلاتنا وبحثها، كما لو كان يجد في طلابه وطالباته أبناءه وبناته الذين لم ينجبهم، والذين ظل يرعاهم كما لو كانوا أبناءه وبناته، فكان بيته مفتوحا لنا، لا يتردد في تعليم كل واحد منا ما ينقصه من أصول اللياقة الاجتماعية بما لا يجرح إحساس القرويين منا، أو يخدش كبرياء أبناء المدن الصغيرة من أمثالي. وظل يبذل لنا من عطفه ورعايته واهتمامه، بل ماله، ما نحتاج إليه، أو ما يرى هو أننا نحتاج إليه. ولي معه في هذا المجال حكاية لا يمكن أن أنساها ما حييت.

كان ذلك في السنة الأولى التي أصبحت فيها معيدا في قسم اللغة العربية، إذ حدث أن زارني والدي رحمة الله عليه، قادما من بلدتي المحلة الكبرى، فقد استيقظ ذات يوم مع صلاة الفجر، وبعد أن أكمل صلاته أعلن لوالدتي – رحمها الله – أنه يشتاق إلى زيارتي في القاهرة، وأصر على

السفر وحده، فاستدعوا له سيارة أجرة في الصباح الباكر حملته إلى القاهرة، حيث فوجئت به يوقظني من نومي، فقد كنت لا أنام إلا قرب الفجر بسبب عملي المتواصل في الإعداد لأطروحة الماچستير التي اخترت موضوعها. ورحَّبت فرحا بأبي الذي أسعدني بزيارته، وقضينا وقتا طويلا في الأحاديث التي تدور بين أب محب لابنه، وابن لا يحب أحدا حبه لأبيه، وظللنا على هذا الحال إلى أن شعر بتعب مفاجئ، ازداد وجهه بعده شحوبا، فصحبته على الفور إلى مستشفى قصر العيني، ملتمسا العون من صديق كان يعمل نائبا في المستشفى. ولم يقصر الصديق في اتخاذ اللازم، وإدخال أبي على الفور إلى إحدى حجرات المستشفى، وتقديم العلاج السريع له. لكنني لم أستطع إخفاء دهشتي من الاستعدادات الكثيرة التي كان زملاء صديقي من الأطباء يقومون بها، فأبديت قلقي لصديقي الذي طمأنني بأن ذلك كله على سبيل الاحتياط، وأن الحالة الصحية لأبي مطمئنة، وأنني يمكن أن أطمئن منه بنفسي. وبالفعل، طمأنني أبي على حالته، وظللت معه إلى أن أقبل الليل، وطلب مني الأطباء تركه ليستريح على أن أعود إليه في الصباح لاصطحابه معي إلى المنزل.

وعدت في الصباح، ولم أجد أبي في سريره الذي تركته عليه، بل لم أجده في الغرفة كلها، وسألت عنه الممرضة التي قادتني إلى الطبيب المسؤول الذي أخبرني بوفاة أبي قبيل الفجر، وعزَّاني داعيا لي بالصبر والسلوان. وطلب مني الطبيب القيام بالإجراءات اللازمة في مثل هذا الموقف : الذهاب إلى مكتب الصحة لاستخراج شهادة وفاة، الاتفاق مع حانوتي للغسل والدفن، تأجير عربة لحمل جثمان أبي العزيز إلى بلدتي في المحلة. وظللت مذهولا أستمع إلى كلام الطبيب الذي ذكر لي كل ما

ينبغي عمله، متعاطفا مع حالتي النفسية بفعل الصدمة التي تركتني مذهولا من شدة تأثيرها.

وتركت الطبيب والمستشفى إلى شارع قصر العيني، حيث كانت توجد محلات الحانوتية، في مواجهة المبنى القديم للمستشفى آنذاك. ودخلت المحل الأول الذي وجدته أمامي، وأخبرت صاحبه بعبارات متلعثمة مرتجفة ما أنا فيه، فعزّاني الرجل، وقال إنه سينهض بكل الإجراءات المطلوبة، ما عدا استخراج شهادة الوفاة، وسيحمل الجثمان مكفنا في أغلى كفن في عربة إلى مدينتنا مقابل ثلاثين جنيها. ولم أستطع أن أعلن شيئا سوى موافقتي، غير منتبه أنه ليس في جيبي سوى عشرات معدودة من القروش، وخرجت من المحل لأذهب إلى مكتب الصحة الذي وصفه لي الرجل.

وسرت كالمذهول المصعوق الذي لا يعي شيئا من أمره، ولم أنتبه إلا على صوت عبد العزيز الأهواني الذي تصادف مروره بسيارته في الشارع، فرآني أسير في وضع غير طبيعي، فتوقف، وظل يصيح باسمي إلى أن انتبهت، ففتح باب السيارة لأدخل وأجلس بجانبه، ففعلت، وجلست إلى جانبه لأنفجر في البكاء الذي ظل مكتوما، واحتضنني الرجل كما يفعل الأب الحاني بابنه، وظل يربت على كتفي إلى أن هدأت، وقصصت عليه كل شيء، فعاود الربت على كتفي، قائلا لي: تأمل المسألة كلها فلسفيا، فنحن كلنا لابد أن ننتهي هذه النهاية. ولا أذكر ما قاله بعد ذلك، فما أذكره جيدا أنه أوقف السيارة إلى جانب الرصيف، وأعادني إلى المحل الذي خرجت منه ودفع إلى الحانوتي المبلغ الذي طلبه، آمرا إياه أن يبدأ على الفور في أداء

مهمته. وأعادني إلى السيارة، وانطلق إلى الجامعة، ودخلنا إلى قسم اللغة العربية، حيث وجد زميلين، مات أولهما فيما بعد، هو نعمان القاضي عليه رحمة الله، ومدَّ الله في عمر ثانيهما أحمد مرسي، وقصَّ عليهما الخبر، وكلَّف كل واحد منهما بفعل بعض المطلوب من المهام العاجلة في هذه الأحوال، فذهب النعمان لاستخراج شهادة الوفاة، وصحبني أحمد لكي أهاتف أسرتنا الموزعة ما بين المحلة الكبرى والإسكندرية لإعداد العدة لجنازة أبي. ولم يتركني الأهواني إلا بعد أن تم كل شيء، وركبت العربة مصحوبا بزميلي النعمان القاضي، وانطلقنا إلى بلدتنا التي قابلتنا الأسرة على مشارفها، وتولى الأهل إكمال المهمة الحزينة، تاركين لي الحزن والدهشة والصدمة.

ومضت أيام العزاء في البلدة بتقاليدها المعتادة، وتمالكت نفسي بمضي الوقت، وعدت إلى عملي في كلية الآداب، واستقبلني الأهواني حانيا، حريصا على تقصّي كل شيء يطمئنه على أحوالي، ولم يتركني إلا بعد أن أخبرته بكل ما يريحه. وخجلت أن أخبره بأنني أحمل معي من البلدة النقود التي دفعها نيابة عني، فقد كان في نبرات صوته ما يدفعني إلى تجنب الإشارة إلى النقود تماما. ومضت أيام، استجمعت فيها شجاعتي، وطلبت من صديقي وزميلي أحمد مرسي أن يذهب معي إلى بيت الأهواني، كي يشجعني ويؤازرني في أن أردّ له نقوده التي يدينني بها. وبالفعل، ذهبنا إلى بيت أستاذنا الذي استقبلنا باشّا كعادته، سائلا عن أحوالنا، مستخدما كلمة «يا مولانا» التي كان ينادي كل واحد منا بها، وبعد فراغ المقدمات المعتادة في الكلام، استجمعت شجاعتي وأخبرته بأنني جئت كي أردَّ له نقوده، وأشكره على ما فعل معي، فقد كان نعم الأب. وإذا بوجه الرجل يربد،

ويظهر عليه غضب لم أره من قبل، وارتفعت نبرات صوته، وهو يسألني في مرارة : وهل يسترد الأب نقودا من ابنه؟ ضع هذه النقود في جيبك، ولا تحدّثني عنها أبدًا، وإلا لن تكون ابنا لي بحال من الأحوال.

ولم أملك إزاء غضبه سوى أن أعيد النقود إلى جيبي، معبّرا عن توتري بدمعة سقطت من عيني، فتجاهلها، وانتقل بالكلام إلى موضوع آخر، ثم إلى موضوعات أخرجتني من الحالة التي تركتني فيها غضبه الحزين، وشيئا فشيئا.اختفى توتّري وعدت إلى حال الابن الذي يجلس في حضرة أبيه الحاني.

وظلت علاقتي بالأهواني علاقة الابن التلميذ بأبيه الأستاذ الذي لم يكن يتردد في فعل كل ما يراه في صالح ابنه التلميذ. ولذلك ذهبت إلى الولايات المتحدة أستاذا زائرا سنة كاملة سنة 1977، تاركا زوجتي وابنتي التي كانت تحبو في رعاية الأستاذ الأب الذي ظل يزورهما بانتظام، ليطمئن على أحوال الأسرة، ويلاعب ابنتي التي أنزلها منزلة حفيدته، طوال أشهر غيابي التي انتهت بالمزيد من العرفان له في النهاية، العرفان الذي لا يمكن أن يمحوه الزمن من أعماقي ما حييت، فما أدين به للأهواني الأستاذ الأب أكثر من أن تمحوه السنوات التي مضت على وفاته (1980) قرابة ثلاثين سنة.

يوم من عمري

لماذا يبقى لزمن الستينيات سحره في الذاكرة؟! .. هل لأنه يرتبط بزهرة العمر من سنوات الشباب الممتلئة بالوعود والأحلام الفردية، أم لأنه يرتبط بصحوة المشروع القومي في صعوده الذي قطعته هزيمة العام السابع والستين؟!. المؤكد أن الأمرين معا سبب من أسباب التوهج المتصل لترابطات الستينيات في الذاكرة. لكنني أضيف إلى هذا السبب ارتباط الستينيات بسنوات التكوين الحاسمة التي لا تزال بصماتها باقية في الوعي، تصنع بعض مساراته التي أصبحت بعض ملامحه. هذه السنوات جمعت الأحلام الفردية والقومية، وجعلت من الأحلام الفردية وجها آخر من الأحلام القومية، كما أسقطت الفردي من الأماني على القومي من الوعود في التطلع إلى العهد القادم بالنجمين الوضاءين على الكفين: الحرية والعدل.

أذكر، الآن، يوما من أيام هذه الستينيات الجميلة، حدثت وقائعه الفردية في بداية خريف سنة 1964. وكان يوما من أيام التكوين الثقافي الذي يندر تكراره في هذا الزمان. ذهبت إلى كلية الآداب كعادتي كل صباح، قاطعا الطريق سيرا على الأقدام من الجيزة إلى جامعة القاهرة. وبعد أن انتهت المحاضرة الصباحية، أخبرني بعض الزملاء أن مكافأة التفوق قد وصلت عند الصراف الذي تجمعت لديه مكافأة ثلاثة أشهر. وذهبت إلى الصراف

وحصلت على المكافأة التي فرحت بها، والتي كانت مبلغا لا يستهان به بالقياس إلى أسعار ذلك الزمان. ولم أطق البقاء في الكلية ومعي كل هذا الكم من المال (ما يقرب من ثلاثين جنيها!) فقررت الذهاب إلى وسط المدينة كي أستمتع بإنفاق جنيهات التفوق بالطريقة المثلى التي لا أعرف غيرها إلى اليوم، وهي شراء ما أشتهيه من كتب ومشاهدة ما أحبه من إبداعات فنية.

وبعد أن اشتريت ما شفى غليلي من كتب مكتبات وسط البلد، وسرت محملا بحقيبتين مزدحمتين بالكتب، مزهوا بهما كأنني أمتلك الكثير من كنوز الأرض، مررت على سينما ميامي التي تقع قريبة من حي المكتبات، في شارع سليمان باشا بالقرب من ميدان التحرير، وقرأت الإعلان الذي يتصدر واجهتها عن فيلم «الطريق» المأخوذ من رواية نجيب محفوظ. وكان من إخراج حسام الدين مصطفى وبطولة شادية ورشدي أباظة. وقررت دخول الفيلم على الفور، فمن ذا الذي كان يمكن أن يقاوم رغبة مشاهدة فيلم مأخوذ عن رواية نجيب محفوظ؟! ومن ذا الذي كان يرفض متابعة بحث صابر سيد الرحيمي عن الأب الذي كان العثور عليه يعني العثور على السلام والأمن والكرامة ويقين الإيمان؟! وانتظرت في الكافتيريا المواجهة للسينما إلى أن يحين موعد العرض الثاني. ودخلت الفيلم الذي لم يعجبني للأسف، بسبب جهل المخرج بطبيعة رواية «الطريق» الرمزية، وعدم إدراكه لأبعادها الميتافيزيقية والروحية الثرية، فانقلبت الرواية العميقة إلى فيلم بوليسي مسطح، مشحون بتوابل الجنس والمغامرات والمطاردات. وكانت النتيجة ضياع معنى صابر سيد الرحيمي ولم يبق سوى جسد «كريمة» وجريمة «صابر» وبراعة الشرطة التي تقبض على المجرم في النهاية.

وأذكر أنني قطعت الطريق من سينما ميامي إلى ميدان سليمان باشا لا أفكر في شيء إلا في فشل المخرج والثورة عليه. ويبدو أن ذلك كان السبب في انحرافي قليلا والتوجه إلى شارع قصر النيل بدلا من مواصلة الطريق في شارع سليمان باشا إلى ميدان التحرير. وكان ذلك من حسن حظي، فقد مررت على سينما قصر النيل، وكان يتصدر واجهتها إعلان عن فيلم مأخوذ من رواية للكاتب اليوناني العالمي الشهير نيكوس كازنتازاكس (1885 - 1957). وكانت الرواية «المسيح يعاد صلبه من جديد». ولم أقاوم رغبة الدخول، خصوصا بعد أن وجدت على قائمة الأبطال إيرينا باباز وأنتوني كوين. ولحسن الحظ، كانت الساعة لم تجاوز السادسة مساء، والعرض على وشك البداية، فدخلت فورا، وجلست معلق العينين بالشاشة السحرية، غارقا في بهجة الفن التي قادني إليها ذلك الفيلم الذي ما زلت أذكر الكثير من تفاصيله إلى اليوم. وأحسب أن ذلك كان أول عهدي بمعرفة كازنتازاكس والبحث عن أعماله، ومنها الرواية التي أخذ عنها الفيلم، ولم تكن قد ترجمت في ذلك الزمان، ولكنها ترجمت بعد ذلك، إلى جانب أعمال كثيرة للكاتب اليوناني المبدع الذي كان طه حسين أول من قدم أعماله إلى اللغة العربية عندما عرض روايته الشهيرة «الحرية والموت» في مقال بعنوان : «الكابتن مخالي». والمؤكد أنني لم أنتبه إلى ذلك إلا فيما بعد، حين أعدت قراءة طه حسين في سنوات النضج لأكتشف الأبعاد المذهلة لريادته في مجالات لا تخطر على البال.

الغريب في الأمر أنني لا أذكر إلى اليوم اسم مخرج ذلك الفيلم الذي فتح لي أبواب معرفة كازنتازاكس. المؤكد أنه لم يكن المخرج اليوناني ميخائيل كاكويانس الذي أخرج للكاتب نفسه روايته «زوربا» سنة 1964.

وهي الرواية التي لم نشاهدها إلا في العام اللاحق، خصوصا بعد أن أحدث نجاحها دويا عالميا، وحصل بها أنتوني كوين على جائزة التمثيل لأدائه دور زوربا، وكانت تشاركه البطولة النسائية إيرين باباز كذلك، وحصل كاكويانس على جائزة أفضل مخرج وأفضل إعداد سيناريو، بينما حصلت الممثلة ليلا كيدوروفا على جائزة أفضل ممثلة مساعدة. وأظن أن الموسيقار اليوناني الشهير تيوديراكس حصل هو الآخر على جائزة عن موسيقى الفيلم التي لا تزال ترن في آذاننا، خصوصا أنغام الرقصة الشهيرة لزوربا البطل الذي اتحدنا به في أثناء كل عرض شاهدناه لذلك الفيلم. ولكن كل ذلك جاء في وقت لاحق.

المهم أنني خرجت من سينما قصر النيل مبهورا بأداء أنتوني كوين، ومسحورا بعمق إدراك المخرج للمعاني الدينية والروحية لرواية كازنتازاكس. وهي معان لا تخلو من مغزى اجتماعي لم يخطئه فهمي في ذلك الوقت. وبالطبع، لم أستطع سوى المقارنة بين عمق المعالجة والرؤية والتفسير لرواية «المسيح يعاد صلبه من جديد» وسطحية إخراج رواية «الطريق» وإضاعة معانيها الروحية والدينية - بل حتى الاجتماعية - وتحويلها إلى فيلم ساذج من أفلام «الأكشن» أو المغامرات البوليسية السطحية. ولكنني سرعان ما نسيت حسام الدين مصطفى، والهمسات المثيرة لشادية، والصرخات المجانية الدون كيشوتية لرشدي أباظة، وحل محلها الحوار الفلسفي العميق الذي يستعيد معنى التضحية وضرورة تجدد افتداء العالم، فضلا عن الأداء الساحر لأنتوني كوين الذي ملك القلوب طويلا.

وأكملت الطريق إلى ميدان التحرير سعيدا، فرحا، فقد شاهدت فيلمين، أحدهما رائع، واشتريت ما أريد من كتب، وبعثرت أغلب ما أملك من جنيهات، فماذا أريد بعد ذلك؟. ولكنني أصطدم - قبل أن أصل إلى محطة الأتوبيس - بزميل لي من الكلية، هو حسن توفيق الشاعر الذي كان رفيق سنوات الدراسة في قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، وكان أسبقنا إلى معرفة صلاح عبد الصبور شعريا وشخصيا. ولم يتركني زميلي حسن توفيق أعود إلى غرفتي الصغيرة في الجيزة، فقد كانت الساعة جاوزت التاسعة مساء بقليل، وظلّ يلح عليّ أن أصحبه، ويقنعني بأهمية الذهاب إلى الجمعية الأدبية المصرية، وكان مقرها في شارع قولة بحي عابدين في ذلك الزمان. وأغراني على مصاحبته بإبلاغي أن صلاح عبد الصبور سيقرأ على أصدقائه في الجمعية ما أنهى كتابته من محاولته في كتابة مسرحية شعرية للمرة الأولى. ولم أستطع المقاومة طويلا، وقبلت الذهاب مع حسن توفيق إلى الجمعية الأدبية، لكن بعد أن اشترطت عليه أن يحمل إحدى حقيبتي الكتب اللتين تحولتا إلى حمل ثقيل. ومضينا معا، والليل يتمدد في القاهرة العجوز، حانيا كالنسمة اللينة التي صاحبتنا طوال الطريق.

وكانت صالة الجمعية الأدبية المستطيلة، الضيقة، مزدحمة. يتقدم الحضور: أحمد كمال زكي وعبد الرحمن فهمي وفاروق خورشيد وعز الدين إسماعيل وعبد القادر القط وعوني عبد الرءوف وعبد الغفار مكاوي وحسين نصار وشكري عياد ومحمد النويهي، وغيرهم كثيرون. وجاء صلاح عبد الصبور مصطحبا بهاء طاهر الذي كان يعد النص المسرحي الذي يكتبه صلاح للإذاعة، وكان بهاء يعمل في إذاعة البرنامج الثاني في ذلك الوقت. وبعد تقديم قصير أخذ صلاح عبد الصبور يقرأ القسم الأول

المخطوط من مسرحيته «مأساة الحلاج». بدأ صوته خافتا في البداية، مثقلا بغموض السؤال عن الشيخ المصلوب في المشهد الأول، وأخذ صوته يعلو شيئا فشيئا حتى وصل إلى المشهد الثاني، حيث الحلاج يرد على صديقه الشبلي الذي سأله: ماذا يفعل لو خذله أحبابه من وجوه الأمة الذين وعدوه خيرا لو ملكوا الأمر؟

وظل صلاح عبد الصبور يقرأ ونحن نستمع، يسخو صوته بالأداء فتندى العروق وتزهر الروح، وندخل جميعا في طقس الحلاج الذي لا يملك إلا أن يصرخ : الشر استولى في ملكوت الله. هل كانت هذه الصرخة نذيرا وحدسا بكارثة آتية لا تبقي على شيء؟! لم أطرح على نفسي ذلك السؤال، فما كنت أتخيل أنه بعد أقل من أعوام ثلاثة ستحدث هزيمة العام السابع والستين نتيجة الشر الذي استولى في ملكوت الوطن الجمر. كل ما أذكره أنني خرجت من الجمعية الأدبية المصرية وحيدا، وقطعت الطريق كله من عابدين إلى الجيزة سيرا على الأقدام، دون أن أشعر بثقل الكيسين المحملين بالكتب، ناسيا الفرحة بهما، وأنا أسترجع كلمات صلاح عبد الصبور التي كانت لسبب خفي تتجاوب مع كلمات كازنتازاكس في رواية «المسيح يعاد صلبه من جديد». ومضيت، طوال الطريق، أحاول الإجابة، بيني وبين نفسي، عن سؤال الحلاج : بَرَأَ الله الدنيا إحكاما ونظاما، فلماذا اضطربت واختل الإحكام؟!

الأستاذية الحقة

عندما كنت طالبا في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة، كانت تقاليد طه حسين الليبرالية لا تزال سائدة، ولذلك كان أغلب أساتذتي وأكثرهم شهرة في الحياة الثقافية، يعلموننا حق الاختلاف، ويزرعون فينا روح الاستقلال الفكري حتى عنهم. وأحسبني تعلمت مبدأ المساءلة من العقلانيين فيهم، خصوصا من عبد العزيز الأهواني الذي اقتربت منه منذ تخرجي، وأصبحت من حوارييه. وكان له طريقة سقراطية في وضع كل فكرة ورأي موضع المساءلة. ولا أنسى أنه فعل ذلك معي على وجه الخصوص، وأنا أطرح عليه اجتهاداتي، وأحيانا تخريفاتي، فكان يستمع إليَّ في صبر، مشجعا إياي على الانطلاق، فإذا فرغت من عرض، أو طرح ما في جعبتي، يبدأ في الكلام بعد وقت من التأمل، ثم يأخذ معي في اختبار اجتهاداتي، أو حتى تخريفاتي منطقيا، دون أن يبدو عليه أنه يقصد تفنيدها، وتتتابع أسئلته التي كان يبدو معها كأنه يعيد معي التفكير فيما توصلت إليه، وتوجّهني أسئلته في عفوية إلى الإجابة التي تجعلني أرى وجه الإيجاب أو وجه السلب، فيما توصّلت إليه. وأحيانا، كان يساعدني على الإجابة بقوله : كأنك تقصد كذا كذا، ويقول كلاما ربما لم أقصد إليه، ولكنه كان كلاما يصلح المعوجّ في منهج ما عرضت عليه، كاشفا عن مدى اتساقه منهجيا، أو تجانسه منطقيا. وما أكثر ما كنت أتركه وأنا فرح بما توصلت إليه عن طريقه، وما

تكمل به أسئلته سلامة ما عرضت عليه، أو عدم السلامة في أحوال كثيرة. ومنه، رحمه الله، تعلمت اختبار سلامة الأطروحات في مراحلها الأولى، قبل أن أمضي، تفصيليا، في البناء عليها أو السير في إطارها.

ولا أزال أذكر جيدا يوم أن كنت متأثرا بالبنيوية، وذهبت إليه أعرض عليه أطروحة كتاب عن نقد طه حسين. وكنت لاحظت أن كلمة «مرآة» تتكرر كثيرا في كتابات طه حسين، سواء في عناوين الكتب، مثل «مرآة الإسلام» و«مرآة الضمير الحديث»، أو في سياقات الكتابة في كل المجالات، وذهبت إليه مختبرا أطروحتي الأساسية عن أنني يمكن أن أعيد بناء هذا الفكر بواسطة «المرآة» بوصفها عنصرا تكوينيا دالا، فسألني : وكيف تفعل هذا؟ أجبته بقولي : سوف أقوم بجمع كل الجمل التي ترد فيها كلمة «المرآة» أو يجري التشبيه بها، ثم أصنّف ما قمت بحصره واستقصائه، وأعيد ترتيبه في مجالات دلالية محدودة، وبذلك تتكوَّن لديَّ العناصر التكوينية لفكر طه حسين. وظللت أضرب له أمثلة عديدة، وظل هو صامتا إلى أن أفرغت ما عندي وهدأت حماستي المنفعلة، وجلس صامتا، متأملا ما قلت كعادته، وأنا أنتظر كلماته على أحر من الجمر. ويبدو أنه لاحظ قلقي، فقال : الفكرة تبدو براقة للوهلة الأولى، وقبل أن أنطق بشيء آخر، أردف جملته الأولى بقوله : ولكن الفكرة البراقة لا معنى لها دون اختبارها على كتب طه حسين التي يجب أن تختار عينة منها، وتقرأها على السمع، فأجبته : وما رأيك في أن نختار «حديث الأربعاء» بأجزائه الثلاثة، فالأول نشر في الثلاثينيات بعد عودة طه حسين إلى الجامعة التي طرد منها، وظل خارجها لسنوات ثلاث تقريبا إلى أن سقطت وزارة صدقي، وجاءت وزارة نسيم الذي أعاد

طه حسين إلى الجامعة، عزيزا مكرما، بعد أن استحق لقب «عميد الأدب العربي» بعد لقبه السابق «عميد كلية الآداب». أما الجزء الثاني الذي يضم مقالات عن شعراء العصر العباسي، فقد كتب في العشرينيات، في السياق الذي أدى إلى ظهور كتاب «في الشعر الجاهلي» سنة 1926. الذي أقام الدنيا ولم يقعدها. أما الثالث والأخير فمقالات عن العصر الحديث كتبها في الأربعينيات. وهذا يعني أن الكتاب بأجزائه الثلاثة تمثيل دقيق لمراحل طه حسين المختلفة عبر عقود ثلاثة. فابتسم رحمه الله، ونظر إليَّ نظرة يمتزج فيها حنان الأب بجدية الأستاذ الحريص على أن يستكمل تلميذه الاجتهاد دون وصاية منه عليه. وقال لي : هذا اختيار جيد، وعليك أن تأتيني ثلاث مرات في الأسبوع تقرأ عليَّ فيها مجلدات «حديث الأربعاء» كي نرى سلامة ما تذهب إليه.

وظللت أذهب إليه ثلاث مرات في الأسبوع، وهو يستمع في صبر وهدوء إلى صوتي، وأنا أقرأ عليه مجلدات «حديث الأربعاء» صفحة صفحة، وكانت كلما وردت كلمة المرآة يصدر صوتا لنفسه، كما لو كان يحسب مرات ورودها ودلالتها في كل موضع. ولم أتخلف عنه يوما من الأيام الثلاثة، ولم يعتذر هو في أي يوم بمشاغل طارئة، فقد تفرغ لي تماما، وواصل الاستماع والتأمل إلى أن فرغت من المجلد الثالث. وعندئذٍ، فاجأني بأنه راجع ما عنده من كتب طه حسين الأخرى وعرضها على ما كان يتجمع في ذهنه في أثناء قراءتي عليه. وصمت متأملا كعادته، لكن لم يطل صمته، إذ وجدته يبادرني بالقول بأنه أصبح مقتنعا بالفكرة، ويبقى عليَّ العمل على تنفيذها. هكذا، بدأت العمل في كتاب «المرايا المتجاورة»

الذي نال جوائز عديدة، ولا يزال أكثر كتبي مكانة في وجداني، خصوصا لأنه كان يذكرني بالأستاذ النموذج الذي تعلمت منه معنى الأستاذية الحقة، في حرصها على النمو الفكري للتلميذ، ذاتيا، دون وصاية من الأستاذ، أو فرض آرائه على تلميذه أو تلامذته كي يكون صورة منه. وكان هذا دأب الأهواني مع تلامذته الذين اقتربوا منه، ودخلوا معه في مضمار الفكر الذي كان يترك لهم حرية الحركة.

وكان هذا شأن سهير القلماوي التي سمحت لبعض طلابها، مثل عبد المنعم تليمة، أن يستخدموا منهج النقد الأدبي الماركسي في صياغة أطروحة الدكتوراه، على الرغم من أنها كانت على النقيض تماما من الفكر الماركسي، خصوصا من منظورها الليبرالي الفكري. ويظهر أنها لم تكن موافقة على بعض ما ذهبتُ إليه في أطروحة الدكتوراه إلى أن فرغت منها تماما، وجاء يوم المناقشة العلنية، وأخذ أحد المناقشين يلومني على المواضع التي سبق عدم موافقتها عليها، فإذا بها، عكس ما توقعت، تدافع عني، وتبرز الوجاهة فيما ذهبت إليه، ولم تقل، قط، مثلما يفعل أساتذة هذا الزمان أنها سبق لها أن نبهتني إلى عدم موافقتها على المواضع نفسها التي اعترض عليها الأستاذ. رحمها الله، فما أكثر ما كانت تقبل اختلاف تلامذتها عنها أو معها، وذلك حرصا على استقلالهم الفكري من ناحية، وعدم وقوعهم في شراك اتِّباعها هي، أو اتِّباع غيرها من الأساتذة الذين كان أغلبهم لحسن الحظ مؤمنا بضرورة الاستقلال الفكري للطالب الذي لا يكتمل نضجه إلا بأن يضيف إضافة كيفية خلاقة إلى أساتذته، حتى لو بدأ بالخلاف معهم أو عنهم، أو على نحو ما شاع قوله بعد ذلك: تأسيس انقطاع معرفي عنهم.

وقد صنع معي الصنيع نفسه أستاذي يوسف خليف الذي كان يقرأ معنا أدب الصعاليك وقصائدهم. وأذكر أنه أشار ذات مرة إلى تائية تأبط شرا، وقرأت أنا التائية، وبدا لي من لغتها البدوية أنها جاهلية، وليست منحولة من صنع حماد الراوية فيما أظن أن أستاذي يوسف خليف، رحمه الله، قد ذكره. وذهبت إليه بعد الدرس قائلا : إنني لم أقتنع بما ذهب إليه، وأظن أن القصيدة جاهلية، وأنني أريد أن أثبت ذلك، فهشّ لي، وفرح بي، وقال : ونعم ما تفعل. وأمضيت أسبوعا في المكتبة، وفرّغت مما ظننته، في ذلك الوقت البعيد، وجهة نظري، وذهبت به إلى أستاذي الذي فرح به، وطلب مني أن أقرأه على زملائي في الفصل، في محاضرته القادمة. وجاءت المحاضرة، وقرأت ما كتبت. وما أجمل تعقيبه الذي لا أزال أذكر أن الخلاف في مثل هذه الأمور في الشعر الجاهلي على وجه الخصوص أمر طبيعي، ما ظللنا لا نملك مقاييس في دقة مقاييس العلوم الطبيعية لنحكم بها في الأمور التاريخية الإشكالية. ولم يقل الرجل، قط، إنني اندفعت مع حماسة الصبا، فاجتهدت اجتهادا خاطئا، بل ترك الباب مفتوحا، وعلمني درسا منهجيا ما أكثر ما علمته للأجيال المتعاقبة من تلامذتي، قبل أن يحول العمل العام بيني والتدريس في الجامعة، وهو أحب الأشياء إلى قلبي حتى اليوم. وقد فعل عبد الحميد يونس، رحمه الله، ما فعله يوسف خليف، رحمه الله، في السنة الأولى وكان ذلك في السنة الثانية من الجامعة، وكان يقوم بتدريس البلاغة لنا، معتمدا على كتاب «الإيضاح» للخطيب القزويني، وأذكر أنني اختلفت معه في نقطة من النقاط التي تحتاج إلى مزيد من الوضوح، فقال لي : ولماذا لا تذهب إلى المكتبة خلال بقية الأسبوع، وتقوم بتوضيح ما

تريد؟ وذهبت إلى المكتبة وانكببت على المصادر والمراجع إلى أن كتبت عـددا من الأوراق، فذهبت إليه بها، ولكنه لـم يأخذها، بل قال لي : اقرأها علينا في الدرس، وسأستمع إليها. وكان الأمر كما قال، رحمه الله، وعندما أكملت ما كتبت أثنى الرجل على الجهد. وانتقل من الثناء السريع إلى بقية الـدرس، معلما إياي المسـؤولية التـي تفرض على صاحبهـا أن يرتفع إلى مستوى اختلافـه، خصوصا مع أسـاتذته، والمسـؤولية التـي تفرض على الأسـتاذ أن يحتـرم اجتهـاد تلامذته وعقولهـم، ويعمل علـى تنميتها ذاتيا، وتربيـة الوعي النقدي والنقضي عندهم، حتى لو أصبح هو موضعا لنقدهم أو نقضهم، فلا شيء مقدس في العلم، ولا قيمة لفكرة أو معلومة أو نظرية إلا إذا خضعـت للمسـاءلة، وثبتـت سـلامتها بالمنطـق والحجـة، وابتـداء الأسـتاذ بنفسـه لتكون أفكاره وأطروحاته موضوعا لمساءلتهم هو ألف باء المنهج والتعليم السليم الذي تمارسه الأستاذية الحقة.

وبقدر ما كنت أعرف أن أساتذتي هؤلاء، خصوصا، عبد العزيز الأهواني تعلموا روح العقلانية الصارمة والمرنة في آن، فقد علموني، بدورهم، ما تعلموه، وأورثوني ما ورثوه، فأدركت بفضلهم ما لا أكف عن قوله لتلامذتي من ضرورة وضع كل شيء موضع المساءلة، وإنه بما أن ذات الباحث الأدبي هي جزء من الموضوع المدروس، فإن على هذه الذات أن تضع نفسها موضع المساءلة نفسها في الوقت الذي تسائل غيرها (أو موضوعها). وهذه القاعدة الأولى تفضي إلى غيرها، خصوصا دعم الوعي النقدي الذي يمكن، إن لزم الأمر، أن يتحول إلى وعي نقضي، فما أكثر ما تنحرف الذات الباحثة أو تضل السبيل، إذا لم يردها وعيها الذاتي

إلى سواء السبيل بوضعها هي نفسها موضع المساءلة في الوقت الذي تسائل غيرها.

ويعني ذلك بكلمات أخرى أن علينا أن نبدأ من حيث انتهى أساتذتنا، ونضيف إليهم كيفيا بما هو محسوب علينا لا عليهم، أي أن التلمذة الحقة، في علاقتها بالأستاذية الحقة تقوم على اتصال وانقطاع : اتصال يتمثل في روح التقاليد التي تجعل طه حسين وتلامذته بعض تكويني ونقطة ابتدائي التي لا تزال ماثلة في الوعي واللا وعي مني، وتجعل ما أنجزته، بفضل ابتدائهم، محسوبا عليَّ حتى لو كان فيه ما يختلف معهم أو عنهم. وسواء أطلقنا على هذا الاختلاف اسم «الانقطاع المعرفي» أو غيره من رطان المصطلح الحداثي أو ما بعد الحداثي، فإن هذا الانقطاع لا يقوم إلا بالاتصال، ولا يتحقق إلا بكماله، فكل اتصال أو تواصل خلاق، مع الأستاذ الخلاق، يؤدي إلى انقطاع خلاق هو طرف في صنعه، وهو، دون أن يدري أو يدري تلميذه، بعض منه، وذلك في فعل الديمومة الدائرية الخلاقة، القائمة على نقد العقل لنفسه، في أثناء نقده لمن تعلم عليه أو منه، في مدى العلوم الإنسانية التي لا تتجدد إلا بالحركة المزدوجة للوعي النقدي الذي يضع نفسه وموضوعه موضع المساءلة في آن.

ذكريات طه حسين

عرفت كتب طه حسين منذ أن تفتح وعيي على القراءة. وكان لكتابه «الأيام» تأثير السحر في وجداني منذ مطالع الصبا، فقد شدني هذا الكتاب إلى طه حسين - عميد الأدب العربي - فقررت أن أكون مثله، وأخذت منذ ذلك الزمن البعيد ألتهم كتبه واحدا بعد الآخر، جامعا بين تراثه الإبداعي ودراساته الفكرية والأدبية. وكان طه حسين ملء السمع والبصر في ذلك الوقت، فهو الذي حقق حلم مجانية التعليم التي أدخلت أمثالي من الفقراء إلى المدارس الحكومية، وهو الأستاذ الجامعي الذي يتشرف كل من تتلمذ عليه بالانتساب إليه، وكاتب المقالات الجسورة في جرائد ثورة يوليو 1952. وقد ظل محاربا صلبا، لا يكف عن دفاعه الحماسي عن العقلانية والعلم والاستنارة وأفكار التقدم بوجه عام في مواجهة رموز التخلف التي ورثتها الثقافة المصرية والعربية من عصور الانحدار. ولذلك اخترت القسم الأدبي في المرحلة الثانوية، فقد كان أول الطريق إلى جامعة طه حسين والقسم الذي يرأسه في كلية الآداب. ولما لم أجد تخصص اللغة العربية في القسم الأدبي، اخترت دراسة التاريخ الذي لم يكن بعيدا عن طه حسين الذي قرأت له مجلدات: «على هامش السيرة» و«الفتنة الكبرى» و«مــرآة الإســلام» و«قادة الفكر».

وما إن حصلت على الثانوية العامة حتى ذهبت إلى القاهرة، حيث جامعة القاهرة التي كان يقوم بالتدريس فيها، تاركا بلدتي - المحلة الكبرى-

التي عرفت في مكتباتها وبواسطة باعة الكتب القديمة فيها ما لم أكن أعرفه من كتابات طه حسين الذي جدد هوسي بما يكتبه مواقفه الداعمة للتجديد الأدبي، ومناظراته مع الكتّاب الشبان في ذلك الوقت (محمود العالم، عبد العظيم أنيس، يوسف إدريس، عبد الرحمن الشرقاوي وغيرهم). وعندما قبلت كلية الآداب أوراق التحاقي بها، ذهبت على الفور إلى قسم اللغة العربية، قسم طه حسين، لعلي أحظى برؤياه، لكني وجدت تلميذته سهير القلماوي ترأس القسم، وقيل لي إن طه حسين لم يعد يقوم بالتدريس في القسم إلا لطلاب الدراسات العليا. وكان عليَّ أن أصبر، وأن أثابر على الدرس والتفوق إلى أن أكملت سنوات القسم الأربع، وتخرجت أوّل دفعتي في القسم الذي كانت ترأسه تلميذته النجيبة التي كان يكرهها أحد أساتذتنا، وكان يقوم بتدريس مادة العروض والأوزان الشعرية لنا، فكان يطلق على القسم - سخرية من سهير القلماوي (التي لم أكن أعرف سبب كرهه لها) - اسم «قسم السيدة».

وكان لابد أن تعرفني سهير القلماوي، بعد ذلك، بوصفي أول الدفعة، وأن ألجأ إليها لتشرف على أطروحتي لنيل درجة الماچستير في الأدب العربي الحديث ونقده، آملا في أن تصل حبالي بحبال طه حسين، فهي ابنته الروحية، وأقرب الناس إليه. وكان قد تم تعييني معيدا في قسم اللغة العربية، وأخذت سهير القلماوي، رحمة الله عليها، تعاملني كما لو كنت ابنا جديدا لها، فقد كانت فرحة بتفوقي، سعيدة بنهمي في طلب العلم، عارفة بتهوسي بطه حسين وكتاباته، ولذلك لم تمانع عندما طلبت منها أن تصحبني في إحدى زياراتها له في منزله، خصوصا أنه كان قد توقف عن التدريس في القسم، حتى للدراسات العليا. وكم كانت سعادتي عندما

أخبرتني أنها سوف تصحبني في زيارتها القادمة له، وكانت بعد يومين أو ثلاثة، وظللت قلقا إلى أن حل اليوم الموعود، وجاءت أستاذتي العزيزة إلى القسم، واصطحبتني معها في سيارتها الخاصة التي كان يقودها سائق عجوز تتفاءل به، ومضت بنا السيارة إلى شارع الهرم، وانعطفت بعد قليل إلى اليمين، ماضية في شارع ضيق، لكنه مظلل بأشجار الحدائق التي كانت تحيط بالڤيلات المصفوفة على جانبي الطريق الذي كان مفعما بروائح الزهور والورود ذكية الرائحة، فضلا عن أغصان شجيرات اللبلاب التي كانت تتسلل عبر الأسوار مطلة على الشارع، ومضت السيارة، وتوقفت قرب نهاية الشارع عند «ڤيلا» تحيطها حديقة غنَّاء، وإلى جانب بابها لافتة مكتوب عليها اسم «رامتان» على لوح خشبي بخط جميل.

ولم أكن أعرف من معنى «رامتان» سوى أنه الاسم الذي أطلقه طه حسين على بيته في منطقة الهرم التي كانت لا تزال مستقرا لكبار القوم، ولم تتحول بعد إلى أحياء شعبية عشوائية، وإلى غابات من الأسمنت المسلح التي التهمت القصور والڤيلات الجميلة، وقضت إلى الأبد على روائح الزهور والورود التي كانت تعبق في الشوارع الهادئة التي تحجب عنها وهج الظهيرة أشجار زينة، ممتدة أغصانها بورود متنوعة الألوان، ولم يكن شارع فيصل القبيح بالغ الازدحام قد وُجد بعد، فقد كانت توجد محله أراض زراعية ممتدة حول ترعة صغيرة هادئة في موازاة شارع الهرم، لكن تفصلها عنه مناطق سكنية لكبار القوم وقصورهم، ولا أزال أذكر أن قصر يوسف بك وهبي الممثل الشهير كان على مقربة من ڤيلا طه حسين.

وبالطبع، لم يفتني أن أسجل الاسم «رامتان» في ذاكرتي، فلم أكن أعرف معناه في ذلك الوقت، وكتمت فضولي إلى أن ذهبت إلى المكتبة

في اليوم اللاحق، وبحثت في «لسان العرب» عن معنى التسمية، فعرفت أنها اسم موضع في البادية، وأن مفرده رامة، لكنه يأتي بصيغة التثنية غالبا ويذكر صاحب اللسان المثل : «تسألني برامتين سَلْجَما». وذكر إلى جانب المثل بيت زهير بن أبي سلمى :

لِمَنْ طَلَلٌ بِرَامَةَ لَا يَرِيمُ   عَفَا وَخِلَالُه حُقْبٌ قَدِيمُ

كما ذكر بيت كثير عزة :

خَلِيلَي حُثَّا العيسَ نُصْبِحْ، قَدْ بَدَت   لَنَا مِنْ جِبَالِ الرَّامَتَيْنِ ، مَنَاكِبُ

ولا أزال أذكر ذلك الشطر من خلال ما حفظته من شعر قديم في سنوات الدراسة بقسم اللغة العربية الذي يقول : «بان الخليط برامتين فودّعوا».

وقد أدركت من معنى «رامتين» علامة أخرى من علامات عشق طه حسين للشعر العربي القديم، وهو العشق الذي أورثنا إياه، نحن الذين مضينا في إثره، ودرسنا الشعر العربي القديم، وتعلمنا منه كيفية تذوقه، ولا أزال أذكر كيف كنت أحفظ القصيدة القديمة بعد أن كان يقرؤها علينا يوسف خليف، رحمة الله عليه، وهو أعذب أساتذتنا صوتا في قراءة الشعر، وأكثرهم قدرة في تلوين إلقائه بما يبين عن تموجات الإيقاع وظلال المعنى. وكان على النقيض في جمال الإلقاء من أستاذه وتلميذ طه حسين شوقي ضيف، رحمهم الله جميعا، فقد كان شوقي ضيف يقرأ الشعر كما لو كان يقرأ تقريرا لا روح فيه ولا جمال، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن يوسف خليف كان شاعرا يشعر بجمال الشعر الذي يعشقه، حتى

وهو يقوم بتدريس نصوصه لأمثالنا الذين كان يدفعهم - وأنا من بينهم - التأثر بقراءته وإنشاده إلى درجة حفظ القصائد المتوسطة الحجم فور انتهائه من الإلقاء الذي كان نوعا من الإنشاد.

المهم، دخلت أستاذتي سهير القلماوي ومعها تلميذها الذي هو أنا، بعد أن فتح لها الباب بواب قدّم لها التحية الواجبة، ومضت في طريقها من باب الڤيلا الذي فتح لها، وعبرنا ردهة صغيرة، بعد أن عرفت أن أستاذها الذي أنزلته منزلة الأب جالس في غرفة المكتب. وكان كل من في الڤيلا يعاملونها كأنها واحدة من أهل الدار ودخلنا محراب العميد، أستاذتي أولا، وأنا وراءها، أكاد أرتجف من الرهبة. كانت غرفة المكتب المستطيلة تحمل كل جدرانها صفوف الكتب التي ترتفع من الأرض إلى السقف، وكان العميد يجلس على كرسي «فوتيه» قريبا من المكتب، كما لو كان يتأمل، وابتسم وجهه عندما سمع صوت تلميذته التي انحنت وقبّلت وجنتيه، فربت على ظهرها في حنان أبوي، وأفسحت لي مكانا، بعد أن قالت له : معي حفيد لك من تلامذتي يريد أن يلقاك، فهو مفتون بكتاباتك التي يحفظ بعضها عن ظهر قلب، فابتسم العميد ومدّ يده صوبي، فسلمت عليه، وكدت أقبّل هاتين اليدين كما أفعل مع أبي ولكني ارتبكت، فسكت، وبادرني بالسؤال عن من أحب من الشعراء، فقلت من فوري : أبا العلاء، فسألني إذا كنت أحفظ له شعرا، فأنشدته الأبيات التي تنتهي بالبيت :

كَذَبَ الظَّنُّ لَا إِمَامَ سِوَى العَقْلِ مُقِيمًا فِي صُبْحِهِ وَالمَسَاءِ

إن لم تخني الذاكرة التي بدأت تخونني بحكم السن. ولم تتوقف أسئلته ولم تتوقف أجوبتي التي كنت أنطقها بصوت مرتعش مليء بمهابة

الحضور ولقاء الرجل العظيم الذي ظللت أحلم به. وقد نسيت باقي الأسئلة والأجوبة، كل ما أذكره أنه التفت إلى سهير القلماوي، وقال لها: تلميذك هذا قد يكون له إنجاز في النقد الأدبي، وابتسم ابتسامة حانية، كأنها ابتسامة جد فرح بولادة حفيد جديد. وصحبتني أستاذتي إلى خارج الغرفة، لكنها استأذنت مني في أن أنتظرها في الحديقة، كي تلقي السلام على زوج طه حسين، سوزان التي لم تكن تعرف العربية، ولا تتكلم سوى بالفرنسية لغتها، ولذلك لم تكن تقترب إنسانيا إلا من الذين يعرفون لغتها التي كانت تخاطب بها زوجها الحبيب وأولادها والمقربين من الأسرة، وظلت على ما هي عليه إلى أن توفي طه حسين، فكتبت عنه كتابها المشحون بالدلالات والمعاني : «معك» الذي ترجمه عن الفرنسية بدر الدين عرودكي ونشرته «دار المعارف» في مصر بفضل سهير القلماوي فيما أظن.

وخرجنا من «رامتان» في النهاية، وأنا في حال من الانبهار والفرح والشجن على السواء. ولم يفتني أن أسجّل في ذهني صورة المكتبة التي تحيط بالمكتب، وانطويت على حلم أن يكون عندي، في يوم ما، غرفة مكتب مثلها، أجلس فيها محاطا بالكتب المتراصة حولي في كل اتجاه. ولم أهدأ إلا بعد أن تحقق هذا الأمل الذي أصبح واقعا. وهاأنذا أسترجع هذا اللقاء الذي ترك في نفسي أعمق الأثر ولا يزال إلى اليوم، فقد أقبلت على إعداد دراسة الماچستير والدكتوراه بعدها، وحرصت على إتقان القراءة بلغة أجنبية، تفتح لي آفاق المعرفة الإنسانية التي لا نهاية لحدودها، ولا حدّ لتجددها. وآمنت أن الجامعة لا يكتمل دورها إلا بالإسهام في الحياة الثقافية المحيطة بها، وأن الأستاذ الجامعي الأصيل هو الذي يكون له حضوره الفاعل في هذه الحياة ، فبدأت أنشر مقالاتي في المجلات

والدوريات الثقافية، حتى من قبل الحصول على درجة الدكتوراه التي فرغت منها، وحصلت عليها عام 1973. وكان ذلك قبل أشهر معدودة من وفاة طه حسين في أواخر شهر أكتوبر من العام نفسه، وبعد أن ظهرت بشائر الإنجاز العسكري في حرب أكتوبر. ولم أتوقف عن متابعة أخبار طه حسين الذي جعلتني سهير القلماوي حفيدا له، واشتركت في حلقة دراسية نظمتها الجمعية الأدبية عن دراساته، وكانت محاضرات ومناقشات هذه الحلقة تذاع من إذاعة «مع الشعب» التي كان يشرف عليها المرحوم فاروق خورشيد، وكان من أقرب أعضاء الجمعية إلى قلبي، وأذكر أن البحث الذي قدمته في هذه الحلقة كان عن موقف طه حسين من التجديد في الشعر الحديث. وقد ناقشني المشاركون في الحلقة : حسين نصار وشكري عياد وعبد القادر القط وفاروق خورشيد وعبد الغفار مكاوي وعز الدين إسماعيل وعوني عبد الرءوف وعبد الرحمن فهمي وغيرهم من أعضاء الجمعية الذين قدّم كل واحد منهم بحثا في جانب من جوانب إنجازات طه حسين العديدة. وقد اتفقنا على أن نتبرع جميعا بالمكافآت المالية التي كانت مقدمة من الإذاعة إلى طه حسين الذي أخبرنا فاروق خورشيد أنه في ضائقة مالية. وقد شعرت بالمرارة التي لا أزال أشعر بها، وأنا أرى كبار الأدباء يعانون من قسوة الحياة في شيخوختهم أو مرضهم. وكنت، ولا أزال مقتنعا أن الدولة التي لا ترعى أدباءها الكبار ترتكب جريمة في حق الوطن وفي حق نفسها، وهو اقتناع يزداد ترسخا يوما بعد يوم، خصوصا عندما أقارن بين وضع الأديب العربي، في الدول الفقيرة، ووضع الأدباء في العالم الأوربي الذين يغنيهم عن الحاجة إلى آخر يوم في حياتهم دخل كتاب واحد، ناجح، نشروه.

لكن خفف عني المرارة التي شعرت بها قبل وفاة طه حسين بعام أو عامين، عندما أسهمنا في الحلقة البحثية التي أقامتها الجمعية الأدبية، ما رأيته وشعرت به في جنازته المهيبة، فقد خرج جثمانه، محمولا على أكتاف أساتذتها، من حرم جامعة القاهرة، وكانت الصدارة لحملة الأوسمة التي حصل عليها طه حسين في حياته. وفي الطليعة الوزراء وكبار الكتّاب وأساتذة الجامعة وامتدت الجنازة المهيبة التي لم أر مثلها لأحد من كبار أساتذة الجامعة إلى اليوم، وسارت من أبواب الجامعة، مارة بتمثال نهضة مصر الذي أبدعه محمود مختار، النحات الذي كتب عنه طه حسين، تقديرا وإعجابا، وعبرت كوبري الجامعة، إلى أن توقفت عند جامع صلاح الدين في أول منطقة المنيل، الملاصق لكلية طب جامعة القاهرة، وقصرها العيني، ولم يتسع الجامع لكل الحشود الشعبية التي انضمت إلى الجنازة، وعدنا إلى الجامعة، بعد أن حملت عربة الجثمان إلى المقابر، وكنت أبكي على جدي الذي فقدناه، وفقدنا بفقده منارة لا مثيل لها من منارات الاستنارة في الثقافة العربية بأسرها. ولم يكن من الغريب أن تتنافس الصحافة العربية في رثاء طه حسين، ومعها العواصم العربية كلها. وقد تولت الجامعة العربية إقامة حفل تأبين، ولا أنسى من فقراته القصيدة البديعة التي ألقاها نزار قباني في رثاء العميد، وهي واحدة من أجمل قصائده في الرثاء.

وبالطبع، استهلت كلية الآداب في جامعة القاهرة الاحتفاء بطه حسين، فأطلقت اسمه على أكبر مدرجاتها. وكان المدرج الذي أقمنا فيه أول حفل لتأبينه، وأذكر مشاركتي في هذا الحفل مع عدد من أساتذتي تلامذته، وألقيت كلمتي بوصفي الحفيد في العلم. ولا أنسى كلمات محمد أنيس،

رحمه الله، عندما قال: إن الكثيرين من الذين شاركوا في جنازة طه حسين لو كانوا قد قرأوا ما كتب، خصوصا أفكاره الثورية لانفضوا عن الجنازة وقد كان يقصد بذلك حرص طه حسين على الصدام، دائما، مع القوة الرجعية المهيمنة على الثقافة التقليدية السائدة في المجتمع. ومنذ التأبين الأول، وأنا لا أكف عن المشاركة في إحياء ذكرى طه حسين. ولا أزال أعتز بأن أولى جوائز الإنجاز الثقافي التي حصلت عليها، في مصر، كانت عن كتابي عن نقده الذي جعلته بعنوان : «المرايا المتجاورة»، وأن أولى الجوائز العربية التي نلتها كانت عن الكتاب نفسه. ولذلك لم يكن من المصادفة أن أستهل أولى مقالاتي في جريدة «الحياة» (التي أكتب فيها منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما) بعنوان : «لماذا طه حسين؟». ولا أزال كلما ذهبت إلى «رامتان» التي جعلت منها وزارة الثقافة متحفا ومركزا ثقافيا، أسترجع ذكرى اللقاء الأول، وأمر على المكتبة التي نُهِبَ منها الكثير، وأتباطأ في خطوي ما بين الحديقة التي تم تشويهها واقتطع منها جزء كبير ليصبح قاعة للمحاضرات، وعندما أخرج من «الڤيلا» التي كانت جميلة إلى الشارع الذي كان يتضوع بروائح الزهور ويستظل بالأشجار المزهرة، أرى القبح الذي حل محل الجمال، فأقول لنفسي : بان الخليط برامتين فودعوا، وأستبدل بقبح ما أراه الذكريات الجميلة التي لم يبق سواها من الراحلين: طه حسين وتلامذته : سهير القلماوي وبنت الشاطئ وشوقي ضيف وعبد العزيز الأهواني. وتلامذتهم : صلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد وعز الدين إسماعيل، فأردد لنفسي قول أمل دنقل :

كل الأحبة يرتحلون

فترحل عن العين شيئا فشيئا ألفة هذا الوطن.

ذكريات الجمعية الأدبية المصرية

لم أكن أتردد في الاختلاف مع أساتذتي في الرأي، خصوصا إذا وجدت داخلي مبررا مقنعا للاختلاف. وكان أساتذتي يتقبلون هذا الاختلاف بصدر رحب، محسنين الظن باندفاعاتي، غافرين لي زلات اللسان التي كانت مناقشاتي لا تخلو منها بسبب حماسة الصبا واندفاعاتها اللغوية. وقد حدث نوع من هذا الخلاف مع أستاذي شوقي ضيف الذي لم يتقبل ما رأيته بالحنو الذي اعتدته من أساتذتي الذين درست على أيديهم قبله، ويبدو أنني قاطعته مندفعا، فاضطر إلى التوقف، متطلعا نحوي، وموجِّها كلمات اتهام بأنني لم أفهم ما يقول، فاندفعت برعونة مقاطعا إياه للمرة الثانية، قائلا فيما يشبه الصراخ : أنا أفهم ما تقول ولكني غير مقتنع به. واندفعت أعدّد الحجج على ما أقول، وهو مندهش من هذه الجرأة المندفعة التي لم يتوقعها. وحاول أن يثنيني عن الرأي الذي ذهبت إليه، ولكن العناد ركبني، ويبدو أنني قلت ما أغضبه، فخرج من قاعة الدرس، وتركني نهبا لنظرات زميلاتي وزملائي وتعليقاتهم الغاضبة، المتعاطفة مع الأستاذ العظيم والمهددة للطالب الصغير الذي جرؤ على مقاطعة شوقي ضيف الذي كانت مهابته تخيف الجميع.

أذكر أن أستاذي شوقي ضيف هو الذي دفعني للذهاب إلى الجمعية الأدبية المصرية. وكان ذلك حين سألني، ذات مرة : هل تعرف يا جابر

زملاءك في الجمعية الأدبية المصرية؟ فسألته عن هؤلاء الزملاء والجمعية الأدبية فأخبرني بأسماء: صلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد وأحمد كمال زكي وعز الدين إسماعيل وعبد الرحمن فهمي، وكلهم من قسم اللغة العربية، وكلهم تلامذة لشوقي ضيف، ولذلك جمعني بهم ووصفهم بأنهم زملائي، وذلك على طريقة كلهم أبنائي مهما كان فارق السن بينهم. ولم يفت شوقي ضيف - مع تصاعد نبرة الحنو - تشجيعي على حضور ندوات الجمعية الأدبية المصرية، وأخبرني أنه تحدث مع صلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد عني، وأوصاهما بالاهتمام بي.

وذهبت إلى الجمعية الأدبية في مقرها القديم بالدور الأرضي من بيت عتيق في شارع ضيق من شوارع حي عابدين، هو شارع قولة، وسرعان ما عرفت أن الذي اهتدى إلى هذا المقر فاروق خورشيد الذي كان يسكن في البيت المقابل. وظللت أذهب إلى الجمعية الأدبية المصرية التي لا يزال لها تأثير عميق في تكويني الثقافي، وكنت مصحوبا في المرة الأولى - على ما أذكر - بزميل فصلي الشاعر حسني توفيق الذي سبقني في التعرف على أغلب أعضاء الجمعية، فقد كان من أبناء القاهرة، ودفعته محبته للشعر إلى المعرفة المبكرة بصلاح عبد الصبور الذي قاده إلى معرفة بقية أعضاء الجمعية الأدبية المصرية. ولم أتوقف عن الذهاب إلى ندوات الجمعية منذ أن ذهبت إليها للمرة الأولى سنة 1964 على وجه التحديد. وكانت الجمعية في ذروة نشاطها الناجح الذي جمع إليه رجال الفكر والثقافة في مصر، خصوصا أن الموسم الثقافي كان يشمل محاضرات لأعلام الثقافة، ومناقشات حول كتاب، فضلا عن الأمسيات الشعرية التي كنا نسمع فيها من قصائد أعلام الشعر في ذلك الوقت.

ولن أنسى الأمسية التي ناقشت فيها الجمعية كتاب فؤاد زكريا عن سبينوزا، وكان الكتاب قد فاز بإحدى جوائز الدولة التشجيعية، وبعده - أو قبله لا أذكر - مناقشة عاصفة لكتاب المرحوم محمد النويهي عن الشعر الجديد. أما الأمسية التي قرأ لنا فيها المرحوم صلاح عبد الصبور القسم الأول من مسرحيته الأولى «مأساة الحلاج» فكانت حدثا نادر الحدوث والتأثير في الوعي. ولا أزال أذكر «الصالة» الطويلة الضيقة التي كنا نجلس فيها، والازدحام اللافت بأجيال أكثرها في مثل عمري. ويتصدر الحضور عبد الرحمن فهمي وعبد المنعم شميس وعوني عبد الرءوف وأحمد كمال: زكي ومحمود الحنفي ذهني وعبد العزيز الدالي ومحمد النويهي، وعبد القادر القط وعبد الغفار مكاوي. أما في مواجهة الجمهور، فقد جلس فاروق خورشيد الذي كان يدير اللقاء، ويقدم المتحدثين ويعقّب عليهم بصوته الإذاعي الجميل، وكان نجما ساطعا من نجوم الإذاعة المصرية في ذلك الوقت، إلى جانب كونه كاتبا مرموقا من كتّاب الخمسينيات شأن أقرانه من أعضاء الجمعية. وإلى جانب فاروق كان يجلس صلاح عبد الصبور أقرب أعضاء الجمعية إلى نفسه. وإلى جانب صلاح كان يجلس شاب خجول قدموه لنا باسم بهاء طاهر الذي كان يعمل في الإذاعة المصرية بدوره في هذا الزمان، لكن في البرنامج الثقافي الذي كان يخرج له بعض المسرحيات. وقد أخذ على عاتقه إخراج مسرحية «مأساة الحلاج» للإذاعة. وقد عرفت فيما بعد أنه اقترح على صلاح عبد الصبور إضافة مقطع أو أكثر لتأكيد الحركة الدرامية. وقد نظم صلاح الأبيات الإضافية التي لا يزال بهاء طاهر محتفظا بها ضمن أغلى كنوزه. وقد تحدث بهاء طاهر حديثا متزنا. ولا أذكر هل تحدث المرحوم

محمـد النويهـي أو المرحوم عبـد الفتاح الريـدي أو غيرهمـا، فلم يبق في ذاكرتي سـوى كلمات فـاروق التي لا يخلو إيقاعها من حماسـة تدعو إلى التعاطـف، وتعليقـات بهاء طاهر عن الحركة الدراميـة، وأهم من ذلك كله صوت صلاح عبد الصبور، وهو يقرأ علينا في إيقاع لفَّنا جميعا بسحره :

إليَّ إليَّ يا فُقَرَاءُ.. يَا مَرْضَى

كَسِيرِي القَلْبِ وَالأَعْضَاءِ

قَدْ أَنْزَلْتُ مَائِدَتِي.. إليَّ إليَّ

لِنُطْعِمَ كِسْرَةً مِنْ خُبزِ مَولَانَا وَسَيِّدِنَا

وكنت مع غيري من الشـباب الفقراء مشـدوهين بما نسـمع، كسيري القلب، نفتح أبواب عقولنا ومشـاعرنا لهذا الشاعر الذي لم يبخل علينا بما جاد به عليه الشـعر، مولاه، وسـيده. وكان الحضور مـن الكبار مثلنا، على موعـد مع هـذه الأبيـات التي اندفعت بالمسـرح الشـعري، بعد أن أنعشـه عبـد الرحمـن الشـرقاوي، إلـى ذرى لـم يشـهدها الشـعر قـط حتـى ذلك الوقت.

ولا أعرف ماذا قال فاروق خورشيد في تلك الأمسية البعيدة التي تحتل في ذاكرتي موقعا من أحب المواقع إلى النفس، ولكنه شد سمعي وكل انتباهي إليه بكلماته المتدفقة الحماسية، فقد كان يمتلك قدرة غريبة على الحديث المسترسل الذي يمس شغاف القلب، والمتدفق بلا توقف كما لو كان صاحبه يمتح في يسر من نبع لا ينضب. هل كان ذلك يرجع إلى عمله الإذاعي الذي كان بمثابة تدريب مستمر على الإلقاء الجميل؟ أم كان يرجع إلى ثقافته الواسعة؟ أم يرجع إلى موهبة درامية على الأداء تسندها ثقافة عريضة شاملة، كأنها المجلى العصري للمعنى القديم للأدب

من حيث هو الأخذ من كل شيء بطرف؟ أغلب الظن أن هذه العوامل مجتمعة، ومعها غيرها، كانت وراء الحضور المتميز لفاروق خورشيد في أحاديثه الكثيرة التي فتنت بها في أمسيات الجمعية الأدبية الكثيرة.

ولم يكن فاروق خورشيد في كل أمسية يتركني دون أن يسألني عن أحوالي، ولا يتوقف عن تشجيعي، خصوصا مع اقتراب أيام الامتحان الأخير لليسانس. ولا أزال أذكر فرحته عندما تخرجت، وكنت أول دفعتي، وأصبحت معيدا في القسم الذي تخرج منه قبلي مع أقرانه من زملاء الجمعية الأدبية المصرية التي ضمّت بالدرجة الأولى المبرزين فكريا وإبداعيا من خريجي قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة. ولذلك كنت أشعر بافتخاري بهذا القسم وأنا أرى الأجيال السابقة على تخرجي، تملأ الحياة الثقافية المصرية إبداعا وفكرا وتأليفا : صلاح عبد الصبور وعز الدين إسماعيل وعوني عبد الرءوف الذين تخرجوا سنة 1951، وفاروق خورشيد الذي تخرج سنة 1950، وقبله عبد الرحمن فهمي وأحمد كمال زكي ومحمود الحنفي ذهني الذين تخرجوا سنة 1948، وقبلهم حسين نصار الذي تخرج سنة 1947 قبل سنتين من تخرج عبد العزيز الدالي ومحمود علي مكي سنة 1949.

واستمرت ندوات الجمعية الأدبية المصرية طوال الستينيات في شارع قولة، وعبر ندواتها المتتابعة، تعرفت على الأعضاء المؤسسين، ومعهم فاروق خورشيد الذي كان الدينامو المحرك للجمعية الأدبية المصرية، والمحافظ على استمرار نشاطها، منذ بدايتها إلى نهايتها. ولولا فاروق خورشيد ما قامت هذه الجمعية التي تحمَّس لها أكثر من غيره، وظل يرعاها ويخصِّص لها من وقته ما أعانها على الاستمرار، والاتساع لتقبّل أجيال جديدة من المشمولين بالرعاية من أمثالي وحسن توفيق ونصار

عبد الله ومحمد مستجاب وأمل دنقل وغيرهم من الأسماء التي لا تزال فاعلة في حياتي الثقافية. وكان فاروق - بين بقية الأعضاء - هو الأكثر رعاية للأجيال الجديدة، وكنا نسعى إليه أكثر من غيره لشهامته وأبوته واستعداده الحماسي للمساعدة في أي مجال. وهو - قبل غيره - الذي شجعنا على إبداء الرأي، وأشركنا في الندوات، وأقام للشعراء منا أمسيات قدمهم فيها بصوته الساحر المتميز، فقد كنا نعدّه واحدا من «كروانات» الإذاعة المصرية في سنوات المد الناصري والقومي.

وقد انتقلت ندوات الجمعية الأدبية ولقاءاتها من المقر القديم في عابدين إلى المقر الأخير في شارع الجمهورية، خصوصا بعد أن تهدم المنزل الذي يضم المقر القديم وتقررت إزالته. ونجح فاروق خورشيد في إقناع صديقه محمد الطوخي في أن يتقاسم والجمعية الشقة الواسعة التي أقام فيها الطوخي استوديو خاصا للتسجيلات. وكنا دخلنا زمن السادات الذي فتح الأبواب للمشروعات التجارية، والانفتاح، وذلك بعد أن مررنا بمحنة الهزيمة التي تركت آثارا غائرة في الوعي، والموت الفاجع لجمال عبد الناصر الذي كان رمزا واعدا لزمن قومي، ظلت شعاراته عن الحرية والوحدة والعدل الاجتماعي تصنع المبادئ غير المعلنة التي يلتقي حولها أعضاء الجمعية الأدبية المصرية. وعلى الرغم من انكسارات الهزيمة ومرارة موت عبد الناصر، ظلت ندوات الجمعية الأدبية مستمرة قائمة، بعد أن فقدت الكثير جدا من تفاؤلها القومي أيام الخمسينيات ومطالع الستينيات، ودخلت مرحلة الدفاع عن الحلم القديم، والتمسك به في مواجهة متغيرات كنا نراها بشعة، خصوصا في تهديدها لكل ما كنا نحلم به من قيم الحرية والعدالة والوحدة.

وكان فاروق خورشيد أكثر زملائه إحساسا بالانكسار الذي انعكس عليه وظيفيا، فقد كان زميلا للمجموعة التي ضمت جلال معوض وصلاح زكي، والتي انتمت إلى الأفكار القومية التي تجاوبوا معها في عملهم بالإذاعة المصرية التي كانت الصوت القومي المجلجل في سنوات الصعود القومي مع إنشاء إذاعة صوت العرب. وبدأ التضييق على فاروق مع نظرة العهد الساداتي المستريبة إلى من رأت فيهم الرموز اللامعة للعهد الناصري، فبدأت المضايقات التي وصلت إلى ذروتها مع التصفية. وكان ذلك بعد ما سمّي بالقضاء على مراكز القوى عقب أحداث الخامس عشر من مايو الشهيرة وانفراد السادات بالحكم محتميا بالديموقراطية التي أبرز أنيابها للمعارضين. وطالت بعض هذه الأنياب فاروق خورشيد فصدر قرار بنقله من الإذاعة إلى وزارة الشئون الاجتماعية التي استقال منها – بعد سنوات من المرارة – سنة 1983. لكنه طوال السبعينيات، وقبل نقله من الإذاعة – ظل يوقد من جمرة نشاط الجمعية الأدبية في مقرها الجديد بشارع الجمهورية. وأذكر من أمسياتها في هذه المرحلة مناقشة مسرحية عبد الرحمن الشرقاوي الجديدة في ذلك الوقت «وطني عكا» التي شاركتُ في مناقشتها مع صلاح عبد الصبور الذي لم يترك المناسبة للحديث عن دين الشرقاوي على شعره ومسرحه بوجه عام، وكذلك ندوة لمناقشة كتاب عبد الغفار مكاوي عن الشعر الحديث. وقد أسرفت في نقده، فظل متأثرا من حدة نقدي لسنوات. وأضيف إلى ذلك أمسية شعرية، استمعنا فيها إلى قصيدة أمل دنقل «رسوم في بهو عربي» التي يصل فيها بين هزائم الماضي وهزائم الحاضر.

ولا أنسى حماسة فاروق خورشيد حين كان يشرف على إذاعة «مع الشعب» عندما أخبرنا - ذات مساء - عن ضرورة الاحتفاء بطه حسين، وكان ذلك قبل حوالي عام من وفاة طه حسين في شهر أكتوبر سنة 1973. واقترح علينا أن يشترك أعضاء الجمعية الأدبية المصرية ومحبّوها في إقامة موسم كامل من النشاط عن طه حسين، ويتم تسجيل كل الندوات بواسطة إذاعة «مع الشعب» على أن تذاع كل التسجيلات في موسم إذاعي كامل، يذهب عائده المالي إلى طه حسين تحية وتقديرا له من تلامذته وتلامذة تلامذته الذين مضوا في دربه الفكري. واشترك في هذا الموسم: محمد النويهي وصلاح عبد الصبور وحسين نصار وعبد الغفار مكاوي وشكري عياد وعوني عبد الرءوف وعبد الرحمن فهمي وأحمد كمال زكي ومحمود الحنفي ذهني وعز الدين إسماعيل وغيرهم من الأسماء. وكعادة فاروق اقترح اشتراك الأجيال الجديدة، دافعا بي إلى الإسهام، فكتبت بحثا عن موقف طه حسين من الشعر الجديد. وكان هذا البحث نواة كتابي «المرايا المتجاورة» الذي ظهر بعد ذلك بسنوات سنة 1980. وقد كان لمحاضرات هذا الموسم وندواته أثر كبير على الشباب من المنتسبين إلى الجمعية الأدبية، فقد تعلمنا - عبر أشهر - من معالجة موضوع واحد العديد من المناهج والتيارات التي تحاورت في حرية كاملة واحترام لا ينكر.

وكان مشهدا مؤثرا - نقله إلينا فاروق خورشيد - حين ذهب لمقابلة طه حسين بوصفه مدير إذاعة مع الشعب ليسلمه المبلغ الكبير الذي دفعته إذاعة «الشعب» للساعات الطويلة التي ملأناها بأبحاثنا ومناقشاتنا. ورغم أن الكثير من أعضاء الجمعية المؤسسين كانوا من تلامذة أمين الخولي، والمتأثرين به، لكنهم لم يفعلوا مع أمين الخولي ما فعلوه مع طه حسين

الذي كان رمزا وقيمة، خصوصا بمواقفه الجسورة وتعدد إنجازاته الإيجابية وكثرة كتاباته وتعددها، فضلا عن دفاعه اللاهب عن قضيتي الحرية والعدل اللتين ظلتا بمثابة الرابط الفكري بين أعضاء الجمعية. وبالقطع، لم يكن واحد من أعضاء الجمعية الأدبية المصرية يميل إلى الشيوعية، فظلوا جمعيا بعيدا عن تنظيماتها السرية، وعن تجمعاتها العلنية. وفي الوقت نفسه، كانوا بعيدين عن الليبرالية الرأسمالية في تطرفها، خصوصا بعد أن تأثروا بدعوات طه حسين إلى العدل، ودفاعه عن «المعذبين في الأرض» فكانوا استمرارا للذين أحرقهم الشوق إلى العدل. ولذلك اتخذوا موقفا وسطا ما بين أقصى اليمين وأقصى اليسار. أخذوا من الليبرالية الإيمان بالحرية وأخذوا من الاشتراكية دعوة العدل. وامتزجت في وعيهم مبادئ الحرية والعدل الاجتماعي مع نزعة قومية لم تخل من وعي بدور مصر المتميز داخل الدعوة القومية، سواء بحكم عبقرية المكان أو ميراث التاريخ. ولذلك اكتسبت كتابات صبحي وحيدة «في أصول المسألة المصرية»، وكتابات جمال حمدان عن عبقرية المكان في جغرافية مصر، مكانة تضيف إلى المكانة المتأصلة لفكر طه حسين. وامتزجت التركيبة الفكرية التي انطوت على مبادئ الحرية والعدل والنزعة القومية بالانفتاح على الثقافة العالمية، وبخاصة الوجودية التي توسطت ما بين النقائض، سواء في فهمها للحرية أو في تحديدها لمعاني العدل الاجتماعي، وذلك مع تأكيد ضرورة الموقف الإبداعي والفكري الذي يجاوز بالحياة شروط الضرورة، وينفتح بها على آفاق الحرية اللانهائية. وكان الإبداع عند أعضاء الجمعية الأدبية المصرية بلا استثناء تجسيدا لذلك كله. أعني بحثا دائما عن كل ما يضيء نجمتي الحرية والعدل ويشعلهما في النفوس والقلوب، وتحديا لكل نقائض الحرية والعدل ومواجهة لها بالكلمة الجسورة التي

لا تكف عن توسيع دوائر المتلقين لها. وفي الوقت نفسه، إيمانا بالقومية العربية في معانيها المنفتحة التي لا ينغلق فيها الوعي على نفسه، بل ينفتح على غيره، مستفيدا من كل ما يدعم حضوره في التاريخ وبالتاريخ، ويبرز أصالته الفريدة المتجددة.

وكان من الطبيعي - والأمر كذلك - أن يبحث أعضاء الجمعية الأدبية عن ما يمايزهم، ويستجيب إلى وسطيتهم، منذ النصف الثاني من الأربعينيات، حين كانوا طلابا في قسم اللغة العربية في آداب القاهرة، ويجذبون إليهم بعض طلاب الأقسام الأخرى في الكلية، من مثل قسم الفلسفة الذي تخرج منه عبد الغفار مكاوي، فظلوا بعيدين عن تجمعات الإخوان المسلمين التي اقترنت في أنظار الكثيرين منهم بالجمود والتطرف، ونافرين من التجمعات الشيوعية بسريّتها وكهنوتيتها في الوقت نفسه. وقد تعارفوا - وهم طلاب - في النشاط الأدبي الذي كانت تقيمه جمعية اللغة العربية التي كان يشرف عليها بعض أساتذة اللغة العربية بمساعدة طالب من السنة الرابعة، يترك مكانه لغيره بعد التخرج. وعندما تخرج فاروق خورشيد (المولود في مارس 1928) سنة 1950، جذبه مع أقرانه المرحوم محمد كامل حسين الذي فتح لطلابه بيته كي يلتقوا وإياه في حوار ونقاش متصل. وكان محمد كامل حسين علما من أعلام دراسة الأدب المصري وأهم دارسي العصر الفاطمي والفكر الإسماعيلي إلى اليوم. وانتقلت المجموعة من رعاية محمد كامل حسين الذي أدركته الوفاة إلى رعاية محمد فريد أبو حديد الذي كان يشرف على نقابة المعلمين. وكان الكثير منهم اشتغل بالتدريس، ابتداء من عبد الرحمن فهمي وعبد العزيز الدالي وانتهاء بصلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد. وانتقلت المجموعة إلى نادي المعلمين، في ميدان الأوبرا لتواصل نشاطها تحت رعاية محمد

فريد أبو حديد الذي لم يكتف بتشجيع المجموعة فحسب، بل أوكل إليها الإشراف على إعداد مجلة «الثقافة». وكانت مجموعة الأصدقاء الزملاء قد تحولت إلى جمعية بحماسة فاروق خورشيد. واستمرت الجمعية في الإشراف على سبعة أعداد من مجلة «الرسالة» فيما أخبرني فاروق خورشيد نفسه، وأراني نماذج من الأعداد، مع اللوحات التي كان يعدهـــا حامـــد ندا لقصص فاروق خورشـــيد وعبد الرحمن فهمـــي وقصـــائد صلاح عبد الصبور وأحمد كمال زكي إن لم تخني الذاكرة.

ولكن يبدو أن اندفاعة الشباب الإبداعية لم ترح محمد فريد أبو حديد، ولا لجنة التأليف والترجمة والنشر التي كانت ترعى المجلة تحت رئاسة أحمد أمين، فتوقفت الأعداد التي أشرفوا عليها. وكان عليهم الانتقال من مقر «نادي المعلمين» إلى شقة أرضية خالية، في مواجهة منزل فاروق خورشيد في عابدين، فانتقلت الجمعية إلى شارع قولة، وشيئا فشيئا، أخذت تفرض إبداعاتها على الحياة الثقافية، خصوصـــا بـعد أن نجحت قصـائد صـــلاح عبد الصـــبور، وقصـــص عبد الرحمن فهمي وفاروق خورشيد، جنبا إلى جنب كتابات أحمد كمال زكي وعز الدين إسماعيل، كما فرضت ندوات الجمعية نفسها على الكثيرين، فانجذب إلى الطلاب أساتذتهم والمتعاطفون معهم من الذين تخرجوا قبلهم من أمثال : عبد القادر القط وشكري عياد ومحمد النويهي وحسين نصار وغيرهم كثر، كما جذبت الجمعية الذين تخرجوا من بعدهم مثل عبد المحسن طه بدر، وذلك في السياق الذي شمل أمثالي من الذين تخرجوا في منتصف الستينيات. وقد قامت الجمعية الأدبية – نتيجة حماسة فاروق خورشيد وحركيته – بإصدار سلسلة من المطبوعات الخاصة بها، فنشرت عددا من قصص كتَّابها والمتعاطفين معها تحت عنوان : «قصص من مصر» في الخمسينيات، كما نشر فاروق خورشيد نفسه كتابه الذي أثار ضجيجا كبيرا فور إصداره، أعني

كتابه «في الرواية العربية : عصر التجميع». وهو الكتاب الذي دفع محمد مندور للرد على فرضيته الأساسية في جريدة «الجمهورية» في الثاني من شهر أبريل سنة 1960 تحت عنوان : «فن القصة». وكان رد مندور نموذجا للردود المضادة التي دفعت فاروق خورشيد إلى أن يكتب مقالا بعنوان: «دفاع عن الرواية العربية» في «الجمهورية» نفسها في السادس من مايو سنة 1960. ولا أزال أحتفظ في مكتبتي الخاصة بنسخة من الطبعة الأولى من كتاب فاروق خورشيد، منزوعة الغلاف، تحمل على غلافها الداخلي الباقي جملة «مطبوعات الجمعية الأدبية المصرية». وفي أسفلها عنوان الطابع والناشر: «الدار المصرية للطباعة والنشر، 59 ش صفية زغلول - الإسكندرية».

وكان هذا الكتاب الذي لفت الأنظار بقوة إلى فاروق خورشيد سلسلة أحاديث أذيعت بالبرنامج الثاني في الإذاعة المصرية. وهو يبدأ بملاحظتين مهمتين تستثيران الانتباه : الأولى أن الإنتاج الروائي العربي المعاصر يصل إلى درجة من الأصالة تجعل من المذهل حقا أن يكون هذا الفن وليد عشرات من السنين فحسب، كما تجعل من المتعذر على التفكير العلمي أن يقبل ما يردّده الكثيرون من أن هذا الفن مستحدث في أدبنا العربي لا جذور له، وأننا نقلناه محاكين لما في الحضارة الغربية. والثانية أن كل دراسة تتناول الرواية إنما تعمد في تسليم مطلق إلى البحث عن قواعد وأصول اتجاهات الرواية في الآداب العالمية من حولنا، الأمر الذي يؤكد التبعية المطلقة من هذا الفن العربي للفن الغربي الذي يفترض أنه الأصل، ويجعل من روائيينا مجرد اتّباعيين منقطعي الصلة بتراثهم الذي يحمل جذور فنهم الحديث. ويمضي فاروق خورشيد - في جرأة حسبها الكثيرون تهورا في ذلك الوقت - يبحث في التراث العربي ابتداء من العصر الجاهلي عن جذور الفن الروائي، ويتوقف عند السيرة النبوية والقصص القرآني، منتقلا من ذلك إلى دور

الموالي وعصر التدوين الذي يسميه مرحلة التجميع والأصل الأول للرواية العربية، وقد اقتضت هذه النظرة مراجعة كتب التاريخ وما فيها من قصص، واحتفى بكتاب «التيجان في ملوك حمير» احتفاء خاصا، فدرس طريقة تأليفه ومنهج الرواية فيه ليثبت أن هذا الكتاب - من حيث هو نموذج لغيره - أصل للقصة العربية التي ظلت قائمة، ازدهرت بازدهار كتب السير - ومنها سيرة ابن إسحاق - وظلت محافظة على حضورها الذي جاوز عصر التجميع إلى غيره من العصور.

ولم يكن فاروق خورشيد عندما ذهب إلى ما ذهب إليه في تأصيل الرواية يحسب أنه يسبق «خطاب ما بعد الاستعمار» الذي يقوم بالكشف عن أشكال التبعية الفكرية التي تؤدي بالمثقفين الوطنيين إلى اتباع نظريات غربية، تتحول في وعيهم إلى أيديولوچيا عند التطبيق، أي إلى وعي زائف يظل مستمرا مع انتقال الإدراك الاتباعي من وعيهم إلى الأعمال الأدبية التي تصبح موضوعا لهذا الوعي. وهذا ما حدث مع التيار الذي ابتدأ مع «يحيى حقي» في كتابه «فجر القصة» الذي نشره سنة 1960، مؤكدا الاتجاه الذي يرد ازدهار القص العربي إلى النقل والتأثر بالآداب الغربية. وأتصور أن فاروق خورشيد ذهب إلى نقيض هذه النظرة، لا لكي ينفي أي تأثر بالآداب الغربية، وإنما لينفي أن هذه الآداب وحدها هي التي أوجدت الفن القصصي العربي الحديث، فهذا الفن له جذوره الأقدم التي تطورت عبر التاريخ، موصولة بالملاحم والسير الشعبية، إلى أن اكتملت في أشكال القص العربي الحديث الذي لم يكن بحال تقليدا ومحاكاة لفن غربي.

ومن المؤكد أن هذا الاهتمام بجذور القص كان يرتبط بنوع الإبداع الذي اختاره فاروق خورشيد نوعا أثيرا للكتابة، أعني القصة القصيرة والرواية. وإذا كان اختياره لهذا النوع الأدبي دفعه إلى البحث عن أصوله

العربية القديمة، فإن البحث نفسه قاده إلى اكتشاف السير الشعبية العربية، فقام بدراستها في مؤلفات من مثل : «كتابة السيرة الشعبية» و«أضواء على السيرة الشعبية» و«فن كتابة السيرة الشعبية» و«عالم الأدب الشعبي العجيب» و«أدب السيرة الشعبية» و«الأسطورة عند العرب». وجمع فاروق خورشيد بين الدراسة والاستلهام ورغبة التحديث التي تعيد تقديم الأعمال الشعبية إلى الوعي المعاصر فكتب روايات «سيف بن ذي يزن» و«مغامرات سيف بن ذي يزن» و«علي الزيبق» و«الزهراء في مكة» و«ملاعيب على الزيبق». وكان هذا التقديم المعاصر للسير الشعبية موازيا لإبداعاته القصصية التي جمعت ما بين القصة القصيرة والرواية، فضمت مجموعة «الكل في باطل» التي كانت أول ما جذبني إلى كتابته القصصية، وما لفتني إلى التوازي بين شخصياته الروائية وتجليات شخصياته الحياتية، خصوصا حين تتجاوب الأجواء الروائية والأجواء الواقعية، فتغدو القصص موازاة رمزية للواقع، وذلك على نحو ما نجد في مجموعات : «القرصان والتنين» و«المثلث الدامي» و«حبال السأم» و«كل الأنهار» و«زهرة السلوان». وأضيف إلى ذلك روايات: «خمسة وسادسهم» و«حفنة من رجال» و«الزمن الميت» وغيرها.

وقد سبق أن أشرت إلى طبيعة الأداء الدرامي الذي كان يكتسبه خطاب فاروق خورشيد، سواء في عرض أفكاره أو تقديم غيره ممن يتحمس لهم. وهو أداء ظل يكشف عن كاتب مسرحي انطوت عليه شخصيته، كاتب مسرحي ظل يبحث عن أشكال يتجسد بها، إلى أن نجح فاروق خورشيد المسرحي، وعرضت له أكثر من مسرحية، فكتب للمسرح «أيوب» و«المسألة» و«حبظلم بظاظا» و«ثالثا وأخيرا» و«حديقة المر» وغيرها من المسرحيات التي لم تَخْلُ من إظهار اهتمامه بالتراث الشعبي، وذلك على نحو ما ظهر في «أيوب» و«حبظلم بظاظا» التي أراد بهما أن يصوغ قناعا

يخفي من ورائه نقده للأوضاع السياسية المعاصرة. وقد شاهدت بدعوة منه - مع أعضاء الجمعية الأدبية - مسرحية «حبظلم بظاظا» وألهانا عن بطء إيقاعها تأمل الدلالات السياسية المراوغة، والنظرات المتبادلة بين بطلة العرض وفاروق خورشيد الذي لم يكن يكف عن تشجيع الموهوبين في كل مجال، ابتداء من ميكروفون الإذاعة وانتهاء بخشبة المسرح. ولذلك تعدد تلامذة فاروق خورشيد في هذه المجالات، وأنتجوا من الأعمال ما يشير إلى البصمة الخاصة التي تركها في تشكيلهم الفني.

وكنت أرى هؤلاء في مكتب فاروق في منطقة باب اللوق حيث تعودنا على اللقاء الأسبوعي، خصوصا بعد أن أصبح مسموحا لي بالسهر مع الكبار إلى الصباح، فنعمت بليال من المتعة الفنية والمعرفية لم أحظ بها في حياتي. ففي غرف هذا المكتب الذي كان يقع بالدور الأرضي من إحدى العمارات العالية، استمعت إلى كثير من قصائد صلاح عبد الصبور بصوته، وشاهدته حين كان يثقله الحزن، فيحني جذعه قرب شمعة تحترق مثله، ويندفع مسترجعا قصائده الحزينة، وما أكثرها، في زمن قاس وضنين، استولى معه الشر في ملكوت الله. وقد أدركت في هذه الليالي عمق العلاقة التي جمعت بين فاروق وصلاح، والأول أكبر من الثاني بثلاث سنوات، لكن الثاني سبقه إلى عالم الشهرة حين أصدر ديوانه «الناس في بلادي» سنة 1957 فأصبح واحدا من فرسان قصيدة الشعر الحر على امتداد العالم العربي كله.

وأشهد أن فاروق خورشيد لم يكن يشعر بالغيرة من واحد من زملائه في الجمعية الأدبية المصرية، بل كان يفرح لإنجازاتهم، ويحتفي بها كأنها إنجازاته هو، ويقيم الدنيا ولا يقعدها إلا بعد مناقشة هذه الإنجازات

وتقديمها، سواء في أمسيات الجمعية أو في الإذاعة التي وصل فيها إلى درجة كبير مذيعين. وكنت أشعر أحيانا بتوتر يحاول كتمانه من تجاهل النقد الأدبي له، والتركيز على يوسف إدريس وحده من بين كتَّاب الخمسينيات، لكنه سرعان ما كان ينسى هذا التوتر، ويكتفي بالإعجاب الذي كنا نبخل به عليه مع أنه كان من حقه، وربما كان هو المسؤول عن بخلنا ذلك، فقد عوَّدنا على أن يحتفي بغيره، وأن يقدم أقرانه على نفسه، فظل يحمل على عاتقه عبء توسيع دوائر قرائهم وعبء الأعباء الإدارية والمالية لمقر الجمعية الأدبية المصرية. ولذلك عندما انتهى الأمر إلى الصدام مع الطوخي، وترك مقر شارع الجمهورية، لم يكن سواه قادرا على استضافة الجمعية في مكتبه، ومواصلة ما انقطع إلى أن شغله اتحاد الكتَّاب بمشاكله التي لا تنقطع.

ومن المؤكد أن فاروق خورشيد كان يمكن أن ينال شهرة أكثر اتساعا، ويترك تأثيرا أكثر عمقا، لو قام بالتركيز على جانب واحد، القصة والرواية كما فعل صديقه عبد الرحمن فهمي الذي سبقه إلى الكتابة، أو الشعر الذي انفرد بإبداعه صلاح عبد الصبور، فأصبح فيه قمة لم يستطع أحد من أعضاء الجمعية الأدبية الوصول إليها. وكان عز الدين إسماعيل ذكيا مثل أحمد كمال زكي فأهملا الشعر، وانصرفا إلى الكتابة النقدية التي برزا فيها. أما عبد الغفار مكاوي فظل شبيها بفاروق خورشيد موزعا بين الشاعر الذي انطوى عليه مع كاتب القصة والمسرح، فأصبح أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء مثل أبي حيان التوحيدي، لكن الأضواء لم تتسلط إلا على دراساته النقدية، الأمر الذي لا يزال يوجعه نفسيا، خصوصا حين يتمرد المبدع في داخله على الدارس الذي قمعه، والنقاد الذين تجاهلوه.

ولكني أتصور أن حالة فاروق خورشيد أكثر تعقيدا، فقد كان مذيعا، وكاتبا للمسلسلات الدرامية الإذاعية، فضلا عن الأحاديث الإذاعية التي كانت «موضة» منذ أن اشتهرت أحاديث طه حسين والعقاد في الإذاعة. وكان كاتب قصة قصيرة ورواية ومؤلفا مسرحيا، وكاتب مقالات في الصحافة، ودارسا وناقدا لأعمال غيره، وأستاذا في الدراسات الإعلامية، وأستاذا للأدب في بعض الجامعات. ولا أنسى في ذلك كله كاتب الرحلات الذي كتب «في بلاد السندباد» وأديب الأطفال الذي ترك لهم عشرات القصص التي استلهم بعضها من التراث الشعبي. وإذا وضعت - إلى جانب ذلك كله - الوقت الذي خصصه لرعاية شؤون الجمعية الأدبية المصرية إلى أن تفكّكت عراها مع التسعينيات من القرن العشرين الماضي. وكان من طبيعته أن يقبل على كل ما يعمل فيه بالحماسة نفسها، فكانت النتيجة توزع الطاقة على إنجازات عديدة في مجالات عديدة، وذلك بدل تركزها في مجال أو مجالين فحسب كما فعل صلاح عبد الصبور الذي ظل أكثر أعضاء الجمعية الأدبية جذبا لاهتمامات الكتابة النقدية، كما ظل أعمقهم تأثيرا في الحقل الأدبي. ولكن حسب فاروق خورشيد أنه ترك أعمالا مضيئة في كل مجال اقتحمه، وحسبه - أكثر من ذلك في تقديري - أنه احتفى بنا نحن الطلاب الصغار الذين رعاهم، وواصل تشجيعهم والاهتمام بهم إلى أن شابت نواصيهم. جزاه الله خيرًا عن صنيعه معنا، فقد تركنا كبارا، بعد أن بلغ عامه السابع والسبعين، وذهب مطمئنا علينا، شاعرا أنه أدى أكثر من واجبه إزاءنا، ولحق بأقرانه الذين سبقوه : شكري عياد، وعبد الرحمن فهمي، ومحمود الحنفي ذهني، وعبد العزيز الدالي، وصلاح عبد الصبور. رحم الله من ذهب، ومَدَّ الله في أعمار من بقي، فقد تعلمت منهم الكثير الذي أدين به للجمعية الأدبية المصرية التي ما كان يمكن أن تستمر لأكثر من عقدين من الزمان لولا فاروق خورشيد.

◆ سكندريات

أيام البكارة

ذهبت إلى الإسكندرية، منذ سنوات عديدة، في أحد مهرجانات السينما التي لا تزال تنعقد بها، لكي أنوب عن وزير الثقافة. وكنت متحمسا لهذه المهمة، لا لكي ألتقي بالأصدقاء من أهل الفن فهؤلاء ألتقي بهم في القاهرة، وإنما لكي أجدد عهدي بمدينة الإسكندرية التي أنتسب إليها عن طريق والدي الإسكندراني، المولود في حي السيالة في منطقة بحري التي يعدها العارفون أصل إسكندرية المرسي أبي العباس. وقلت لنفسي: فرصة جميلة لزيارة مرابع الصبا التي تعودت الحياة فيها زمنا، والإقامة طوال أشهر الأصياف البعيدة. وقد ظللت كذلك إلى أن دخلت جامعة القاهرة، وشغلتني أحلام التفوق عن زيارة المدينة التي أحبها بعض حبي لأبي. ومرت السنوات ، وتقاذفتني تحولات الزمن التي طوحت بي بعيدا عن مصر كلها لأعوام، ولكنني ظللت على حبي لمدينة أبي، وأتذكرها دائما بالكلمات التي تصفها بأنها مارية وترابها زعفران. ولا تفارقني ذكريات مغامراتي فيها مع أولاد أعمامي الذين أصبحوا من الأثرياء لأنهم اختاروا المضي في تجارة المجوهرات التي ورثوها عن آبائهم، وتركوا لي محبة الكتب التي لا تتيح لصاحبها سوى غنى المعرفة الذي ليس فوقه غنى فيما أعزي به نفسي.

ولا يعني ذلك أنني انقطعت تماما عن الإسكندرية، فقد عاودت صلتي بها عندما استقر بي المطاف في القاهرة، لكن تقلب الأوضاع وتغيرات المكان، وانتقال العبد لله إلى ما توهم أنه شريحة اجتماعية أكثر ثراء، أبعدني وأسرتي عن بحري والأنفوشي والسيالة ورأس التين ومسجد سيدي أبي العباس المرسي وإلى جواره مسجد الأباصيري (وهو الإمام البوصيري صاحب قصيدة «البردة» التي عارضها أحمد شوقي بقصيدته الشهيرة «نهج البردة» التي غنتها السيدة أم كلثوم). حالي في ذلك حال أولاد أعمامي الذين هجروا مساكن آبائهم القديمة في بحري، وانتقلوا إلى الأحياء الجديدة من الإسكندرية، وتركوا لبعض الأقرباء البيت الكبير المواجه لحلقة السمك، حيث تعودت أن أرقب الصيادين وهم يفرغون ما جاد به عليهم البحر في باكورة الصباح، وأتطلع في اندهاش إلى من كانوا يشربون دم الترسة السلحفاة البحرية لتقوية أجسادهم، ومن كانوا يغسلون بهذا الدم ركبات أرجلهم التي أنهكها الروماتزم. ولكن أولاد الأعمام لم يغادروا مدينة الإسكندرية في امتدادها، وإنما انتقلوا من أحياء قديمة إلى أحياء جديدة، في متغيرات الحراك الجغرافي لتتابع الأجيال. أما أنا فقد فرض عليَّ إلحاح الأبناء بعد أن كبروا الانتقال إلى الساحل الشمالي، حيث القرى التي أصبحت الإقامة فيها علامة على الوجاهة الاجتماعية.

وكانت النتيجة ابتعادي عن موطن أبي القديم، وانصرافي عن زيارة مرابع الذكريات البريئة وغير البريئة بمقاييس الصبا الباكر. وتدريجيا، نسيت شقاوة الصبا في قلعة قايتباي وعلى شواطئها مع ابن عم لي توفاه الله، وكان يصحبني معه في طلعاته لصيد القواقع البحرية (الجراجولا) من تحت الصخور المحيطة بأسوار قلعة قايتباي. وكان بارعا في الغطس

والسباحة، وكم حاول أن يعلمني المهارات الإسكندرانية التي كنت أحسده عليها، ولكني كنت أخاف المغامرة بتعلم فن الغطس، وأكتفي بالعوم اليسير على الشاطئ في مناطق الأمان. ومع ذلك فقد أغواني مرة بالتسلل إلى القلعة، ولم تكن كما هي عليه الآن بعد ترميمها، بل كانت مهجورة، غير مفتوحة للزوار، ومخصصة للمراقبة البحرية التي تقوم بها بعض فصائل القوات المسلحة. المهم أننا تسللنا إلى القلعة، وأخذنا نتجول في أنحائها، ونصعد أدوارها إلى أن وصلنا إلى السطح، ووقفنا نتفرج على الميناء الشرقية تحتضن البحر المنبسط أمامنا إلى ما لا نهاية، تهب علينا نسائمه القوية التي كانت تهزنا هزا. وكان ذلك بعد عام واحد من حرب 1956. ولم ننتبه في براءة الصبا الباكر، واندفاعته، إلى أن القلعة منطقة عسكرية، وأنه محظور علينا الصعود إلى سطحها. وكانت النتيجة علقة ساخنة، على يدي جندي الحراسة الذي أدركنا في مكاننا، ولقننا درسا قاسيا لا ينسى. ولا أذكر قايتباي إلا وأذكر معها هذا الدرس القاسي الذي لم تمحه ذكريات متحف الأحياء المائية أمام القلعة، تتهادى أمامه مراكب الصيد الصغيرة والكبيرة إلى أن تلقي مرساها على الشاطئ، وينقل الصيادون صيدهم الوفير إلى الشاطئ القريب من حلقة السمك، مرددين أغانيهم البحرية التي تتحدث عن البحر وبنات بحري اللائي يتناثرن على الشاطئ كالوعود المغوية.

كل ذلك كدت أنساه للأسف، بعد أن تباعد العهد بالإسكندرية القديمة، وبعد أن استبدلت بشواطئها الأولى شواطئ بعيدة في اتجاه الشمال النائي، كما لو كنت أستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. وأنسى، أو أكاد، ما اعتدته من زيارة مسجد أبي العباس المرسي الذي كنت أصلي

فيـه الجمعة بصحبة والـدي رحمه الله، وكان يحب مقـام ذلك المتصوف الـذي هاجـر من مدينته (مرسـية) في الأندلـس بحثا عن الأمان والسـلام، تماما كما فعل عشـرات وعشرات مثله من الذين تركوا قبورهم على امتداد الطريق السـاحلي مـن طنجة في المغرب الأقصى إلى الإسـكندرية، حيث يقابـل المرتحل علـى امتداد هذا الطريـق مقامات تاريخيـة لأهل الصلاح الذين يبدأ كل اسـم من أسـمائهم بصفة «سـيدي». وهي الصفة التي تجمع بين «سـيدي بوسـعيد» في تونس مثلا و«سـيدي عبد الرحمن» بالقرب من الإسـكندرية. ولا أعـرف هـل ينطبـق ذلك على «سـيدي كريـر» المجاور للعجمي أم لا؟!

ولا تنفصل ذكرياتي عن مسـجد المرسي أبي العباس عن ذكرياتي في مسجد الإمام البوصيري الذي ينطقه أهل بحري «الأباصيري». وهو المسجد المواجه الذي قرأت على جدرانه بعض أبيات البردة الشهيرة، وظللت أتابع قراءتها كل صيف أقضيه في الإسكندرية، إلى أن عثرت على ديوان صاحبها الشاعر المصري الذي ولد في مدينة بوصير التي تقع بين الفيوم وبني سويف في صعيد مصر، والذي عاش في القرن السـابع للهجرة ما بين سـنتي 608 - 696هـ، وترك قصيدته الشـهيرة للأجيال المتتابعة تنشدها في حلقات الذكر أو تعارضها بقصائد على النهج نفسه. وأذكر أنني ظللت أباهي أولاد أعمامي بمعرفـة الأصل الصحيح لاسـم هـذا الشـاعر، وأفتخر عليهـم بمعرفتي أنه صاحـب القصيدة التي ينشـدها الذاكرون في حلقـات الذكر التي كانت تقام منذ سنوات بعيدة في الساحة المواجهة لمسجده، حيث توجد مقامات أهل التقوى من المتصوفة الذين تتلمذوا على المرسي أبي العباس وتحلقوا حوله مثل سيدي ياقوت العرش وأقرانه.

ومـا زلت أذكر رجع أصوات الذاكرين المنشـدين لأبيات البردة التي تبـدأ بتذكـر محل مـن المحلات في أرض ذي سـلم، وما يثيـره التذكر من

الشـجن الذي سـرعان ما ينقلب إلى حزن يمزج الدمع الذي يجري بالدم. ومـا كنـت أشـغل بالي في ذلـك الوقـت بالمبالغة التـي يقوم عليهـا البيت الأول، خصوصـا مـزج الدموع بالدم تأكيدا لحرقـة الوجد، فقد كان الأهم هو الشـعور الرومانتيكي بافتقـاد الحبيب الغائب الذي يتذكره الشـاعر في مطلع القصيدة، الحبيب الخيالي الذي أسقطنا عليه أحلام الصبا. ورغبات المراهقة، وجسّـدنا منه وهما لا يتحقق قط. ومضينا نطارد هذا الوهم على امتداد شـواطئ الإسـكندرية، ابتداء من شـاطئ «الأنفوشـي» وليس انتهاء بشـاطئ سـيدي بشـر، ولم نعثر على شيء يسـتجيب إلى أحلامنا أو يطابق أمانينـا. وظللنـا على مـا نحن عليه إلى أن فارقنا عامنا السـادس عشـر كما قـال أحمد حجـازي في قصيدة مـن قصائده، ففارقنا الحنيـن الغامض إلى ذلك الحبيب الغائب، والشـجن الهائم بغروب الشـمس وسط مياه البحر، بعيـدا في المـدى اللانهائي من دورة النـور والظلام، وأدركنـا فجأة أننا قد تغيرنا كثيرا، وتركنا عامنا السادس عشر، وانتقلنا إلى عالم الشباب الباحثين عن التفوق الجامعي، ومنه إلى عالم الرجال المسـرعين الخطو نحو الخبز والمؤونـة، وفقدنـا البراءة القديمة فـي عراكنا مع الأيام، ذلـك الفقد الذي يدفعنا بين الحين والحين إلى أن ننشد مع صلاح عبد الصبور أحلام فارسه القديم الذي يقول :

يَا مَنْ يَدُلُّ خُطْوتِي عَلَى طَرِيقِ الدَّمعَةِ البرِيئة

يَا مَنْ يَدُلُّ خُطْوتِي عَلَى طَرِيقِ الضِّحْكَةِ البرِيئَة

لَكِ السَّلام

لَكِ السَّلام

أُعطِيكِ مَا أَعْطَتْنِيَ الدُّنيَا مِنَ التَّجْرِيبِ وَالمهَارَة

لِقَاءَ يَومٍ وَاحِدٍ مِنَ البَكَارة

هدم تاريخ

خرجت وصديقي علي أبو شادي الناقد السينمائي من الفندق الذي كنا نقيم فيه بمنطقة محطة الرمل، بعد أن أقنعته بالاستيقاظ المبكر وتناول الفطور خارج الفندق. وذهبنا إلى أشهر مطعم فول وطعمية في الإسكندرية، وهو قريب جدا من الفندق. وقلت لصديقي : إنني تعودت على الإفطار في ذلك المطعم كلما جئت إلى الإسكندرية القديمة التي نشأت على حبها، وتعلمت فيها معنى الانفتاح الفعلي على العالم بمخالطة أجناسها المختلفة التي عاشت في وئام. ولا زلت أذكر الملامح المتباينة للجنسيات المتباينة التي تعودت أن تتناول الفطور في هذا المطعم الشعبي، وتجتمع على الفول والطعمية في الصباح كما لو كانت تؤدي شعيرة رمزية للوفاق الذي لا يعرف التمييز بين الأجناس، والسماحة الاجتماعية والدينية التي لم تعرف ألوان التعصب التي ابتلينا بها مع عواصف التطرف والإرهاب التي لم تكن من جنس الإسكندرية في تاريخها الذي أعرفه.

ولا يبدأ تاريخ الإسكندرية التي أنتمي إليها فعليا من زمن الإسكندر الذي بناها، أو البطالمة الذين عمّروها، أو كليوباترا التي حكمت منها مصر كلها، وإنما يبدأ تاريخها في وجداني وعقلي من محاولتها مقاومة الغزو الاستعماري لها في العصر الحديث، وقدرتها السحرية على أن تحيل الأجانب القادمين مع الغزو - أو قبله أو بعده - إلى مواطنين فيها،

وصهرهم داخل بوتقتها البشرية التي جعلت من سكانها سبيكة إنسانية تتميز بوحدة التنوع البشري الخلاق، الوحدة التي تجاوب فيها الأرمن واليونانيون والإيطاليون وغيرهم مع المصريين في فضاء الإسكندرية المفتوح.

وقلت لصديقي علي أبو شادي: إن هذا الفضاء المفتوح هو الذي جعل للإسكندرية دورا طليعيا في الحركة النسائية، ودورا رائدا في الصحافة المصرية، ودورا تأسيسيا في الأفكار المحدثة، فأهم المجلات النسائية الأولى في مصر صدرت من الإسكندرية، وجريدة «الأهرام» الشهيرة بدأت من الإسكندرية، وكان يعمل بها جرجي زيدان الذي انتقل إلى القاهرة بعد ذلك وأنشأ مجلته المعروفة «الهلال». وجاء إلى الإسكندرية من طرابلس الشام فرح أنطون صاحب روايتي «الدين والعلم والمال» و«أورشليم الجديدة» وغيرهما من الروايات، وسرعان ما أنشأ مجلته «الجامعة» في الإسكندرية، تلك المجلة التي نقلت إلى القراء أفكاره الجذرية عن الدولة المدنية وأهمية التسامح والعلاقة بين الطوائف والأديان، وأصدر فيها كتبه المهمة التي تبدأ بكتابه عن ابن رشد الذي كان سبب المعركة التي دارت بينه والإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا الذي جاء إلى الإسكندرية مع فرح أنطون من طرابلس الشام، لكنه آثر الإقامة في القاهرة والاتصال بالإمام محمد عبده الذي ساعده على إنشاء «المنار». ولم تكن الإسكندرية أقل من القاهرة في التمرد على الاستبداد، خصوصا بعد أن برز منها أمثال أديب إسحق الذي هاجر إليها مثل أقرانه الشوام، أو عبد الله نديم الذي جعل للإسكندرية حضورا متمردا على الاستعمار.

وقاطعني صديقي علي أبو شادي بسؤاله : لكن لماذا تلح ذاكرتك على المقاومة والتمرد في ذكريات الإسكندرية التي تذكرها لي الآن؟ فأجبته بأنني لم أكد أصل إلى عامي الثاني عشر، وأفتح عقلي على ما حولي، إلا وقد حدثت حرب 1956، وامتلأنا جميعا بالحماسة الوطنية للتصدي للعدوان الثلاثي، وذهب أخي الكبير رحمه الله للحرب مع زوج أختي، وعشنا في انتظار لحظة النصر التي سرعان ما احتفلت بها الأمة العربية كلها في السادس والعشرين من يوليو سنة 1956، بعد أن رحل الغزاة، واندحر العدوان الثلاثي على مصر. وقد شهدت في ميدان المنشية، في ذلك اليوم، الذكرى الأولى لتأميم قناة السويس. وكنت بصحبة أبي الذي كان يشرح معاني ما أراه حولي في ميدان المنشية. وهو الميدان نفسه الذي شهد قرار تأميم القناة، الذي كان سبب الحرب، في السادس والعشرين من يوليو 1956. وأحسبني تعلمت معنى الوطنية من خطب عبد الناصر التي تعوّد أن يلقيها في ميدان المنشية كل عام، والتي أصبحت احتفالا قوميا يتكرر في ذكرى قرار تأميم القناة وانتصار الأمة العربية كلها على العدوان الثلاثي، وتصاعد حركة المد القومي إلى ذروتها الصاعدة التي كانت تتردد أصداؤها كل عام في ميدان المنشية، حيث كان عبد الناصر يخطب دائما من شرفة مبنى «البورصة» التي تواجه الميدان المستطيل الذي استوعب الآلاف المؤلفة من الجماهير الهادرة.

وقلت لصديقي علي أبو شادي : إن هذا المبنى قريب، فالمسافة بين محطة الرمل والمنشية قصيرة، يمكن أن نقطعها على الأقدام من ناحية البحر، على الأقل لنستروح نسمات الصباح، ونجدد العهد بمباني الكورنيش العريق التي لا تزال تحمل جمال معمار مدن البحر الأبيض المتوسط الساحلية وملامحها المشتركة، ونطوف حول المبنى الذي كان

عبـد الناصر يحرك الوجـدان العربي كله، وهو يخطب من شـرفته كل عيد للثـورة،، ويفتـح أمـام أبناء الأمـة العربية وعـود الحرية والوحـدة والعدل الاجتماعي.

وسـرعان ما وصلنا إلى ميدان المنشية، بعد أن انعطفنا من ناحية البحر صوب اليسـار، ومررنـا على النصب التذكاري الجميل الـذي يواجه البحر، ومنـه إلـى قلب الميـدان، حيـث مضينا نتأمـل «سـراي الحقانيـة» القديمة، وهـي تحفة معمارية لم يغادرهـا جمالها بعد، وأخذنا نتحدث عن التناسـق المعماري لمباني الميدان، وندعو الله أن يبعد الأشـرار عنها، وأن تظل على مـا هي عليـه، ولا تتحطـم تحت زحف كتل الإسـمنت والحديـد والصلب التي تناطح السـحاب وتخنق الفضاء. وكنا في أثناء ذلك نقترب شـيئا فشـيئا مـن مبنى «البورصـة» الذي كان عبـد الناصر يقف على شـرفته ليخطب في الجماهيـر التـي لم تحب زعيما مثلما أحبته. وكانت تتطلع إلى هذه الشـرفة فـي يوليو من كل عام، تنتظر خطاب الزعيم الذي حملته في قلبها إلى اليوم، وأطلقت اسمه على شوارعها الرئيسية في جل العواصم العربية. ولكن كانت المفاجـأة المحزنـة أننا لـم نعثر علـى المبنى، ووجدنا مكانه فضاء يسـتخدم لانتظـار السـيارات! وأصابنـا الذهول، ودخلنا فـي حيرة التائـه، ونظرنا إلى أنفسنا كما لو كنا قد أخطأنا المكان، ولكن لم يكن هناك خطأ! المبنى كان هنا في هذا المكان. وعلى امتداده الطولي في الميدان تعودت أن أحشر جسدي وسـط الآلاف المحتشدة لسماع خطب السادس والعشـرين من يولـيو في سـنوات عبد الناصر. ولكن المبنى اختفى، أزيل أو هدم أو صدر عليه حكم ما بالإعدام وأخذنا نسائل أنفسنا، والأسى يملأ جوانحنا : كيف يمكن إزالة هذا المبنى الذي أصبح رمزا من رموزنا الوطنية، وعلامة من علامات نضالنا القومي الذي لا يخصنا وحدنا، ومعلما من معالم تاريخ الإسكندرية المجيد في الوجدان العربي كله؟!

واستوقفت رجلا في نحو الخمسين من عمره كان يمر إلى جانبنا وسألته عن مبنى البورصة وشرفة عبد الناصر، فقال بلهجة أبناء الإسكندرية: أيّووه!! هدم المبنى منذ أكثر من عشرين عاما! كيف لم تنتبه إلى ذلك إلا اليوم؟! يبدو أنك لست من أهل الإسكندرية وذكر الرجل أن المبنى هدم في زمن السادات، وأن الأرض التي كان عليها تحولت إلى مكان لانتظار السيارات، ماعدا شريط صغير استقطعته إدارة المرور، وأقامت عليه هذا المبنى القبيح. وأضاف الرجل قائلا: سبحان مغير الأحوال يبدو أنكما مثلي من المتعلقين بذكريات الماضي القومي، حين كنا نحارب الاستعمار، لكن من الذي يتحدث عن الاستعمار الآن؟! انتهى ذلك الزمن، ودخلنا في زمن آخر منذ أن هدم نظام السادات ذلك المبنى الذي تعودنا أن نرى عبد الناصر على شرفته. ولعلهم فعلوا ذلك حتى لا نقول لأبنائنا أو أحفادنا: هنا وقف عبد الناصر، وأعلن للعالم كله تأميم قناة السويس، وبدأ موجة التأميم العربية في الدنيا العربية التي كانت لا تزال دنيا، واستهل عهدا جديدا من الأحلام القومية الصاعدة.

وتركنا الرجل بعد أن غمغم بكلمات لم أسمعها، وتمتم بعبارات لم أفهمها، ومضى إلى حال سبيله دون أن ينظر خلفه، واختفى عن ناظرينا بعد أن خلّفنا ننعي ذكريات شرفة عبد الناصر التي تحولت إلى رمز في وجدان أبناء جيلنا، ولكنها أصبحت رمزا غائبا للأجيال التي سوف تأتي في زمن العولمة. ولم أقل كلمة لصديقي علي أبو شادي الذي لم يتكلم بدوره. فقط، مضينا صامتين، يجتر كل منا أشجانه، ويستسلم لتداعيات ذكرياته، ونحن نسير بخطوات متثاقلة، في اتجاه البحر الذي امتد أمام أعيننا إلى ما لا نهاية!

إسكندرية مارية

دعاني صديقي الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي وزوجه الدكتورة سهير عبد الفتاح الباحثة الموسيقية على العشاء في منزلهما، وكان ذلك بمناسبة زيارة صديقين من المغرب الأقصى، هما الأستاذ أحمد الحليمي وزير شؤون مجلس الوزراء المغربي، والدكتور علي أومليل الأستاذ بجامعة الرباط والمفكر المرموق. وكالعادة، دارت الأحاديث حول القضايا الثقافية التي نرتبط بها بأكثر من رابطة. وجرّتنا الأحاديث إلى مقالات حجازي التي يكتبها في جريدة «الأهرام» القاهرية عن الإسكندرية، خصوصا عن تمثال الإسكندر الأكبر الذي أثار قضيته صديقنا السكندري الدكتور عادل أبو زهرة الذي يقود جماعة من عشاق الجمال المدافعين عن الوجه الحضاري العريق لمدينة الإسكندرية.

وتتلخص القضية في أن أحد الفنانين اليونانيين أهدى مكتبة الإسكندرية تمثالا للإسكندر الأكبر ممتطيا صهوة حصانه، مشرعا سيفه، كأنه يدخل غازيا المدينة التي حملت اسمه. ويبدو أن البعض أشار على محافظ الإسكندرية المحبوب أن لا يضع التمثال في مدخل مكتبة الإسكندرية الجديدة، وأن ينقله إلى ميدان الشهيد عبد المنعم رياض ويضعه فيه. وهذا ما اعترض عليه أعضاء جمعية أصدقاء الموسيقى والفنون مع أقرانهم من أعضاء الجمعية المصرية لتنمية المجتمع،

وهمـا جمعيتـان من أهم الجمعيات الأهلية في الإسـكندرية. وكان سـبب اعتراضهـم يرجـع إلـى دلالة التمثـال التي تجسـد معنى الغزو العسـكري وليس التآخي الحضاري، كما اعترضـوا على جماليات التمثال الذي رأوا فيـه عملا لا يليـق بمدينتهم التي كانـت موئل الفنون على امتـداد التاريخ، وذهبوا إلى أن المقاييس الجمالية للتمثال غير متناسبة، وأن الحصان الذي يمتطيه الإسـكندر أشـبه بالبغل منه بالحصان الأصيل، فضلا عن أن وضع التمثال نفسـه يؤكد معنى الحرب بالرمح المشـرع في يد الإسكندر كما لو كان علامة الموت المتوعد.

وتشـعب بنـا الحديـث حـول هـذا الموضـوع، خصوصا أننـي كنت سـأترك القاهرة فـي صباح اليوم التالي للسـفر إلى مدينة الإسـكندر لإلقاء محاضـرة فيهـا. وتحدثنا عـن دور الجمعيات الأهلية فـي الارتقاء بالذوق العـام، وضرورة الحفاظ علـى التقاليد المعمارية للمدينـة الجميلة، وإزالة الشـوائب التـي فرضتهـا أذواق العسـكر الذيـن لا ذوق لهـم. واتفقنا على أنه من الضروري لكل مسـؤول أن لا ينفرد برأي في شـيء، وأن الشـورى هي السـبيل إلى النجاح في كل شـيء، ابتداء من السياسـة وانتهاء بتخطيط المدن وعمارتها، وأكدنا أهمية الاستعانة بالمختصين والمهتمين من ذوي الثقافات الرفيعة ومشاورتهم دائما، حتى لا ينتهي الانفراد بالرأي إلى اتخاذ قرار خاطئ، مثل قرار وضع تمثال قبيح يجسد معنى الغزو من الخارج في وسط ميدان شهيد من شهداء الدفاع عن استقلال الوطن وحريته.

وأذكر أن جملة «الإسـكندرية مارية وترابها زعفران» وردت في أثناء الحـوار أكثـر من مرة، ولفـت انتباهنا تكرارهـا، ودفعتنا إلـى تأمـل معناها، خصوصـا بعـد أن قال الصديـق الحليمي إنه تعود على سـماع هذه الجملة

تجـري مجـرى الأمثال في موطنه فاس، فدهشـنا من ذلك، ولكن دهشـتنا سـرعان ما زالت عندما تذكرنـا العلاقة الوثيقة بين الإسـكندرية والمغرب طوال تاريخها، واسترجعنا ما كان يقوم به طريق الساحل من دعم التواصل بيـن المشـرق والمغرب، ومـا كان يقوم به ميناء الإسـكندرية من اسـتقبال سـفن التجـارة مع قوافـل الحجاج التي كانـت تأتي بالبر والبحـر. وأظنني ذكّـرت الحضور باجتهاد بعض المؤرخين المحدثين الذين رأوا دليلا على التواصل المغربي المشـرقي في اسـتمرار مقامات الزهاد والمتصوفة على امتداد السـاحل المغربي من «سـيدي عبد الرحمن» إلى «سيدي براني» في مصر إلى «سـيدي بوسـعيد» في تونس وانتهاء بـكل المقامات التي تحمل كلمـة «سـيدي» قبل اسـم صاحبهـا إلى نهاية شـواطئ المغـرب الأقصى. وقلـت لهـم: إن أبا العباس المرسـي حامي الإسـكندرية وشـيخها الأكبر، والقـادم أصلا من «مرسـية» في الأندلـس، دليل على هذا التواصل، شـأنه في ذلك شـأن الأوليـاء المدفونين حوله والذين يشـتركون معه في الأصل المغربي، ابتداء من أسـتاذه أبي الحسن الشاذلي وانتهاء بكل تلاميذه الذين حوتهم الطوائف الصوفية في مصر.

ولعـل صديقنـا علـي أومليـل هـو الـذي أضـاف أن بعـض الحجاج المغاربـة كانوا يتوقفون في مصـر، ويقررون الإقامة فيها، إما في القاهرة أو في الإسكندرية، وأن الإسـكندرية كانت منطقة جذب للهجرات المغاربية التـي وجـدت فيهـا طيب المأوى وحسـن المعشـر فنقلـت إلـى أهلها في المغرب الأقصى الجملة التي سارت مسار الأمثال، وهي: إسكندرية مارية وترابهـا زعفران. وقد عقب أحمد عبـد المعطي حجازي على ذلك بقوله: إنهـم وضعـوا أرض الإسـكندرية موضعا مقدسـا بذلك، وقرنوهـا بمعنى

الحمايـة الدينية التي يجدها المسـيحيون في اللجوء إلـى مريم العذراء، أم المسيح، فالمؤكد أن عبارة إسكندرية مارية تشير إلى «ماري» أو «مريم» أو حتى إلى التسـمية نفسها التي نطقها قبط مصر «ماريّة»، وهذه الأسماء كلها تنويعات صوتية تؤدي معنى البتول، أم المسـيح، والصدر الحنون لكل من ينتسـب إليـه. ومضى حجازي يقـول: إنه لا يزال يفهم العبـارة في ضوء ما يعرفه من أن الإسـكندرية قصبة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية التي تسمى كنيسـة الإسكندرية، كما تسمى الكنيسـة الكاثوليكية كنيسة روما والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية كنيسة القسطنطينية، كما أضاف: إنه على بحيرة مريوط جنوب الإسكندرية اكتشف منذ نحو نصف قرن مرفأ قديم، هو مرفأ ماريا، وكان في العصور القديمة يعد المدخل التجاري لوادي النيل، وقد بقي من معالمـه القديمة رصيف ومخازن للغلال وكنيسـة بيزنطيـة صغيرة. ومارية في العبارة التي تحاولون فهمها هي مريم العذراء أُم السيد المسيح.

وسـألني الصديـق المليحي عـن رأيي في هذا التفسـير، فقلت له : إن احتمـال صحتـه كبيـر، خصوصـا أن دلالاته تجمـع بين المعانـي الروحية والمعاني النفسية، وتصل معاني الإسكندرية بالسكينة الروحية والاطمئنان النفسي والأمان المادي في الوقت نفسه. ومضيت قائلا : أذكر أنني سألت أقربائـي المعمّريـن حول دلالة جملتهـم الأثيرة «إسـكندرية مارية وترابها زعفـران»، فقدمـوا لي أكثر من إجابة غير الإجابة التي انطوى عليها تفسـير الصديق أحمد حجازي. أما التفسـير الأول فأظنه بعيدا بعض الشيء، حتى وإن اتصـل بدلالـة مرتبطـة بالمعاني المباركة في المسـيحية. وهو تفسـير يـرد كلمة «ماريّة» إلى الكلمـة الأجنبية «Merry» التي تـؤدي دلالة المرح والبهجـة، ولا تخلـو مـن معنى البركـة، وكلكم تعرفـون الجملة الشـهيرة

«Merry Chirstmas» التـي يتبادلهـا المسـيحيون الناطقـون بالإنجليزيـة فـي الأعياد. وعلى هـذا التفسـير، تكون عبارة «إسـكندرية ماريـة» بمعنى «إسكندرية فرحة، بهيجة، مبروكة». وهو معنى يشير إلى خير المدينة وكثرة أعيادها البهيجة. والمسـافة قصيرة جدا بيـن كلمة «ماري» وكلمة «مارية»، فكلتا الكلمتين تؤدي المعاني نفسـها من الفرح والبهجة والحبور والبركة المرتبطة بدوام الخير الذي يجعل من الأيام كلها أعيادا. والصلة بينهما هي الوجه الآخر من الصلة بين الكلمتين الإنجليزيتين اللتين تشير أولاهما إلى مريم (Mary) وتشير ثانيتهما إلى البهجة والفرح (Merry).

وسـألني أحمد حجازي عن التفسـير الثاني، فرويته له، نقلا عن عمّي عليـه رحمـة الله، وكان تاجـر مجوهرات في الإسـكندرية، إذ أذكر أنه قال لي: إن معنى جملة «إسكندرية مارية وترابها زعفران» يشير إلى خير المدينة الوفيـر الآتـي من البحر وجـودة ترابها الذي يدر عليهـا الخير المضاف من الأرض. وذكرت للأصدقاء أن هذا التفسير استوقفني، ودفعني إلى التفكير فيـه، والانتهـاء إلى احتمال أن تكـون الكلمة هي «مَريَّة» وليسـت «مارية». أعنـي أنها نسـبة إلى «الميـرة» أو الطعام الـذي يمتاره الإنسـان، ومنه قول العـرب: يمتـارون لأنفسـهم ويميرون غيرهم ميـرا، وقد مـار عياله وأهله يميرهم ميرا وامتار لهم. وعبارة «إسـكندرية مَريّة» بهذا المعنى مدينة كثيرة الميـرة، أو كثيـرة الطعام والغذاء، ومن ثَمَّ كثيرة البهجـة وباعثة على الفرح والأمـان والاطمئنـان لمن يسـكنها وأنا شـخصيا أرتاح إلى هذا التفسـير، ولا يقلقني منه سوى أن النسبة إلى «الميرة» ينبغي أن تكون «ميرية» وليست «مرية». لكن ربما كان الأمر من قبيل التحريف الذي يقع في اللهجة العامية للكلمات الفصحى. ولعل اسـتخدام كلمة «مَريّة» بهـذا المعنى ليس بعيدا

عن المثل العامي المصري عن الطعام «مَطْرح ما يسري يمري»، وهو مثل يقال على سبيل الدعاء بأن يكون في الأكل غذاء نافع للبدن، وذلك في سياق الكلمات التي منها كلمة «المُرِّي» بضم الميم وكسر الراء المشددة، ومعناها ما يؤتدم به من طعام مغذٍّ.

ويبدو أن صديقنا الحليمي قد أعجبه هذا التفسير، فأظهر ميله إليه، وقال إنه تفسير يجعل أول الجملة متسقا مع آخرها، فالإشارة إلى الإسكندرية الـ«مَريّة» من كثرة الميرة والغذاء تتجاوب والإشارة إلى أرضها الـ«زعفران» التي تعني الجميل والمفيد من نبات الأرض الذي يؤازر ثمار البحر. قلت للصديق : ربما كان الأمر كما تقول، فإني أذكر أن بعض ما ورد في «لسان العرب» من شواهد يصل بين «الميرة» و«الزعفران» خصوصا في معنى الفعل «أمارَ الشيء» أي أذابه، فقد قال الشاعر القديم – الشمّاخ – يصف قوسا :

كـأنّ عَلَيهَا زَعـفَـرَانًـا تُميرُهُ خَـوازنُ عَـطَّـارٍ يَـمـانٍ كـوانِـزُ

إسكندرية مارية ومرية

نعم «إسكندرية مارية وترابها زعفران». هذا ما ظللت أردده في نفسي، وأنا عائد إلى منزلي من السهرة التي قضيتها مع أحمد حجازي وأحمد الحليمي وعلي أومليل في بيت حجازي. أنسانا حديث الإسكندرية حديث الشعر. واستغرقنا في شرح دلالات المثل المقترن بالمدينة التي أحبها حبي لأبي المولود فيها والذي ظل يعشقها إلى يوم رحيله عن الدنيا، ولعله يزورها بروحه كلما اشتاق إلى مرابع صباه البعيد فيها. وقلت لنفسي : قد يكون صديقنا الروائي الكبير إدوار الخراط أقرب إلى نطق كلمة «مارية» بما ينبئ عن أصلها المسيحي الذي يقترن بمريم البتول، أم المسيح، ماريا أو مريم أو ماري التي تحيط باسمها دلالات البركة والرحمة والنعمة والفرحة والأمان. وقد حدثني إدوار، ذات مرة، قائلا : إن جملة «إسكندرية مارية» تحمل معنى القداسة بالتأكيد، إما لأن كلمة «مارية» تشير إلى مارية (مريم) أم المسيح عليه السلام، وإما لأن الكلمة مأخوذة من كلمة «مار» القبطية التي تعني القديس، مثل «مار جرجس» أو غيره من المارات أو القديسين. وسواء كانت الكلمة من مريم أو القديس فإن دلالة القداسة تظل عالقة بالمدينة التي اكتسبت مكانة دينية في تاريخ الديانة المسيحية.

وسواء صح تفسير إدوار الخراط أو لم يصح فالمؤكد أن عشقه لمدينة الإسكندرية، مربع صباه، فضلا عن حنينه الروحي إليها، هما اللذان دفعا به إلى جعلها فضاء للعديد من قصصه ورواياته، ابتداء من عنوان مجموعة

«ترابهــا زعفران» الذي يحمل - ضمــن دلالاته العديدة - دلالة العودة إلى الرحــم، الأرض، الأم، الأصل، المنبع، الهويــة الأولى، حيث الفرحة التي تقترن بالنعمة والبركة والحنان الذي لا يفارق صدر مريم أو مارية أو ماري أو ميري الحنون.

ولكــن مــا الــذي يمنع أن يكــون هذا المعنى قد ســار جنبــا إلى جنب معنى آخر، ليس له علاقة بالأصل المســيحي أو حتى الأصل القبطي، وإن كان يلتقــي معهما في النهاية حول جذر دلالة الخير والفرحة التي لا تفارق معنى البركة والنعمة والرحمة والوفرة والأمن؟! وإذا كنت ذكرت، من قبل احتمال الصلة بين عبارة «إسكندرية مرية» ومعنى كلمة «الميرة» التي تؤدي دلالــة المؤونة، فإن هذا الاحتمال يعززه ارتباط كلمة «الميرة» نفســها، من حيث اشــتقاقها اللغوي، بفعل «المرْي» (بفتح الميم وســكون الراء). وهو مســح ضَرْع الناقة لتدر. ومنه قول العرب : مَرَى الناقة مَرْيا : مســح ضرعها للدرّة، والاســم المِرْية (بكســر الميم وســكون الراء). وهي الناقة التي تدر على من يمسح ضروعها، وقيل هي الناقة الكثيرة اللبن. وعلى ذلك قولهم مَارى فلان فلانا استخرج ما عنده، والناقة المرِيَّة (بفتح الميم وكسر الراء) هــي الناقــة التــي تحلب علــى غير ولــد، ولا تدر لبنهــا على غيــر ولدها إذا ولدت، فهي مرية ومعها ولدها، وجمعها مرايا.

والعلاقة وثيقة بين معنى الفعل «مرى يمري» ومعنى «المرية» في هذا الســياق، فالفعل يشير إلى استخراج ما يغدو مؤونة، وإلى الاستدرار، وإلى المرور، وإلى التدفق وجري الســوائل. ولذلك نقرأ في «لســان العرب» ما يذكره عن أقوال العرب من جمل مثل : مرى الشيء وامتراه، أي استخرجه. والريح تمري بالســحاب وتمتريه، أي تســتخرجه وتســتدره. ومرَت الريح الســحاب إذا أنزلت منــه المطر. والمَرِيّــة : الناقة الغزيرة الــدر من المري.

وفـي حديـث الأحنف : وسـاق معـه ناقة مريـة. وغير بعيد عـن ذلك قولنا «هنيئـا مريًّا» عوضا عن «هنيئا مريئـا» بالهمزة. وهي عبارة تتصل فيها دلالة كلمـة «المريئة» بدلالـة «المراءة» التي هي أطيب الطعـام والمقام، فقولنا : «هنيئا مريئا» على سبيل تمني طيب الطعام هو التعبير الموازي لقول العرب «أرض مريئة» أي أرض طيبة حسنة الهواء.

وسـواء كانـت العبـارة «الإسـكندرية مارية» (مـن مريم العـذراء) أو «الإسـكندرية مريـة» (مـن الناقـة الغزيـرة اللبن)، فـإن أيا مـن الاحتماليين الدلاليين لا يتعارض مع قرينـه، فالمعنى الروحي المرتبط بالبتول الحنون لا يفـارق المعنى الروحـي المحيط بكلمة «مـار» أو القديس أو القديسـة. وكلا المعنييـن بمثابـة الوجه الآخر للمعنـى المادي المرتبـط بغزارة اللبن الـذي تـدره الناقة التي تسـخو على ولدها، ولا تمنح لبنهـا لغير هذا الولد. وأحسـب أن هـذا التجاوب هو ما يجعـل أهل الإسـكندرية ينطقون المثل الدال على خير بلدهم وحنانها مرة بإشباع الفتحة التي تغدو ألفا في قولهم: «إسـكندرية ماريـة»، ومـرة ثانيـة بتخفيف الفتحـة على الميم فـي قولهم : «إسكندرية مَرية» على سبيل الإشارة إلى بلدهم التي تدر عليهم الخير كما يـدر ضـرع الناقة اللبـن على أبنائها الذيـن يجدون في ضرعهـا وافر الغذاء وعظيم الحنان. وأحسـب أن اللغة العربية نفسها قد التقطت هذا التجاوب الدلالـي في ميراثها القديم. ودليل ذلك ما هو مذكور في المعاجم القديمة مـن أن «الماريـة» هي مؤنث المـاري، وهو ولـد البقرة الأملـس الأبيض، والماريـة البقـرة ذات الولـد المـاري. وأنـا لا أسـتطيع أن أعبـر على صفة «المارية» دون أن تخطر على بالي صفة الأمومة التي لا تفارق دلالة الحنان والرحمـة والبركة والنعمة والروحانية المتجسـدة في صـورة مريم العذراء التي تحتضن ابنها.

ومن يدري؟! لعل بعض هذه الدلالات كانت تدور في خاطر مقوقس مصر عندما أرسل هديته إلى نبينا الكريم، وكان منها مارية القبطية التي حملت اسم العذراء البتول التي اقترن اسمها بالعطاء، تماما كما اقترن اسم الإسكندرية بالخير العميم الذي تفيضه على أبنائها الذين تمنحهم خير بحرها الذي انفتحت به قديما على خيرات العالم، كما تمنحهم خير أرضها بترابها الزعفران الذي يؤدي معنى الخير نفسه.

ولعل اختلاط معاني الخير والحنو والبركة والنعمة بمعاني الإسكندرية في أذهان أبنائها الذين يحبونها كل الحب، ويجدون في ترابها وبحرها كل ما يؤكد فيهم مشاعر الوفاء والامتنان، هو ما دفع هؤلاء الأبناء إلى تذكر الإسكندرية والتذكير بها في غدوهم وترحالهم، وإلى الحنين إليها كلما غابوا عنها، بل كلما رأوا بحرا غير بحرها، وشاطئا غير شاطئها، كأنهم تجليات لا نهائية من ذلك العاشق الذي وصفه أبو تمام الشاعر بأنه مهما نقّل فؤاده حيث شاء من الهوى، ومهما تباعدت به النوى، فإنه يظل على حبه للحبيب الأول الذي لا يعرف سواه حبيبا أبديا. وإسكندرية المارية والمرية هي الحب الأول لكل أبنائها، تماما كما كانت بترابها الزعفران الحب الذي ظل يتشوق إليه الشاعر القديم أبو بكر أحمد بن محمد العيدي الذي ساقته الأسفار إلى ساحل بحر عدن، فقاده بحر عدن إلى تذكر بحر الإسكندرية الذي أعاده، بدوره، إلى حبيبه بها، فقال مرتجلا :

يَا رَاقِدَ اللَّيلِ بالإسكَندريةِ لِي   مَنْ يسهرُ اللَّيلَ، وجْدًا بِي، وأسهرُهُ

أُلاحظُ النَّجْمَ تَذْكَارًا لِرؤيَتِهِ   وإنْ مَرَى دَمْعَ أجْفَانِي تَذَكُّرُهُ

وأنظُر البَدرَ مُرْتاحًا لِرؤيَتِهِ   لَعَلَّ عَينَ الَّذِي أهْوَاهُ تَنْظُرُهُ

◆ ذكريات ناصرية

أولى ذكريات الثورة

لا أذكر على وجه اليقين المرة الأولى التي رأيت فيها جمال عبد الناصر وصحبه من الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو 1952. يرجع ذلك - بالطبع - إلى حداثة سني في تلك السنوات البعيدة، فقد قامت الثورة المصرية وسنوات عمري لا تجاوز الثامنة. ولكني أذكر أصداء قيام الثورة المصرية من حولي حتى في ذلك السن، فقد كان قيام الثورة حدثا ارتج له كل شيء حولنا، وأخذ الكبار يتحدثون عنه صباح مساء، والراديو الذي كنا نزهو به في دارنا ظل صوته يتجاوب مع راديوهات بيوت غيرنا والمقاهي، فتقتحم الأذن الصغيرة مفردات الثورة الوليدة، تلك التي أطلقوا عليها حركة مباركة، وأطلق أعداؤها عليها صفة الانقلاب، إلى أن أثبتت الحركة أنها ثورة تجسَّدت فيها إرادة شعب ظل يتطلع طويلا إلى أن تشرق أعلام الحرية والاستقلال.

ولذلك كان أول ما تعيه الذاكرة من شعارات الثورة الجديدة شعار: ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد. وهو شعار كان له وقع جميل على النفوس حولنا، كما كان يثير الإحساس بالأمل، خصوصا لدى الآباء والأعمام الذين كرهوا وجود المستعمر، وضاقوا بالاستغلال والفساد والرشوة والمحسوبية، وتمردوا على الملك العابث الذي أغرق البلاد في شراك إثمه. وكانت الثورة - لدى هؤلاء جميعا - عاصفة ربيعية تأتي

محملـة بغبار الطلع الذي يؤذن بحلول الخصـب والنماء، وعاصفة مضيئة تهتـك كل ألوان الظـلام. وكان الضباط الأحرار - على نحو ما كانت تنطق صورهم - أبناء أسـر مثل أسرنا، أي أبناء البرجوازية الصغيرة أو المتوسطة التي انتسب إليها أغلب أهلنا، فرأوا فيهم تجسيدا لحضورهم، ولم يشعروا إزاءهـم بالغربة التي كانوا يشـعرون بها إزاء الأمـراء الذين أحاطوا بالملك الذي بدا كائنا غريبا شاذ السلوك والتصرفات.

ولا أزال أذكر حماسـة أغاني ذلك الزمان عن الثورة التي بدت أشـبه بالحلـم الـذي تحقق، أو البركة التـي أنعم الله بها علينا. هـل كان ذلك هو السـبب في إطلاق صفـة «البركة» على الثـورة؟ الأمر ممكـن، فما لا أزال أذكـره هـو تيـار الحبور الغامـر الذي صحب مقـدم ثورة يوليـو، ومسَّ كل شـيء، وأذاعتـه وسـائل الإعلام التـي لـم نكن نعـرف منها سـوى الجرائد والإذاعـة والأفلام السـينمائية. ولا أظن أحـدا من أبناء جيلي ينسـى أغنية «الاتحـاد والنظـام والعمل» تلـك التي رأينـا الأبطال يغنونها فـي فيلم من الأفلام الباكرة، أو الحكايات التي جسَّـدتها السـينما المصرية عن الفسـاد الذي سـبق الثورة، وعن الأبطال الذين استشهدوا في حرب فلسطين نتيجة الخيانـة، حيث كانت الهزيمة من صنع الأسـلحة الفاسـدة التـي تاجر فيها الملك الفاسد مع زبانيته.

وأذكـر فيلـم «الله معنا» من هذه السـنوات. كان البطـل عماد حمدي الضابط الذي ينتسـب إلى أسـرة متواضعة الحال بالقياس إلى قريبه الباشـا الذي كان يشترك في مؤتمرات الطغمة الحاكمة التي لم تتوقف عن مص دماء الشعب. وكان البطل ضابطا وسيما، كأنه صورة موازية لجمال عبد الناصر

أو غيره من الضباط الأحرار، ويحب الضابط الوسيم ابنة قريبه الباشا، تلك الابنة التي كانت على النقيض من أبيها في نقائها وحبها للناس ووطنيتها الغامرة. ولذلك استجابت لقريبها الضابط الوسيم الذي جذبتها إليه صفاته الطيبة وخصاله الجميلة ووطنيته الصادقة. وتحاب الاثنان، ونمت أغصان الحب الوارفة بعيدا عن رقابة الأب الذي كان منشغلا بصفقاته، ومنها الجزء الذي أسهم به في صفقة الأسلحة الفاسدة وبالطبع يذهب العاشق ضحية هذه الأسلحة، لكن العناية الإلهية تبقيه لمن تحبه مبتور الذراع التي فقدها نتيجة انفجار القنبلة التي قضت على رفاقه في الحرب، وهزمتهم من الداخل بعد أن لم يستطع العدو الخارجي أن يهزمهم. ويعود الضابط العاشق لينتقم، ويكتشف زملاء له ينطوون على الرغبة نفسها، ويريدون مثله تطهير الوطن من الفساد، وتلتقي خلية الضباط الأحرار في منزل الضابط العاشق، وتتولى ابنة الباشا طبع المنشورات في بيتها. وتمضي سنوات الاستعداد إلى أن تأتي الساعة الحاسمة، ويتقرر موعد الثورة، وينجح الضابط في الحصول على الأوراق التي تدين قريبه والسرايا في قضية الأسلحة الفاسدة. ويكتشف الباشا الأمر، فيحاول المقاومة، وتمتد يده إلى خزانته ويخرج منها قنبلة يدوية، يريد أن يفجِّر بها قريبه الضابط الخائن في نظره، أو يقاوم بها القوات التي جاءت للقبض عليه، فتنفجر فيه القنبلة التي كانت من الأسلحة الفاسدة التي تاجر بها، وأسهم بها في هزيمة وطنه. ويموت الباشا الخائن بسلاح الخيانة الذي تاجر فيه، وكان عقابه من جنس عمله، وتخلو الشاشة للحبيبين: عماد حمدي وفاتن حمامة اللذين كانا رمزا لكل الذين رددوا في فعل تمردهم دعاء: الله معنا.

لمـاذا أذكـر هـذا الفيلم على وجـه التحديـد؟! ربما لأنـه كان أنضج الأفـلام التـي تركت فينـا أثرا خـلال الخمسـينيات، قبل أن نشـاهد القصة الرومانتيكية الشـهيرة «رُدَّ قلبي» التي كتبها يوسـف السـباعي الذي انتسب إلـى الضبـاط الأحـرار، وكان من سـلاح الفرسـان الذي زامل فيه حسـين الشـافعي، وكان رجـل الثورة لـدى المثقفين ورجـل المثقفين لدى ضباط الثـورة ؛ بحكم كونه كاتبا ورث حـب الكتابة عن أبيه الأديب الكبير محمد السـباعي، وبحكـم كونه ضابطـا من الضبـاط الأحرار. ولذلـك أوكل إليه عبد الناصر الإشـراف على العمل الثقافي، سـواء من خلال المجلات التي أصدرهـا، أو التجمعـات التي قادها، أو المؤسسـات الثقافية التي أنشـأها، وعلى رأسـها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب الذي بدأ عمله سـنة 1956، خلال السـنة التي ختمتها حرب السويس التي أظهرت معدن الثورة وامتداداتها العربية، خصوصا حين أصبح الوطن العربي كله يدا واحدة في مواجهة المسـتعمرين الذين فوجئوا بثورة الشـعوب العربيـة عليهم، تأييدا للشـعب المصـري فـي حربه مع الاسـتعمار من ناحيـة، وتعبيرا عـن إرادة التحرر القومي التي اشـتعلت جمرتها في كل مـكان من الوطن العربي من ناحية مقابلة.

المؤكـد أننـي رأيت جمـال عبد الناصـر وصحبه قبل حـرب 1956. كان قـد جاء وصحبـه إلى مدينة المحلـة الكبرى التي نشـأتُ فيها ليزورها ضمـن جولة في مـدن الدلتا المصرية، وتعبئة للجماهيـر في معركة التحرر والاسـتقلال. وكان الضبـاط الأحـرار يركبـون سـيارات جيـب عسـكرية بسـيطة، تتقدمها سـيارة يبرز فيها وجه جمال عبد الناصر إلى جانب محمد نجيـب وصلاح سـالم، وذلك قبـل أو بعد توقيـع الاتفاقيـة الأولية لجلاء

القوات البريطانية في قناة السويس في يوليو 1954 بعد تداعيات أزمة مارس 1954 فيما أظن، وربما كانت الزيارة بعد أكتوبر 1954، وهو الشهر الذي تم فيه توقيع اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن مصر نهائيا، وبعدها الإطاحة برئاسة محمد نجيب إلى الأبد؟ لا أذكر شيئا من ذلك على سبيل التحديد، فقد كنت في حوالي العاشرة من عمري، ولا أستوعب سوى أن هناك ثورة كبيرة، يعني تغييرا كبيرا جدا، وأن الملك الشرير وأعوانه انهزموا أمام الضباط الأحرار الأخيار، وأن هؤلاء الضباط الأحرار قادمون إلينا بوعود الخير والأمل.

ولذلك لم يكن غريبا أن تندفع جماهير الفقراء في مدينتي، من العمال والمزارعين جنب صغار الموظفين والطلاب، في حشود بدت لا نهاية لها من المواطنين الذين ضاقت بهم الطرقات. ولم نجد لنا – نحن الصغار – مكانا يحمينا، ويتيح لنا مطالعة ركب الضباط الأحرار الذي حل مدينتنا للمرة الأولى، سوى أن نتسلق مثل القردة جذوع الأشجار، ونستقر فوق أفرعها بين الأغصان، لا نخشى اهتزازات الأشجار مع حركة الجماهير وتزاحمها، ولا نخشى أن تنكسر بنا الأفرع التي عقدنا حولها سيقاننا، ونرقب في لهفة كل ما يحدث حولنا، وتتصاعد أنفاسنا مع اقتراب موكب الضباط الأحرار، وصراخ الأصوات حولنا، وانفجار الهتافات مع اقتراب الموكب، وتحول الهتافات إلى هدير لا يمكن للمرء نسيانه، وكيف يمكن للمرء أن ينسى المرة الأولى التي هتف فيها من قلبه، حتى من دون أن يعي كل الوعي معنى الهتافات التي ظل يرددها مع الآلاف المؤلفة التي ظلّت تصرخ : تحيا مصر، تحيا مصر، تحيا مصر، يحيا عبد الناصر، حبيب الملايين. ولا أذكر كثيرا الكلمة التي قالها، لكنني أذكر هجومه على

الرجعيـة العربيـة، وعلى كل من كان يـراه معوّقا لمسـيرة الصعود القومي. وكان في هجومه جارحا كالنصل، خصوصا حين كان يترك «الورق» المعدّ له، فينطلق عفويا، يفتح قلبه للجماهير التي كانت تفتح له قلبها، ويستخدم اللغـة العاميـة ليحكي للبسـطاء ويفتح وعـي العمال والفلاحيـن، دون أن ينسـى المثقفين الذين كان يبادلهـم الرأي والمشـورة، وينصت إليهم وهو يخترقهم بعينيه اللتين كانتا تبدوان للبعض كأنهما تخترقان كل شيء لتصلا إلـى الجوهر. ولكن ظل العمال والفلاحون الأقـرب إلى قلبه دائما، فكان يخاطبهم باللغة التي يفهمونها، ويسـعى جاهدا إلى أن يحتلوا المكانة التي يستحقونها.

وتمضـي السـنوات بنـا، وينتقـل الضبـاط مـن مرحلـة إلـى أخـرى، ويتفرقـون، ويتصارعون، ولا يبقى حول عبد الناصر سـوى أقل القليل من الذيـن بـدأوا معه، ويغـدو عبد الناصر نفسـه هدفًا لهجومنـا وتمردنا، وفي الوقت نفسـه رمزا لـكل أمانينا القومية، وتأتي هزيمة 1967 ونزداد سـخطا علـى عبد الناصر دون سـواه، ويمـوت عبد الناصر بعد أن بـدأ مرحلة الثأر من الهزيمة، وندخل الزمن الساداتي لنخرج منه بما لا يزال فينا من جراح، ويتحـول كل شـيء فـي الوعـي، إلا مشـاهد لا يمكـن نسـيانها، وأحداث لا يمكـن محوهـا من الذاكـرة والوعي، وأولها المشـهد الذي تسـلقت فيه كالقـرد مـع صديق لي، ليسـتقر كل واحد منـا فوق أحد الأغصـان القوية، مسـتفزين، متوترين، نرقب في لهفة موكب ركب الضباط الأحرار، وننسى أنفسـنا تمامـا بعـد أن أصبحنا بعض الانفجار الشـعبي، أو بعـض الطوفان الهادر الذي كان أول تجسيد لحضور ثورة يوليو 1952 في ذاكرة أول دليل، في وعيي على ارتباطها بالجماهير التي آمنت بها، ورأت فيها بشارة تحقيق كل الأحلام المقموعة.

حبيب الملايين

لا أذكر متى استمعت إلى أغنية عبد الحليم حافظ : «يا جمال يا حبيب الملايين». ومتى وأين استمعت إليها للمرة الأولى وانفعلتُ بها، وظللتُ أنفعل بها كلما سمعتها، ولم أكتف بذلك بل ظللت أشدو بكلماتها في أعماقي لسنوات طويلة، فقد كنت أومن بما تشير إليه، وأتعاطف مع مغنيها عبد الحليم ومؤلفها إسماعيل الحبروك اللذين وجدا في ثورة عبد الناصر نبعا لا يغيض من الإلهام، وذلك بالقدر الذي وجدت فيه الثورة في عبد الحليم وصلاح جاهين رمزين من رموزها الإبداعية المؤثرة. وكان ما يشدني في الأغنية صدق صوت عبد الحليم في الأداء، وبساطة الكلمات المعبرة عن حركة التاريخ العربي الصاعد في ذلك الوقت، وتجسيدها مشاعر الملايين التي جعلت من عبد الناصر رمزا لكل آمالها وأحلامها ورغباتها.

وكان كل ما حولي يدفعني إلى تصديق كلمات الأغنية، وتصديق معنى الرابطة السحرية التي وصلت عبد الناصر بالملايين ووصلتها به. وكان ما انحفر في ذهني من مشاهد هذه الرابطة يؤكد المعاني والدلالات العديدة التي تولّدها عبارة حبيب الملايين، خصوصا حين كنت أشاهد الآلاف المؤلفة من هذه الملايين، وهي تهدر بالهتاف الطالع من الأعماق، وتتدافع كالسيول لتقترب من سيارة عبد الناصر، وتحييه، وتظهر له مدى

حبهـا لـه، وإيمانها به، والتفافها حوله، في كل مـكان ذهب إليه على امتداد الوطـن العربـي الكبيـر. وكان ذلـك، علـى وجـه التحديد، منـذ أن أصبح عبد الناصر زعيم الأمة العربية كلها ومناط آمالها وأشواقها القومية.

وكانـت صور هذه الملايين تحفر ما قصدت إليـه كلمات الأغنية في أعماقـي، فأغدو واحـدا من الجموع الهـادرة التي كنت أراهـا في «جريدة مصر الناطقة» وعلى شاشـات أجهزة التلفاز، بل الجموع التي كنت أذوب فيها مع كل احتفال قومي حضرته أو شاركت فيه، كي أصبح واحدا من هذه الملايين التي أحبت عبد الناصر لأنه أحبها، ومنحها حياته، وضحى بأغلى ما عنده ليحقق لها مطالبها، فوجدت فيه بشارة الحرية والعدالة الاجتماعية التـي انتظرتهـا طويلا، وارتبطت بـه كما لـم ترتبط بأحد قبلـه أو بعده طوال تاريخنـا العربي الحديث والمعاصر. وكان هو في سـلوكه وأفعاله ومواقفه عند حسـن ظن هذه الجماهير، فقد عاش بسـيطا، متقشـفا، لا يملك شيئا، زاهدا في متاع الدنيا، لـم يجد حتى أعدى أعدائه مطعنا في نزاهته أو بساطة حياته أو إخلاصه الكامل لكل ما نذر نفسه لتحقيقه، فقد قضى حياته كلها، لا يتردد أو يدخر وسعا في العمل على تنفيذ مطالب الملايين التي أحاطت بـه من المحيط إلى الخليج. حتى موته كان في سـبيل جمع شـمل العرب، وفض الصراع المسـلح بين الإخوة الأعداء في أيلول الأسـود. وكان ذلك بعد أن عقد آخر اجتماع قمة للمصالحة العربية، وإنقاذ القضية الفلسـطينية مـن أحد منعطفاتها الخطيـرة. ولـم يكن غير عبد الناصر من يسـتطيع جمع قـادة العرب الذيـن أحبوه وهابوه، أو اضطروا إلى حبـه ومداراته، فقد كان حبيب الملايين التي لـم يسـتطع واحد منهـم أن يجمعها على حبه واحترامه والسـير وراءه. وقد شـهد جيلي نفـوذ عبد الناصر القومـي عندما وقف في

وجـه العراق، حين أراد عبد الكريم قاسـم، في يوليـو 1961، ضم الكويت إليها بعد إعلان اسـتقلالها وإلغاء الحماية البريطانية عليها في يونيو 1961، ولـو لا عبـد الناصر، لنجـح عبد الكريم قاسـم، فقد وقف عبـد الناصر إلى جانـب الكويت، مؤكـدا أن فكره القومي ضد الضم القسـري ومع الوحدة التـي تقوم علـى الاختيار الحر للشـعوب، وواجه عبد الكريم قاسـم الذي سـرعان ما تراجع عن تهديداتـه وتخلى عن أطماعـه الإقليمية. وهو الأمر الذي لم يسـتطع حاكم عربي تحقيقه بعد موت عبد الناصر وصعود صدام حسـين الـذي أراد أن يـرث مكانة عبـد الناصر دون أن ينطـوي على روحه القومـي القائـم على الإيثار لا الأثـرة. ولذلك أحبته الملاييـن العربية على امتـداد الوطـن العربـي. وليس هناك دلالـة أنصع على حب هـذه الملايين وإخلاصهـا للقائـد الذي آمنت به، وصدقته، من مشـهد انكسـاره وهزيمته في يونيو 1967، واستقالته التي أجبرته الآلاف المؤلفة على سحبها بعد أن أعلنها في التاسـع من يونيو الحزين سـنة 1967، وبعدها ذهب عبد الناصر المهـزوم إلـى مؤتمـر القمة العربية فـي الخرطوم، فـإذا به يجـد كل القادة العرب في انتظاره، دون شماتة من الحضور، وعلى استعداد للعطاء والبذل بـلا حـدود لتعود لمصـر قوتها العسـكرية، وتكمل المواجهة مع إسـرائيل حتى النصر. ولذلك أصدر مؤتمر الخرطوم لاءاته الثلاثة الدالة على رفض الهزيمة والاستسلام أو حتى الصلح مع إسرائيل.

وكانـت الملاييـن التي تحبه تشـبهه كمـا كان يشـبهها، خصوصا في الانطواء على حلم المسـتقبل، ورغبة الانتقال من وهاد الضرورة إلى ذرى الحريـة، والعبـور من مهـاوي التخلف إلى آفاق التقـدم. ولذلك كان وعيه ممتلئًا بهذه الملايين التي كانت ضميره كما كان هو ضميرها، وكانت فقيرة

مثلما كان هو فقيرا، وكانت صادقة مثلما كان هو صادقا، فأصبح هو إياها في الامتلاء بقضايا الفقراء البسطاء التي وضعها على رأس أولوياته، كما أصبح هو إياها في اتحاد الرمز بالمرموز إليه في العلاقات التي ينطق فيها المفرد بصيغة الجمع.

ولن ينسى أبناء جيلي اتحاد الرمز بالمرموز إليه عندما أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس في يوليو 1956، في مدينة الإسكندرية، مستهلا عهدا جديدا من عودة الثروة العربية إلى أبنائها. ولن ينسى أحد من أبناء هذا الجيل ذهاب عبد الناصر إلى الجامع الأزهر ليخطب في الجماهير التي ضاق بها المسجد في ذروة العدوان الثلاثي على مصر. ولن ينسى عربي قومي أمواج البشر اللانهائية التي اندفعت لتحية عبد الناصر عندما ذهب إلى سوريا أيام الوحدة، وحملت سيارته حملا، كما لو كانت تريد رفعها على الأعناق وكانت الحماسة الهادرة هي هي في استقبال الجماهير العربية له في اليمن والمغرب ومالي والجزائر والسودان وتونس وغيرها من أقطار الأمة العربية، كأن كل هذه الأقطار صارت قطرا عربيا واحدا في وعود المستقبل التي بدت قريبة المنال في سنوات الحلم التي رادها عبد الناصر.

أحيانا، كنت أقول لنفسي : إن الجماهير العربية، خارج مصر، تلتف حوله أكثر من الجماهير المصرية، ولكنني كنت أعود فأراجع نفسي وأدرك أن محبة عبد الناصر كالإيمان به تيار سارٍ من المحيط إلى الخليج، وأنه خارج مصر وداخلها يظل حبيب الملايين التي نطق باسمها في كل مكان ذهب إليه، وفي كل نشاط دولي أسهم فيه بما رفع من قدر الحضور العربي

على نحو غير مسبوق. حدث ذلك في شهر مارس سنة 1955 عندما حضر مؤتمر باندونج، أول مؤتمر لحركة عدم الانحياز التي سطع فيها حضوره إلى جانب حضور سوكارنو (أندونيسيا) وشوين لاي (الصين) وتيتو (يوجسلافيا) ونهرو (الهند). وحدث ذلك في دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1960، حين ظهر تأثير مجموعة عدم الانحياز التي استقطبت رؤساء الدول الآسيوية والإفريقية المتحررة. وحدث ذلك في مؤتمر القمة الإفريقي الأول في أديس أبابا (الحبشة) سنة 1963، وفي مؤتمر القمة الإفريقي الثاني الذي انعقد في القاهرة في العام التالي مباشرة، وهو العام الذي انعقد فيه مؤتمر عدم الانحياز الثاني. وتلك أمثلة فحسب على الحضور الدولي الذي ارتفع فيه الصوت القومي لعبد الناصر داعيا إلى تحقيق أحلام معذبي الأرض العربية، جنبا إلى جنب معذبي الأرض في كل مكان.

ولذلك ارتبط عبد الناصر بحركات التحرر الوطني في كل مكان على امتداد الكرة الأرضية التي نهضت شعوبها المقهورة، مستعيدة حريتها من براثن الاستعمار القديم الذي ظل مهيمنا عليها. وأصبحت صور عبد الناصر في كل مكان، حاضرة مع قيادات التحرر الوطني التي عرفته، واستلهمت أفكاره، ومضت في خطى طريقه الواعد بالحرية الوطنية والعدالة الاجتماعية، وأضاف هو إليها، بعد أن أصبح رمزا كبيرًا من رموز التحرر الوطني. ولا تزال ذاكرة أبناء جيلي تحتفظ بصور عبد الناصر مع صديقه نهرو وصديقه تيتو، جنبا إلى جنب صوره مع سوكارنو وأنديرا غاندي والسيدة باندرانيكة وسيكوتوري ونيريري وجومو كينياتا وكاسترو والأسقف مكاريوس وغيرهم من قادة التحرر الوطني وزعماء العالم

الثالث الذين عمل معهم عبد الناصر على تأسيس سياسة عدم الانحياز في سـياقات الاسـتقطاب العالمي والحرب الباردة. ولقـد ظل عبد الناصر في القلب من حركة عدم الانحياز بما ظل منطويًا عليه من علاقة غير مسـبوقة بالجماهير التي أحبته ومنحته ثقتها في كل مكان.

أذكـر أن عامـي الجامعي الأول بكليـة الآداب في جامعـة القاهرة لم يمـضِ قبل أن يحفر في قرارة عقلي المزيد من حضور دلالات الرمز الذي تحـوّل إليه عبد الناصر الذي صار حبيب الملايين بالفعل. كنتُ داخلا إلى الكليـة فـي صباح أحد أيـام الشـهر الأول أو الثاني من العام الدراسـي، لم أعـد أذكر على وجه التحديد، فلاحظتُ تجمعـا من بعض الطلاب العرب يهتفون هتافات قومية، فجذبني التجمع الذي توجهتُ إليه بدل الدخول إلى الكلية وشيئا فشيئا، أخذ التجمع يتزايد وتعلو هتافاته، وسرتُ مع السائرين فـي اتجـاه مدخل قاعة احتفـالات جامعة القاهـرة. وصعد قـادة المظاهرة إلى أعلى سـلالم المدخـل ليخطبوا في بقية الطلاب الذين احتشـدوا أمام درجات سلّم المدخل، ودفعتني الحماسة إلى الصعود والوقوف إلى جانب المتحدثين الذين كان أغلبهم من غير المصريين. واسـتغرقني الموقف فلم أنتبـه إلا إلـى حركة غير عادية حولـي. وفجأة، وجدت جمـال عبد الناصر بشـخصه وجسـمه، يبرز من داخل قاعة الاحتفالات، ويقف بيننا، باسـما، حانيا، وفزعت من الدهشة، وأحسبني أُصِبتُ برجفة لم أعهدها، فقد كانت تلـك هي المرة الأولى والأخيرة التي أجد نفسـي فيها قريبا من عبد الناصر الـذي لاحـظ فزعي، فربت علـى كتفي بحنو الأب الباسـم، ولم يسـتغرق الأمر سـوى ثوان خاطفة، تصدّر بعدها المتحدثين، ولا أعرف من أين أتوا

له بميكروفون من تلك الميكروفونات التي كان يستخدمها رجال المرور.

وأخـذ عبـد الناصر يخطـب، ويحدّثنـا عن الهمـوم القوميـة التي كنا نهتـف مطالبيـن بتحقيـق أحلامهـا، وظل يتحـدث ونحن نسـتمع إليه كأن على رؤوسـنا الطير، ولم أنتبه إلا والتجمع الطلابي يغدو حشدا حاشدا في دقائق. وامتلأت السـاحة الواسـعة المواجهة لقاعـة الاحتفالات بالطلاب الذين ضاقت عن اسـتيعابهم رغم اتسـاعها الكبير، وظل الحشـد الحاشـد يتزايد بمجموعات جاءت من كل اتجاه، وأخذت الأتوبيسـات المارة أمام الجامعة تتوقف بمجرد أن عرف الركاب أن عبد الناصر يخطب في سـاحة جامعة القاهـرة. وكدت أختنق من وطأة الزحام في موضعي الذي حاولت التشبث به، وظللتُ أصارع كي أبقى قريبا من هذا الزعيم، ولكنني لم أفلح إلا فـي البقـاء على أعلى سـلالم مدخـل قاعة الاحتفـالات، حيث لمحتْ عيناي الأمواج البشـرية الممتدة مـن داخل الحرم الجامعي إلى خارجه في الطريـق الـذي لا ينتهي مع كوبري الجامعة ولم أعد أسـمع سـوى صوت الآلاف العديـدة مـن الجماهير التي صارت كلها جسـدا واحدا. أما أنا فقد تحوّلـت، بـدوري، إلى خلية من خلايا هذا الجسـد المتطلعـة نحو حبيب الملايين.

الإحباط الأول

أذكر شعوري بالفرحة الغامرة عندما تخرجت من كلية الآداب جامعة القاهرة في شهر يونيو سنة 1965، فقد حصلت على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، وهو تقدير لم يكن قد حصل عليه أحد قبلي منذ سنوات. كنت الأول على خريجي قسم اللغة العربية، بل كنت الأول على كل أقسام اللغة العربية في الجامعات المصرية. وخالط شعوري بالفرحة شعور موازٍ بالراحة، فقد رأيت اجتهاد السنوات الأربع يكلّل بالنجاح الذي يفتح كلّ الأبواب المغلقة. وملأتني الآمال العريضة، وتخيلت نجاحي موضع تكريم من الجميع، وبخاصة القسم الذي تخرجت منه والكلية التي أنتسب إليها والجامعة التي أنتمي إلى تقاليدها العظيمة. وتصورت نفسي أعمل في القسم نفسه الذي كان يعمل فيه طه حسين، وأنني سائر على الدرب نفسه الذي كدحت للمضي فيه.

ولكن، للأسف، بقدر ما كانت فرحتي غامرة كان إحباطي كبيرا، فلم تَسْعَ الكلية إلى تعييني، ولم يصدر قرار بتكليفي للعمل معيدا كما جرت عليه العادة في ذلك الوقت، وتركني القسم الذي حلمت طويلا بالعمل فيه دون عمل رغم أني كنت أتوقع الاحتفاء بي وتكريمي لتفوقي، وقيل لي إن السبب في ذلك هو العراك الذي كان دائرا بين الأساتذة الكبار في القسم، واستمر دائرا إلى أن تخرجت وأصبحت ضحية مباشرة له. وكان لابد لي من البحث عن عمل كي أخفف العبء عن أسرتي التي كانت في

حاجة إلى عوني أكثر مما أنا في حاجة إلى عونها. وبدأت جولة البحث عن العمل بقراءة الإعلانات عن الوظائف الشاغرة.

وكان أول بصيص من الضوء على هيئة إعلان عن الحاجة إلى موظفين جدد في إدارة العلاقات العامة بمحافظة الجيزة، فتقدمت بأوراقي وكلي ثقة في القبول، فتقديري المرتفع يشفع لي، وأولويتي لابد أن تكون خير واسطة لي. ودخلت إلى لجنة الاختبار بهذه الثقة، لكن رئيس اللجنة نظر إليَّ في ريبة، بعد أن رأى تقديري وعرف بأمر أولويتي، وسألني: هل أنت شيوعي؟ فقلت: لا، فأعاد السؤال: وهل أنت من جماعة الإخوان المسلمين؟ فقلت: لا، فقال: ولماذا تأتي للعمل عندنا ولا تعمل في الجامعة مع أنك متخرج بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف؟! لابد أنك من المغضوب عليهم. وحاولت، عبثا، إفهام الرجل أنني لا علاقة لي بالإخوان أو الشيوعيين، وأنني ظللت سنوات الجامعة منكبا على كتبي، مدمنا الجلوس في المكتبة. ولكن ذهب كلامي هباء، فلم يبد علي وجه الرجل أنه اقتنع بأي شيء قلته. وأغلق باب الكلام بقوله: على كلٍّ انتظر إلى أن يأتيك خطاب من المحافظة. وبالطبع لم يأت أي خطاب، فقد كان واضحا من نظرات أعضاء اللجنة أنهم لن يقبلوني.

ولم أقض فترة الانتظار في سكون، إذ سرعان ما عاودت البحث عن وظائف خالية، وظللت أبحث إلى أن وجدت إعلانا من كلية النصر بالمعادي عن حاجتها إلى مدرسي لغة عربية، وتقدمت بأوراقي، وقابلت لجنة الاختبار. وللأسف، تكرر الموقف نفسه، وتكررت الأسئلة ذاتها تقريبا. وكانت النتيجة الرفض نفسه بسبب التقدير الذي أصبح نقمة بعد أن كان نعمة. وعدت إلى إحباطي الذي لازمني إلى أن قرأت إعلانا عن مسابقة أقامتها وزارة التربية والتعليم لمدرسي اللغة العربية من المتخرجين الجدد

مـن الجامعـات المصرية، فتقدمـت إلى المسـابقة، ودخلـت الامتحانات التحريرية والشـفهية، ولم أكن واثقا من النجاح هذه المرة، بل كنت متوقعا المزيـد من الإحباط. ولكـن حدث ما لم أتوقعه، إذ عندمـا ظهرت النتيجة وجدت اسـمي الثالـث على ثلاثة آلاف متقدم، فحمدت الله، واسـترحت بعـض الشـيء حين علمـت أن العشـرة الأوائل يعينـون، عادة، فـي مدينة القاهرة، الأمر الذي كان يتيح لي مواصلة برنامج الدراسـات العليا. ولكن لم تأت الرياح بما تشـتهي السـفن، فقد صدر قرار من وزير التربية والتعليم فـي ذلك الوقـت بعدم تعيين أحـد في العاصمـة، ومن ثمَّ فقد تقـرر تعيين الأوائل في المحافظات الملاصقة للقاهرة.

وكان نصيبي الذهاب إلى محافظة الفيوم المجاورة لمحافظة القاهرة. فأخـذت أوراقـي وذهبت إليهـا، وتوجهت إلى مديرية التعليـم بها، متوقعا أن أعمـل في مدينة الفيوم نفسـها. ولكن، للأسـف، كان مفتـش أول اللغة العربية درعميا (نسـبة إلى كلية دار العلوم)، فأصدر أوامره بتعيين خريجي دار العلـوم فـي عاصمـة المحافظـة، وتعييـن المتخرجيـن مـن الأزهر في المناطق المحيطة بمدينة الفيوم. أما المتخرجون أمثالي من كليات الآداب فكان نصيبهم أطـراف الفيوم، والطريف أنه عندما أخبرني، في لهجة آمرة، بضـرورة ذهابـي فورا إلى مدرسـة «طبهار» الإعدادية المشـتركة، حسـبت هذه المدرسـة في أحد أحياء مدينة الفيوم، فلم أكن عرفت بعد نوايا سـيادة المفتـش الأول. وسـألت عن كيفيـة الذهاب إلى هذه المدرسـة فقيل لي : اركب «الأتوبيس» من المحطة المجاورة لمديرية التعليـم.

هكـذا، وجدت نفسـي أركب «الأتوبيـس» إلى قرية «طبهـار» للعمل مدرسـا في مدرسـتها الإعدادية المشـتركة. ولـم يكن معـي حقيبة ملابس،

فقد كنت أظن أني لست في حاجة إليها، كما كنت أحسب أنني سأعود من الفيوم إلى القاهرة في اليوم نفسه بعد أن أتسلم عملي في إحدى مدارسها، وأنني لن أضطر إلى الإقامة ما دام من الممكن الذهاب والعودة يوميا بواسطة المواصلات الميسورة. وعندما أنزلني الأتوبيس أمام المدرسة، لم أجد أحدا في انتظاري. ووجدت نفسي واقفا أمام مدرسة ريفية مغلقة الأبواب، فقد كان اليوم الدراسي قد انتهى قبل وصولي بساعتين على الأقل، ولم يكن في المدرسة التي ظللت أدقّ على أبوابها سوى البواب الذي فتح لي الباب في النهاية بعد أن تعبت يداي من دق الباب، ولم يُخْفِ اندهاشه من إلحاحي على دق الباب، فأخبرته بأنني مدرس في المدرسة، أوفدني سيادة المفتش الأول لكي أبدأ العمل. ويبدو أن ملامح وجهي الذي اختلطت عليه قطرات العرق بالغبار جعلت البواب يتعاطف معي، فأجلسني إلى جواره في حجرته على «الدكة» الخشبية التي كان يجلس عليها، ورحّب بي، وصنع لي شايا قدمه لي، وابتسم مشفقا عندما سألته عن موعد الأتوبيس الذي يمكن أن يعود بي إلى مدينة الفيوم، وأفهمني أنه لم تعد هناك وسيلة مواصلات متوفرة، وأن عليَّ البقاء في القرية. وعندما سألت الرجل عن كيفية بقائي وليس معي سوى ملابسي التي أرتديها، أجابني بأن الله كريم، وأنني يمكن أن أذهب إلى مدينة الفيوم في الغد بعد تسلم عملي. أما عن المبيت فأخبرني بأنه سيقوم باللازم، وأنني يجب ألّا أقلق على المسكن فالمسكن موجود.

وبعد أن فرغت من احتساء الشاي، أخذني البواب إلى أحد أبناء القرية كي أستأجر منه حجرة في منزل مهجور، كان مقرا للوحدة الصحية قبل أن

تنتقـل منه إلى مبنـى ثابت، وأعطانـي الرجل الحجرة التـي كانت مخصصة لطبيـب الوحدة بالسـرير الحديدي الـذي كان لا يزال باقيـا فيها، مع مكتب معدني متهالك. وقضيت ليلتي بلا نوم في هذه الحجرة التي عانيت فيها من النامـوس الذي لم يكف عن تعذيبي طوال الليل، فضلا عن الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث من الحفرة التي كانت تسـتخدم دورة مياه في طرف ساحة المنزل الداخلية. وظللت أرقب طلوع الصبح إلى أن حل أخيرا، كالح الوجه كما لو كان يحمل أثر الليلة التي قضيتها. وذهبت إلى المدرسة التي وصلت إليها مبكرا ، وجلسـت أنتظر سيادة الناظر الذي جاء أخيرا، وسلمني العمل، وعهد بي إلى سكرتير المدرسة الذي أعطاني جدول الحصص المطلوبة مني. ولم ينس الناظر خلال ذلك كله أن يوصي الفراش بمساعدتي في الاستقرار بالحجرة المقبضة التي أصبحت سكنا لي.

وبدأت عملي مدرسـا في المدرسـة الإعدادية المشـتركة التي كانت بعـض فصولها مفتوحة على المزارع التي يمـر بها الفلاحون الذين تعودوا علـى تحيـة «الأسـاتيذ» (الأسـاتذة) وتوصيتهم علـى أبنائهـم وبناتهم في غدوهـم ورواحهم. ولـم يكن أمامي بعد ذلك إلا العـودة إلى القاهرة ليوم واحد فحسـب، بعد أن اسـتأذنت سـيادة الناظر، لإحضار حقيبة ملابسـي، وإعـداد نفسـي لمعانـاة وقائع الإحبـاط الأول فـي حياتي العملية. وشـيئا فشـيئا، حاولت التكيف مع عالم المدرسـة والقرية، وبدأت أتعود تحضير الدروس، وتصحيح الكراريس، والإشـراف علـى طوابير الصباح، ولكني لـم أنس محاضرات الدراسـات العليا فـي الجامعة، فطلبت مـن الناظر أن يساعدني على تركيز جدولي بعيدا عن يوم الخميس لأسافر ظهر الأربعاء، لألحق بقية الدروس المسائية للدراسات العليا في الجامعة، فقد ظلَّ حلم

العمل في الجامعة باقيا في داخلي كالشمعة التي تنير عتمة الإحباط الذي أحاط بي في تلك القرية النائية.

* * *

وأذكر أن الأشهر المعدودة التي قضيتها في مدرسة قرية «طبهار» الإعدادية المشتركة، وهي إحدى قرى محافظة الفيوم، كانت تجربتي الأولى في العمل الحكومي، ومصدر خبراتي الأولي في التعامل مع الواقع الجهم بعيدا عن عوالم الأحلام الوردية والأوهام الذاتية. ورغم كثرة الوقائع المحبطة التي عانيتها في هذه القرية، فإنني مازلت أذكر الشهور التي قضيتها فيها بالعرفان، فقد تحوَّلت في مدرستها من شاب حالم، غارق في تصوراته المثالية التي أسقطها على العالم حوله، إلى شاب يعاني أوجه فساد الواقع الفعلية، ويصطدم كل يوم بما يزيده وعيا بحقائق الحياة التي لم تعد وردية بحال. ويبدو أن شخصية التلميذ الذي يحرص على أن يكون الأول دائما كانت بمثابة دافع دفعني إلى النجاح في مهنة التدريس، وإلى الفوز بمحبة الطلاب والطالبات الذين أحاطوا بي، وجعلوني أبتهج بهم، وأبذل جهدي في تعليمهم، الأمر الذي جعلني أندمج في عالم التدريس من غير أن أشعر، وأمضي في ابتكار وسائل تعليمية أرتجلها ارتجالا لاجتذاب المزيد من الطلاب والطالبات إلى عوالم المعرفة اللانهائية. وصادقني الأساتذة الذين كانوا يحرصون على الجدية في العمل، ويؤمنون بدور المعلم في الحياة. وفي الوقت نفسه، كان لابد من الاصطدام بأولئك الذين جعلوا التدريس تجارة مربحة، بعيدا عن معنى العلم وقيمه وأخلاقه.

ومرّت الأيام إلى أن جاءني زملائي مدرسو اللغة العربية يبلغونني بقدوم سيادة المفتش للتفتيش، وطلبوا مني بعض الجنيهات القليلة لشراء

هدايا لسيادته (طيور ولحوم وأصناف من الجبن والزبد). ولسذاجتي وبراءتي رفضت إعطاء أحدهم شيئا، معلنا أن هذا يدخل في باب الرشوة التي أرفضها، فسخروا مني وتركوني بعد أن حذروني من نتائج موقفي. وجاء سيادة المفتش الذي كان أول ما طلبه مني أن أريه بعض كراريس الطلاب، فأعطيته الكراريس التي وجدتها أمامي. ولم أكن أعرف أن زملائي المدربين كانوا يجهزون كراريس خاصة للتفتيش، يتولون تصحيحها بعناية فائقة على عكس بقية الكراريس التي لم يكونوا يصلحون أخطاءها إلا فيما ندر. وظل المفتش يقلب في الكراريس التي قدمتها له، ويعدّد لي الأخطاء التي فاتتني في تصحيح كلمات مثل «استنصر» المكتوبة بخط النسخ، وتحملت التأنيب في صبر، كما تحملت عجرفة المفتش الذي عاملني بطريقة عدائية، ربما لأن بعض الزملاء أبلغوه برفضي الإسهام في شعيرة تقديم الهدايا المعتادة.

وعدت إلى حجرتي المقبضة بعد ذهاب المفتش محملا بالخيرات التي اشتراها زملائي الذين أعلن رضاءه عنهم جميعا، كما أنذرني بضرورة الانتباه إلى عملي وتحسين أدائي في التدريس. وشعرت أنني كالمنبوذ في غرفتي التي توحّدت فيها. وحاولت الهروب من إحباطي بالجلوس إلى المكتب «المخلّع» والانهماك في تحضير دروس الغد، لكنني لم أستطع، فقد وصل إحساسي بالظلم إلى مداه، وجلست أسترجع الأحلام التي انطويت عليها بعد تخرجي مباشرة، وتفوقي الذي فتح أمامي أبواب الأحلام الوردية على مصراعيها، والواقع المقبض الذي أصبحت أعايشه. ولا أدري كيف تسلل إليَّ صوت جمال عبد الناصر يلقي إحدى خطبه، بل كيف ارتفع الصوت الذي كان صادرا من المنزل المجاور. وأخرجني

كلام الخطبـة من التداعيات الحزينة التي انغمسـت فيهـا، وبدأت أنتبه إلى حديـث عبد الناصر عن العدل الذي لابد من تحقيقه. وقلت لنفسـي : هذا الرجل يتحدث عن عدل غير موجود، ويتوهم وجود نظام عادل يرأسـه مع أن كل مـا حولـي يؤكد الظلم. ولم أدر إلا وأنا أمسـك بالقلـم، وأكتب إليه في الصفحة الخالية أمامي من كراسـة التحضير خطابا عن العدل الغائب، شارحا حالتي، محدثا إياه عن النهاية التي انتهيت إليها على الرغم من كوني الأول علـى كل أقسـام اللغة العربية، وعلى الرغـم من حصولي على تقدير ممتاز مع مرتبة الشـرف. وأحسـب أن الانفعال جرفني فكتبت له عن عدم تصديقي وجود العدل في العالم الذي يسـعى إلى صياغته من جديد. وبعد أن انتهيـت من كتابة الخطـاب، وأفرغت انفعالي فيه، وضعت الخطاب في مظروف، وألصقت عليه طابع بريد، بعد أن كتبت عنوان رئاسة الجمهورية. ولـم أشـعر بالراحة إلا بعد أن وضعت الخطاب في صندوق بريد القرية في اليوم نفسه.

ومضـت الأيـام بعـد ذلـك، ودخلت فـي دوامـة التدريـس، محاولا اكتشـاف الأبعاد الموجبة في الوضع الذي اضطررت إليه، محاولا ملاحقة محاضـرات الدراسـات العليا بفضل الأصدقـاء الذين كنت أسـتعير منهم المحاضرات التي فاتتنـي. ولكنني على الرغم من كل محاولاتي لم أنجح في التكيف، وعجزت عن إقناع نفسـي بالصبر، وأسـهم فـي توتر الموقف سـيادة المفتش الذي لم يكف عن اسـتفزازي لرفضي الإسـهام المالي في هدايـاه، ووصل به العداء إلى ذروته في إحدى الزيارات التفتيشـية، فانتهى بـي الأمر إلـى الانفجار والثورة عليه أمام التلاميـذ، ودفعتني ثورة الغضب إلـى الخـروج من المدرسـة، عاقـدا العزم علـى أن لا أدخلها مـرة أخرى. وعدت إلى القاهرة أعاني من الكآبة التي زادها الشعور بالظلم.

وما كدت أستقر في منزلي بالقاهرة في المساء حتى أخبرني زميلي في السكن بأن الدكتورة سهير القلماوي رئيسة قسم اللغة العربية أرسلت من يستدعيني لمقابلتها في مكتبها بمجرد عودتي، وذلك لأمر بالغ الأهمية. ويبدو أن متاعب اليوم وإحباطاته دفعت بي إلى النوم سريعا، فظللت نائما إلى الصباح. وكان أول ما فعلته بعد استيقاظي ارتداء ملابسي والخروج لمقابلة الدكتورة سهير القلماوي التي لم أكن أعرفها معرفة حميمة بعد. وكانت المفاجأة السارة الأولى في اللقاء ترحيبها الحار بي، وعتابها لأنني لم أحاول التعرف إليها والاقتراب منها خلال سنوات الدراسة. أما المفاجأة السارة الثانية فكانت إبلاغي أن موضوع تعييني معيدا في القسم قد انتهى إلى ما يسعدني، وأن عليَّ الذهاب لمقابلة رئيس الجامعة لتحيته والتعرف به.

وخرجت من عند أستاذتي إلى مكتب رئيس الجامعة وأنا أكاد أطير من الفرح، غير بعض التردد الذي عاودني عندما دخلت غرفة مدير مكتب رئيس الجامعة الذي صدّني أكثر من مرة، ولم يسمح لي بمقابلته لأشكو له الظلم الذي حال دون تكليفي معيدا. ولكن التردد اختفى عندما رأيت علامات الترحيب على وجه مدير المكتب الذي طلب مني الانتظار، وغاب قليلا ليعود طالبا مني الدخول إلى مكتب رئيس الجامعة الذي ما إن رآني حتى نهض من كرسيه وأقبل عليَّ متهللا مرحبا. وكانت دهشتي كبيرة عندما احتضنني الرجل، وظل يربت على كتفي في حنو أبوي قائلا : لماذا لم تأت إليَّ من قبل وتحدثني عن عدم تعيينك؟! ولم أستطع الإجابة، فقد جئت إلى مكتبه أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت أعود مدحورا. ويبدو أن الرجل استشعر شيئا من صمتي فقطعه بقوله : على كل حال، لقد أصدرت

قرار تعيينك معيدا، فاذهب إلى أمين الجامعة لاستكمال أوراق التعيين، ولا تنس أن بابي مفتوح لك دائما إذا احتجت إلى أي شيء.

وخرجت من مكتب رئيس الجامعة قاصدا مكتب أمين الجامعة، وأنا أدعو للدكتورة سهير القلماوي في أعماقي، متصورا أنها هي التي كانت وراء هذا التحول في الموقف. ووصلت إلى مكتب أمين الجامعة الذي بادرني بقوله : أأنت الذي فعلت بنا كل ذلك؟! فقلت له: أنا لم أفعل شيئا، وبارك الله في أستاذتي التي ساندتني ودافعت عني. فنظر الرجل إليَّ نظرة تعجب، وقال: أستاذتك؟! هل تهزأ مني يا ابني؟ ألم ترسل شكوى إلى رئيس الجمهورية؟؟ وأخرج الرجل من أحد أدراج مكتبه الخطاب الذي كنت قد أرسلته إلى جمال عبد الناصر ونسيته مع الوقت. وأعطاني الرجل الخطاب لأرى ما فيه، فوجدت تذييلا على الخطاب بقلم عبد الناصر، وجهه إلى وزير التعليم العالي، آمرا بالتحقيق، وتحته تعقيب من وزير التعليم العالي إلى رئيس جامعة القاهرة آمرا بالتعيين والتحقيق، وتحته خط رئيس جامعة القاهرة الذي أصدر قرار التعيين الفوري.

وبعد أن قرأت هذا كله، أعدت لأمين الجامعة الخطاب دون أن أنطق حرفا، فقد ضاعت مني كل الكلمات، وظللت صامتا، متوترا، مرتعشا، تناوشني شتى الانفعالات التي لم تفارقني طوال الجلسة، وفي أثناء توقيعي على الأوراق التي طلب مني أمين الجامعة توقيعها. وخرجت من عند الرجل لأعود إلى كلية الآداب لأكمل إجراءات تعييني في القسم الذي لا أزال أعمل به منذ التاسع عشر من مارس سنة 1966، بسبب ذلك الخطاب الذي أرسلته من قرية نائية إلى جمال عبد الناصر طالبا العدل الذي تحقق على يديه.

الذكرى الثلاثون

مضى شهر سبتمبر بأفراحه القليلة وأحزانه الكثيرة وذكرياته التي لا تفارق اللون الرمادي، فهو شهر يقترن في وجداني بمشاعر الانكسار والألم والإحباط، أخاف من مقدمه كما لو كنت أخاف مقدم النذير الذي يحمل معه أخبار فقد الأحبّة، وأحاول تجاهله عندما يأتي على أمل أن يرحل بأقل قدر ممكن من الخسائر أو الأحزان. ولا أنسى، قط، أنه الشهر الذي اختطف فيه الموت أحمد عرابي (المتوفى في 1911/9/21) وأحمد حسين مؤسس مصر الفتاة (المتوفى في 9/29 / 1982) ولويس عوض (المتوفى في 1990/9/14) ولطيفة الزيات (المتوفية في 1996/9/11) واختطف غيرهم من عشرات الرموز اللامعة في كل اتجاه وفي كل مجال. ولست في حاجة إلى تعداد من فقدناهم في هذا الشهر. يكفيه أنه الشهر الذي فجع الأمة العربية كلها بوفاة جمال عبد الناصر في (1970/9/28) وتركها بلا زعيم يجمعها من المحيط إلى الخليج ويقودها في رحلة الكرامة المقترنة بأحلام الحرية والاشتراكية والوحدة.

ولكن محاولتي الهرب من تداعيات سبتمبر لم تمنعني من ملاحظة أنه جاء هذه المرة بالذكرى الثلاثين لوفاة جمال عبد الناصر، فحمل إلينا صور الماضي الذي كان صحوة الحلم العربي الذي أيقظ في وجدان الأمة العربية كلها، كرامة التحرر الوطني التي امتلأت بها النفوس بعد عقود طويلة من العبودية، أمل العدل الذي أخذ يرفرف على المظلومين حاملا

لهم بشارة الخلاص من ظالميهم، يقظة الشعور القومي الذي اندفع كالسيل ليكتسح كل ما كان يعوقه من قبل، الرأس المرفوعة التي ظلت تقول للعالم كله : أنا عربي حطّمت قيودي، وأمضي مبشّرًا بعالم جديد يجمعني وأقراني في كل مكان يتطلع إلى وعود الزمن الآتي بالنجوم الوضّاءة.

لا أعرف لماذا اكتسحتني الذكريات الناصرية قوية عنيفة هذه المرة؟! هل لأنها الذكرى الثلاثون لوفاة البطل الذي كنا نرى فيه الأب والقائد والزعيم والمخلّص والحامي والنصير الذي لم ننظر إليه على أنه حاكم قط؟! هل لأن استدارة الرقم الثلاثين تسقط معنى الدائرة على الذكرى فترد اليوم الحاضر على الأمس البعيد فتبعثه حيا من مكمنه النائي في الذاكرة؟! هل لأن مرارة الواقع القومي الذي نعيش انكساره بدرجات متفاوتة من المحيط إلى الخليج تدفعني إلى تذكّر نقيضه؟! هل لأن الكثير والكثير من الفساد الذي نشهده متجسدا في رموز السياسة المعاصرة يوقظ في ذاكرتنا صورة القائد الزاهد الذي لم يعرف عنه أحد فسادا؟! هل هو الغوص المتزايد الذي وصل إلى قرارة القرار من قاع عالم التبعية الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت إمبراطورة زماننا الجديد؟! هل هو الصلف الإسرائيلي الذي وصل إلى غايته، ولا نجد له مدفعا إلا بشكوى الضعفاء إلى ولاة الأمر الذين يشجعون الصلف الإسرائيلي بأشكال مباشرة وغير مباشرة؟!

قد يكون الأمر راجعا إلى كل ذلك وإلى أكثر منه، لكن المؤكد أن هذه الذكرى الثلاثين لوفاة عبد الناصر تأتي لتأخذني، وتأسرني، وترجُّني، وتعصف بي، وتشدني إلى زمان لم نعد نملك منه سوى ذكريات أحلامه

المنتصـرة، وتعيدنـي إلـى زمـان لم يعـد لنا فيه سـوى حلـم الخلاص من كوابيســه المهزومة، فنتمزق ما بين الزمانين، كما لو كنا نتقلب ما بين الورد والرمـاد، الذي يأتي والـذي لا يأتي. تدفعنا كوابيس الحاضر إلى اسـتعادة الماضي والخلاص به، كما لو كنا نهرب من الكوابيس إلى الحلم، ونحلم بالعـودة إلـى حيث كنا، مع أن الزمن لا يمكـن أن يعود إلى الوراء والتاريخ لا يتحرك إلى الخلف.

المؤكـد أن تزايد وطأة لحظـات الحاضر هو السـبب الأول في تزايد عمليات اسـترجاع الماضي واسـتعادة لحظات انكسـاره بواسـطة الذاكرة التـي تتحـول إلى جـرح ودواء للجـرح. وفي مثل هـذه اللحظـات، تنفتح الذاكـرة علـى مصراعيهـا، لكنهـا لا تضيء مـن محتوياتها إلا مـا يتجانس وطبيعة الموقف الذي يحرك عمليات الاسـترجاع أو التداعي، وذلك على نحـو يدعو إلى الذهن صورة حجر المغناطيس الذي لا يجذب إليه إلا كل مـا يتجانـس وطبيعته. والذاكـرة في عمليـات تداعيها محكومـة بالموقف الـذي لا يجـذب من مخزونهـا إلا ما يؤكـده، وما يمكن أن يتجسـد به، أو يغدو دليلا على اتجاهاته الشـعورية واللاشعورية. وإذا كان هوان الموقف الذي نعيشـه على مستويات قومية عديدة يدفعنا إلى تذكر نقيضه في الزمن الماضي، على طريقة : الضد يظهر حسـنه الضـد، فإن فعل التضاد ينعكس علـى عمليات اسـتدعاء الماضي الـذي يبدو في أنقـى حالاته وفي أصفى أشكاله.

هكـذا، جعلتنـا الذكـرى الثلاثون نسـترجع أمجـاد عبـد الناصر التي لا تتداعـى في الذاكـرة إلا لتذكّرنا بنقائضها الحاليـة، وتجعلنا نلوذ بها من جهامـة الواقـع الـذي يطاردنا، فنحـنّ إلى الـرأس المرتفعة الشـامخة التي

لا تقبل الهوان من أحد، تغيير الخارطة الاجتماعية للوطن، وضع الأمة العربية موضع الصدارة من اهتمام العالم واحترامه، الكرامة القومية التي وجدت ما يرقى بها إلى مستوى أحلام الملايين، الملايين الذين أحاطوا بالقائد في كل مكان، فكانوا له الدرع والسند ومصدر الإلهام وجذوة الحلم المتجددة، كما كان لها وعد الخلاص من الاستعمار القديم الذي حمل عصاه على كاهله ورحل.

هذه الملايين تنطبع هتافاتها في ذاكرتي، موزعة على امتداد الوطن العربي الكبير الذي تفجّرت ثوراته التحررية واحدة بعد الأخرى، من المحيط إلى الخليج، في اندفاع عارم، اندفاع كانت خطى جيلي بعض ملامحه التي تجسّد بها وعينا، وتشكلت بها أحلامنا القومية الأولى، خصوصا بعد أن وضعتنا حرب السويس في مواجهة النصر على الاستعمار القديم وفلول عالمه الغارب، وزوّدتنا بمعرفة الذات القومية التي امتلكت إرادتها وحطمت قيودها، فتجسدت قوة لا نهائية خلاقة، متمثلة في حركة الجماهير العربية الصاعدة في كل مكان.

هذه الحركة الصاعدة هي السياق الذي ترك أحرفه الأولى في الوعي الذي سرعان ما عثر على طريقه القومي، وذلك في سنوات المخاض التي أنتجت مئات الآلاف بل الملايين من أمثالي الذين رأوا في عبد الناصر ربان السفينة القومية، وقائد المسيرة النضالية، وحامل أعلام الحرية الوطنية، فاندفعوا وراءه منذ العام السادس والخمسين، تماما كما اندفعتُ في صغري داخل مظاهرات الاحتجاج على العدوان الثلاثي، واعيا أنني لست وحدي، مدركا للمرة الأولى معنى الوحدة العربية التي تجسّدت شعوريا على امتداد العالم العربي الذي أصبح وطنا عربيا واحدا وفضاء قوميا متحدا.

وحين انتهت معركة السويس بانهزام الاستعمار القديم، كان الوطن العربي كله يغير صورته، كأنه العنقاء التي تنبعث من لهيب رمادها، كي تولد فتية في لحظة البعث التي يتجدد بها كل شيء في أسطورة الخلق. لقد كانت حرب السويس نهاية عهد كان لابد أن ينتهي بالإرادة العربية التي تفجرت كالبراكين، وبداية عهد يحمل كل إمكانات الولادة الجديدة، عهد واعد بصعود حركات التحرر الوطني، وتأجج الشعور القومي، وتدافع خطى استقلال الأقطار العربية المتحررة. وارتقاء شعوب العالم الثالث إلى المكانة التي انتزعتها. ولم تتغير الخارطة المصرية العربية وحدها في زمن عبد الناصر، بل تغيرت الخارطة العالمية كلها بما أخذ يفسح أبواب الأمل لشعوب العالم الثالث التي أصبحت قوة ثالثة لا يستهان بها، وذلك في علاقات التضاد بين القوتين العظميين في زمن الحرب العالمية الباردة.

وعندما ارتحلتُ من مدينتي إلى القاهرة لأغدو طالبا في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ازداد إدراكي لمعنى حضور عبد الناصر والقيم التي يتجسَّد بها وتتجسَّد فيه. وكان هذا الإدراك قد بدأ يتشكل قبل الرحلة إلى القاهرة، ففي مدينتي شاهدت استقبال العمال لعبد الناصر وأقرانه عندما زار المدينة للمرة الأولى. وفي المظاهرات التي كانت تخرج من المدرسة الثانوية عرفت المعاني الأولى للوحدة العربية، وفي تجمعات الشباب شاهدت الاستقبال القومي الحاشد لعبد الناصر في سوريا التي حملت جماهيرها سيارة الزعيم الذي أتاهم مبشرا بالمستقبل الذي طال انتظاره.

أما في الجامعة فقد اكتمل للوعي القومي حضوره في عقلي ووجداني، نتيجة المناخ العام من ناحية، وطبيعة التركيبة الطلابية بجامعة القاهرة في

بدايات الستينيات من ناحية مقابلة. فقد كانت الجامعة في تلك السنوات البعيدة تتوهج بمجموعات متنوعة من الطلاب الذين كانوا ينتسبون إلى أغلب الأقطار العربية، حيث كان يمكن أن يجتمع المغربي والتونسي والجزائري والمصري والسوري والعراقي والخليجي والسوداني وغيرهم ليتعرف كل منهم على الآخر بكل مشكلاته وأحلامه، ويتحاور معه في مواقفه وأفكاره، فيتفاعل مع التيارات التي أخذت تعلو على القطرية، وتجاوز العصبية القبلية، وتؤسس معنى الانتماء القومي في أكمل صوره.

هكذا، التفّت طليعة شباب الأمة العربية الذين جمعتهم اللحظة التاريخية الصاعدة في الفضاء الرحيب لجامعة القاهرة، وكان عبد الناصر نقطة الوصل التي تجمعنا والنموذج الأعلى الذي يشدنا، النموذج الذي كان يحسدنا عليه إخوتنا العرب من زملائنا في جامعة القاهرة في تلك السنوات البعيدة. ولا أزال أذكر وجوه الكثير منهم وهم يقولون لي، وسط موجات الحماسة القومية : أنتم محظوظون، بعبد الناصر الذي لا تعرفون قيمته مثلنا، ليته كان عندنا. وبالطبع، كنت أتعارك، كلاميا فحسب، مع هؤلاء الإخوة الأعزاء على حسدهم الذي كان مبعثه المحبة، والذي كان مصدره الإيمان بصدق الرسالة التي انطوى عليها الزعيم الذي أحبته الملايين وسارت وراءه بأحلام الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية.

زمن عبد الحليم حافظ

كنت مستعدًّا للكتابة، واتخذتُ طريقي إلى غرفة المكتب في منزلي الذي ضاق بكتبي، آملا أن أفرغ من المقالة التي كان لابد من تسليمها في صباح اليوم التالي. وفي طريقي إلى المكتب، مررتُ بحجرة المعيشة التي كانت تجلس فيها ابنتي تشاهد التليفزيون، وقبل أن أتطلع إلى شاشة التليفزيون، سمعت صوت عبد الحليم حافظ يدندن بأغنيته الشهيرة «بتلوموني ليه». توقفت قدماي رغم إرادتي، وتسمرت في مكاني دون أن أشعر، ولم تفارق عيناي الشاشة التي كانت تعرض فيلم «حكاية حب» وشيئا فشيئا، نسيت الذهاب إلى المكتب، بل نسيت المقال، ووجدت نفسي معلّقا بالفيلم الذي جذبني إليه مع أنني شاهدته مرات، ولم أفارق مكاني إلا لأجلس على أقرب كرسي صادفته. ولم أنطق بحرف، ولم تقل ابنتي حرفا، فقد استغرق كلانا في عالم عبد الحليم حافظ الذي جذبنا إليه، ليجد فيه كل منا ما يرغبه ويشتهيه.

أما أنا فقد أعادني عبد الحليم إلى ذكريات شبابي الباكر في الخمسينيات، حين كان عبد الحليم حافظ نجما واعدا، يقترب من وجداننا إلى أبعد حد، فكان نموذجنا الذي نشعر إزاءه بالقرب، خصوصا إذا قارنّا بينه وعبد الوهاب أو فريد الأطرش، وكلاهما كان أقرب إلى الجيل أو الأجيال السابقة علينا. عبد الحليم وحده رأينا فيه صورتنا كأننا نتطلع

في مرآة، شاب نحيف نحيل، مرهف المشاعر، رقيق الأحاسيس، معتز بفنه اعتزازه بكرامته، يتمتع بضحكة صافية تعكس سماحة طبعه وصفاء روحه، ينتسب إلى الشرائح الفقيرة من الطبقة الوسطى، ويسعى إلى أن يؤسس لنفسه مكانة يفرض بها حضوره الإبداعي على مجتمع لا يأبه به في البداية، ولكنه سرعان ما يلتفت إلى موهبته نتيجة الإصرار والصبر والإيمان بالإبداع الجديد الذي يستنزل المستحيل.

وكالعادة، في كل أفلام عبد الحليم حافظ التي حفظناها عن ظهر قلب، أو حتى قلب ظهر، كان البطل النحيف مثلنا يحب فتاة جميلة كنا نرى فيها فتاة أحلامنا البريئة. وكانت هذه الفتاة فقيرة مثله أحيانا، أو تنتسب إلى أسرة ثرية، لكنّ الفن الذي هو فوق الطبقات يجاوز الطبقات، ويقارب بين ابن الطبقة الوسطى الفقيرة، مثلنا، وابنة الطبقات الثرية مثل كل بطلات عبد الحليم اللائي أحببنا فيهن مثال الحبيبة التي كنا نبحث عنها. وكم بحثنا عن هذه الحبيبة في وجوه بنات الجيران اللائي لم تكن بينهن مَنْ تماثل جمال إيمان أو فاتن حمامة أو لبنى عبد العزيز أو صباح أو مريم فخر الدين أو ماجدة، وميرفت أمين في فترة لاحقة كان وجه كل واحدة من هؤلاء في اقترانه بعبد الحليم لا نظير له بين بنات الجيران اللائي سرعان ما انصرفنا عنهن إلى بنات المدارس المحيطة بمدرستنا الثانوية، وكن يختلسن النظر إلينا ونحن في الطريق إلى المدرسة في الصباح لعلهن يجدن في واحد منا شبيها بعبد الحليم الذي فتنهن مثلما فتننا. وكنا نحن، بدورنا، نبحث فيهن عن شبيهات بطلات أفلام عبد الحليم، فإذا لم نجد شبها واضحا اختلقنا الشبه واستبدلنا بالصور الواقعية التي نراها صورا من صنع خيالنا.

ولعل هذا هو السر في فشل كل قصص حبنا الأولى ونحن في المدرسة الثانويـة، فقد كنا نعشـق صور الخيال لا صـور الواقع، ونحب المثال الذي صاغـه لنا الوهم، ونحـن نتابع بأعيننـا المبهـــورة حبيبـــات عبد الحليم علـى الشاشـة الفضية التي كانت تنطلـق بخيالاتنا الغضة إلـى الذرى، ولم نحب، قط، الفتيات المتعينات اللائي كن من لحم ودم واللائي سـرعان ما كنّ يتحدثن عن مشـكلات الواقع التي تتحطم على صخرتها كل أحلامنا، فتذبل براعم حبنا تحت شـمس الواقع الذي بـدا مترصدا بتوقنا إلى الحب الجميل والحبيبة التي لا تنتسب إلى هذا العالم الأرضي الفاسد.

ولـم يكن فسـاد العالـم الذي كرهنـاه لأنه نقيـض براءتنا يفعل شـيئا سـوى أن يعيدنـا إلـى عبد الحليـم، ابتداء مـن لحظات الحب المنكسـرة، وانتهاء بقسوة القدر الذي يسلب المحبين أيامهم الحلوة التي كانت «أيامنا الحلـوة». أذكـر أنني ذرفت الدمـع على موت فاتن حمامة فـي هذا الفيلم، وخرجت من السينما، في مدينة المحلة الكبرى، وأنا أكره القدر الذي سلب عبـد الحليـم حبيبته التـي ضاعت منه ومنـي. هذه الدموع نفسـها عاودتني عندما أعلن الطبيب القاسـي (محمود المليجي) أن المطرب الشاب أحمد سـامي (عبد الحليم حافظ) مريض بالقلب، ولن يعيش أكثر من عام. وإزاء هـذه الكارثة، تمسـكت الحبيبـة (مريم فخـر الدين) بحبيبهـا الذي قررت أن تمنحـه أجمل سـنوات عمـره. ولكنّ القـدر كان رحيمـا بالمحبين هذه المـرة، فيذهب الحبيب إلـى الخارج ويعالج ليعود إلـى حبيبته المخلصة، وينتهي الفيلم لنخرج إلى الطرقات والسعادة تملأ جوانحنا، والعالم وردي بأحلامنا، ونحن ندندن أغاني الفيلم الذي فتننا.

وقد بلغ بنا التقمص الوجداني لشخص عبد الحليم مبلغه، فقد أصبحنا نخوض معه كل تجربة حب، ونخوض معه كل تجربة فشل للحب، وما أكثر ما احتضنّا «الوسادة الخالية» في نومنا، ولعنّا خيانة الحبيبة التي تركت «صلاح» التلميذ مثلنا لتتزوج من طبيب، فيقرر صلاح الذي أصبح صورة لنا أن يذاكر ويتفوق وينجح في الحياة ليصبح أنجح من هذا الطبيب. وكم كنت أتصور نفسي مثل «صلاح» في «الوسادة الخالية» لكن بلا «سميحة»، فقد كانت «سميحة» بنت الجيران أقبح من أن أتعلق بها لحسن الحظ، فتعلقت بفكرة النجاح والتفوق، وظللت أذاكر وأنجح إلى أن أدمنت كوني الأول على أبناء فصلي الدراسي ثم الجامعي.

لا أعرف هل كنت قد تخرجت من الجامعة حين شاهدت فيلم «الخطايا» أم لا؟ كل ما أذكره أنني شاهدت هذا الفيلم في كلية الهندسة بجامعة القاهرة. لماذا؟ لا أعرف. ربما كان السبب أن الفيلم صُوِّرت مشاهده في هذه الكلية، وأن اتحاد الطلبة، في نوع من المباهاة بالكلية التي تم تصوير الفيلم بها، قرر عرضه للطلاب، فذهبت مع زميل لي من كلية الهندسة، وشاهدت عبد الحليم الذي حفر لنفسه مكانة لا تمحى في وجداني، وكان في الفيلم، كما كان في أغلب أفلامه أو كلها، الشاب المظلوم الذي يدفعه شعوره الخفي بالظلم إلى الوعي بالمسؤولية، ومن ثمَّ التفوق في العلم والنجاح الذي تقمصناه نحن الطلاب الذين شاهدنا الفيلم في أحد مدرجات كلية الهندسة، وظللنا جميعا نغني مع البطل كما لو كنا نغني مشاعرنا «الناجح يرفع إيده».

أذكر أن مستقبلي لم يتحدد تماما في هذه السنوات، وأن حلم النجاح والتفوق لكي أكون معيدا في كلية الآداب لم يكن يفارقني. ولذلك كنت

أغنـي : «الناجـح يرفع إيده» وأنا أتخيل نفسـي الأول على كل أقسـام اللغة العربية في الجامعات المصرية، كما أتخيل نفسي تلميذا لطه حسين وجالسا على كرسيه في قسم اللغة العربية. لم يكن مهما أن أحب فتاة في جمال نادية لطفي، أو على الأقل كنت أهمس بذلك لنفسي تبريرا لخيبتي مع البنات التي كان سـببها خجلي الشديد، وخوفي من خوض تجارب تبعدني عن هدف التفـوق. وكنت أحلم أن تلحظنـي ذات يوم فتاة في جمال مريم فخر الدين أو فاتـن حمامـة أو حتى ناديـة لطفي، وتأخذ بيدي، مؤمنـة بعبقريتي طبعا، ونمضـي معـا إلى طريق النجاح، ونغنّي لأنفسـنا في النهايـة «الناجح يرفع إيـده». لكن لم يتحقق من ذلك الحلـم البعيد إلا نصفه. نجحت وتفوقت، وكنـت الأول، وأصبحت معيدا في قسـم اللغة العربية الذي ترقيت فيه إلى أن أصبحت رئيسـه لسنوات عديدة، فجلست على كرسي طه حسين، لكن لا أزال، إلى اليوم، ولتسـامحني زوجي، أبحث عن وجه أشـبه بوجه مريم فخر الدين الخمسـينيـات، أو أشبه بوجه لبـــنى عبد العـزيز منذ أكثر من ثلاثيـن عاما، ولا أزال، إلى اليوم، أبحث عـن الحبيبة المثالية التي تخيلتها فحسـب، وحلمت بها نموذجا للطهر والبراءة، في مطلع الصبا، وإلى الآن لم أجد هـذه الحبيبة التي ظلت ذكرى جميلة تزوّدني بالرغبة والقدرة على مواصلة الحلم.

لذلـك تركت لنفسـي العنان، ونسـيت المقالة التي أكتبها، وجلسـت مشدودًا إلى شاشة التليفزيون، وانطلقت معها إلى زمن عبد الحليم حافظ، زمن الحلم والرغبة والتوهج والخيال والأمل، وحلّقت مع أحداث الفيلم، وصادقـت عبد السـلام النابلسـي صديـق عبد الحليـم في الفيلـم، ورأيت المرحومة أمي في حركات الممثلة العظـيمة فردوس محمد ودعواتها التي

ذكّرتني بدعوات أمي وهي تضمّني داعية لي بالنجاح والفلاح وتحقيق الآمال. وتمنيتُ لو تستمر أحداث الفيلم إلى مالا نهاية، وأعيش مرة أخرى لوقت أطول وأطول، في زمن عبد الحليم، لكن الفيلم وصل إلى نهايته للأسف، فانتبهت إلى نفسي وأدركت ما أدركته وأنا أقرأ مطلع قصيدة «العام السادس عشر» للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وهو المقطع الذي يقول :

أَصْدِقَائِي

نَحنُ قَدْ نَغفُو قَلِيلًا،

بَيْنَما السَّاعةُ فِي المِيدَانِ تَمضِي

ثُمَّ نَصْحُو.. فَإِذَا الرَّكْبُ يَمُرّْ

وإِذَا نَحنُ تَغَيَّرْنَا كَثِيرًا،

وتَرَكْنَا عَامَنَا السَّادسَ عَشرْ

وكم كنت سعيدا، يوم أن أهداني الأستاذ مجدي العمروسي حقيبة أنيقة بها كل أغاني عبد الحليم، وبعدها بعامين فيما أذكر أهداني كتابا كاملا يضم نصوص أغاني عبد الحليم، من إعداده. والكتاب بعنوان : «كراسة الحب والوطنية» : السجل الكامل لكل ما غناه العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ ، وكان ذلك قبل وفاة هذا الصديق الوفي الذي ظل حارسا لميراث عبد الحليم حافظ، محافظا عليه، بارا بذكراه التي كان حريصا على الاحتفاء بها مع كل أبناء وبنات الوطن العربي الذين أحبوا، وهم ينشدون أغاني عبد الحليم العاطفية، وتحمسوا لقضايا المستقبل، وهم يهتفون بأغاني عبد الحليم الوطنية، وبكوا هزيمة 1967 وهم ينشجون بأغاني

عبد الحليم الحزينة، وعلى رأسها «عدَّى النهار» التي كتب كلماتها المبدع عبد الرحمن الأبنودي.

وقد عرفت من كتاب مجدي العمروسي، رحمه الله، أن القصيدة الأولى التي غناها عبد الحليم حافظ كانت من كلمات صديقه الشاعر (القادم معه من الشرقية) صلاح عبد الصبور. وقد قام كمال الطويل، صديق عمره، وزميل دراسته في معهد الموسيقى، بتلحين الأغنية، وعنوانها: «لقاء» وهي قصيدة لم أعثر عليها في دواوين صلاح عبد الصبور المنشورة، ولم يذكرها صلاح في كتاباته، ولذلك كان شعوري بالفرح غامرا، عندما اكتشفت هذه القصيدة، التي أكتبها كما هي، ليضيفها عشاق صلاح إلى شعر صباه الباكر، وعنوانها: «لقاء»:

بَعْدَ عَامَينِ التقَينَا هَاهُنا ... وَالدُّجَى يَغْمُرُ وجْهَ المغْرِبِ
وَشَهِدنَا النُّورَ يخبُو حَولَنَا ... فَسَبَحْنَا فِي جَلالِ الموكِبِ
وَانتَهينَا فَتَبِعْنَا ظِلَّنَا ... دَمْعُنَا يَنطِقُ وَاللَّحظُ أَبِي
آه لو تَدرِينَ مَا أكتُمُهُ ... فِي دَمِي يَا وَاحةَ المغْتَرِبِ
كَانَتِ الذِّكْرَى عَزَائِي زَمَنا ... يَومَ فَارَقْتُ زَمَانِي نَفَحَاتِ
كُنْتُ إن راجَعَ قَلْبِي الشَّجَنَا ... أتعزَّى بِلَيالِي ذِكرَيَاتي
وَتَعلَّلْتُ بِفَجْرٍ قَدْ دَنَا ... يُطْلِعُ الشَّمسَ عَلى نورِ سِمَاتِي
ثَمَّ هَانَحنُ التقَينَا هَا هُنَا ... والدُّجَى يَغْمُرُ وَجْهَ المغْرِبِ
لَستُ أنسَاكِ غَرامًا فِي دَمِي ... وَمُنَى عُمْرِي وَآمَالَ غَدِي

وَصَبَاحًا نِغْمَةَ المبَتِسِم وَشُعَاعَ الفِتْنةِ المتَّقِدِ
يَا مَنَارِي فِي الطَّرِيقِ المظلِم يَا غَرَامِي خَالِدًا للأبَدِ
فِي عُيُونِي فَرْحَةٌ مشرِقَةٌ وَالدُّجَى يَغْمُرُ وَجْهَ المغْرِبِ

والقصيدة تنتسب إلى المرحلة الرومانسية في شعر صلاح عبد الصبور، وقد كتبها متأثرا بشعر إبراهيم ناجي الذي كان وثيق الصلة به، معجبا بشعره العاطفي. ولذلك نجده يلجأ إلى تفعيلة الرمل (فاعلاتن) الشائعة في شعر ناجي. وها هو الشطر «وانتهينا فتبعنا ظلنا». يذكر بقصيدة «الوداع» لناجي، حيث نقرأ «وعدونا فسبقنا ظلنا». والفارق كبير بين الأستاذ وتلميذه الذي كان لا يزال يسير خطاه الأولى في الشعر، مقابل الأستاذ الذي كان ملء السمع والبصر في الخمسينيات.

والتقاء عبد الحليم وصلاح عبد الصبور، في هذه المرحلة الباكرة التي ترجع إلى مطلع الخمسينيات طبيعي، فكلاهما من محافظة واحدة، ينتميان إلى الجيل نفسه، فعبد الحليم مولود قبل صلاح عبد الصبور بعامين. وكان عمر صلاح ثلاثة وعشرين عاما في سنة 1950 وعمر عبد الحليم واحدًا وعشرين عاما. وقد توفي كلاهما باكرا نسبيا، فمات عبد الحليم (في 30 مارس 1977) عن ثمانية وأربعين عاما، ومات صلاح (في الثالث عشر من أغسطس) عن خمسين عاما. وظلت صداقتهما مستمرة طوال الحياة القصيرة، نسبيا، لكليهما. لكن عبد الحليم آثر، بعد ذلك، أن يمضي في طريق الأغنية العامية التي أخذت تحقق له الشهرة مع ألحان محمد الموجي في: «الحق عليّ اللي عرفتك» و«ظلموه». صحيح أن عبد الحليم غنى قصائد لآخرين في بدايته، لكنها لم تحقق نجاحا،

فظـل ملازما للأغنيـة العامية التي حفرت معانيها فـي وجدان جيلي، الذي هو الجيل المهوّس بعبد الحليم المولود قبلي تحديدا بخمسـة عشرة عاما، جعلته الأقرب إلى أبناء الجيل المولود مع نهايات الحرب العالمية الثانية.

والمفاجأة الثانية التي عرفتها من كتاب مجدي العمروسـي، اكتشافي أن بعـض أغانـي المسلسـلات الإذاعية التـي فتنتني صغيـرا كانت بصوت عبـد الحليـم، ومـن ذلـك أغنية «يلا يـا جن» التي اشـترك عبـد الحليم في غنائها مع حسـن أبـو زيد في صوت الجـن، وأغنية «أهل المنـا». ويقترب مـن هذه المفاجأة أن عبد الحليم غنى بصوته في السـينما قبل ظهوره فيها. أول ذلـك فـي فيلم «علاء الدين والمصباح السـحري»، وقـام بأداء صوت علاء الدين فتى الشاشـة في ذلك الوقت، شكري سرحان، بينما قام بدوره غناءً عبد الحليم حافظ. وجاء بعد ذلك فيلم «بعد الوداع» من إخراج أحمد ضيـاء الدين وبطوله فاتن حمامة وعماد حمدي وفريد شـوقي. وقد عُرض الفيلـم في نهاية مارس 1953. وردد صوت عبد الحليم أغنية «ليه تحسـب الأيام». وبعد ذلك جاء فيلم «بائعة الخبز» من إخراج حسن الإمام، وبطولة شادية وماجدة وشكري سرحان وزكي رستم وأمينة رزق وسليمان نجيب، وعرض سـنة 1953. وغنى صوت عبد الحليم بالاشـتراك مع برلنتي حسن أغنيـة «أنا أهواك». وأخيرا فيلم «فجر» الـذي عرض في يناير 1955، وكان مـن إخـراج عاطف سـالم وبطولـة ماجدة وجمـال فارس وعبـاس فارس وحسـين ريـاض، وغنى عبد الحليم بصوت الـراوي «لو كنت في يوم على قلبي تهون».

ويبدو أن معرفة عبد الحليم بالسـينما، واقتحامـه لها بصوته هي التي أعدتـه ليكـون بطلا في الأفلام التي عـرف بها، وأولها فيلـم «لحن الوفاء» بطولتـه مع حسـين رياض وشـادية وزوزو نبيل. وقد عرض الفيلم بسـينما

الكورسال يوم الخميس الثالث من مارس 1955، وتم عرضه في سينمات الأقاليم، منها إحدى دور العرض السينمائي في مدينتي، حيث شاهدت عبد الحليم المغني والممثل للمرة الأولى وكان عمري أحد عشر عاما وعمر عبد الحليم ستة وعشرين عاما، فتي يافعا، نحيلا مثلي، قريبا من ملامحي، لم يجاوز عشرينيات عمره بعد. وقد بكيت في الفيلم من أداء العبقري حسين رياض الذي قام بدور «مايسترو» (وهو الذي سيكرره في شارع الحب). وكان الفيلم قائما على الموضوع المتكرر في كل الأفلام اللاحقة تقريبا: أب فقير، موسيقار موهوب، يترك ابنه عند موته أمانة في عنق صديقه الموسيقار الموهوب مثله، ويحارب الموسيقار الموهوب التجاهل والسوقية، في سبيل موسيقاه الجادة إلى أن ينجح، ومعه جلال ابن صديق عمره الذي تبناه ويكتشف أن الابن ورث موهبة الفن عن أبيه مع حلاوة الصوت، فيسمح له بالغناء، فنسمع منه قصيدة «لا تلمني» من كلمات محمد علي أحمد وتلحين كمال الطويل. وما أكثر ما تأثرت بالعنصر الميلودرامي في الفيلم، خصوصا حين يقع المايسترو الكبير في حب فتاة جميلة الصوت (تحب ابنه بالتبني : جلال) بينما تحب هي الابن الذي غنى من أجلها «احتار خيالي» و«على قد الشوق» (تلحين كمال الطويل) و«أحن إليه» ودويتو «تعالى أقولك» تلحين منير مراد. وتكون الصدمة عنيفة على المايسترو الكبير، عندما يكتشف أن ابنه الذي يحبه، ويراه نور حياته، يحب الفتاة التي وهبها حبه أخيرا، وظنه مصدر سعادته فيما بقي من أعوام، فيترك كل شيء إلى حيث لا يعلم أحد سوى صديق قديم (عبد الوارث عسر). ويظل في مخبئه، تاركا الابن يعاني مأساة الفقد، لكنه يتجاوزها من أجل من يدين له بكل شيء، فيقرر إحياء المسرح وإكمال (الأوبريت) الذي كان قد بدأه الأب، وهو «لحن الوفاء». ويكمل المهمة بنجاح، وتتكاثر الإعلانات عن «الأوبريت» الذي تعرضه الأوبرا، ويعرف

المايسترو المختفي ذلك، فيذهب متنكرا ليرى «الأوبريت» الذي كان حلم حياته قد اكتمل، ويعرض، ويقوم بأدائه ابنه بالتبني جلال والحبيبة التي نسي نفسه عندما أحبها. وتصدح الموسيقي بصوتي عبد الحليم وشادية في صفاء نادر، وتتحرك الراقصات كالفراشات على موسيقى رياض السنباطي، ويندفع صوت المجموعة:

غني لي لحن الوفا غني لي واشجيني لحن المحبة

وانعم بليل الصفا واملالي واسقيني ويّا الأحبة

وأهتز أنا الفتى الذي وصل إلى الحادية عشرة من عمره، متمايلا مع الراقصين على أنغام الطويل، متشربا كل نبرة من صوت عبد الحليم وشادية، وأخرج من السينما منتشيا بما شاهدت وأحببت، عاقدا العزم على أن أكون عاشقا لصوت عبد الحليم إلى الأبد، وسرت في الشوارع عائدا إلى بيتي، باحثا عن وجه صبوح شبيه بوجه شادية، لكن سدى.

بعد ذلك جاء فيلم «أيامنا الحلوة» الذي رأيت فيه عبد الحليم حافظ مع صديقيه أحمد رمزي وعمر الشريف، وكلهم يحبون الفتاة المكافحة فاتن حمامة جارتهم على السطح، وأتمتع بخفة دم أحمد رمزي وإنسانية عبد الحليم وجدية عمر الشريف الذي تحبه الجارة الوحيدة الكادحة فيعمل الأصدقاء الثلاثة المستحيل لعلاجها. ولكنها تودعهم، في النهاية، بعد أن عرفت أن المرض آتٍ لها بالموت، وتودع الأصدقاء مع الحبيبة الوداع الأخير الذي ينتهي به الفيلم، وأحسبني لم أضحك، من قبل، كما ضحكت من خفة دم زينات صدقي ورهافة زهرة العلا التي كنت أراها للمرة الأولى.
ولا أنسى أغاني فيلم «الحلو حياتي» من تأليف مرسي جميل عزيز، عبقري كلمات الأغنية المصرية وألحان كمال الطويل الموسيقار المتفرد، ومعه محمد الموجي الذي لحن «يا قلبي خبي» من كلمات مرسي جميل عزيز

الـذي عرفت، فيما بعـد، أنه ابن تاجر فاكهة كبير فـي الزقازيق، موطن عبد الحليـم، أورثـه أبـوه تجارته، لكن حبـه للكلمات غلب عليـه وإن لم يترك عالـم الفاكهـة الـذي اسـتخدمه في كلماتـه، وأذكر لـه الأغنيه التـي كتبهـا لمحرم فـؤاد : «**الحلوة داير شباكها شجرة فاكهة ولا في البساتين**».

ويكتـب مرسـي جميـل عزيـز الأغنية الأخيـرة فـي «أيامنـا الحلوة» التـي يلحنها محمد الموجي. وأحسـب أنني أتحدث مـع الأصدقاء الثلاثة وجدانيا، فقد كانوا يقاربونني في العمر، ينتسبون إلى شريحة فقيرة من الطبقة الوسـطى مثلي، ويسـكنون في حي شعبي للدراسة في الجامعة التي ظللت أحلم بالدراسـة فيها. وظل موضوع البطل الفقير الذي يعتز بنزاهته وقدرته على الإبداع، مقاوما الفسـاد، منتصرا فـي النهاية، فائزا بالفتاة الجميلة التي تتوج كفاحه الشـاب من أجل مسـتقبل، في الفيلـم اللاحق «ليالي الحب»، وكانـت آمـال فريد هذه المرة، جنبا إلى جنب عبقري الفكاهة عبد السـلام النابلسـي ووداد حمـدي خفيفة الظـل، وإلى جانب محمـد عبد القدوس، والد إحسـان عبد القـدوس الذي قام بدور الأرسـتقراطي العجوز المحب للأغانـي القديمـة، ويأتـي فيلم «أيـام وليالي» عـن الفتى الرقيق المسـتقيم نفسـه، لكـن يبتليـه الله بشـقيق لا يعـرف النزاهة، وينافسـه علـى الجميلة «إيمان». وينتهي الفيلـم، كالعادة بانتصار الخير على الشـر، ووصول الفتى المكافـح إلى منصب مدير الشـركة، والظفر بابنة المدير. ولا أنسـى أغاني مأمـون الشـناوي التي لحنهـا محمد عبـد الوهاب للمطرب الشـاب الذي رأى فيه عبد الوهاب مسـتقبلا باهرًا فلحن له : «أنا لك على طول» و«توبة» و«عشانك ياقمر» و«شغلوني» و«إيه ذنبي إيه».

ويعـاود عبـد الحليم حافـظ العمل مع فاتـن حمامة فـي فيلم «موعد غرام» مؤديا شـخصية الشاب البوهيمي الذي يحب الموسيقى وينجح فيها بسبب حبه للصحافية التي يفترسها المرض، فتدعي التنكر له، ولكن الفتى

الذي أصبح نجما شـهيرا يعرف ذلك، ويذهب إليها في المطار، ليقف إلى جوارهـا في أثناء العلاج فـي الخارج. ودائما لا يخلو فيلم لعبد الحليم من مـرض البطـل أو البطلة. وإذا كان «أيامنا الحلـوة» ينتهي بموت البطلة، في مدى رومانسـي حزين، فإن «موعد غرام» ينتهي نهاية مفتوحة مثل «حكاية حـب» الذي تلعـب دور الحبيبة الغنية فيه مريم فخـر الدين التي تحنو على المطرب الشاب المكافح، وتقوم بتشجيعه إلى أن يصل إلى مبتغاه.

وبالطبع لم أترك فيلم «دليلة» الذي قامت فيه شادية بدورين متناقضين، وغنى فيه عبد الحليم الأغنية التي لا تزال تثير شجني عندما أستمع إليها :

كان فيه زمان قلبين.. الحب تالتهـــــم

فردوا الهوا جناحين .. والدنيا ساعتهـــم

ضحكت لهم يومين.. وفي ليله خانتهـــم

اتفرقوا الاتنـــــين.. في عز فرحتهم

ولا أزال كلما أستمع إلى هذه الأغنية أذكر جلوسي في سينما المحلة، منزويا يتساقط دمعي في عامي الثاني عشر.

وأصل إلى «الوسـادة الخالية» لأرى أصدقاء المدرسـة الثانوية الثلاثة (عبـد الحليم، أحمد رمزي، عبد المنعم إبراهيـم) الذين يذهبون إلى إحدى الحدائق، فيقابل أحدهم (عبد الحليم) الفتاة التي سـتصبح حبه الأول الذي يفقـده، بحكم وضعه الدراسـي، طالبـا في المرحلـة الثانوية، فيغنـي أغنيته المؤثـرة «تخونـوه» ويقرر التفـوق حتى ينتقم مـن التي تركته لتتـزوج طبيبا ناجحا، ويعمل بهمة ويتزوج ابنة مدير الشركة الذي يترك كل شيء له، ويقابل حبه القديم الذي لم ينسه، والذي يتمثله في وسادة خالية لا يفارقها في نومه. لكنه يفارقها عندما يرى خطر الموت يحوم حول زوجته الطيبة (زهرة العلا)

التي أنقذها الطبيب غريمه القديم (عمر الحريري) والفيلم من إخراج صلاح أبو سيف أبرز مخرجي الحركة الواقعية في السينما المصرية.

ولا تتوقف أفلام عبد الحليم التي تمضي إلى «الخطايا» التي تكرر تيمة «أيام وليالي» وينطلق عبد الحليم إلى «معبودة الجماهير» (يناير 1967). وأخيرا «أبي فوق الشجرة» (1969) عائدا إلى قصه قصيرة لإحسان عبد القدوس.

ولا تفارق الأفلام شخصية الفتى البريء البسيط الطامح إلى حياة أفضل، قد يضل الطريق حينا، أو تفجعه الأقدار بحقيقة كان يجهلها حينا آخر، لكنه سرعان ما يستعيد توازنه، ويواصل رحلة كفاحه التي كانت تؤكد لأبناء جيلي، المنتمين إلى نفس الشريحة الاجتماعية، أن المستقبل مفتوح، ومن جدّ وجد، ومن أخلص لهدفه، ولم يتخلّ عن قيم الحق والخير والجمال، فإنه يحقق أحلامه، وينتصر على أعدائه. وكان ذلك في زمن جميل مضى، جربنا فيه الأحلام المفتوحة على أفق الوطن العربي كله، حالمين بتحقيق كل ما حلمنا به، والوصول إلى «بستان الاشتراكية» وكان ذلك قبل أن ينقضي النهار، وتتسلل مغربية الهزيمة من وراء الشجر، ويختفي القمر ويتحول الحلم إلى كابوس في العام السابع والستين، ولا يكف المرض عن مهاجمة عبد الحليم الفرد والوطن الجمع، فنرى بدل «أبي فوق الشجرة» أبانا الذي في المباحث. نحلم بأن تعود إلينا البهجة، لكن كان «الكبد» يتفتت في صدر عبد الحليم، ويموت عن ثمانٍ وأربعين سنة في الثلاثين من مارس 1977، آخذا معه زمنا لا نملك سوى الحنين إليه.

عبد الحليم وأغاني الزمن الناصري

يرتبط زمن عبد الحليم في ذاكرتي بثلاثة أشياء أساسية، أولها: ذكريات الحب الأول بكل أحواله وأفراحه وأحزانه وأمانيه وأشواقه. وظني أن أغاني عبد الحليم عن الحب الأول قد أسهمت في تعليمنا معنى الحب. ولا أظن أن أحدا من أبناء جيلي ينسى أغنيته التي رددناها وراءه: «أول مرة تحب يا قلبي، وأول يوم أتهنى، ياما على نار الحب قالولي، ولقيتها من الجنة». وكانت الأغنية من فيلم «الوسادة الخالية» الذي عرض سنة 1957. وثانيها: طموح ابن الطبقة الوسطى بشرائحها الفقيرة الذي يرفعه كفاحه في مجاله، مندفعا بموهبته الأصيلة وأحلامه العظيمة، إلى ذرى النجاح، في أفق مفتوح من الآمال العريضة، وذلك في زمن كل ما فيه يدعو إلى الصعود، ويدفع الطامحين إلى التقدم مع قادة الثورة الذين كانوا هم أنفسهم أبناء شرائح الطبقة الوسطى التي تمردت على الطبقات الإقطاعية والرأسمالية لتجد لها مكانا تحت الشمس، فاتحة الأمل لشرائح الطبقة الأدنى كي تحصل على نصيب عادل في ملكية الوطن وحق التعليم المجاني حتى الجامعة والعلاج.

والحق أن تاريخ عبد الحليم الفني هو تاريخ الثورة، خصوصا في أغانيه الوطنية التي كانت تفتح لنا الآفاق التي كان جيلي يحلق فيها، متوثبا بالأمل، مملوءا بالأماني الممكنة، والأغاني التي كانت تعبر عن مشاعر

كل فـرد فينا، نحن جيل الثـورة الذي فتح عينيه على الدنيا مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وما أن وصل إلى الطفولة حتى سـمع عن مأسـاة فلسـطين التـي ظلت دائما في الوجدان، وما أن تجاوز العاشـرة حتى شـاهد انتصار 1956 واندحار العدوان الثلاثي، وعرف منظمة التحرير وشـعار: «الاتحاد والنظـام والعمـل». وانتقـل مـن خيمـة «الاتحـاد القومـي» إلـى «الاتحاد الاشـتراكي» وعـاش انتصـار الدولـة الوطنية التي سـرعان مـا مضت نحو الاشـتراكية والعدالـة الاجتماعيـة التي تحولـت إلى أحد أطـراف الثالوث «الحرية، الوحدة، الاشتراكية» وعرفنا الطريق إلى «بستان الاشتراكية».

ولذلـك كان زمـن عبـد الحليم حافـظ هو زمـن صعود ثـورة يوليو، وسجلها الذي ينطوي على انتصاراتها، وأمانيها العظيمة الذي بدا تحقيقها قاب قوسـين أو أدنى من التحقق، فكانت أغنياته السياسـية أغنيات صعود هذه الثورة، منذ انفجارها في يوليو 1952 إلى انكسارها العظيم والأليم في يونيـو 1967، وبين هذين التاريخين عاش جيلـي تحول الحلم الذي صعد بنا إلى عنان السـماء المفتوحة إلى اتساع هوة الكابوس الذي غاص بنا إلى قراره القرار من اليأس. ولنبدأ من البداية.

كانـت أغنية عبد الحليم الأولى بعد قيام ثورة 23 يوليو 1952، وتغنى فيها بشـعار «الاتحاد والنظام والعمل» الـذي نادى به الرئيس الأول محمد نجيب، أول رئيس لجمهورية مصر الجديدة التي قامت على أنقاض النظام الملكـي، بعـد رحيل الملك فـاروق وولي عهده في السـادس والعشـرين مـن يوليـو 1952 علـى يخـت المحروسـة، فاتحـا البـاب لصعـود «العهد الجديـد». وهو الاسـم الـذي حملته الأغنيـة الوطنية الأولى لعبـد الحليم عبـد الحافـظ، علـى نحـو مـا وجدتها فـي كتاب صديقـه الحميـم مجدي

العمروسي الذي حمى تراثه بعد وفاته، وقد عرفته، بعد وفاة عبد الحليم بسنوات عديدة، وجمعتنا صداقة مودة واحترام متبادل، قبل أن يرحل عن دنيانا ليلحق برفيقه، ولكنه - قبل رحيله بسنوات - أهداني الأعمال الكاملة لكل أغاني عبد الحليم التي أحتفظ بها كالكنز الأثير، ففيها مرايا حياتي الشخصية بأحلامها الفردية وأحلام وطني على السواء. وقبل موته، رحمه الله، أهداني كتابه «كراسة الحب والوطنية : السجل الكامل لكل ما غناه العندليب الأسمر». وقد عرفت من هذا السجل أن أغنية عبد الحليم الوطنية الأولى هي «العهد الجديد» الذي اشتركت معه في غنائها عصمت عبد العليم، وهي من تأليف محمود عبد الحي وتلحين عبد الحميد توفيق زكي الذي عرفته في سنواته الأخيرة، حين كان عضوا في لجنة الموسيقى بالمجلس الأعلى للثقافة الذي كنت أمينا عاما له لما يقرب من خمسة عشر عاما. وتبدأ الأغنية بصوت المجموعة :

حَيُّوا فَجْرَ البَعْثِ فِي يَومِ الخُلُودِ   وَاطْلُبُوا الآمَالَ فِي العَهْدِ الجَدِيدِ

ويلي ذلك صوت عصمت عبد العليم التي كانت أكثر شهرة من عبد الحليم في تلك الأيام، إلى أن يأتي دوره الذي يتبادله وإياها إلى أن يختم الأغنية بصوته.

وَشَبَابُ النِّيلِ للنِّيلِ فِدَاء   يَبْذُلُ الرُّوحَ لَهُ بَذْلَ السَّخَاء
وَشِعَارُ العَهْدِ مِنْ نُورِ الأَمَل   اتِّحَادٌ ونِظَامٌ وعَمَل

نَبْلُغُ المجْدَ بِهَا في العَالَمِين

والأغنية مكتوبة بالفصحى، كعادة الأناشيد القومية في ذلك الوقت، ولذلك لم يكن مفاجأة لي أن حكى الصديق صلاح عبد الصبور، رحمه

اللـه، نظير عبد الحليم في رحلـة الكفاح التي بدأت من مدينة الزقازيق، أنه أعطـى عبد الحليـم قصيدة من شـعره، غناها في بدايات حياتـه الفنية، قبل أن يصبـح عبد الحليم الشـهير الذي عرفناه، فقد عـرف صلاح عبد الحليم من الزقازيق التي يشـتركان في الانتساب إليها مع صديقهما الثالث، كاتب الأغنيـة مرسـي جميل عزيز الـذي ورث تجارة والده فـي الفواكه، وأصبح ثالث الشـلة الزقازيقية التي انتسـب إليها الدكتور أحمد هيكل أسـتاذ النقد الأدبـي في كلية دار العلوم، قبل أن يصبح وزيرا للثقافة، رحم الله الجميع. وكانت قصيدة «لقاء» (غير موجودة في دواوين صلاح عبد الصبور) أول ما غنـاه عبد الحليم في الإذاعة المصرية مـن تلحين كمال الطويل صديقه في معهد الموسـيقى. والقصيدة موجودة في موسـوعة العمروسـي عن أغاني صديق عمره. وكان مطلعها :

بَعْـدَ عَامَيـنِ التقَينَـا هَـا هُنَـــا ... والدُّجَـى يَغْمُـرُ وَجْـهَ المغْـــرِبِ

وَشَـهِدْنَا النُّـورَ يَخبُـــو حَولَنَـا ... فَسَبَحْنَا فِـي جَـلَالِ الموكِـــبِ

وَانْتَبَهـــنَـا فَتَبِعْـــنَـا ظِلَّـــنَـا ... دَمعُنَـا يَنطِـقُ وَالدَّمـعُ أَبِـــي

آهِ لَـو تَدرِيـــــنَ مَـا أَكْتُمُـــــهُ ... فِـي دَمِـي يَـا وَاحَـةَ المغْـــتَرِبِ

وقـد حدثني صلاح عبد الصبور، رحمه اللـه، أن هذه كانت القصيدة الأولـى التي يغنيها عبد الحليم في حياته، وكان تأثير أسـتاذه إبراهيم ناجي واضحـا فيهـا، خصوصا في بيتها الثالث الذي يذكرنـا بقول إبراهيم نـاجي: «وعدونا فسبقنا ظلنا».

والمسافة الزمنية بين قصيدة «العهد الجديد» و«لقاء» مسافة قصيرة، يصل بينها بداية صعود ثورة يوليو 1952 على يدي جيل جديد من أبناء الطبقة الوسطى التي صنعت زمنا جديدا في تاريخ مصر.

ويمضي زمن الثورة الصاعد الذي يصعد معه عبد الحليم، فيغني أغنية «بدلتي الزرقاء» وهي من تأليف عبد الفتاح مصطفى وتلحين عبد الحميد توفيق زكي، وهي أغنية عن العامل الذي يزهو ببذلته الزرقاء في المصنع الجديد الذي يعمل فيه، والذي جعل من البذلة علامة على زمن صاعد يدخله هذا العامل ذو الأصل الريفي الذي يرى في لون بذلته وقربها من السماء الصافية لقريته، دلالة على بداية زمن واعد من التصنيع. وتأتي بعد هذه الأغنية الأغنية الأولى التي أخذنا نرددها وراء عبد الحليم، بعد أن دخلت المدرسة الإعدادية. وهي بعنوان: «ثورتنا المصرية» من تأليف مأمون الشناوي وتلحين رءوف ذهني. وتبدأ على النحو التالي:

ثورتنا المصرية أهدافها الحرية

وعدالة اجتماعيه ونزاهه ووطنيه

ثورتنا المصرية.. ثورتنا ثورتنا

وتتحدث الأغنية التي سرعان ما رددناها عن عزيمة الأحرار وأيدي الثوار التي شتتت الأشرار وجيوش الاستعمار، فتدفعنا إلى القسم بصيانة هذه الثورة في أعيننا من نظرة أعادينا بشجاعة ووطنية. ولا أزال أذكر هذا الجزء الذي أصبح معناه مقترنا في ذهني بدعوة عدم الانحياز في مؤتمر باندونج الذي حضره عبد الناصر وسوكارنو وتيتو ونهرو وشواين لاي، وكان ذلك قبل شهرين من إعلان عبد الناصر عن صفقة الأسلحة التشيكية

التي هندسها الاتحاد السوفيتي. ولم يكن من الغريب أن نكرر وراء عبد الحليم هذا المقطع :

عواطفنا الدولية.. لسلام البشريه

وجيوشنا نسلحها.. لحماية الحريه

لا لكتله شرقيه.. ولا كتله غربيه

للأمه المصريه.. واخواتها العربيه

والعزه القوميه.. ثورتنا ثورتنا

وأحسب أن هذه كانت المرة الأولى التي أعرف فيها معنى «العزة القومية» ويتجسد في وعيي رمزية الحضور القومي الذي أخذ يستوعب الحضور الوطني، ويكاد يعلو عليه، وذلك على نحو جعلنا نزداد وعيا بقضايا الاستقلال الوطني موصولة بالاستقلال القومي، بل نجاوز ذلك إلى ما يصل المعنى القومي بقضية فلسطين التي تجسده، ضمن قضايا نضال آسيا وإفريقيا التي أخذت أقطارها تتمرد على الاستعمار مثلنا، خصوصا بعد أن وجدت قوة دافعة في مؤتمر باندونج. ولم يكن من الغريب أن يعلن عبد الناصر عن صفقة الأسلحة الجديدة في شهر سبتمبر من عام 1955، وأن يقوم شكري القوتلي بانقلاب ثوري، ويصبح رئيسا للجمهورية السورية، وأن تقوم في نوفمبر من العام نفسه 1955 ثورة في قبرص يقودها المطران مكاريوس ضد الحكم البريطاني للاستعمار الذي انتصر عليه عبد الناصر، بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية، إثر الإطاحة بمحمد نجيب في أكتوبر 1954 ، وانفراده بقيادة الثورة التي أصبحت قوة فاعلة في حركة عدم الانحياز، وقائدة المد القومي الصاعد، ومعادية للصهيونية. وهي المعاني التي كان يؤكدها المقطع الأخير من الأغنية :

ضـد الصهيونيـة.. بالمرصـاد واقفـــين

وهاترجع عربية.. حبيبتنا فلسطـــــين

وهاتفضـل للدنيـا.. نور يهدي البشـريـة

وفـي آسـيا وأفريقيا .. حانصحـي المدنية

ثورتنا المصرية

ولـم تكن هذه مجـرد كلمات، وإنمـا معان انحفرت فـي وعينا الذي أخـذ يتحسـس العالـم من حوله، وتخترقه بقـوة الإمكانات الصاعدة لوطنه الذي أخذ يجاوز بحلمه حدوده الوطنية لتمتد عبر حدوده القومية، مجاوزا إياها إلى آسـيا وإفريقيا، ويصبح نورا تهتدي به البشرية. وأذكر أنني أخذت أعـرف بمثل هذه الأغاني ما معنى أن تصبح مصـر قوة دولية كبيرة، وقائدة للعـرب في معركة التحرر القومي والتحرر العالمي من الاسـتعمار في كل مـكان. ولـم نكن نعرف في ذلك الوقت الأثر السـلبي الذي بدا كأنه علامة حكم ديكتاتوري عسـكري، خصوصا عندما أعدم خميس والبقري اللذين تزعما إضراب العمال في كفر الدوار مع أوائل حكم الثورة في كفر الدوار، ولم نكـن نعي، بعد، معنى الانقلاب الديكتاتـوري الذي قاده عبد الناصر، وسـقوط الديموقراطيـة على يديه فـي أزمة مـارس 1954، أو كتابة صلاح عبد الصبور قصيدته الرمزية «عودة ذي الوجه القبيح» وحتى لو عرفنا ذلك لاغتفرنـاه، فقد كانت صـورة عبد الناصر مع أقطاب عـدم الانحياز (نهرو وتيتو وسـوكارنو وشـواين لاي) واعدة بصورة مصر القادمة، القائدة التي سـوف تحقق الانتصار على إسرائيل، وتحقق أحلام العرب في التحرر من الاسـتعمار، ومد يد العـون إلى كل الدول المقاومة للاسـتعمار الذي أخذ

يتهـاوى أمام أعيننا، على أيدي أبطال جدد يصادقون عبد الناصر، ويمدون أيديهم إلينا، نحن الذين أخذنا نشعر بحضور وطننا وصعوده الباهر . ولذلك كان طبيعيـا أن نشـارك آباءنا حماسـتهم للذهاب إلى صناديـق الانتخاب، وانتخـاب عبد الناصر رئيسـا للجمهورية المصرية. ولـم يدر بأذهاننا شـيء عـن تزويـر الانتخابات، ولا شـككنا في النسـب المعلنة، فمـن الذي كان يمكـن له أن يكـون آثم الفكر ليظن هذه الأشـياء بالزعيـم الصاعد كالنجم الأوحد في سـماوات أحلامنـا؟!. وكانت النتيجة أننا غنينـا من قلوبنا، مع عبد الحليم :

احنـا الشـعب احنا الشـعب.. اخترناك من قلب الشـعب

يـا فاتـح بـاب الحريـه.. يـا ريـس يـا كبيـر القلـب

وكنا فرحين كآبائنا الذين ذهبوا لانتخاب عبد الناصر رئيسا للجمهورية في يونيو 1956، وكنت في الثانية عشـرة من عمري، والمذياع لا يكف عن إذاعـة أغنية «احنا الشـعب» التـي كانت من تأليف صـلاح جاهين وتلحين كمـال الطويـل. وكانـت تلـك الأغنية بدايـة لقاء الثلاثـي الذي سـبقنا في الحلم، والانتماء إلى شـرائح الطبقة الوسطى، والإيمان بالمستقبل الواعد الـذي سـوف يتحقق على يدي عبد الناصر، ولـم يكـن من الغريب أن يقول صلاح جاهين في الأغنية :

احنا الشـعب احنا الشـعب .. اخترناك من قلب الشـعب

يـا فاتـح بـاب الحريــه.. يـا ريّـس يـا كبيـر القلـب

وكنـا نـردد هذه الأغنية وسـط الحبور الجماهيري العـام، فقد كنا في العـام الذي سـوف تخـوض فيه الناصريـة أولـى معاركها المظفـرة، وكان المستقبل يبدو مشرقا للجميع، ولذلك اهتززنا مع مقطع الختام :

ياللـي واعدنـا بأيـام عيدنـا هـل هلالـك

بكـره يـا بكـره مشـتاق نظـره لسـحر جمالـك

بكـره بطلنـا بجهـد عملنـا يحيـي آمالـك

ورغـم أنني لـم أكن تجاوزت الثانية عشـرة من عمـري ،لكنني لا أزال أذكر الفرحة الغامرة وحرارة التفاؤل التي كانت تملأ قلوب الناس، في أيام الوعد التي كانت إشـارة إلى بداية تحقق الأحلام التي بدأت بشـعار : ارفع رأسك يا أخي، فقد مضى عهد الاستعباد. وسرعان ما جاء العدوان الثلاثي بعد هذه الأغنية، ولكنه لـم يحقق غرضه، فانسـحبت إسـرائيل تاركة سيناء، وعاد الجيشان الإنجليزي والفرنسي، واستقال إيدن الذي سقطت حكومته، وانتهى حضوره السياسي إلى الأبد، وجاء يناير 1957 بتحقق النصر الكامل لمصر الناصرية، وأصبح الطريق ممهدا لفتح قناة السويس للملاحة العالمية فـي أبريـل 1957، بعد أن أعلنت بريطانيا التي لـم تعد عظمى عن رغبتها في سـحب قواتها من الأردن، وسـرعان ما أعلنت الجمهورية التونسـية بقيادة الحبيب بورقيبة في أغسطس من العام نفسه، وأصبحت مصر منارة العرب، وقائدة التحرر الوطني في كل مكان. وسمعنا أغنية عبد الحليم :

الله يا بلادنا الله.. على جيشك والشعب معـــــاه

في جـهادك قـوة وسلامك غنوه   يا بلادنا الحلوه

بتسابقي في المجد علاه

الله يا بلادنا

وكانت الأغنية من كلمات أنور عبد الملك ولحن محمد عبد الوهاب في أول لقاء فني يجمعه بعبد الحليم. وكان ذكاء من عبد الوهاب أن يتعاون

مـع عبد الحليم في ذلـك الوقت، فقد رأى فيه نموذج الجيل الفني الصاعد الـذي لابد من التعاون معه. أما نحـن الصغار، فقد رددنا في فرحنا الوطني البريء :

بسلاحنا وعزيمتنا الحاميه.. ما اقدرش الغاصب يغلبنا

ده كفاحـنا لمبادئ ســاميه.. حـالفين نحميها بقلوبنا

وعلمنا الغالي في مكانه العالي.. لـو قـال يـا رجـالي

حانقدم أرواحنا فداه

الله يا بلادنا

ولا تـزال تتـردد في أذنـي عبـارة: «دايما حانبـص لقدامنـا». وكانت هـذه العبارة كأنها المفتاح السـحري لزمن صاعد بنا إلى المجد، وكنا على موعد مع المجد فعـلا مع الانتصار على العدوان الثلاثي وعودة الغاصبين مندحرين، وسرعان ما تحققت الوحدة، بعد عام من تحقق النصر، وأصبح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة مع تحقق الوحدة بين مصر وسـوريا. وجـاء عيد الثورة السـادس في يوليـو 1958 مختلفا، وكان لابد أن يكتب إسماعيل الحبروك بصدق المؤمن بالبطل الذي أصبح زعيما للعـرب، والذي أكّد لمصر هويتهـا القومية، ويلحن كمال الطويل بالصدق نفسـه أغنية: «يا جمال يا حبيب الملايين». وهـو عنوان أصبح منطبقا على الواقـع القومـي، وناطقا بما أخذته صورة عبـد الناصر في وجدان الملايين العربيـة، بعـد أن خرج منتصرا من حرب 1956، وأصبـح أول رئيس لدولة «الوحدة» التي كانت الخطوة الأولى لتحقيق حلم قديم. وهكذا رددنا وراء عبد الحليم :

يا جمال يا حبيب الملايين

ماشيين في طريقك ماشيين

للنور طالعين، للخير رايحين، ويَّاك يا حبيب الملايين

وما أذكره، الآن، هو نبرة الفرح التي كانت تنطق بها نبرة الأغنية، وصوت الكورس الذي كان يضم الأطفال رمز المستقبل، وأهم من ذلك التفاؤل بالمستقبل في كلمات إسماعيل الحبروك الذي أخذنا نعرفه كاتبا في جريدة الجمهورية، ولا أبالغ لو قلت إنني، في سحر الأداء، كنت أحلم بوعي الفتى الذي دخل مرحلة المراهقة بالنور القادم للطالعين إليه، والخير المبذول للذاهبين إليه مع هذا القائد الذي أصبح رمزا للصحوة القومية وأهم أيقونات الشرق الذي صعد بشعوبه إلى المستقبل، محطما قيود الاستعمار، وفاتحا بقوة الإرادة القومية الأبواب المسدودة التي صنعها المستعمر، فانطلقت الملايين العربية حرة، عفية، إلى الاستقلال والكرامة الوطنية والقومية على السواء، كأنها الغرس النابت الصاعد، المشرئب إلى الفضاء، مشتاقا إلى أنوار الحرية والكرامة والمبادئ القومية التي ينطقها المقطع الأخير من الأغنية :

وزرعت الأرض الخضره.. أفكار ومبادئ حره

خلتنا عشنا في بكره

نورنا على الدنيا بحالها احنا الملايين

الطريف أنني لم أنتبه في ذلك الوقت، فقد كنت في الرابعة عشرة، إلى دلالة السطر «خلتنا عشنا في بكرة»، وكيف يتجاوب مع الشعور بالمستقبل الواعد الذي أخذت أحلامنا تلامسه، ونشهد بدايات تحوله من أحلام إلى

حقائق. لكن من المؤكد أنني كنت أشعر بذلك على نحو لا واع، فقد كنت أدخل إلى المدرسة الثانوية التي أصبحت طالبا فيها، وأتطلع في إعجاب إلى التمثال النصفي لعبد الناصر الذي يتصدر مدخل إدارة المدرسة، حيث غرف الناظر والوكيل والمعاونين. ولم يكن من الغريب أن أقبل حضور تمثال عبد الناصر تقبلا بدهيا، رغم أن المدرسة كان اسمها مدرسة طلعت حرب الثانوية، وبنتها شركة مصر للغزل والنسج التي أسسها طلعت حرب وافتتحها سنة 1927، بوصفها إحدى شركات بنك مصر. ولذلك لم أسأل نفسي، مرة واحدة: ولماذا لا يضعون تمثال طلعت حرب، مؤسس الاقتصاد الوطني المصري، وأحد الرواد الذين صنعوا وحققوا أهداف ثورة 1919؟! لكنني لم أكن عرفت ذلك كله، ولم أكن مؤدلجا بواسطة الأجهزة الإيديولوچية للدولة الناصرية التي سعت إلى أن تمحو من ذاكرتنا ما قبل يوليو 1952، وإنما كنت بعض الوجدان القومي العارم الذي رأى في عبد الناصر قائدا وزعيما اختارته الملايين بإرادتها الحرة، أملا في الغد المنبثق من فجر القومية العربية ليحقق كل أحلام الحرية والوحدة والاشتراكية.

* * *

الحق أن سنوات الثورة العشر من 1956 إلى 1966 كانت بمثابة صعود متواصل إلى المجد، وهي السنوات التي بدأت بانتهائي من المدرسة الإعدادية، وفراغي من المدرسة الثانوية، ودخولي الجامعة، وتخرجي منها، ثم تعييني معيدا فيها في مارس 1966 وكنت طوال هذه الفترة أواصل أحلام المستقبل، ينطبق عليَّ وعلى جيلي، ما كتبه مرسي

جميل عزيز ولحنه كمال الطويل في أغنية عبد الحليم :

ذَاتَ لَيلَة وَأنَـا والأورَاقُ والأقـلامُ كُنَّا فِي عِنَاق
نَـقْـطَـعُ الأزْمَـانَ والأبـعَـادَ وثْـبًـا فِـي اشِتيَاق
والـنِّـهـايَـاتُ الـسَّـعِـيـدَة لـم تَـكُـنْ عَـنِّـي بَعِيدَة

ولكـن هـذه الليلة كانت ممتـدة حتى من قبل هذه الأغنيـة التي غنّاها عبـد الحليـم في أواخر 1959 فـي حفل خُصص دخله لصالـح رعاية طلبة الجامعـة. هذا الامتداد الزمنـي بدأته كلمات مأمون الشـناوي بلحن كمال الطويل وصوت عبد الحليم الذي غنينا معه :

إنِّـي مَـلَـكْـتُ فِـي يَـدي زِمَـامِـي فَـانـتَـصَـرَ الـنُّـورُ عَـلَـى الـظَّـلَامِ
وَهَـتَـفَـتْ حَـمَـامَـةُ الـسَّـلَامِ إنِّـي مَـلَـكْـتُ فِـي يَـدي زِمَـامِـي

وكان النـور المنتصـر هـو نور الوعـد القـادم بالنجوم الوضـاءة على الأكتـاف، والـرؤوس المرفوعة في كرامة وكبرياء، تملأ ملامحها بسـمات الرضا والأمل الواثق من تحققه، وقد اتسع الأمل بالوحدة بين مصر وسوريا في فبراير سـنة 1958، وتحول اسـم جمهورية مصر إلى الجمهورية العربية المتحدة، وذلك إيماء إلى أن الوحدة بين القطرين سوف تتسع لتشمل بقية الأوطـان العربيـة. وجاءت أغنية عبد الحليم من تأليف أحمد شـفيق كامل وتلحين محمد عبد الوهاب لتقول :

غني يا قلبي وهني الدنيا وقول مبروك
كبر البيت واتجمع شملك انت واخـوك
قول للدنيا دا أجمل عيد مصر وسوريا اتخلقوا جديد

وأصبح عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة، وأصبحت مصر القطر الجنوبي وسوريا القطر الشمالي، وسافر عبد الناصر إلى سوريا، حيث حملت الجماهير السيارة التي كان يركبها. ولا يزال أبناء جيلي في سوريا يذكرون هذه الزيارة. وأذكر أنني في زيارتي الأولى لسوريا في الثمانينيات، وكنت أركب السيارة من دمشق إلى اللاذقية، فأوقفني السائق عند بقعة على الطريق الجبلي، تطل على الوادي الأخضر المترامي أسفل الجبل المحاط بالأشجار، وقال لي في كبرياء: «هذه هي البقعة التي وقف عندها ركب عبد الناصر في طريقه إلى اللاذقية». وبعد أن وصلت إلى اللاذقية، منذ أعوام قليلة، أخذني صديقي الروائي نبيل سليمان ليجعلني أتعرف شوارع اللاذقية، ويحدثني عن الشوارع التي مَرّ بها عبد الناصر، وكان معنا تلامذتي الذين أشرفت على أطروحاتهم في جامعة القاهرة. والشيء نفسه فعله أصدقائي في حلب، وفي بيروت، وهو الأمر الذي جعلني أتذكر حوارا دار بيني وصديقي الأردني سمير قطامي وزميل لنا من غزة لا أذكر سوى اسمه: عصام، حين قال لي عصام: أنتم في مصر لا تعرفون قيمة عبدالناصر الذي نتمنى أن يكون حكامنا مثله، والله أنا أشعر أنكم لا تستحقونه. لم يفتني مجادلة عصام، خصوصا أنني كنت أرى العشق الناصري في عيون الطلاب العرب الذين لجأوا إلى القاهرة الناصرية التي كانت تفتح أبوابها لكل العرب، وكان معنا في قسم اللغة العربية صديقنا عبد الرازق الذي كان هاربا من بطش بورقيبة في تونس، وكانت كافتيريا كلية الآداب، التي قلّما كنت أذهب إليها، أشبه بكافتيريا لجامعة الدول العربية، ففيها كل الطلاب العرب الذين رأوا في مصر موئلا لهم. وذلك في الأيام التي وصفها في صدق غازي القصيبي في روايته «شقة الحرية».

وأذكر أنه في العام السابق على دخولي الجامعة، وكنت في الثانوية العامة على وجه التحديد، عندما أذيع في الراديو الاحتفال الذي أقيم في مدينة أسوان لوضع حجر الأساس لبناء السد العالي وحضره عبد الناصر الذي أصبح زعيم الأمة العربية بغير منازع، وسمعت أغنية «حكاية شعب» من تأليف أحمد شفيق كامل وتلحين كمال الطويل، وكانت الأغنية درسا وطنيا يزرع في نفوسنا العداء للاستعمار الذي رفض تمويل السد العالي، ولكن إرادة الشعب المتجسدة في عبد الناصر نجحت في تأكيد الإرادة الوطنية التي استعانت بالدول الصديقة المعادية للاستعمار، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي. وكانت النتيجة وضع عبد الناصر حجر الأساس لبناء السد العالي يوم 9 يناير 1960. وكانت «حكاية شعب» ملحمة بديعة مؤثرة، كما كنت أراها بعيني فتى يافع تملؤه الحماسة الوطنية في السادسة عشرة من عمره. وكنت أتشرب مطلع الأغنية التي تبدأ بصوت الكورس :

قلنا حنبني وادي احنا بنينا السد العالي

يا استعمار بنيناه بإيدينا السد العالي

من أموالنا بإيد عمالنا.. هي الكلمه، وادي احنا بنينا

ويأتي صوت عبد الحليم ليقص كفاحنا ضد الاستعمار وحكاية شعب كافح، وانكتب له الانتصار. وكانت أذني ترتشف الكلمات التي تقول عن عبد الناصر :

راح ع البنك اللي بيساعد ويدي

قاله حاسب قالنا مالكمش عندي

قلنا إيه؟

كانت الصرخه القويه.. في الميدان في اسكندرية
صرخه أطلقها جمال.. واحنا أممنا القنال

وما أكثر ما كان الشعور بالفخر يغزوني وأنا أسمع بقية الأغنية التي تنتهي بتأكيد انتصارنا. ونمضي في الطريق الصاعد الذي يزداد صعودا مع التأميمات التي أعادت ثروات الوطن إلى الشعب الذي هو مالكها المغتصَب، بعد أن استطاع قائده المنتصر في 1956 إعادة الثروة المنهوبة إليه. وأكاد أرقص مع آخر كلمات الأغنية التي تقول :

أحرار ونحب الحرية لبلدنا ولكل الدنيا ولكل الأمة العربيه

ويتواصل فرحي، وأنا مندس مع الجماهير الغفيرة، في أحد ميادين المحلة الكبرى، ونرى التليفزيون – في كشك خشبي، أقامته الهيئة العامة للاستعلامات – لأرى عبد الحليم وصباح وهدى سلطان وشادية وهم ينشدون للأمة العربية كلها التي أصبحت هي الوطن الأكبر، وتتكرر الأغنية التي لحنها عبد الوهاب للمؤلف نفسه مع زيادة فايدة كامل ووردة الجزائرية، ويأتي مقطع الختام بصوت عبد الحليم:

وطني يا زاحف لانتصاراتك
ياللي حياة المجد حياتك
في فلسطين وجنوبنا الثائر.. ح نكمل لك حرياتك
احنا وطن يحمي ولا يهدد .. احنا وطن بيصون ما يبدد
وطن المجد يا وطني العربي

ولم يكن من المستغرب أنني لم أسمع حتى ذلك الوقت، سنة 1960، عن انتصار الثورة الكوبية بقيادة فيدل كاسترو، ولا عن بداية حملة الاعتقالات الموسّعة في مصر ضد الشيوعيين قبيل زيارة خرتشوف إلى

مصـر، فمـن أيـن لي وأنـا الذي لم أخـرج مـن المحلة، ولـم يكـن محيطي الثقافـي الضيـق يهتـم بالسياسـة، ولا نفـارق المـدار المغلـق لـلأدب، أن أعـرف عن الشـيوعية أو الشـيوعيين، فقـد كان عليَّ الانتظار إلى سـنوات الجامعـة وما بعدها، حين أخذ وعيي السياسـي في الاتسـاع. أما قبل ذلك فقد كنت مثل أبناء غيري نمتلئ حماسـة للوحدة والعدل الاجتماعي الذي أخذ يكتسـب اسم الاشـتراكية، وكان الإعلام الناصري والإيمان بالأحلام الناصرية أقوى من كل شـيء، وأعلى مـن أي دعاية مناقضة. هكذا، ظللت علـى إيماني بالناصرية، وثقتي بأنها سـتحقق كل أحـلام الوطن، فقد كنت أحد أبناء «الجيل الصاعد» الذي هتف بحياته عبد الحليم ووردة الجزائرية ونجـاة الصغيـرة وفايزة أحمد وعبـد الوهاب بالكلمات التي كتبها حسـين السيد ولحنها عبد الوهاب الذي ختمها بالهتاف للجيل الصاعد :

عـاش الشعب العربي كـله سـلام وأمـان

عاش الوعي العربي كله ثوره في كل مكان

ثورة مارد للحرية.. هب ونـادى بـالقوميه

حيوا معايا.. قولوا معايا.. عاش عبد الناصر عاش

ولـم تكن أغنيـة «صوت الجماهيـر» تختلف عن «الجيـل الصاعد». فالجيـل الصاعـد هـو طليعة صـوت الجماهير الـذي يوقـظ كل الأجيال. ويختتـم عبـد الحليـم الأغنيـة بالكلمـات التـي كانـت تحفـر أصواتها في ذاكرتنا:

خط السير معلوم.. وطريقنا مرسوم

هو الوحده والاشتراكيه.. والاتنين هدف الجماهير

وأذكر أني استمعت إلى هذه الأغنية عام 1961، وهو العام الذي دخلت فيه الجامعة، ورأيت فيه، عيانا، من شعبية عبد الناصر ما زادني إيمانا به. وقد تزايد هذا الإيمان عندما مضى عبد الناصر في خطواته الاشتراكية. ولم أنتبه إلا بعد سنوات كثيرة أن حسين السيد لم يختم الأغنية التي كتبها إلا بكلمتي «الوحدة» و«الاشتراكية». وهو ختام له دلالة على الكلمة الغائبة «الحرية» التي أظنها لا تزال غائبة عن حياتنا العربية، إذا استثنينا بعض الفوارق الكمية. لكني ما كنت لأهتم بذلك حين استمعت إلى الأغنية، فقد كنت أفكر في أسرتي الفقيرة التي أرهقها تدبير مصاريف «الترم» الأول لعامي الجامعي الأول، غير أن هذا الهم سرعان ما أزاحه عبد الناصر عندما أعلن مجانية التعليم الجامعي، ففرحت وأسرتي بانزياح وطأة المصروفات الجامعية بفضل عبد الناصر، ولم أعد أرى سواه بطلا يأتي بالخلاص للأمة العربية، ويأخذ بثأرها القديم من فلول الاستعمار، ويبعث فينا بحضوره صورة صلاح الدين، تماما كما كانت تقول كلمات «نشيد الثأر» التي كتبها أحمد شفيق كامل وغناها عبد الحليم مع فايدة كامل وعبد الغني السيد ونجاة الصغيرة ورفيق شكري السوري وفايزة أحمد ونجاح سلام وصباح من لبنان، ومحمد قنديل من مصر.

ولا أذكر بعد «نشيد الثأر» سوى أغنية «بالأحضان» التي كتبها صلاح جاهين ولحنها كمال الطويل، ولا أزال أذكر صوت عبد الحليم وهو يدعو، ونحن معه، بأن يعيننا الله على تحقيق كل خيال، وأن يجعل يومنا الواحد يساوي كفاح أجيال، وأن يجعل المستقبل نورا أمامنا، فقد كان صلاح جاهين وكمال الطويل كعبد الحليم واثقين، مثلنا جميعا، في الغد الآتي. وهي الثقة التي دفعت عبد الحليم إلى غناء «مطالب الشعب» في عيد الثورة

العاشر في 23 يوليو 1962. وقد سبقت الأغنية مقتطفات من خطب جمال عبد الناصر، أهمها قراره بتأميم قناة السويس، وخطابه في الأزهر الشريف الذي كان له أبلغ الأثر في التصدي للعدوان الثلاثي سنة 1956، خصوصا حين أعلن فوق منبر الأزهر أنه باقٍ وأولاده في القاهرة، وأننا سنحارب كل عدو. وتتجسد مطالب الشعب في الأغنية بتحرير القدس وحيفا ويافا، بعد أن تحقق فجر النصر فوق أرض الجزائر، ولا تكتفي الأغنية بذلك، بل تطالب بالوحدة العربية الكبرى :

وحدة عربية بكفاية وعدل تقويها، وحدة باقية.. لا انتهازية ولا رجعية.

وكان الحديث عن الاشتراكية العربية، والحل الاشتراكي هو الحديث الذي أصبح مألوفا في الخطاب السياسي المصري، خصوصا بعد شيوع حركات التحرر الوطني وتقلص رقعة الاستعمار، فتستقل الكويت التي تلغي معاهدة الحماية البريطانية في يونيو 1961.

ويأتي الاحتفال بعيد الثورة في يوليو من عام 1963، فيعاود الثلاثي صلاح چاهين وكمال الطويل وعبد الحليم التعاون، وتنتج أغنية «المسئولية» التي يصل فيها الحلم القومي إلى ذروته، خصوصا بعد صدور ميثاق العمل الوطني في مرحلة التحول الاشتراكي، وإعلان الاتحاد الاشتراكي العربي، وانتخاب لجنته الأساسية، وتتجه الأغنية إلى عضو متخيل، تم انتخابه في اللجنة الأساسية، وتنطلق كلمات العضو بأحلام صلاح چاهين ولسان عبد الحليم فيريان بأعين الخيال تحقق أحلام جيلهم الذي آمن بالناصرية إيمانا عميقا صادقا مخلصا :

شايفين رايتنا في حضن النسمة.. مرفرفة بستاشر نجمه
على مدينه عربيه.. معرفش من أي الأقطار
حريه واشتراكيه ووحده.. مكتوب حروفها بميلون ورده
على صدر بلدة عربية.. معرفش من أي الأقطار
صناعه كبرى.. ملاعب خضرا.. تماثيل رخام ع الترعة وأوبرا
في كل قريه عربيه
دي ما هيش أماني وكلام أغاني دا برّ تاني
قصادنا قريب.. يا معداوية

الغريب أننا كنا نستمع إلى هذا الكلام ونصدقه، شأننا شأن الطويل وچاهين وعبد الحليم، فقد كانت الأحلام جنين الواقع وبذور المستقبل التي تتأهب للازدهار، وكنا نرقبها بلهفة الذي يتطلع إلى الثمرة التي تتأهب، على الضفة الأخرى من النهر الذي نوشك أن نعبره لنصل إلى «بستان الاشتراكية». وهي الأغنية التي جمعت بين أبناء جيل مولود ما بين عامي 1923 و 1930، وعانى من فساد الحياة السياسية قبل الثورة، وحلم بإمكان تحقيق أحلام الحرية والعدل والاشتراكية على يدي عبد الناصر المولود سنة 1918، قبل عام واحد من انفجار ثورة 1919، يفصل ما بين ميلاده وميلاد محمد الموجي سنة 1923 خمس سنوات، وبينه وميلاد عبد الحليم حافظ سنة 1929 أحد عشر عاما، وبينه وميلاد صلاح چاهين سنة 1930 اثنا عشر عاما، وبينه وميلاد كمال الطويل سنة 1932 أربعة عشر عاما، فقد كان بمثابة الأخ الأكبر لهم جميعا، يحمل الهموم نفسها، وينتسب إلى الشرائح الاجتماعية ذاتها، ويجسد الأحلام التي تتفتح على

الورد «أبو تمانين مليون شجراية». والمشاركون في الحلم يغنون بصوت عبد الحليم :

على راس بستان الاشتراكيه.. واقفين بنهندز ع الميه

أمة أبطال، عُلَما وعمال، ومعانا جمال

بنغني غنوة فرايحيه

ويأتي عيد الثورة سنة 1964 فيغني عبد الحليم من تأليف رفيق صبا الزقازيق مرسي جميل عزيز وألحان كمال الطويل : «بلدي يا بلدي والله احلويتي يا بلدي». وتذهب القوات المصرية إلى اليمن لتساند ثورته، فيكتب حسين السيد لحليم كلماته التي وجهها إلى القوات العائدة. وكان ذلك في العام نفسه الذي أفرجت فيه السجون الناصرية عن الشيوعيين المعتقلين، خصوصا بعد أن تصالحوا مع الثورة، وأعلن الحزب الشيوعي المصري حل نفسه، وقام عبد الناصر بإعادة الاعتبار إلى أعلامه، بعد تعذيبهم سنوات في المعتقلات الفظيعة التي كانت وصمة عار في تاريخ الناصرية. ويبدو أن عبد الناصر أراد الاستعانة بخبراتهم في معارك التحول الاشتراكي التي أعلنها، وصمم على أن يخوضها. ولم يكن من المصادفة، والأمر كذلك، أن يجتمع الثلاثي كمال الطويل وصلاح چاهين وعبد الحليم ليقدموا أغنية «يا أهلا بالمعارك» في عيد الثورة عام 1965. وترسم الأغنية طريق المستقبل الذي :

اسمه في الاشتراكيه.. التصنيع التقيل

وتحذر الأغنية، في مدى حدس الفن، من عين العدو التي لن تنام، كما كان الثلاثي يستشعر شيئا يمكن أن يأتي من وراء الغيب، في سياق التحديات الذي دخلته الثورة في معاركها التي لم تتوقف. وتأتي أغنية

«صورة» للثلاثي نفسه، وتبدأ ملامح الصورة :

من أصغر طفله بجدايل.. على زرع ودرس بتمايل
للفلاح أبو خير وجمايل.. للواعظ حافظ القرآن
للجندي الأسد اللي شايل.. على كتفه درع الأوطان
وبعيد عن العين لكن.. في الصورة أوضح ناس
ناس تحت حر الجبال.. والقلب كله حماس
بتفجر الرمل أنهار من دهب اسود
وناس بتكسيه بخضره وكل لون له ناس
وأساتذة وعلما ومعامل.. ودكاترا م الشعب العامل
ورجال سكّر على مكاتبها.. تخدم بالروح لما تعامل
والصوره مفيهاش الخامل.. والهامل واجبه، ونعسان
ما فيهاش إلا الثوري الكامل.. المصري العربي الإنسان

وكانت «صورة» نهاية اليوتوبيا الناصرية، فقبل أن يحل يوليو بشهر واحد بدأت حرب يونيو 1967، وحدثت الكارثة التي لم نكتشف بشاعتها إلا عندما أعلن عبد الناصر بيان تنحيه عن الحكم، وتخرج الجماهير الهادرة لتعيده إلى الحكم، معتقدة أن الذي قادنا إلى الهزيمة، لابد أن يكفر عن خطيئته بأن يقودنا إلى النصر. وخلال أيام المعركة أقام عبد الحليم في مبنى الإذاعة تحت دوي القنابل، وأخذ الشاعر عبد الرحمن الأبنودي يكتب في حماسة المؤمن بالنصر، ومعهما كمال الطويل الذي ظل يلحن الأغنية بمجرد كتابة كلماتها، وكانت أهم الأغاني التي أذاعتها الإذاعة أغنية «أحلف بسماها» التي لحنها كمال الطويل من كلمات الأبنودي :

أحلف بسماها وبترابها

أحلف بدروبها وأبوابها

أحلف بالقمح وبالمصنع

أحلف بالمدنه وبالمدفع

بأولادي بأيامي الجايه

ما تغيب الشمس العربيه

طول ما انا عايش فوق الدنيا

ولكن الحرب انتهت بالهزيمة الساحقة، وأصاب الاكتئاب الحاد أولئك الذين آمنوا بالناصرية حتى النخاع، فأخرست الهزيمة صلاح چاهين الذي شعر بأنه خدع الناس بحلم انقلب إلى كابوس، وامتنع عن كتابة الأغنية الوطنية إلى أن مات، لكنه قبل أن يفارقنا كتب ملحمته «على وش مصر» التي لم ينهها، وتركها إلى نهاية ما استطاع أن يصل به قلبه المثقل بالحزن، وأصاب الاكتئاب كمال الطويل ومحمد الموجي، وانتهى الزمن الجميل الذي شهد ذرى إبداعاتهما. أما عبد الحليم فاستبقت روحه العناد وروح المقاومة، وأقسم أنه لن يبدأ أي حفل له إلا بأغنية «أحلف بسماها» التي تحولت إلى نوع من قسم الولاء ليتم الحلم الذي ظل يغني له مع چاهين والطويل. وأما عبد الرحمن الأبنودي الذي لم ينطو على إيمانهم بالناصرية التي عرف سجونها، وأدرك ثغراتها، فقد أحال غضبه إلى غناء حزين، ظللنا نردده معه، في انكسارنا، مع صوت عبد الحليم الذي غنى «عدّى النهار» التي أعدها أرقى وأصفى ما كتبه الشعر في رثاء الناصرية، بعد انكسارها العظيم، في يونيو 1967. وهكذا سمعنا بصوت عبد الحليم الحزين، ولحن بليغ حمدي هذه المرة.

عَدّى النهار والمغربيه جايه تتخفى ورا ضهر الشجر

وعشان نتوه في السكه شالت من ليالينا القمر

والصورة الشعرية بديعة، تكمن روعتها في الرمزية التي تنسرب في علاقاتها المجازية التي يمدها التجسيد والتشخيص بطاقة الإبداع الذي يضع السائرين في نهاية النهار الذي أنهته دورة القدر الغشوم، لتفتح أبواب عالمنا أمام الظلمة التي تستهل حضورها بالمغربية التي تتسلل، متخفية، وراء الشجر، كأنها حيوان شرس، يتربص بالسائرين إلى أن يهجم عليهم، كي يفترسهم بأنيابه، وكما تحمل استعارة الظلام معاني التيه والخوف والرعب وانعدام الأمان وعدم إمكان الرؤية والتخبط وغياب الدليل، تحمل استعارة «المغربية الجاية.. تتخفى ورا ضهر الشجر» إيحاءات التربص وإمكانات الغدر والافتراس والقتل والسفك. ويزيد الطين بلة ما يبتلينا به القضاء الغشوم من مزيد من العذاب الذي يزيدنا ضياعا فوق ضياع، وتيها فوق تيه، لنغدو بلا حول ولا قوة في حضرة الاستعارة المكنية للمغربية الفاتكة التي طردت القمر من ليالينا التائهة، كي نتخبط أكثر وأكثر كالعميان، بلا دليل ولا نجمة هادية أو قمر رحيم. ويلتقط الأبنودي أنفاسه ليأتي المقطع الثاني بما يكمل معنى المقطع الأول، ويضيف إلى دلالاته:

وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها

جانا نهار مقدرش يدفع مهرها

يا هل ترى الليل الحزين.. أبو النجوم الدبلانين

أبو الغناوي المجروحين.. يقدر ينسيها الصباح

أبو شمس بترش الحنين

أبـــدا بـلدنـــا للنهار.. بتحب مـــوال النهار

لما يعدي في الدروب.. ويغني قدام كل دار

والتشخيص الذي يُستهل به المقطع مألوف في الشعر العالمي، حيث تشـبيه الوطن بالمرأة، لكـن بلاغة العامية تمنح التشـبيه طزاجة فريدة، كما أن ترشـيح الاسـتعارة التي ينطوي عليها التشـبيه يدخلنا في نوع من التوتر الدرامـي الذي لا يخلو من معنى الإدانـة، أو الاتهام المضمر، وقد لمحت ذلـك عندمـا لاحظت أن جمـال على وزن نهـار، وذلك على نحـو يمكننا من أن ننطق المسـكوت عنه، فنقول : إن المقصود من تورية الاسـتعارة أن جمال لم يسـتطع أن يدفع مهـر بلدنا، وتركها مثلنا أسـيرة ليل يتخفى وراء الأشجار، مستعدا للنهش الذي كانت بوادره قد بدأت. وسواء قرأنا الأسطر على المعنـى الرمزي أو المعنى الحرفي للنهـار، فالنتيجة واحدة، وهي أن مصـر الجميلة لم تجد مهرها، فدخلت إلـى ظلمة تيه لا يعلم إلا الله مداه، لكنها سـتظل تحلم بانقشـاع الليل، ومقدم الصباح بالأمل، فبلدنا الجميلة فاتنة لا ينسيها الليل المعتم بنجومه الذابلة عشقها للنهار، والحياة بشمسها التي تلقي بذور الأمل كالحنين إلى نور الخلاص في كل درب. ولا ينسـى عبـد الرحمن الأبنودي بعد السـؤال البلاغـي عن إمكان نسـيان الأمل، أو ضياعه، واقعيته الاشـتراكية في ذلك الوقت. أعني تلك الواقعية التي كانت تري أن من مهمة الفن عدم بث اليأس في القلوب، والبحث دائما عن ثغرة مضيئـة، مهما كانت خافتة الضوء، تكسـر جدار الظلمـة، أو تفتح فيه ثغرة. ولذلك تأتي الإجابة عن السؤال البلاغي :

أبدًا بلدنا للنهار.. بتحب موال النهار

وهـي صورة تغـدو بمثابة الأصل لأغنية لاحقة، أنشـدناها كثيرا، تبدأ بكلمات «مصر يا امه يا بهيه». والبهاء قرين النور، أو هو لازمة من لوازمه،

وهو يعيدنا إلى صورة الوطن - الأنثى المنذورة للنهار، ولذلك فإنها تحب موال النهار، لأنه هو ما يليق بها وهي التي تليق به.

وتمضـي الأغنية مع المقطع الثاني والأخير الذي يؤكد معنى التفاؤل المنبثق من ظلمة اليأس، فتحلم مصر بالسنابل الجديدة والجبال التي تعني العلو والصعود لا الهزيمة والانكسار، وتحلم بالغد الذي سيأتي بالانتصار بعد الهزيمة، وبرؤيا تزرع التفاؤل في القلوب. وأعتقد أن هذا التدرج المبرر من يأس الظلمة إلى أمل النهار هو سبب من أسباب عديدة، جعلت من كلمات الأبنودي المبدعة بلسما وعزاء وأملا على السواء. ولذلك أكثرت الإذاعة المصرية من إعادتها، وأدمنا نحن على استماعها، فقد كانت رثاء لزمن جميل مضى، وتطلعا إلى زمن جميل قد يأتي، ولعله يأتي، فنحن لا نزال في انتظاره!

وظل عبد الحليم يغني بعد «موال النهار»، ويجمع القلوب العربية حول أمل النصر إلى أن جاءت حرب أكتوبر 1973 وغنى من كلمات الأبنودي «صباح الخير يا سينا» و«قومي يا مصر»، ولحن له الطويل «خلي السلاح صاحي» من كلمات أحمد شفيق كامل.. ومضى يغني لمصر إلى أن توفاه الله سنة 1977 في زمن السادات، بعد وفاة عبد الناصر بسبع سنوات، وبعد أن أطاح السادات بنفوذ الناصريين في مايو 1971 وطرد الخبراء الروس من مصر في يونيو 1972 وإلغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية في مارس 1977، وبعد أن افتتح العام الذي مات فيه عبد الحليم بما سمي «ثورة الخبز في مصر»، وأسماه السادات «انتفاضة الحرامية». وأصبح الزمن غير الزمن، ودخلنا فيما وصفه الأبنودي في ديوانه «المشروع والممنوع» :

هذا زمان الأونطه والفهلوه والشنطه

وكان زمنا جميلا كاملا قد مضى بأحلامه التي تحوّلت إلى كوابيس!

عام الكارثة

كان تعييني في كلية الآداب - جامعة القاهرة معيدا بقسم اللغة العربية في السادس عشر من مارس سنة 1966، بعد أن أنصفني عبد الناصر وأعاد لي حقي المسلوب من كبار أساتذة قسم اللغة العربية الذين نسوني في صراعاتهم. وانغمست منذ ذلك اليوم في حياتي الجامعية، وكلي عرفان بصنيع عبد الناصر، ولا أزال. وكان كل شيء حولي بهيجا، والتجربة الناصرية صاعدة إلى ذروتها السعيدة، والأحلام التي وعدت بها، بدت قابلة للتحقق، على مدى البصر والأمل، فقد خرج الشيوعيون من المعتقلات الناصرية البشعة، وبدأت الناصرية كما لو كانت تكفّر عن أخطائها، فأوكلت إليهم مناصب مهمة في الإعلام، حيث تولى محمود العالم رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم، ثم الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو «دار الكاتب» في ذلك الزمان، وبدا الأمر كما لو كان الحزب الشيوعي القديم، قد ذاب في الاتحاد الاشتراكي، ولم أسمع عن التنظيم الطليعي حقا، لكنني عرفت فيما بعد أنه ضم أفضل الشخصيات التي أعرفها، وواصل إبراهيم سعد الدين مهمته في إعداد الكوادر الاشتراكية في معهد إعداد القادة، وبرز دور إسماعيل صبري عبد الله في معهد التخطيط القومي، ومعه فؤاد مرسي، وقد استحق كلاهما منصب الوزارة في فترة المد الناصري في زمن السادات، قبل الانقلاب على الناصرية، وكان أحمد رشدي صالح يقود دار الهلال، وبعدها آخر ساعة، وهو محرر «الفجر» القديم، وأحمد

عباس صالح كان رئيس تحرير الكاتب، ومعه البعثيون القدامى مثل عبد العزيز الأهواني، وسرعان ما ظهرت الطليعة برئاسة لطفي الخولي لتكون صوت اليسار المصري، وبدا أن كل شيء قد غلب عليه الاتجاه التقدمي، وتحولت الناصرية نفسها إلى اشتراكية عربية، أخذنا نسمع عن وعودها في طريق التحول الاشتراكي الذي كان الجميع يتحدث عنه، ويغني له كما فعل صلاح چاهين الذي غنى له عبد الحليم حلمه الاشتراكي، سنة 1963، عن أننا سوف نرى.

صناعة كبرى.. ملاعب خضره.. تماثيل رخام ع الترعه وأوبرا
في كل قريه عربيه

وكان أحمد حجازي يكتب قصائده عن الاتحاد الاشتراكي العربي وعبد الناصر الذي أصبح زعيم العرب التقدميين، وأصبحت كلمة «التقدمية» صفة مدح يتمسح فيها الجميع مقابل «الرجعية» التي انتفت عنها صفة الصعود مع تجليات النمط الذي وصفته أغنيات عبد الحليم: «عدو الاشتراكية، خاين المسؤولية». وكان التيار الثوري الصاعد، على المستوى القومي، في أبهى حالاته، يأتينا كل عام بانتصار جديد على امتداد آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. أما مسمى العالم العربي فقد استبدل به «الوطن العربي» الذي غمرته الأحلام القومية عن الحرية والوحدة والاشتراكية، وأخذت انتصاراته تتوالى منذ انتصار الثورة الجزائرية في يوليو 1962 وقيام الجمهورية الجزائرية 1963 بزعامة بن بيلا، وانتصرت الحركة القومية بزعامة عبد السلام عارف، وتأسست منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا بدعم عبد الناصر سنة 1963، العام نفسه الذي انتصرت فيه حركة الماو ماو، وتحررت كينيا بزعامة جوموكينياتا، وجاء عام 1964 ليشهد

فـي أولـه (يناير) أول مؤتمر قمة عربي ينعقد فـي القاهرة، ويزيح فيصل بن عبـد العزيز أخاه سـعود الذي موّل أكثـر من محاولة لاغتيـال عبد الناصر، وقبلها بشـهر وقّـع عبد الناصر الاتفـاق المصري العراقي علـى إقامة قيادة سياسية موحدة، تحقق الوحدة الدستورية، ويوقع رئيس الجمهورية اللبناني شـارل حلو اتفاق القاهرة مع المقاومة الفلسـطينية التي بدأ صوتها يعلو في يناير 1965 معلنة انطلاق حركة التحرير الوطني (فتح)، وفي نوفمبر 1966 يتم توقيع التحالف الدفاعي المصري السوري. وقد شاهدت حفل التوقيع في التليفزيون المصري الذي «وُلِد عملاقا» كما قيل لنا، وأصبح هو النافذة التي نشـاهد منها العالـم الذي أخذ يتطلع إلى مصر، وذلك بالقدر الذي كنا نفخر فيه بقيادة المدّ القومي العظيم.

ولـم نكن بعيدين في الوقت نفسـه عـن حركات التحـرر الوطني في كل مـكان، فعرفنا أسـماء كاسـترو، وافتخرنـا بأعمال إرنستوشـي جيفارا، وعرفنا الثورة الثقافية في الصين، ولم نر منها سـوى وجه واحد، فقد كانت آذاننـا صماء عن شـعار : دع مئة زهرة تتفتح. وما أكثر ما شـاهدنا من أفلام سـوڤيتية، وذهبنا إلى المركز الثقافي السوڤيتي، واستمتعنا بالطبعات زهيدة الثمـن التي قرأناهـا بفضل مكتبة الشـرق التي كانت مؤلفاتهـا مدخلنا إلى معرفة الشيوعية، تماما كما كانت سلسلة «الفكر الاشتراكي» التي ترجم لها الكثيـر عبد الكريـم أحمد الذي عرفني به أسـتاذي عبد العزيز الأهواني بعد أن قـرأت أغلب الكتب التـي ترجمها، وكان هو، بعد راشـد البراوي، أكثر مـن قدَّم إلى العربيـة، تعريبا وتلخيصـا، أهم المؤلفات الماركسـية، ففتحا لنـا الآفاق الواسـعة للفكر الاشـتراكي، مـع أحمد فؤاد بلبـع ومحمد مفيد الشوباشي وإسماعيل المهدوي ومحمد مستجير مصطفى وغيرهـم.

وفي ظني أن الفترة التي قضيتها في القاهرة بعد التخرج، وما أعقب التخرج من حصولي على منحة دراسية في معهد الدراسات العربية بالقاهرة، وتعييني معيدا في الجامعة، هي الفترة التي أخذت أقتحم فيها الأفق اليساري الذي فتحته لي الناصرية، خصوصا بعد أن انقلبت إلى اشتراكية عربية. صحيح أنني كنت قد بدأت أسمع من يتهمونها بأنها لا تخلو من نزعة عسكرية مناقضة بطبيعتها للحكم الديموقراطي والحرية الحقيقية، ولكني كنت أسمع الرد على ذلك بما فعله القذافي والصراع بين الأحزاب التي رفعت علم الديموقراطية قبل الثورة. وكان نجيب محفوظ، دون أن أدري، دفعني إلى التعاطف مع الوفد القديم، كما كان محمد مندور يذكرنا بالوجه التقدمي للطليعة الوفدية، فكان ذلك يقلل من السؤال الجارح عن أسباب الفساد التي كنا نراها في إدارات القطاع العام التي قفز عليها ضباط بلا خبرة، مما كان يدفعني إلى تذكر السؤال الاستنكاري الذي كنت أسمعه من بعض اليساريين الذين عرفتهم في الحياة الثقافية: كيف يُبنى مجتمع الاشتراكية دون اشتراكيين حقيقيين؟! ولكن الإنجازات الناصرية الهائلة التي كنت أراها كالهالة على جبين عبد الناصر، والاستمرار الصاعد للعهد الذهبي منذ 1956 إلى سنة 1966، حيث السنوات التي شهدت أعظم الإنجازات الناصرية، كانت تدفعني إلى أن أصم أذنيَّ عن الأسئلة الاستنكارية، ولا أظن أنني قرأت شيئا زرع في داخلي بذرة شك قاومتها سوى كتابة نجيب محفوظ في نقد واقع ما بعد الثورة، وكان ينشرها في جريدة «الأهرام» بتشجيع من محمد حسنين هيكل صديق عبد الناصر، وكاتب «الميثاق» وأهم الخطب التاريخية لعبد الناصر الذي ظل عظيما في وعيي إلى اليوم. وأذكر أن بذرة الشك تحوّلت إلى شوكة صغيرة، تنخر ذهني منذ أن قرأت «ميرامار» في مطلع

1967، قبل أن تحدث الكارثة، حيث «زهرة» الفلاحة المتطلعة إلى المستقبل، كأنها فلاحة مختار في تمثال «نهضة مصر» الذي كنت أراه يوميا، في غدوّي ورواحي من الجامعة. وكانت «زهرة» وردة يسعى إليها ممثلو الشرائح الاجتماعية المختلفة في البنسيون، ولا ينجح في خداعها سوى منصور باهي، الانتهازي، القيادي في الاتحاد الاشتراكي الذي تسلل إليه من لا يؤمنون بالاشتراكية، ولا بشعاراتها، وتنتهي الرواية بمقتل الممثل الانتهازي للاشتراكية، سرحان البحيري، ولم يفتني أن السرحان من أسماء الذئب، وضياع آمال «زهرة» التي لم تجد من يحنو عليها، والتي تكتشف أن سرحان البحيري لا يفترق عن الإقطاعي الجديد، حسني علام، ولا الإقطاعي القديم، طلبة مرزوق، ولا الماركسي المنكسر، منصور باهي، وأنه لم يحنُ عليها سوى عامر وجدي الوفدي القديم الذي يقول لها : «مهما يكن من مرارة التجربة الماضية، فلن تغير مرارتها من طبيعة الأشياء، ستظل غايتك المنشودة هي العثور على ابن الحلال». وكانت هذه عبارات تومئ إلى كلام مسكوت عنه، وتنذر بأن هنالك شيئا خطأ، وأن الدودة في أصل الشجرة. ويضيف عامر وجدي إلى ما قال همسة في أذن زهرة التي يحنو عليها، ولكنه لا يملك لها شيئا سوى الحنو والدعاء : «ثقي من أن وقتك لم يضع سدى، فإن من يعرف من لا يصلحون له، فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود».

وكنت أزن هذه الكلمات - النذير - وأرد عليها بعقلي : إن الثورة التي حققت هذه الانتصارات قادرة على مراجعة نفسها، وتحقيق «الصالح المنشود» لزهرة ولنا، ولا أدل على ذلك مما حدث في جلسات الحوار الوطني التي صاحبت إعلان الميثاق. وظللت على ما أنا عليه من إيمان

بصعـود ثورة ناصـر التي أدخلتنـي الجامعة، وعلمتني بالمجـان، وأعادت لـي حقي المسـلوب، فأصبحت معيدا في الجامعة التـي لم أكف عن حبها والحلـم بمسـتقبلها. ومضت الأيـام، وانتهى العام الدراسـي 1966، وكان المرحـوم صبحـي عبد الحكيـم عميد الكليـة، وقمت بإعـداد محاضرات السـنة الأولـى، ووضعتهـا في شـكل دراسـة عـن نجيب محفـوظ متناولا مرحلته التاريخية والاجتماعية، وقام اتحاد الطلاب بطبعها لتوزيعها مجانا علـى الطلاب وأخذ أسـاتذة الكلية ينظرون إليَّ بعيـن التقدير، وانتهى عام 1966، وجاء بعده عام 1967، وقد فرغت من السنة التمهيدية.

ومرت أشـهر السنة التي لن تمحى من ذاكرة جيلي، وارتفعت سحب قاتمـة من الغيوم في النصف الأول من مايو 1967. وقيل إن هناك خطة من العدو الإسرائيلي لغزو سوريا، وظهرت الأدلة المتوافرة على هذا التحدي الخطـر، وكان علـى القيـادة الناصرية أن تتخـذ موقفا فاعلا وحاسـما إزاء ذلـك، خصوصا بعد أن ارتبطت بسـوريا بمعاهدة دفاع مشـترك. وتحولت القوات المسـلحة إلى حدودنا مع إسـرائيل، وبدا كما لو أن مصر الناصرية لن تترك إسـرائيل هذه المرة، فانسحبت قوات الطوارئ الدولية التي كانت موجودة بعد انتهاء العدوان الثلاثي، على الحدود بيننا وإسرائيل، وسيطرت القوات المصرية على مواقع شـرم الشيخ المحكمة في مضيق تيران. وكان العدو الإسرائيلي يستخدمها منذ حرب 1956. وأصبحنا ندرك أن الحرب واقعـة لا محالة. وقيـل إن الولايات المتحدة والاتحاد السـوفيتي طلبا من عبد الناصر أن لا يبدأ الحرب. وقبل عبد الناصر الذي وقع في الفخ، أو الذي ظن أن جيشـه قادر على رد الضربة الأولـى بضربة قاضية. وأصبحنا نعيش فـي حـال من التوتـر الدائم. وكانت الدراسـة الجامعية قـد انتهت، ودخلنا الامتحانات مع أوائل يونيو سنة 1967 وبدأت الامتحانات كالعادة، وكنت

أسهم في الإشراف على امتحانات قسم صحافة مثل غيري من معيدي كلية الآداب الذين توزعنا للإشراف على بقية الأقسام. وكان هناك قلق متزايد بسبب قرار إغلاق باب المندب في وجه الملاحة الإسرائيلية. وسمعنا أن الاتحاد السوفيتي يقوم بدور في تهدئة عبد الناصر، بعد أن قام الجيش بإعلان التعبئة العامة، وكانت رايات النصر القادم خفاقة، وشعارات إلقاء إسرائيل في البحر مرفرفة. ولذلك لم نتوجس من إيقاف الامتحانات في الخامس من يونيو، وتقرر أن نبيت نحن المعيدين الشبان في الكلية على نوبات متعاقبة حماية لها من أي عمل تخريبي، وهو الأمر الذي حدث مع كل معيدي جامعة القاهرة، وبدأ التدريب العسكري الذي كنت أرى بعض الأساتذة الكبار يفرون منه كما يفر الطلاب الكسالى من المحاضرات.

وكنا نحن معيدي كلية الآداب من الشباب نسهر كل يوم إلى الصباح في قاعة مجلس الكلية نتابع أخبار الحرب في لهفة، ونسمع يوميا عن عشرات الطائرات الإسرائيلية التي تتساقط كالذباب، وصوت أحمد سعيد وهو يهدر يوميا من صوت العرب، وأصوات النصر الآتي لا ريب فيها ولا شك. وكان عبد المحسن بدر، يدندن في الأيام التي نراه فيها أغنية الأبنودي التي غناها عبد الحليم بلحن كمال الطويل :

ابنك يقولك يا بطل.. هاتلي نهار

ابنك يقولك يا بطل.. هاتلي انتصار

ابنك يقول أنا حواليه.. الميت مليون العربيه

ولا فيش مكان للأمريكان.. بين الديار

وكنا نردد معه الأغنية في داخلنا، واللهفة كالحماسة ملء جوانحنا. وظللنا أياما على هذا الحال، لكن شيئا من الشك أخذ يتسرب في نفسي من تكاثر عدد الطائرات الإسرائيلية المتساقطة! وقلت لصديقي إبراهيم شتا،

رحمه الله، سائلا : لكن يا أبا خليل كم عدد الطائرات التي تملكها إسرائيل؟ لقد سقط من عندها المئات العديدة فماذا تبقى لها؟!. لكن إبراهيم سليم الطوية أجابني ساخرا كعادته : يا عبيط، إسرائيل وراءها أمريكا تزودها بآلاف الطائرات. وكان ذلك في صباح اليوم السابع من يونيو، وعندما جاء المساء، وخلت الكلية إلا منا نحن المعيدين، نجح واحد منا في التقاط صوت الإذاعة البريطانية، فأخذنا نسمع من بين أصوات التشويش، أن الطائرات المصرية قد ضُربت على الأرض، وأن جيشنا انسحب انسحابا مرتجلا من سيناء، وأن الطائرات الإسرائيلية حصدت الجنود المنسحبين بلا حماية، وأنها أسرت المئات من الجنود المصريين!. ولكننا لم نصدق كلمة واحدة مما سمعنا، فقد كانت إذاعتنا المصرية تؤكد العكس، ولا تكف عن إذاعة الأناشيد الحماسية، وصوت أحمد سعيد يهدر كالمعتاد!. ولكن اليقين الفرح الذي كنا عليه أخذ يتزعزع، خصوصا مع الإلحاح على عدد الطائرات الإسرائيلية المتساقطة. وجاء صباح الثامن من يونيو متثاقلا، وبدا أن هناك شيئا قد حدث، أو يحدث، لا ينذر بالخير، وأقبل التاسع من يونيو بعشرات الهواجس، خصوصا بعد أن تلقينا تعليمات بالاجتماع في قاعة الاحتفالات الكبرى في جامعة القاهرة.

وذهبنا إلى القاعة، فوجدنا منضدة فوقها جهاز تليفزيون كبير الحجم، وقيل لنا إن الرئيس عبد الناصر سوف يوجّه بيانا مهما للأمة. وكانت جهامة وجوه المشرفين تنذر بأن كارثة حدثت، وسمعنا همهمات من بعض زملائنا المعيدين المجاورين لنا بأننا هُزمنا في الحرب، وأن بيان عبد الناصر سيكون حول الكارثة التي كانت قد حدثت بالفعل، وتركت جراحا لا تزال غائرة في وجدان ووعي أبناء جيلي.

شـاهدنا صورة عبد الناصر على شاشة التليفزيون، ونحن جلوس في قاعـة الاحتفالات الكبرى بجامعـة القاهرة، ومنذ أن لمحنا وجهه الحزين، وصوته المليء بالانكسار، والجمل الأولى التي اخترقت قلوبنا كالطلقات القاتلة، بعد جملته المعتادة : أيها الإخوة :

«لقـد تعودنا معا في أوقات النصر وفي أوقات المحنة، في السـاعات الحلوة وفي السـاعات المرة، أن نجلس معا، وأن نتحدث بقلوب مفتوحة، وأن نتصارح بالحقائق، مؤمنين أنه من هذا الطريق وحده، نستطيع دائما أن نجد اتجاهنا السـليم مهما كانت الظروف عصيبة، ومهما كان الضوء خافتا ولا نسـتطيع أن نخفي على أنفسـنا أننا واجهنا نكسـة خطيـرة خلال الأيام الأخيرة».

هكـذا أدركنـا أننا خسـرنا الحـرب، ورأينا فـي ملامح الرجـل الذي قـاد أحلامنـا وآمالنـا، وجعلها قريبـة من أصابعنـا التي كادت تمسـك بها، أن كل شـيء ضـاع، وأن الهزيمة حلّت كالألم المـرّ، كالتيه، كالحلم الذي انقلب إلى كابوس، لا أظن أني اسـتوعبت تفاصيل ما قال بعد ذلك، وماذا يهمنـي فيما إذا كنا توقعنا العدو من الشـرق والشـمال فجاء من الغرب، أو أن تسـهيلاته تفوق مقدرته، وتتعدى المحسـوب من قوتـه، وأن الولايات المتحدة فتحت خزائن أسلحتها على مصراعيها لتمنحه ما يريد وما لا يريد. المهـم أن كل مطاراتنـا قد ضربت فـي وقت واحـد، وأن طائراتنا احترقت على الأرض، وليذهب التواطؤ الاسـتعماري إلى الجحيم، فأين ما يسـمى بتقدير الموقف، وحسـاب الاحتمالات، وقياس القدرة على الإمكانات؟! عشـرات الأسـئلة الحزينة الغاضبة أخذت تدوّي في رأسـي، وأظنها كانت تـدوّي في رؤوس من حولي مـن زملائي الذين لم يكونـوا أقل مني حزنا.

وقد زاد حزننا ما سمعناه من أن الشعب الجزائري وقائده هواري بومدين أعطوا بغير حساب للمعركة، وكذلك شعب العراق وقائده عبد الرحمن عارف، وكيف اتخذت شعوب وحكومات السودان والكويت واليمن ولبنان وتونس والمغرب مواقف مشرفة، كل هذا ذهب بلا فائدة! ووقعت الكارثة مع ذلك! وتضطر القوات المسلحة إلى إخلاء خط الدفاع الأول في سيناء، وحاربت على خط الدفاع الثاني بلا فائدة مؤكدة! وماذا تعني الاستجابة لقرار وقف إطلاق النار في مجلس الأمن الذي لن تلتزم به إسرائيل إلا بعد أن تضع وجوهنا في الطين، ومعها حق، فنحن الذين أتحنا لها ما لم تكن تحلم به! كل هذا يحدث بقيادة «حبيب الملايين» الذي آمنا به، وأيقنا أنه سيحقق لنا أحلام الحرية والاشتراكية والوحدة. لقد تحولت الأحلام إلى كابوس ممتد بطول وعرض الأمة العربية التي تبكي معنا، ولها كل الحق في أن تلعننا.

ولم أفق من هذه الخواطر السوداء إلا على صوت عبد الناصر الذي يقول : «لقد قررت أن أتنحى تماما ونهائيا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر». هكذا يا جمال؟! تلقي بنا في أتون الهزيمة وتتركنا وحدنا! كن رجلا حتى النهاية، وابق إلى أن تمحو آثار العار الذي تسببت فيه، وهو جريمتك التي ليس مسؤولا عنها، أمامنا، سواك، فأنت الذي منحناك ثقتنا، وفوضناك في كل شيء، وبعد أن تقودنا إلى الكارثة تتخلى عنا، اللعنة، لن نتركك إلا بعد أن تمحو ما صنعت يداك. وليذهب صديقك وأخوك زكريا محيي الدين إلى الجحيم، فلن نقبل به رئيسا للجمهورية كما تقول، ولن نقبل تطبيق المادة 110 من الدستور المؤقت الصادر في شهر مارس سنة 1964، فلا رئيس لنا غيرك إلا بعد أن تعبر بنا المحنة، ولا ثورة بدونك، فلولاك ما

خرج الاستعمار، ولا تحقق استقلال مصر، ولا أخذت شخصيتها العربية في الصعود، ولولاك ما استرددنا قناة السويس ولا أقمنا السد العالي، وأنت تتحدث عن ساعة للعمل وليس ساعة للحزن، إذن فاعمل معنا، ولتكن أمامنا، أملا في قلوبنا وضياء وهدى. هذا ما كان يدور في خاطري، وما سجله قلمي في يومياتي عندما عدت إلى المنزل في هذا اليوم الحزين، يعتصرني الألم والخوف؛ الألم من هول وقع الكارثة، والخوف على القاهرة التي كانت مدينة مفتوحة يمكن أن يدخلها الإسرائيليون، ولكنهم كانوا أذكياء كعادتهم، فلم يدخلوا، واكتفوا بالوصول إلى شط القناة، وبدءوا في بناء خط بارليف، وأخذوا يعرضون طوابير الأسرى من الجند المصريين على أعين العالم كله، والمطارات المحطمة والطائرات المحترقة، وكل ما يثير الشعور بالمهانة والذل، ليس لدى المصريين وحدهم، بل لدى العرب أجمعين الذين أدخلتهم الكارثة تيه كوابيس العام السابع والستين.

أما نحن الذين تسمرنا في كراسينا، جامدين، مخدرين، مذهولين، مصعوقين، فلم يرفع واحد منا يده بالتصفيق، فقد تسمرت أيدينا بمساند المقاعد كأننا نهوي إلى قاع مظلم، وأعيننا مسلطة على شاشة التليفزيون الذي أغلقه شخص ما، ومضى إلى مقدمة المسرح، في خطوات متثاقلة، الدكتور رفعت المحجوب الشخصية البارزة في الاتحاد الاشتراكي، وأستاذ العلوم السياسية، وأخذ يخطب فينا، محاولا تبرير ما حدث، فلم تُسمع له كلمة، وفوجئنا بالأحذية تتطاير نحوه من كثير من الجالسين في القاعة، من المهزومين من أمثالنا الذين لم يجدوا ما ينفث عن غضبهم سوى قذف الرجل المسكين الذي جعلناه شريكا في الجريمة التي ارتكبت ضد أحلامنا، كما لو كان هو أحد صناع الكوابيس التي أخذت تضيّق الخناق على حضورنا، ولا أظن أننا وعينا من كلامه شيئا سوى لابد أن يبقى

عبد الناصر ليخرجنا من الكارثة التي أوقعنا فيها الاستعمار. وبالرغم من أن أكثرنـا كان يؤمن بأن المجرم الأول ليس الاسـتعمار، بل هؤلاء الذين التفوا حول عبد الناصر، وضللوه، فقد كان لابد أن يبقى عبد الناصر ليتخلص منهم أولا، ويتولى قيادتنا إلى الثأر، فيرد الاعتبار إلى وجودنا وحضورنا العربي.

ولا أعرف كيف قضينا ليلة التاسع من يونيو، كل ما أذكره أن الدكتور صبحـي عبد الحكيم، رحمه الله، طلب منا أن نهاتف أسـاتذة كلية الآداب ليأتـوا إلـى الكلية لكـي يجتمعـوا ويطالبـوا برفض اسـتقالة عبـد الناصر، ورفض كثير من الأسـاتذة الحضور، فألغيـت الفكرة، وأذكر المكالمة التي هاتفـت فيها أسـتاذي مصطفى سـويف، متعه الله بالعافيـة، فحاول الرجل إقناعـي بالمنطق بأن هـذا الطلب لا معنى له، خصوصا مـع احتمال إمكان قيام إسـرائيل بالغارة علـى مدينة القاهرة التي كانت سـماؤها مفتوحة أمام العدو المنتشـي بانتصاره، والذي لـم يكن قد أعلن قبول وقف إطلاق النار بعـد، وكنت متوترا في ردودي على أسـتاذي العقلانـي، لا أقبل منطقه في الحالـة الانفعالية التي كنت عليها. ولا أعـرف كيف تخلصت من نصائحه التـي رأيتها باردة، ولـم أكن مسـتعدا لاحتمالها. ويبـدو أن زملائي في كلية الآداب قـد واجهوا مـا واجهته، ولـم تنعقد مؤتمرات في جامعة القاهرة، أو في غيرها على ما أذكر، لكن الاتحاد الاشتراكي نجح في تحريك الجماهير التـي آمنت بـأن الذي أوقعها في الكارثة عليه أن يخـرج بها منها، وامتلأت شوارع القاهرة بالجماهير الصارخة التي أحاطت ببيت عبد الناصر وسدّت الشوارع المؤدية إليه، صارخة لا تتنحَّ.

ولـم تنـم القاهـرة في هـذه الليلـة الحزينة المظلمـة كالقبر، وسـهرنا نحـن المعيديـن في كليـة الآداب كي نحميها من احتمـال أن يقوم أحد من

المتعاونيـن مع العدو بإحداث ضرر بها، وقرر أكثرنا أن يذهب في الصباح إلـى التدريب العسـكري، ليلحق بالجبهـة التي لم تعد جبهـة، وكنت على رأس فريـق من منظمة الشـباب بالكليـة، وتلقينا تعليمات بأن نأخذ سـيارة نصف نقل، فوقها مكبر صوت، ونقوم بتوزيع منشـور كتبته بنفسي، يطالب الجماهير بأن تمنع عبد الناصر عن التنحي. وخرجت مع عدد من الطلاب والطالبـات، كانوا ورائي فـي العربة، يقومون بتوزيع المنشـور، وكان معنا المرحوم علاء حمروش، ابن أحمد حمروش، مدّ الله في عمره، وأنا جالس في كابينة القيادة، إلى جانب السائق، وبيدي الميكرفون الموصّل بالسماعة المكبـرة التـي وضعناها فوق كابينـة القيادة، وصوتي يصيـح بالجماهير أن تقـوم بالتعبير عن رغبتها في إبقاء عبد الناصر على كرسـيه، فلا خلاص لنا إلا بـه، وظللنـا نتجول في أنحـاء القاهرة، مليئين بالحماسـة والأمل في أن يستجيب عبد الناصر لرغبة الجماهير، ونسينا موعد الغداء، فمن الذي كان يمكن أن يشـغله الجوع عن الرسـالة النبيلة التي نذرنا أنفسـنا للقيام بها في ذلـك اليوم؟! وظللنا ننتقل من حي إلى حي في القاهرة الواسـعة، مركزين علـى الأحياء الشـعبية، فهـي الأحياء التي آمـن عبد الناصر بهـا وآمنت به، إلـى أن وصلنـا إلى حـي الخليفة الواقع تحت سـفح المقطـم، قرب جامع السلطان حسن.

وعندمـا أصبحنـا في أحـد ميادين الحـي القريبـة من قسـم الخليفة، وجدت جمعا من جنود الشـرطة يقطعون الطريـق علينا، وينزلون الطلاب أولا مـن خلـف العربة، ويصادرون مـا بأيديهم من منشـورات، ثم يطلبون منـي أن أنـزل مـن السـيارة لأذهـب معهم بـلا نقاش، فهـذه هـي الأوامر، ولا يعنيهـم أن أكون معيدا في كلية الآداب أو حتى عميدا، فالمهم أن نمثل جميعـا أمام حضـرة الضابط في قسـم الخليفـة. وذهبت بصحبـة الطلاب

الذيـن طمأنتهم، فنحـن نقوم بعمل وطني في نهاية الأمر، وسـرنا محاطين بجنود الشـرطة إلى قسـم الخليفـة، والناس يتطلعون إلينا فـي فضول، فلم نكن نشـبه اللصوص، ونبدو أولاد ناس، ولذلك لم أسـتغرب تعليق بعض الباعة الجائلين : يبدو عليهم أنهم بتوع سياسـة. وعندما وصلنا إلى حجرة الضابـط، وعرفنا، أمر بوضع الطلاب في التخشـيبة، وسـمح لي أن أجلس على كرسي في مواجهة مكتبه وأخذ وقته في قراءة المنشورات التي حسب أنهـا معكرة للأمن العام. ولكن وجهه كشـف عن حيرته بعد القراءة، وفهم مـا تحمله المنشـورات. وقال للجندي باسـما، بعد أن رحـب بي : أحضر شـاي للأفندية، وذهب الجندي لإحضار الشـاي، فقال لي الضابط الشاب الـذي يكبرنـي قليـلا فيما بدا لـي : لا أعرف مـاذا أفعل بـك؟! حرفيا أنتم تعكرون الأمن العام، وتخلون بالانضباط الأمني، وينبغي أن أعاملكم على هذا الأساس، من ناحية أخرى أفهم حماسكم، لكني ليس عندي تعليمات للسـماح بما تفعلون، ولم أفكـر طويلا، فقد طلبت منه اسـتخدام التليفون الموجـود على مكتبـه. وبالفعل، اتصلـت بالدكتور صبحـي عبد الحكيم، عميـد الكليـة الذي اتصـل بأحد كبار القيـادات الأمنية فيما يبـدو، وبعد ما يقرب من ربع السـاعة، رن جرس تليفون ضابط القسـم، ولم أسـمع سوى صوته يردد : مفهوم يا فندم، حاضر يا فندم.

وبعد تنهيدة قصيرة، توجه لي الضابط بالكلام، وقال لي : أنا متأسف إذا كانت العسـاكر عاملتكم بخشونة، وتوجه بالكلام للطلاب المحبوسين فـي التخشـيبة قائـلا : معلهش يا شـباب، تعيشـوا وتاخدوا غيرهـا، واحنا علينـا إكرامكـم بالغـداء، فرددنـا عليه في صـوت واحد : شـكرا، فقد كان خروجنـا إلـى الهواء الطلـق أكثر أهمية مـن الحبس في حجرتـه، حتى مع الشـاي والمعاملة الحسـنة، وانطلقنا إلى خارج القسـم، وعدنـا متخاذلين

إلى السيارة التي كان يحرسها بعض الجند، وسمحوا لنا بالركوب، فقد أرسل الضابط معنا، من يخبر زملاءه بالإفراج عنا ومعنا السيارة التي ركبناها وسط تجمهر بعض سكان حي الخليفة وأوجههم تنطق بالفضول وحب الاستطلاع، فلم يكن من المعتاد أن تطلق الشرطة من تقبض عليه بهذه السهولة والسرعة، دون بهدلة أو عشرات من السين والجيم. أما نحن، فقد ركبنا سيارة النصف نقل متثاقلين، وضاع حماسنا جميعا. ولم يعلق واحد منا على الموقف، كما لو كان الخرس قد أصابنا. وجلست إلى جانب السائق الذي ناولني الميكروفون، لكني رددته إليه، فلم أشعر في نفسي برغبة في أن أقول أي شيء للناس عبر مكبر الصوت، وعدنا بالسيارة إلى مبنى كلية الآداب، وأنزلنا لافتات الشعارات التي علقناها على السيارة. ولا أحسبني قلت للطلاب شيئا أو قالوا لي هم شيئا ذا بال. وتركتهم وعدت إلى حيث أسكن، وعرجت على مطعم تناولت فيه الغداء الذي نسيته في غمرة حماسة الصباح. ولمحت قبل أن أدخل المطعم فلول العائدين مع الغروب من المظاهرات النهارية التي اشتركوا فيها. وعندما ذهبت إلى الكلية في الصباح، عرفت أن حشود المظاهرات التي أعدها الاتحاد الاشتراكي سدّت طرقات وشوارع منطقة العباسية، وظلت حتى الصباح، وبلغني بعد ذلك أن عبد الناصر استجاب إلى مطلب الجماهير، وأعلن تراجعه عن الاستقالة. والغريب أني لم أشعر بالفرح، فقد كان السؤال الأهم : وماذا بعد؟!

رفض الهزيمة

قرأت في صحف الحادي عشر من يونيو 1967 بيان عبد الناصر بالعدول عن التنحي، ألقاه، نيابة عنه، رئيس مجلس الأمة محمد أنور السادات. وعرفت أن الرئيس قرر الاستجابة لرغبة الجماهير المصرية والعربية والبقاء رئيسا للجمهورية، وأنه أرسل بذلك إلى رئيس مجلس الأمة، مؤكدا أن صوت جماهير الشعب أمر لا يرد بالنسبة إليه، وأنه قرر أن يبقى في مكانه، وفي الموضع الذي يريد الشعب أن يبقى فيه. وقد صفق مجلس الأمة لما استقر عليه الرئيس بعد رغبة جماهيرية عارمة، وصادقة بلا شك، وقرر المجلس أن يضع في يدي الرئيس كل السلطات التي تخوّل له التعبئة الكاملة والشاملة لكل قوى الشعب العامل، وإعادة البناء العسكري والسياسي بما يعزز قدرته على مواجهة كل التحديات. وبناء على هذا القرار، أصبح عبد الناصر الحاكم المطلق الذي أعطاه الشعب كل السلطة ليعيد بناء ما أفسده من حوله، وما أفسده هو بثقته برجاله وبعدم استماعه إلى صوت القلة التي حملت على عاتقها مسؤولية الإنذار والتحذير والحدس بالهول الذي ابتدأت كوابيسه في صباح الخامس من يونيو.

الغريب أنني لم أتلق هذا كله بالفرح الذي توقعته من مشاعر، فقد قرأت صحيفة الأهرام في وجوم لم يفارقني بعد الانتهاء، فقد انكسر شيء

في داخلي، ولم يعد قابلا لأي علاج. وكان هذا شعور الكثيرين من زملائي في الجامعة وخارجها، فقد نفذت الهزيمة إلى قرارة القرار من وعينا الذي لم يعد يجد البرء فيما حوله. ويدا عبد الناصر نفسه في أعيننا أسدا جريحا يستحق الشفقة والتعاطف. ولولا بقايا الحب القديم، والتعلق به منذ العام السادس والخمسين لما اهتممنا ببقائه ورحيله. ولكن شيئا في داخلنا، كان لا يزال يأمل أن المسؤول عن الكارثة سوف يخرجنا منها. لكن كيف؟! وعلى أي أساس؟! وفي أي اتجاه؟! اتجاه الحرية والاشتراكية التي أعاد مجلس الأمة بيعته له على أساسهما؟! . لم نكن نعرف شيئا سوى أننا خاوون، فارغون، محبطون، نعاني من عالم كابوسي، يتحول إلى مدار مغلق، يضيق علينا وبنا وحولنا.

حقا، بدأ بصيص من ضوء يخترق الجدار مع مؤتمر القمة الرابع في الخرطوم الذي انعقد في التاسع عشر من أغسطس في العام المشؤوم. وذهب الأسد الجريح، عبد الناصر، متوقعا أن تنهشه أنياب الغاضبين عليه. لكنه استقبل بالحفاوة التي خففت من ألم جراحه، وأعلن المؤتمر لاءاته الثلاث : لا للاعتراف بإسرائيل، لا للتفاوض معها، لا للصلح. وأضاف إلى ذلك تأكيد وحدة الصف العربي، والالتزام بميثاق التضامن العربي، والعمل على انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية، والإسراع بتصفية القواعد الأجنبية في البلاد العربية.

حملت هذه القرارات بعض ما يخفف نيران الحزن والغضب في نفوسنا، لكن أعماقنا التي سكنها كابوس الهزيمة لم تكن تستجيب إلى أي مسكِّن يخفف الألم. أما الغضب فقد ظل باقيا، نابعا من داخل أعماق

الأنفس التي لم تستطع الانصياع لأي مسكن يعرض لها، أو يحاول التخفيف عنها. وجاء خطاب عبد الناصر في افتتاح دورة الانعقاد الخامس لمجلس الأمة في الثالث والعشرين من نوفمبر ليؤكد أننا عبرنا مرحلة قاسية بالغة القسوة، وخرجنا إلى مجال أوسع نستطيع فيه أن نستعيد قدرتنا على الحركة، وأننا نملك إمكانيات المقاومة المادية. لكن عبد الناصر ما كان يمكن أن يتجاهل مشاعرنا، وقد شعرنا بذلك، عندما تحدث عن التمزق النفسي الذي كان الشباب يعانيه على وجه الخصوص، وهو يرى وصول القوات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية لقناة السويس. وكان واعيا أن هذا التمزق سوف يبقى زمنا، في نفوس الجميع، إلى أن تشعر هذه النفوس أن القيادة عادت إلى الطريق المؤدي إلى النصر، عازمة على الثأر، ومقاومة توابع الهزيمة التي زلزلزت الجميع بلا استثناء. ولا أذكر أن نار الغضب قد بدأت تعرف طريقها إلى نفوسنا الممزقة إلا مع الحادي والعشرين من شهر أكتوبر عندما سمعنا عن تدمير السفينة الحربية إيلات، وقرأنا أخبار معركة الزوارق الحربية التي نجحت في اقتناصها وتدميرها. وقد ذكّرتنا بطولة شباب ضباط البحرية من قادة الزوارق الحربية بمعارك 1956 التي استشهد فيها شقيقنا السوري جول جمال (جول يوسف الجمال) الذي التحق بالكلية البحرية، وتخرج فيها، وتسلم شهادة التخرج من عبد الناصر نفسه. وكان من الطبيعي أن يلتحق بالبحرية المصرية، مدفوعا بشعوره القومي، ويستشهد في الرابع من نوفمبر سنة 1956، في أثناء العدوان الثلاثي، وذلك بعد أن تطوع بقيادة عملية لزوارق الطوربيد المصرية، واستطاع تدمير المدمرة الفرنسية چان بار وإغراقها قبل استشهاده. وقد رُدَّت إلينا الروح

هونا في تدمير إيلات، وأخذنا ندرك فيها علامة من علامات المقاومة التي ستنبثق منها حرب الاستنزاف.

وكان من الطبيعي أن يعي نظام عبد الناصر ما تنطوي عليه نفوس الشباب من غضب عارم، فمنح مجالا أوسع لحرية الكتابة، كي تخرج النفوس المتمردة بعض لهيبها. فبدأنا نقرأ كتابات غاضبة، ما كان يمكن نشرها من قبل، خصوصا كتابة الشيوعيين الذين غيبتهم السجون الناصرية الرهيبة في السنوات من 1959 إلى 1964، وما كادوا يرتبون حياتهم، ويتصالحون مع الناصرية، حتى جاءت الهزيمة لتضيف ما هو أكثر وأوجع من المرارة المتبقية من سنوات الاعتقال. وأعتقد أن أعوام ما بعد هزيمة 1967 هي التي اكتمل فيها نضج جيل الستينيات، فأخذنا نسمع عن جيل بلا أساتذة، كافر بكل الكبار الذين تسببوا في الهزيمة الكبرى على نحو مباشر أو غير مباشر.

وبدأت أقرأ عن جمال الغيطاني الذي أقام الدنيا ولم يقعدها عندما كتب عن معتقل المقشرة، مستهلا سبيله الإبداعي إلى الرمزية التاريخية التي ردّت الهزيمة إلى عسس الدولة وزبانية سجونها. وقد كانت «نهاية الورى فيما جرى في المقشرة» مع «تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم علامتين فارقتين على تحول جذري، حدث في الكتابة الروائية والسردية، وذلك بالقدر الذي كانت قصائد أمل دنقل إدانة لديكتاتورية عبد الناصر ولقيادات الجيش بوجه خاص. وكما كتب أمل قناعه القديم عن سبارتاكوس بمناسبة انتخابات رئيس الجمهورية في مطلع الستينيات، ضمن تيار الرفض لتسلطية الدولة العسكرية، كتب ما بعد الهزيمة رائعته : «البكاء بين يدي

زرقاء اليمامة»، بعد الهزيمة بأيام (تحديدا في 13/ 6/ 1967)،وبعدها كتب «السويس» و«من مذكرات المتنبي في مصر».

وقد فتنني ديوان «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» بعد أن قرأت قصائده قبل جمعها في ديوان، أصدرت «دار الآداب» اللبنانية طبعته الأولى سنة 1969، وأصبحت وأمل صديقين منذ هذه السنة، وربطت بيننا علاقة أخوّة نادرة إلى أن توفاه الله في الغرفة رقم (8) بالمعهد القومي للأورام في الحادي والعشرين من مايو 1983 عن ثلاثة وأربعين عاما، فحملناه - نحن المقربين إليه - إلى قرية القلعة، حيث دفناه في قبر أبيه، حسب وصيته لي رحمه الله، فقد افتقدت بموته معاني كثيرة، جميلة وجليلة، وشهدت معه توالد قصائده الغاضبة بعد ديوانه الأول الذي جعل منه رمزا للغضب القومي، وبعد قصيدته «لا تصالح» التي جعلت منه رمزا للرفض القومي. والحق أنه من لهيب الغضب على ما حدث سنة 1967 تولدت أعمال إبداعية بالغة الكثرة، على امتداد الوطن العربي، كانت بمثابة رفض للهزيمة وتمرّد على الذين تسببوا فيها وإدانة كاملة شاملة للعالم الذي صنعوه والذي وضعه وعي النكسة المتمرد موضع المساءلة الجارحة التي تغوص إلى قرارة القرار من أعماق الجرح، كي يبرأ الوعي ويسترد عافيته، وينتبه إلى ما لم ينتبه إليه من قبل، في المدى الطويل والمتراكم للأخطاء.

هكذا، انتبهنا إلى الديكتاتورية العسكرية التي أعدمت العاملين خميس والبقري اللذين تزعما إضرابا نظمه عمال مصنع كفر الدوار للنسيج، طلبا لتحسين أوضاعهم، فحكمت عليهم محكمة عسكرية بالإعدام الذي تم التصديق عليه وتنفيذه باسم الثورة التي زعمت أنها صوت المظلومين من

العمال والفلاحين سنة 1952. وتذكرنا محكمة الثورة التي حاكمت رجال العهد البائد، وخلطت بين الأبرياء والمذنبين، وكذلك ما حدث سنة 1954 عندما قام مجلس قيادة الثورة بالتصديق على فصل أكثر من خمسين أستاذا من الجامعات المصرية لأنهم عارضوا الديكتاتورية العسكرية، وطالبوا بجمهورية ديموقراطية. وكان من هؤلاء: محمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، ولويس عوض، وعبد المنعم الشرقاوي، وفوزي منصور وعشرات غيرهم. ولم ندهش عندما سمعنا أن عبد الناصر نفسه تحدث عن الانحرافات في جهاز المخابرات، حين قال في افتتاح دورة الانعقاد الخامس لمجلس الأمة، في نوفمبر 1967، إنه كان يرى بعض مظاهر الانحرافات قبل 5 يونيو، لكنه لم يكن يتصور مداها، وحاول مواجهتها بكل ما يستطيع، ونجح أحيانا، ولم ير الحقيقة كلها في أحيان أخرى. وكنا نقول لأنفسنا : هذا الكلام يدعو إلى التعاطف، لكنه لا يعفي قائله من المسؤولية، فلو منح الرئيس الحرية للناس لعرف ما لم يكن يعرف، وتجنبنا الوقوع في الكارثة. والحق أن مشاعري إزاء عبد الناصر أخذت في الارتباك بعد هزيمة 1967، فصرت أحبه، موضوعيا: لما حققه من إنجازات لم يحققها سواه، ولأنه عمل المستحيل، رغم مرارة النكسة وحقق في أشهر ما لا يمكن إنجازه إلا في سنوات : عسكريا واقتصاديا وسياسيا. ويكفيني أنه ظل يردد أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. وشخصيا : لأنه لولاه ما دخلت الجامعة، ولا تعلمت وتفوقت، وتعينت معيدا فيها.

ولذلك كان من الطبيعي أن أنفجر مع الطلاب، احتجاجا على النتيجة الهزيلة التي انتهت إليها محاكمة قادة الطيران المصري الذي دمرته

إسـرائيل على الأرض. وقد تقبل عبد الناصـر المظاهرات التي حدثت في 1968 بصـدر رحب، وحـاور القيـادات الطلابية، وأقنعها بأنـه يؤمن مثلها بحتميـة التغيير وضرورة اسـتمراره إلى الأمام. وبدأ التغيير بإعادة تشـكيل مجلس الوزراء، معلنا عن تغييرات أخرى في قيادات الإنتاج، وفي السلك الدبلوماسـي وفـي المحافظين ورؤسـاء المـدن. واعترف عبـد الناصر في «بيـان 30 مـارس 1968» بـأن الكثيرين من الذين كانوا يشـغلون المناصب القيادية والوزارية لم يكونوا على مستوى المسؤولية سياسيا وتنفيذيا، وأنه من الضروري إفساح المجال للأقدر والأجدر. ويمضي بيان 30 مارس في تأكيد عدد من النقاط التي استمعنا إليها باهتمام، وقرأناها بعناية، وناقشناها طويلا بجدية ومن هذه النقاط:

1- إنـه مـن الضـروري والحيـوي حشـد كل القـوى الشـعبية، وبوسـيلة الديموقراطية وعلى أساسها، وراء أهداف نضالنا البعيدة والقريبة.

2- إن صيغـة الاتحـاد الاشـتراكي هـي أكثر الصيـغ ملاءمة لحشـد القوى الشعبية بوسيلة الديموقراطية وعلى أساسها.

وأذكـر أن تكرار صيغة «الديموقراطية وعلى أساسـها» جذب انتباهنا وفرحنـا بـه، نحن الذين كنا نحلم بإتمام بناء المجتمع الاشـتراكي الذي لـم يكتمـل تحقيقـه بعد. وما أكثر ما تعاركنا حول بيـان «30 مارس» مع إيماننا بشعارات الحرية والاشتراكية والوحدة. وكنا نقول لأنفسنا : ما أكثر غضبنا علـى عبد الناصر، وما أكثر رفضنا لجريمته الكبرى التي أدّت لهزيمتنا التي هو المسؤول الأول والأخير عنها. وكنا قد نزعنا ثوب القداسة عنه، وأخذنا نـراه زعيما عظيما مـن زعماء التحرر الوطني والعداء للاسـتعمار ومقاومة

التبعية، لكنه رغم ذلك أصبح كائنا بشـريا، قادرا على الخطأ الجسـيم، كما فعـل، ولـم يعد الإمـام المنتظـر ولا المخلـص المنزه عن الخطـأ. وكانت النتيجة أننا لم نكن نكف عن التساؤل : كيف يمكن بناء مجتمع الاشتراكية دون شـتراكيين حقيقييـن، وبأعـداء الاشـتراكية أحيانا؟ ولمـاذا نقدّم أهل الثقـة على أهل الخبـرة؟ صحيح أن قيادات اليسـار المصريـة وطلائعه قد تركـت المعتقلات القاهرية الرهيبة التـي هي وصمة عار في جبين أي نظام سياسـي مهمـا كان. وتولى قادة اليسـار عددا مـن الـوزارات وقيادة بعض المؤسسـات المهمة، وتبوأوا مقاعدهم فـي التنظيم الطليعي، وعملوا على دفع عجلة التحول الاشـتراكي إلى الأمام، لكننا لم نكف عن السـؤال : هل نمضي في طريق التحول الاشـتراكي أم رأسـمالية الدولة؟ ولماذا التمسح بالدين والحديث عن اشتراكية الإسلام؟ وهل ما نحن فيه اشتراكية حقة أم اشتراكية عربية؟ أم تطبيق عربي للاشتراكية؟

وكان عبد الناصر يحاول أن يجيب عن بعض هذه الأسئلة في خطبه، وفـي الحوارات التي كان يحرص على القيام بهـا. لكنه ظل جاهلا بالكثير مـن الفسـاد الموجـود في القطـاع العام، مثل نمـوذج «سـرحان البحيري» الاشـتراكي الانتهـازي التـي صاغهـا نجيب محفـوظ، باقتدار، فـي روايته «ميرامار» وهي الرواية التي رصدت نماذج بقايا الإقطاع الذي ظل موجودا ومتجددا، كما ظهر في أحداث «كمشيش» التي كتب عنها أمل دنقل قصيدة «أشـياء تحـدث فـي الليـل». ولا تزال تجربـة ذهابـي إلى منظمة الشـباب الاشـتراكي ماثلة فـي ذاكرتي، وكيف أنني لم أقنع المسـؤولين عن تقييمي لأني كثير الأسئلة، نزّاع إلى الشـك، كما لو كانت كثرة الأسـئلة والحرص

على التيقن سـمة سـلبية في الإنسـان. وزاد الطين بلة أن أخبـار اعتقال من نعرفهـم لم تنقطع. أما الديموقراطية فقد ظلت شـعارا وحلما بعيدا، يتكرر معهـا : كيف يمكن أن نتحدث عن الديموقراطية وليس لدينا سـوى حزب واحد أحد؟! وكيف يجمع هذا الحزب كل قوى الشـعب دون إلغاء التنوع والاختـلاف في سـبيل الوحـدة؟! صحيح أن المدخل الاقتصادي أسـاس للديمقراطيـة، لكن ألا تكون الحرية، أحيانا، أثمن من رغيف الخبز!. أذكر أن عبـد الناصر تحـدث إلى أعضاء مجلس الشـعب مرة، لعلها في جلسـة افتتـاح دورة الانعقاد الخامس في أواخر عام الكارثة عن إمكان وجود أكثر مـن حزب، أو تعدديـة حزبية، ولكن الواقع كان يؤكـد غير ذلك، ولم يكن هناك من معارضة حقيقية سوى صوت الإبداع الأدبي الذي لجأ إلى الرموز والكنايـات والأمثـولات لينطـق المسـكوت عنه مـن الخطاب السياسـي والاجتماعي المقموع.

وسـوف يسـجل التاريخ الأدبي بأحرف بارزة الدور الذي قام به جيل السـتينيات فـي الدفاع عن الحرية بكل أشـكالها. فقد كانت النسـمة العفية التي أثارها أدب جمال الغيطاني ويوسف القعيد ومحمد البساطي وجميل عطيـة إبراهيم وبهاء طاهر وإبراهيـم أصلان ومحمد روميش ومجيد طوبيا ويحيـى الطاهـر عبـد الله، وغيرهـم من الذيـن أفلتتهـم الذاكـرة، هي قوة التجـدد الحيـوي إلـى أن انتقلـت إلى كتابات يوسـف إدريـس الذي كتب «العمليـة الكبـرى» وغيرها مـن القصص الرمزيـة التي تهاجـم ديكتاتورية عبد الناصر، ابتداء من مسـؤوليته عن الكارثة في «العملية الكبرى» وانتهاء

بقبولـه مبـادرة روجرز فـي «أكان لابد أن تضيئي النور يـا لي لي». الطريف أنني عندما أتذكر، الآن، كتابات السـتينيات، أجد أنها هي التي غرسـت في وعيي الأدبي فكرة أننا قد انتقلنا إلى زمن الرواية، فقد كانت الرواية والقصة القصيرة هما الفنان السـرديان الغالبان على شباب الستينيات الذين انتميت إليهم بشـكل أو بآخر. صحيح أنه كان هناك فاروق شوشة ومحمد إبراهيم أبو سـنة صاحب «غـزاة مدينتنا» ومحمد عفيفي مطر، لكـن كان أمل دنقل أكثرهـم توهجا في قصيـدة الرفض السياسـي والعـداء للديكتاتورية بوجه عـام والدولة التسـلطية بوجه خاص. ولذلك يمكـن أن أقول - مطمئنا - : إن سـنوات ما بعد النكسة هي السـنوات التي أوصلت توهج أمل دنقل في قصيـدة الرفض إلى ذروته، فهي السـنوات التي حمله غضبها إلى الأعناق، ذلك على الرغم من استمرار صلاح عبد الصبور وأحمد حجازي وغيرهما من الشـعراء العرب الذين ينتسب حجازي وصلاح إلى جيلهم. والحق أن صوت أمل دنقل الشـعري كان هو الصوت الأعلـى والأكثر موهبة، ولكنه كان الصوت الشـعري الوحيـد البارز بين كوكبة عديدة من منتجي السـرد. أعنـي السـرد الذي يتراوح بيـن طرفي متصل واحد، يصل إلـى درجة بالغة من الكثافة في القصة القصيرة أو إلى درجة من الامتداد الزماني والانفساح المكاني في الرواية.

وأعتقد أن جيل السـتينيات الذي أتمّ تعميد تلهب التمرد على الدولة التسـلطية الناصرية، رغـم إيمان أغلبه بشعارات الحرية والعدل الاجتماعي ووحـدة القـوى التقدمية هو الـذي كان طاقـة للأجيال السـابقة، ابتداء من

يوسف إدريس صاحب «العملية الكبرى» مرورا بنجيب محفوظ الذي كتب عن التعذيب في «الكرنك» وعبد الرحمن الشرقاوي الذي كتب «الفتى مهران» قبل «وطني عكا» وصلاح عبد الصبور الذي كتب «مسافر ليل» و«مأساة الحلاج» - مسرحيته الأولى التي أعقبتها «الأميرة تنتظر» و«ليلى والمجنون»، ولم يتوقف إلا مع مسرحية «بعد أن يموت الملك» بعد وفاة عبد الناصر. وتتبلور مسرحياته حول تيمة أساسية هي الحرية التي يطلبها المثقف بوصفها حقه الطبيعي الذي يدفع ثمنه غاليا على أيدي مغتصبي هذه الحرية. وكم كنت أحب مونولوج الحلاج الذي لا أزال أحفظه :

أَنَا رَجُلٌ مِنْ غِمَارِ الموَالي
فَقِيرُ الأرُومَةِ وَالمنبَتِ
فَلا حَسَبِي ينتَمِي للسَمَاءِ
وَلَا رَفَعَتْنِي لَها ثَروتِي
وُلِدْتُ كَآلَافِ مَنْ يُولَدُون
بِآلافِ أيَّامِ هَذَا الوجُودِ
لأنَّ فَقِيرًا بِذَاتِ مَسَاءِ
سَعَى نحو حُضْنِ فَقِيرَه
وَأَطْفَأ فِيه مَرَارَةَ أيَّامِهِ القَاسِية
سَعَيتُ وَرَاءَ العُلُومِ سِنين

كَكَلْبٍ يَشُمُّ رَوَائِحَ صَيْد

فَيَتْبَعُهَا ثُمَّ يَنْهَالُ عَلَيْهَا

ولا أزال أترنم بهذه الأبيات بيني ونفسي، وأتحد وجدانيا مع الحلاج فيها، فأنا مثله رجل من غمار الموالي، وما أكثر ما قرأت في هذه الفترة التي أعقبت عملي في الجامعة، كأني كنت أريد تعويض ما فاتني في سنوات رهبنة المذاكرة من أجل التفوق. أما وقد تحقق حلمي وأصبحت معيدا بفضل عبد الناصر، فقد بدأت أقرأ كل شيء، وأحاول معرفة كل شيء. وقد أكسبتني مرارة هزيمة 1967 رغبة عارمة في وضع كل شيء موضع المساءلة، ابتداء من عبد الناصر الذي كنت أرى فيه زعيمنا المنتظر، وانتهاء بالحس الديني العميق الذي لا أزال منطويا عليه. وكانت الفلسفات الذائعة في هذا العصر زادي الذي لا أملّ من التهامه، والماركسية التي قرأت حتى أصولها، ولكني لم أنضم قط إلى أحد أحزابها أو تجمعاتها السرية، فقد كانت نزعة المساءلة تقارب ما بيني والشيوعيين من أصدقائي وتباعدني عنهم في آن. وقد قادتني الماركسية إلى هجر الوجودية التي أعجبت برموزها الأدبية أكثر من رموزها الفلسفية. ومن المؤكد أن تشظي عالم ما بعد الهزيمة المروعة قادني وآخرين إلى مذهب «العبث» فعرفنا «اللامعقول» الذي كان عالم ما بعد الهزيمة مثالا له. وأعتقد أن هذا هو السبب الذي قاد نجيب محفوظ والحكيم إلى اللامعقول، فكتب الأول مجموعته «تحت المظلة» وكتب الثاني «يا طالع الشجرة». وكان ذلك في سياق أغرى صلاح عبد الصبور بكتابة «مسافر ليل» لينطق بها المسكوت المقموع في مواجهة «عشري السترة».

والمؤكـد أننـي ظللـت في هذه السـنوات أقـرب إلى الـروح النقدي لليسـاري الشاب الذي تحولت إليه، مع تنامي نزعة المساءلة التي وضعت بها كل معتقداتي القديمة موضع المساءلة.. وعلى رأسها عبد الناصر الذي ظـل حبيب الملايين وأملها في الخلاص، والـذي فتح أمامنا أبواب العالم الاشتراكي والـدول الشـيوعية وثوارها الشـباب، أمثال كاسـترو وچيفارا الذي سـكن القلب ولـم يغادره. أما عبد الناصر فقـد ظللت مؤمنا به، رغم كل انتقاداتـي لـه، فما كان يمكن أن أنسـى أن الناصرية هـي التي أدخلتني الجامعـة بالمجـان، وجعلـت الفلاحيـن المعدمين مُـلاكا، ولـم تتردد في اسـتئصال الإقطـاع الجديد، وهي التـي ظلت تضمن عمـل الخريجين من الجامعـة، وهي التي لم تتردد في دعم ثورة اليمن للقضاء على حكم الأئمة الفاسدين، وبدا عبد الناصر كما لو كان الشباب قد عاد إليه، مع نتائج معركة «الكرامـة» في الأردن (مارس 1968) التـي كانت بمثابة الانطلاقة لمنظمة التحريـر الفلسـطينية، فـي مـوازاة الانطلاقـة لقوة دفـع بيـان « 30 مارس» بعدها.

وبدا شـباب العالـم كما لـو كانوا يتمردون على كل الأنسـاق المغلقة فـي نوفمبر 1968، حيـن حدثت ثورة الطلاب التي هتفت بسـقوط البنيوية التي هي فلسـفة أنسـاق مغلقة، لا تقنع من يريد التحرر من سـجون النسق، ولكن للأسـف، لم أكن اطلعت على شـيء من البنيويـة بعد، وإلا كنت قد اسـتخدمت منهجهـا في دراسـتي لدرجة الماچسـتير التي حصلـت عليها فـي يوليو 1969. ولم أكن سـمعت عن لوسـيان جولدمـان ولا عن بنيويته

التوليدية بعد، فما كنت أسمع عن لوكاش الذي قرأت بعض ترجماته عن الرواية. أما الشعر التقليدي لشعراء الإحياء، موضوع أطروحة الماچستير، فقد اخترت منهجا يتفق مع تقليديته، حسب ما رأيت في ذلك الوقت. ولم أكن أعرف شيئا عن البنيوية اللغوية أو التوليدية في ذلك الحين، فقد كنت مقتنعا بما أعرف من مناهج قديمة، وأجهل أغلب المناهج الحداثية التي عرفتها بعد ذلك بسنوات. ومن المؤكد أنني لا أذكر أن شهر نوفمبر سنة 1968 هو الشهر نفسه الذي انهار فيه الاستعمار البرتغالي في إفريقيا، وأن الغارة الإسرائيلية على مطار بيروت جاءت في نهاية العام لتذكِّر باليد الطولى لإسرائيل الغاصبة. لكن يأتي العام التاسع والستون حاملا علامات بداية حرب الاستنزاف التي كتبت بطولاتها دماء الجندي المصري الذي سرعان ما أخذ يثبت قدرته على مجابهة خرافة إسرائيل التي لا تقهر. واقترن باستمرار حرب الاستنزاف، تولي سالم ربيع في اليمن، وبعده الإطاحة بالملكية في ليبيا، وإعلان الجمهورية بقيادة ضابط شاب اسمه معمر القذافي، رأى فيه عبد الناصر شبابه، ورأى هو في عبد الناصر زعيما ومعلما، وجاء العام السبعون ليشهد الغارات الإسرائيلية في عمق الأراضي المصرية مع حرب الاستنزاف. ويصل عبد الناصر الليل بالنهار لاستكمال بناء حائط الصواريخ لصد الطائرات الإسرائيلية والحيلولة دونها والغارات على المدن الآمنة. وأذكر أن عبد الناصر سافر في أول 1970 إلى موسكو لطلب معدات دفاع جوي للتصدّي للطائرات الإسرائيلية. وتعلن هذه الطائرات عن وجودها الوحشي عندما تقصف «أبو زعبل» و«مدرسة بحر البقر» الابتدائية، بدعوى وجود مطارات سرية للجيش المصري في هذه

القرية، وكانت النتيجة وقوع ضحايا كثيرين من تلاميذ المدرسة في الثامن من أبريل 1970. ولكن استمر بناء حائط الصواريخ، واستكمال أنظمة الدفاع الجوي في صيف 1970، حيث ظهرت نتائج حرب الاستنزاف البطولية التي دفعت الولايات المتحدة، حامية إسرائيل، إلى تقديم مبادرة روجرز للسلام.

ويبدو أن تداعي الأحداث المتسارعة قد أنساني خطاب عبد الناصر في جامعة القاهرة لشرح بيان 30 مارس في الخامس والعشرين من أبريل 1968، وكنت حاضرا في هذا اللقاء، ولن أنسى الطريقة التي تكلم بها عبد الناصر، وإشاراته المتكررة إلى المثقفين ودورهم. وتأكيده أن المثقف الحقيقي لابد أن يكون ملتزما بالارتقاء بالمجتمع، والارتقاء بالحياة عن طريق المشاركة في العمل والتوجيه السياسي والفكري. ولا يستطيع المثقف الملتزم أن يؤدي هذا الدور بالعزلة، وإنما بالاقتراب والاندماج في المجتمع.. لابد للمثقف أن يدرس أحوال المجتمع، ويعاني معاناته، وأن يستوعب مشكلات المجتمع وأمانيه، ويحلل حركته واتجاهاته. هكذا يكون المثقف يعمل لمصلحة الصالح العام. ويؤكد عبد الناصر أن المثقفين ليسوا طبقة اجتماعية وإنما تيارات منتسبة إلى طبقات، وقيمتها في إسهام كل منها في التقدم الفعلي للمجتمع. ويضيف قائلا : إن المثقفين طلائع كل الطبقات، والعنصر القائد والدافع لحركة كل الطبقات في المجتمع. ويعني ذلك أن معيار القيمة في الحكم على المثقفين هو مواقفهم الفكرية التي يمكن أن تؤدي إلى التخلف أو التقدم.. تحقق مصلحة فئة محدودة على حساب الأغلبية، أو تعمل من أجل مصلحة الأغلبية بلا تمييز. ولن

أنسى كلماته، في هذا الخطاب، حين أكد أن الثقافة، في صميمها، التفتيش عـن الحقيقـة، والالتـزام هو السـعي الدائـب والدائـم لإيجاد تناسـق بين الحقيقة والواقع، وملاءمة حركة المجتمع مع اتجاهات التطور الإنسـاني. وإذا كانت الثقافة هي التفتيش عن الحقيقة، فإن الالتزام هو السعي الدائب والدائـم لإيجاد تناسـق بين الحقيقـة والواقع وملاءمة حركـة المجتمع مع اتجاهات التطور الإنساني كله.

وكنـت أتشـرب هـذه الكلمـات بعقلـي ووجدانـي، وأعود بهـا إلى عبـد الناصـر الـذي لا أزال أراه عظيما، وقائدا نـادرا، ومثقفـا كبيرا. وكان عبد الناصر، ولا يزال، أول زعيم عربي يعرف أهمية الثقافة وحتمية دورها في عمليات التغيير المجتمعي. وكان يعرف صعوبة التعامل مع فئة المثقفين وصعوبـة جمعهم، أو فرض رأي عليهم، أولا : لاختلاف مواقفهم الذاتية، وثانيـا : لتباين أوضاعهم وانتماءاتهم الطبقيـة. لكنه، وهذا هو المهم، كان يحـدد مدى حركة المثقف الملتزم بأنها حركة محكومة بالصراع بين ما هو كائـن ومـا ينبغي أن يكـون، وما يحدث في مـدى هذا الصـراع من عقبات ورواسـب قرون التخلـف، والإمكانـات الموضوعية لحركـة التقدم. ولم يفـت عبـد الناصـر أن يحـدد معنـى العصرية، من حيـث هي انتسـاب إلى العصـر، لكـن بمـا لا يعني الانقطـاع عن الماضـي، كمـا أن الحرص على تقاليـد الماضي لا يعني الانقطاع عن المسـتقبل. ويفرح عبد الناصر قلوبنا حيـن يؤكد أن الشـباب لابد أن يمتلك حق التجربـة دون وصاية، وأنه لابد أن يسهم في إدارة البلاد.

أذكر أنني عدت إلى منزلي وأنا أشعر بالسعادة، فما قاله عبد الناصر كان متفقا مع أفكاري التي أخذت منحى يساريا، خاصة في زمن قرأت فيه ما كتبه سارتر عن الأدب الملتزم، وكنت أقرب ما يكون إلى دفاع محمد مندور عن الالتزام، مقابل رشاد رشدي الذي كان يدافع عن استقلال الفن ونزعته الجمالية الخالية من الغرض. وكنت مثل جيل الستينيات، ألتهم كتابات بليخانوف ولوكاش عن الواقعية، وننتشي بواقعية نجيب محفوظ التي اتخذت طابعا رمزيا منذ «اللص والكلاب»، ولم تتردد في مهاجمة النظام السياسي الذي لم يكن يعبأ - فيما ترى الرواية - بالمثقفين المعارضين، ولا ينصت إليهم، فتنتهي حيويتهم إلى أن تتحول إلى «ثرثرة فوق النيل». ولكن كلمات هذا الخطاب (الذي عدت إلى نصه) جعلتني أدرك أن دور الثقافة والمثقفين لم يغب عن الفكر الناصري، وأن احترام الدور الاجتماعي لهذا الدور في تقدم عملية التنمية، يسير جنبا إلى جنب الإيمان بالفكر العلمي، واحترام العلم والاحتفاء به، ولولا ذلك ما اختتم عبد الناصر كلمته في الجلسة الختامية للدورة الثالثة للمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي يوليو 1969 بضرورة التخطيط العلمي الدقيق لما يجب أن يكون، وتحية الإنجاز العلمي الذي تحقق عندما عادت إلى الأرض أول بعثة للإنسان، وضعت خطاه فوق سطح القمر، حيث وجدت في نص الخطاب: «وإذا كان هذا الإنجاز العظيم قد تحقق للولايات المتحدة الأمريكية، فإننا لا نجد حرجا في الإشارة إليه والإشادة به. إننا لسنا أصدقاء للسياسة الأمريكية، ولكننا أصدقاء للعلم. إننا نتصدى للمخططات العدوانية الاستعمارية، ولكننا نعتبر أن أي إنجاز يحققه الإنسان في أي

مكان هو تكريم للإنسان في كل مكان. إننا نختلف ولكننا لا نحقد، بل إننا قد نعادي ولكننا برغم أي عداء قادرون على أن نرى الضوء حيث يكون».

كم كانت هذه الكلمات مؤثرة حين استمعت إليها، فقد نزلت بردا وسلاما على نفسي، خصوصا أنني قد أخذت أملّ من أفكار الأصوليين الماركسيين من أصدقاء، كانوا لا يترددون في أدلجة حتى العلوم البحتة، شأنهم في ذلك شأن الأصوليين الذين سعوا إلى مركسة العلم السوڤيتي، فانتهى بهم الأمر إلى كارثة، تسبب فيها علماء متمركسون من أمثال ليسنكو. وأظن أن كلمات عبد الناصر لاقت هوى في ذهني الذي أصبح محكوما بنزعة المساءلة، ضائقا بالأدلجة الأصولية لأي موقف أو فكرة. وأغلب الظن أن هذه النزعة هي التي جعلت ثلاثة أرباع وعيي السياسي يقوم على أقانيم أساسية للفكر الناصري : الإيمان بالعدالة الاجتماعية الذي تحوّل، فيما بعد، إلى الإيمان بالاشتراكية الديموقراطية التي عرفتها فيما بعد، والإيمان بالحرية التي لم أختزلها في البعد الاجتماعي وحده رغم أهميته مع البعد الاقتصادي. وقد أضفت إلى هذين الأقنومين توسيع معنى الوحدة وتطويرها بما يؤسس لفكر قومي رحب، منفتح على العالم الذي يتسارع تقدمه.

وأعتقد أن هذه الأفكار كانت قد أخذت تتبلور، على نحو أوليٍّ، في ذهني عندما استمعت إلى خطبة عبد الناصر التي ألقاها في جامعة القاهرة في افتتاح الدورة الرابعة للمؤتمر القومي، في يوليو 1970 وأسميها خطبة الوداع، لأنها كانت، إن لم تخني الذاكرة، آخر خطب عبد الناصر، وقد

أعلـن فيها انتهاء بناء السـد العالـي، وانتهاء العمل في محطة كهرباء السـد العالـي الذي أخذ يعمـل بكامل طاقته، وينتظر الاحتفال الرسـمي بانتهائه. وأعلن عن اكتمال إعادة بناء القوات المسلحة، وانتظارها اللحظة الحاسمة لاسـترداد الأرض والكرامـة، ولـم يعلن بالطبع أن خطـة العبور التي نفذها السـادات قد اكتملـت، وأصبح الجيش بـكل أفرعه على أهبة الاسـتعداد، ولكنٍ لم يفته الإلـماح إلى ذلك، واكتفى عبدالناصر باستعراض الإنجازات في المجالات الاقتصادية والزراعية والصناعية، وأكد السعي الدائم للعمل مـن أجـل مبادئ الحرية والاسـتقلال في جميـع أنحاء الوطـن العربي. أما الصراع مع إسـرائيل، فلم يفت عبد الناصر إعلان أننا نشـعر الآن أن موقفنا أقـوى، وأننا لا نتحرك مـن موقف الضعف، وإنما نتحرك من موقف القوة، وذلك بسـبب تزايد مقدرة قواتنا المسـلحة على الـردع. وختم عبد الناصر خطابـه بأنه قـد مرت علينا أيام عصيبة جدا، ولكننا الآن في وضع مختلف، وأننا سنصمد، وسوف نحول الصمود إلى تحرير ونصر.

ولم تكن هذه الكلمات كلمات في الهواء، وإنما كانت كلمات زعيم لم يعرف الراحة كي يعيد بناء كل شيء. ولا أزال أذكر ملامحه التي لا تزال محببة إلى نفسي، رغم كل أخطائه، لكن يشفع له أنه أنجز ما لـم ينجزه أحد قبله، ولا حتى بعده. كان الإرهاق باديا على وجهه، والشـيب يجلل فوديه، وصوته القوي الجسور تحول إلى صوت حكيم محزون، لكنه مصمم على الوصول بشعبه إلى نهاية طريق التحرير الذي رآه قريبا.

ولـم أسـمع خطابا لعبـد الناصـر بعد ذلك، فقـد تتابعـت الأحداث، وحدث وقف إطلاق النار بين مصر وإسـرائيل، حسـب خطة روجرز وزير

الخارجية الأمريكية. وقد قبلها عبد الناصر ليستكمل الاستعداد للتحرير الذي أصبح الجيش جاهزا لعبء النهوض به. وجاءت أحداث أيلول الأسود (سبتمبر) في الاشتباكات بين الجيش الأردني ومقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية. وقام عبد الناصر بدوره المعتاد، دعا إلى مؤتمر قمة عربية، واستطاع بصعوبة بالغة أن يوقف نزيف الدم الفلسطيني، وحافظ على سلامة (أبو عمار). وانتهت الأزمة العاصفة، وأخذ عبد الناصر يودع الرؤساء العرب الذين جاءوا إليه في القاهرة. وكان الإرهاق قد تمكن منه تماما، وهو يودع حاكم الكويت، آخر من قام بتوديعه، وعاد إلى بيته وحيدا، ليلقى ربه، تاركا الأمة العربية التي وجدت فيه قائدا وزعيما لمصائرها المحتومة.

وخرجت جماهير مصر كالطوفان في جنازته، صارخة من قلبها، مرددة أغنية حزينة : الوداع يا جمال، يا حبيب الملايين. وأعترف أنني شعرت باليتم مرة أخرى، ولم أقاوم الدموع المنهمرة من عيني، وأنا أرقب مشهد الجنازة المهيب الذي لا ينسى، وإلى جواري زوجتي، محتضنة ابنتنا الرضيعة، وهي تبكي في صمت مثلي. وكان ذلك اليوم، الثامن والعشرين من سبتمبر 1970، نهاية مرحلة وبداية مرحلة، وأهم من ذلك خاتمة زمن جميل مضى.

أبناء ثورة يوليو

كنت أتحاور وابني بمناسبة الاحتفالات التي غمرت الدنيا، فجأة، بمرور خمسين عاما على ثورة يوليو 1952، ويُشرِّق بنا الحوار ويغرِّب حول تاريخ هذه الثورة التي لا يذكر ابني عنها الكثير، فقد ولد في زمن السادات، ولم يشهد أحداث الثورة الكبرى التي شهدناها نحن الذين سبَقْنا إلى الوجود، وكنا شهود عَيان على الأحداث، كما كنا مُسهمين بمعنى أو بآخر في سياقاتها، خصوصا بعد أن تأثرنا بما جرى حولنا، واستجبنا له. وكنت أقول لابني - خلال الحوار -: إن هذه الثورة هي التي فتحت أعين أبناء جيلي على الوعي السياسي بقضايا الوطن والعروبة، وهي التي جعلتنا ندرك عبقرية المكان في موقعنا الجغرافي الذي هو موقع سياسي في الوقت نفسه، كما جعلتنا ننتسب إلى الدوائر الثلاث التي وصلها عبد الناصر في فلسفة الثورة، وهي الدائرة العربية والدائرة الإفريقية والدائرة الآسيوية، وإنه للمرة الأولى يدرك المثقف المصري أنه لا تعارض بين هويته الوطنية وهويته القومية، فالثانية هي الوجه الآخر من الأولى في العملة نفسها.

والهوية الوطنية القومية لا يكتمل معناها إلا بتفاعلها مع دوائر الهويات المشابهة في الدائرة الإفريقية والدائرة الآسيوية، وهما الدائرتان

اللتان كانتا تنفتحان بنا على العالم، فندرك أشباهنا في كل مكان على امتداد الكرة الأرضية فيما أصبح يعرف باسم كتلة عدم الانحياز، أو دوائر التحرر الوطني من أشكال الاستعمار القديم والجديد. وختمت كلامي لابني بتأكيد أن ثورة يوليو كانت تسعى إلى تحقيق العدل الاجتماعي بطريقتها، وإلى تطوير المجتمع المصري بأسلوبها، وذلك من خلال مشروع قومي انفتح بمصر على العرب، وانفتح بالعرب على دنيا عالم ما بعد الاستعمار التقليدي، ذلك الاستعمار الذي حطمت ثورة يوليو كل ما كان باقيا من نعشه، ومضت في طريقها لمحاربة الاستعمار الجديد، وهي التي لا تزال مبادئها تؤكد أهمية مواجهته إلى اليوم.

وكان لابد أن يقودنا الحوار إلى نقد ثورة يوليو 1952، سواء من حيث هي ثورة عسكر أولا، ومن حيث هي مشروع ظل يتشكل بعوامل التجريب والاستجابات العفوية في حالات كثيرة ثانيا، ومن حيث ما أدت إليه الممارسات الثورية من أخطاء فادحة على مستوى الديموقراطية أخيرا. وحدَّثت ابني عن خطأ قمع الانتفاضة العمالية الأولى التي انتهت بإعدام خميس والبقري، وعن إبعاد محمد نجيب عن رئاسة الجمهورية، وعن العمل للإطاحة بالديموقراطية سنة 1954، وعن الدخول الحماسي في مشروع الوحدة مع سوريا دون الإعداد الكافي، وعن قمع المعارضين، وتصفية الحساب مع الإخوان المسلمين، واعتقالات اليسار المصري سنة 1959، وقبل ذلك عن فصل أساتذة الجامعة سنة 1954، والعودة إلى فصل الأساتذة من المعارضين لكامب ديفيد والصلح مع إسرائيل سنة 1981. وكانت أغلب انتقاداتي حول قضية الديمقراطية، وحول قضية خلل جهاز

الدولة الذي قام على أهل الثقة لا أهل الخبرة، وعن فساد رفاق عبد الناصر الذي لم يعرف مدى فسادهم إلا بعد وقوع كارثة العام السابع والستين.

ولاحظ ابني ما تصوره تناقضا في كلامي عن ثورة يوليو، فأنا أمتدح إنجازاتها بحماسة غامرة كما لو كنت مهووسا بها، وأنتقد سلبياتها بما يجعلني أبدو عدوًّا لها، ولم يملك ابني مع هذا الوضع سوى أن سألني: ألا ترى يا أبي أن في كلامك عن ثورة يوليو نوعا من التضاد العاطفي؟ فأنت تحبها وتكرهها في الوقت نفسه، وحديثك المتضاد عنها يجعلني أسألك أولا إذا كنت ترى نفسك بالفعل واحدا من أبناء هذه الثورة الذين ينتسبون إليها؟. وأخذني السؤال على غرة ووضعني موضع المساءلة الذاتية التي لم أكن مستعدا لها، والتي أدخلني إليها سؤال ابني على نحو مفاجئ.

ودون تفكير طويل قلت لابني: بالتأكيد أنا واحد من أبناء ثورة يوليو، ولا يمكن أن أقع في دائرة المعادين لها، فقد فتحت عينيَّ السياسية للمرة الأولى دون وعي كبير بالقطع على انفجارها الواعد حين قامت وأنا في الثامنة من عمري، وانجرفت مع من حولي من أفراد أسرتي في الحماسة لها، والتأييد لإنجازاتها الإيجابية المتعددة: إعلان أول قانون للإصلاح الزراعي بالشرق الأوسط في سبتمبر 1952، والاتفاقية المصرية البريطانية بشأن حق تقرير مصير السودان في فبراير 1953، وتوقيع اتفاقية جلاء القوات البريطانية المحتلة في أكتوبر 1954، العام نفسه الذي منعت الثورة فيه السفينة الإسرائيلية بيت جاليم من عبور القناة في شهر أغسطس، إعلانا عن موقفها من إسرائيل. أضف إلى ذلك إسهام عبد الناصر في تأسيس حركة عدم الانحياز مع تيتو ونهرو وسوكارنو وشواين لاي في باندونج،

ومقاومة حلف بغداد، وتشجيع حركات التحرر الوطني في إفريقيا وآسيا، بل في قبرص التي كان يقود ثورتها التحررية المطران مكاريوس ضد الحكم البريطاني. ومن المؤكد أن جيلي – أو على الأقل من كان مثلي من أبناء جيلي – كان يؤيد إعلان عبد الناصر العداء لأشكال الاستعمار القديم والجديد. وهو العداء الذي جعله يعلن عن صفقة الأسلحة التشيكية مع الاتحاد السوڤيتي في سبتمبر 1955، كما لو كان يتوقع الهجوم العسكري الذي تعرض له وطنه بعد ذلك بعام واحد على وجه التحديد، وكان اعتراف عبد الناصر بالصين الشعبية في مايو 1956 استمرارا في الطريق نفسه، ذلك على الرغم من غضبة الولايات المتحدة التي دفعت جون فوستر دالاس إلى إعلان سحب عرض تمويل بناء السد العالي. ورد عبد الناصر على ذلك بإعلان تأميم قناة السويس في خطاب جعلنا نشعر بالعزة والفخر في يوليو 1956، مع الاحتفال بالعيد الرابع للثورة، وكنت مع أبي في ميدان المنشية بالإسكندرية نستمع إلى خطاب التأميم من شرفة المبنى الذي هدموه في زمن السادات، في سياق طمس الزمن الناصري، لكن ميدان المنشية نفسه ظل باقيا، شاهدا على حدث التأميم العظيم الذي أُعلن فيه، والذي ترتب عليه العدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر 1956.

والتقطت أنفاسي قليلا، كي أواصل حديثي مع ابني عن الأحداث الكبرى التي ربطتنا بثورة يوليو 1952 بوجه عام، وبزعيمها عبد الناصر بوجه خاص. وكان لابد أن أتحدث عن أمجاد حرب السويس، وعن المقاومة الشعبية المجيدة التي جعلت من بور سعيد ستالينجراد الجديدة، وعن انفجار الشعور القومي المعادي للاستعمار، وعن مظاهرات الاحتجاج على العدوان الثلاثي التي اندلعت في كل من بريطانيا وفرنسا،

ووقوف الرأي العام العالمي إلى جانب مصر، وعن خطاب عبد الناصر في الأزهر وسط الحرب، وصراخه بأنه باقٍ في القاهرة مع أولاده، وأنه سيقاوم مثل كل مصري. وكانت النتيجة الانتصار الذي أدى إلى استقالة إيدن رئيس وزراء بريطانيا العظمى إعلانا عن الهزيمة البريطانية المنكرة في أزمة السويس في شهر يناير 1957، وجاء شهرا فبراير ومارس بالإعلان عن تعديل مبدأ أيزنهاور لإجبار إسرائيل على الانسحاب من سيناء. وتنسحب إسرائيل كارهة، مع جنود إنجلترا وفرنسا عن مدن القناة، خصوصا بعد إنذار بولجانين الشهير الذي هدد باستخدام الصواريخ الروسية لضرب المعتدين.

ولم يتوقف الأمر عند الانسحاب من مصر - فيما مضيت أقول لابني في حماسة عادت بي إلى ذكريات تلك السنوات المجيدة - بل مضى إلى حد إعلان بريطانيا العظمى عن سحب قوات احتلالها من الأردن في مارس، وفي الشهر التالي، أبريل، تفتح قناة السويس للملاحة العالمية مرة ثانية. وتمضي أحداث الثورة العظيمة في امتداداتها الداخلية والخارجية، فتعلن الجمهورية التونسية برئاسة الحبيب بورقيبة، ويتم الإعلان عن استقلال غانا بزعامة نكروما رئيسا للوزراء، وتأتي الوحدة بين مصر وسوريا في 21 فبراير 1958، ويصبح عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة، ويسقط الحكم الملكي العراقي في 14 يوليو 1958، وتتحرر السودان بقيادة إبراهيم عبود في سبتمبر من العام نفسه، ويعلن الاتحاد السوفيتي عن موافقته على مساعدة مصر في بناء السد العالي. وبدأت مرحلة انحسار الاستعمار في إفريقيا تتصاعد، الأمر الذي أدى إلى استقلال أربع وثلاثين دولة ما بين عامي 1958 - 1968. وقل مثل ذلك عن آسيا ودول أمريكا

اللاتينيـة التـي امتدت إليهـا نيران التحرر مـع انتصار الثـورة الكوبية بقيادة فيـدل كاسـترو في مـارس 1959 وقلـت لابني : إننـي أشـعر بالفخر لأنني شـاهدت هذه الأحداث المجيـدة، ورأيت المعنى المتجسّـد لعبارات من مثل : على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل، فأصبحت، ولا أزال، معاديا لكل أشـكال الاستعمار الذي يسرق أقوات الشعوب ويتلاعب بمصائرها.

ومضيت أضيف قائلا : إن أفضل ما في تكويني العقلي والثقافي يرجع إلى هذه السـنوات الممتدة من الخمسـينيات إلى السـتينيات، تحديدا من سـنة 1956، إلى سـنة 1966، فهذه السـنوات العشر شـهدت ملحمة الإنجازات الناصرية الكبرى، وهي السـنوات التي علمتني مفاهيم الحرية والاشتراكية والوحدة. والتي جعلتني – مع ملايين غيري – نرى كيف أصبحت القاهرة مركز حركات التحرر العربي والإفريقي والآسـيوي، ولا أنسى مشاعري – إلـى اليوم – وأنا أسـترجع صور عبد الناصر مع كاسـترو وصديقه چيفارا، ومـع شـواين لاي وتيتـو ونهـرو، وغيرهـم من الوجـوه التي كانـت علامة عالم ما بعد الاسـتعمار ووعود التحرر والاستقلال. والمؤكد أن ذلك كان شـعوري عندما اجتمع مؤتمر القمة العربي في مصر الثورة، وعندما اجتمع مؤتمر الشعوب الإفريقية، وعندما أصبحت مصر في قلب العالم، وعنصرا فاعـلا في أحداثه ومتغيراته. ولولا ذلك ما زار چان بول سـارتر وسـيمون دي بوڤوار مصر، وألقى محاضرة مدوِّية عن «دور المثقفين في المجتمع». وكم أسـعدني حضور هذه المحاضرة في الرابع من مارس 1967، في قاعة الاحتفـالات الكبـرى بجامعة القاهرة، ولا أزال أذكر وجـوه كبار المثقفين الذين حضروا هذه المحاضرة، وكتبوا عنها، في وقت كان الجميع يتحدث فيه عـن «الالتزام» سـواء بالمعنى الماركسـي، أو المعنـى الوجودي الذي قصد إليه سارتر.

وتوقفت قليلا، مرة أخرى، كي تهدأ أنفاسي المتهدجة، لكني سرعان ما واصلت كلامي قائلا: ولم تكن أحداث الثورة عامة بالنسبة لي من حيث كوني مواطنا فحسب، بل مستني شخصيا في حياتي، فلولا صدور قرار مجانية التعليم في الشهر الذي التحقت فيه بجامعة القاهرة ما استطعت إكمال تعليمي. ولا أزال، إلى اليوم، أذكر فرحتي وأسرتي بإعلان مجانية التعليم الجامعي كاملة، وكيف أقبلت على دروسي بحماسة المتفوقين إلى أن تخرجت من الجامعة، مستعينا على مواجهة أعباء الحياة الجامعية بمنحة التفوق التي أصبحت مقررة لنا في كل شهر. وعندما تخرجت، وتدخلت الوساطات، وتأخر تعييني معيدا في الجامعة، أرسلت خطاب احتجاج إلى عبد الناصر الذي قرأ الخطاب بنفسه، وأمر بإعادة حقي المغتصب، فأصبحت معيدا في الجامعة التي لا أزال أستاذا فيها، لم يبعدني عنها سوى محمد أنور السادات الذي أمر بإبعاد المعارضين لسياسته من الأساتذة، في محنة سبتمبر المعروفة، فظللت خارج الجامعة إلى أن ذهب السادات ونظامه، فعدت إلى جامعتي معززا مكرّما.

وقلت لابني – في النهاية –: إن هناك الكثير الذي يمكن أن أضيفه بما يؤكد أنني واحد من أبناء ثورة يوليو المنتسبين إليها بالقطع، خصوصا بعد أن آمنت بشعاراتها عن الحرية والعدالة الاجتماعية والوحدة، وإذا كنت أنتقدها فإنما أفعل ذلك إيمانا بها، وإدراكا بأن كثيرا من الشعارات التي رفعتها الثورة لا يزال صالحا، وقادرا على تطوير حياتنا وتحريرها، شريطة أن نضع ممارسات الثورة نفسها موضع المساءلة التي لا تخشى شيئا، ولا نكف عن تعرية السلبيات التي أدّت إلى الهزيمة البشعة لعام 1967، ولا تزال تؤدي إلى المزيد من الهزائم.

وقال لي ابني : ولكن هل لا تزال مؤمنا يا أبي بشعارات الثورة الثلاثية عن الحرية والوحدة والاشتراكية؟ فقلت له بهدوء المتأمل لنفسه، وأنا أضع وعيي موضع المساءلة : المؤكد أنني نضجت، ولا تنسَ يا ولدي أنني جاوزت الخامسة والستين، وأني عندما أستعيد هذه الشعارات، الآن، وأضعها موضع المساءلة، أكتشف أن الحرية أهم هذه الشعارات، وأنها مسؤولية إنسانية متبادلة بين الفرد والدولة. وهي تعني في هذا السياق، مسؤولية الدولة في الإبقاء على صفتها المدنية أولا، وتأكيد قيم المواطنة في ممارساتها ثانيا، وتقبل حق الاختلاف عنها ومعها ثالثا، ويتبع ذلك حرية تكوين الأحزاب، وعدم محاربتها بعد تكوينها، والإيمان بضرورة تداول السلطة. وهي مسؤولية الفرد في أن يعيش في دولة مدنية، آمنا على صحته وأسرته، في وطن آمن، يعرف حقوق الإنسانية، ويصون حق المواطنة بالدستور الذي يسوي بين المواطنين دون تمييز بسبب الثروة أو اللغة أو الديانة أو الفكر السياسي أو الاجتماعي أو الديني. فحرية التفكير والتعبير والإبداع أقانيم مقدسة، ينبغي أن يصونها المواطن، ويحميها حتى ضد الدولة لو اعتدت على هذه الحقوق وإلا ما كان مستحقا لشرف المواطنة. ومضيت قائلا : حين كنت صغيرا لم أكن أفهم تماما، ما معنى نضج تفكيري، أخذت أسأل نفسي: ولكن من الذي يحدد الشعب؟، ومن الذي يكون عدوا للشعب؟. أليس هذا الشعار التخييلي نوعا من التبرير للقمع والبطش بالحريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟. ولقد انتهيت بعد تأمل طويل إلى أن الحرية للشعب كله، ما ظل الجميع يعملون من أجل التقدم، وتحويل ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، وليس شيئا

محظورا، فيما عدا ذلك، سوى الاعتداء على الدولة المدنية، أو السعي إلى تحويلها إلى دولة دينية، فالدولة الدينية لا يأتي معها إلا الخراب. وتذكر، يا ولدي، أن الكثير من أحكام القضاء السلبية، في هذا الجانب، استندت إلى المادة الثانية من الدستور الذي جعله السادات المصدر الأساسي لأحكام بنوده، إرضاء لجماعة الإخوان المسلمين التي تحالف معها، ضد الناصريين والقوميين والاشتراكيين، حين خنق الحرية باسم الحرية، واعتدى على القانون بما أسماه أنياب القانون.

وبعد أن تركني ابني ألتقط أنفاسي، بادرني بالسؤال عما أصبحت أراه الآن في الشعار الثاني الخاص بالوحدة، فقلت له : لقد هللت مع الجماهير عندما قامت الوحدة بين سوريا ومصر في فبراير 1958. ولكن هذه الوحدة لم تستمر أكثر من ثلاث سنوات، فقد جاء الانفصال نتيجة طبيعية للحماسة وعدم التجانس والشعارات الحماسية الفضفاضة غير القابلة للفعل على أرض الواقع. ورغم أن محاولات الوحدة لم تتوقف بعد ذلك، فقد ظلت حلما مستحيلا غير قابل للتحقيق، لكنني أعتقد أن الوحدة لا تزال ممكنة، ولكن صيغتها القديمة غير ممكنة. ومادمنا لا نعيد اختراع العجلة، فلماذا لا نفكر في تجارب ناجحة بدأت بالاعتماد المتبادل بين بعض الدول الغربية، وانتهت إلى وحدة اقتصادية في السوق الأوربية المشتركة التي تقبل التنوع، لكن تقوم على أسس محددة، متفق عليها اقتصاديا، تجسدها عملة واحدة، وتأشيرة دخول واحدة للأجانب... إلخ. وأعتقد أننا لو بدأنا من الاعتماد المتبادل، بوصفنا عربا، وسعينا إلى تحقيق هدف الوحدة الاقتصادية أولا، لأمكن لنا أن نحقق ما يشبه المعجزة التي تعود بالنفع على الدول العربية.

ولـم يتركنـي ابني،، فسـألني عن الشـعار الثالـث، وهو الاشـتراكية، فقلـت لـه - مسـترجعا ذكريـات عزيـزة - : إن الاشـتراكية كانـت تعنـي، عندي، الماركسية أولا، وذلك نتيجة انفتاحنا بعد حرب 1956 على العالم الاشـتراكي الذي سـاعدنا، وصداقة عبد الناصر لقيادات الدول الشـيوعية الذيـن وضعوا نصب أعينهم، أولوية القضاء على الرأسـمالية والاسـتعمار بواسطة مساعدة الدول المناضلة من أجل التحرر الوطني ومساعدتها على استكمال هذا التحرر، والانتصار على الاستعمار الرأسمالي. ولذلك عرفت قدماي الطريق إلى المركز الثقافي للاتحاد السـوفيتي، ومكتبة الشرق التي كانت تبيع كتب الفكر الماركسـي المترجمة إلى اللغة العربية، أو المنشورة بالإنجليزية، وأذكر أنني قرأت إنجلز وماركس في هذه المرحلة، وأعجبت إعجابـا خاصـا بتروتسـكي الـذي جذبنـي إليـه علـى النقيض من سـتالين والسـتالينيين الذين كنـت، ولا أزال، أرى فيهم نوعا من الأصولية الجامدة والخطـرة في آن، وأعترف أن الممارسـة الناصرية، خصوصا بعد نضجها، وانحياز عبد الناصر إلى ما أسماه التطبيق العربي للاشتراكية، جعلتني أعيد النظر في الفكر الماركسـي والشيوعية على السواء، وكانت النتيجة ملازمة للقمع الفكري العظيم الذي شـهدته مصر ما بيـن 1959 و1964 ومصاحبة لنفوري من فكرة الحزب الواحد. ومن يومها أخذت أبحث عن صيغة فكرية تـوازن بين الصالح العـام والحرية الفردية، ولا تضحـي بأحدهما من أجل الآخر. ولم أعثر على هذه الصيغة إلا مؤخرا في الثمانينيات، بعد أن عشت فـي السـويد، ورأيت رأي العيان، وقـرأت قراءة الناضج نظرية الاشـتراكية الديموقراطيـة وتطبيقاتها، ولذلك ظـل إيماني بالحرية الفردية المسـؤولة

لا يتناقض مع المسؤولية الاجتماعية، ويؤكد مبدأ العدالة الاجتماعية التي كانت أهم الأقانيم المقدسة لعبد الناصر، ابن الفقراء الذي ظل، دائما، منحازا إلى الفقراء الذين توزعوا ما بين العمال والفلاحين الكادحين.

وبعد أن ظل ابني يتأملني، ويستمع إلى كلامي، محاولا استيعابه، فوجئت به يقول لي : لكن ما أبعد الفرق بينك والناصريين، فلماذا تنسب نفسك إلى الناصرية التي تجاوزتها؟! فنظرت إليه عاتبا، مرددا: ولكني تجاوزت الناصرية بالناصرية، ودفعتني مبادئها السليمة وإنجازاتها التاريخية العظيمة إلى رفض مواقفها الخاطئة. ولذلك كتبت من قبل عن الخطأ الذي وقعت فيه الناصرية، عندما أوهمتنا صغارا أن التاريخ يبدأ من فجر الثالث والعشرين من يوليو 1952، فشببنا ونحن لا نعرف تاريخنا الحقيقي، ولا حتى ميراثنا الاشتراكي الذي يرجع إلى العشرينيات. ولولا وجود أمثال طه حسين والعقاد ما عرفنا الإنجازات الكبرى في الزمن الليبرالي الذي أطلق عليه فيليب حتى «العصر الذهبي»، ولما كانت دهشتي عندما قرأت وثائق ثورة 1919 للمرة الأولى، واكتشفت أنها غير ما وصف الميثاق، ظلما، وتهوينا من شأنها، في سبيل الإعلاء من شأن ثورة يوليو 1952. وكم أحزنني ما فعلته الثورة بمن كانوا لها عونا، فجازتهم جزاء سنمار، وعلى رأسهم السنهوري القاضي الذي أعانهم بالصيغ القانونية، فكان جزاؤه الاعتداء عليه في مكتبه بمجلس الدولة، وهو الأمر نفسه الذي ينطبق على إحسان عبد القدوس، وعلى غيرهما. ولن أصفح عن ما فعلته محكمة الثورة بزعماء وطنيين من أمثال: محمد حسين هيكل وأقرانه، أو مصطفى النحاس - وريث سعد زغلول - الذي رفض أن يقسم الملك

فاروق الشاب يمين تسلمه الملك إلا في البرلمان لا في الأزهر، لأن مصر دولة مدنية يحكمها دستور مدني.

ورد ابني بأن هذه أخطاء طبيعية، ترتكبها كل ثورة في بدايتها، ألا تذكر ما حدثتني عنه من فظائع ارتكبتها الثورة الفرنسية التي جعلت شعارها: الإخاء والمساواة والعدالة؟!. قلت له : أدرك ذلك، ولكن يحسن بنا تذكر الأخطاء حتى لا نعود إليها، وحتى لا نكرر البقعة السوداء التي ستظل وصمة عار في تاريخنا. وقد حدثتك من قبل عن التعذيب البشع الذي واجهته النخبة الثقافية المصرية في معتقلات عبد الناصر. ومن المؤكد أنه لا أنت ولا أنا يمكن أن نوافق على وصمة العار هذه في أي زمان أو مكان، ومع أي خصم سياسي أيا كان. وظهر الملل على وجه ابني من طول النقاش، ولحسن الحظ كنا وحدنا في المنزل، بعد أن خرجت حفيدتي الصاخبة مع جدتها وأمها، تاركين لنا البيت وحدنا، وقال لي : وهل تظن يا أبي أنك بعد ذلك كله من أبناء ثورة 1952 بعد كل ما قلت؟! ولم آخذ وقتا للتفكير هذه المرة، فقلت بالتأكيد أنا من أبنائها، وأدين بأفضل ما في تكويني إلى زمانها الجميل، ولا أزال معاديا للاستعمار والاستغلال مثلها، وحالما بمستقبل متقدم، يبنيه العلم مثل زعيمها، مدركا قيمة العلم ودور الثقافة في التقدم، مثلما علمنا في كل خطاباته عن الثقافة والمثقفين، والعلم وكشوفه في أي مكان. ألا تراني على حق في ذلك؟! وأومأ ابني برأسه موافقا على ما أقول دون كلام، فقد فرغ ما عنده وعندي من الكلام حول انتمائي إلى ثورة 1952 وزمنها الجميل رغم أخطائه، بل حتى كوارثه التي لا نزال نكتوي بنارها، في زمن فارقه جمال الحق ونبل الهدف وحلم الاستقلال التام منذ وقت

طويل. وقد فاجأني ابني في صباح اليوم التالي لهذا الحوار، وكنت أستعد للخروج، قائلا : لقد فكرت، طول الليل، فيما قلت يا أبي. ولكني لم أزدد إلا اقتناعا بشيء واحد، وهو أنك متضاد العاطفة في تكوينك الناصري الذي لم تحلّ تناقضاته إلى اليوم، فنظرت إليه ساهما، وتركته في طريقي إلى الخارج!

* * *



تصميم الغلاف: حسين جبيل

كتابٌ يحملك - عزيزي القارىء - على أجنحة الذاكرة الحية إلى الوراء .. إلى الماضي .. في زيارة مؤججة بالمشاعر الفوَّارة، مفعمة بالأحاسيس الفيَّاضة، حيث أيام جميلة ولَّت وأحداث مثيرة انقضت، خلَّفت وراءها عبقًا وشوقًا!

الكتاب يروي من خلال سيرة حياة المؤلف، كيف أنه شقّ - بعصامية - طريقه وسط الصخور والأمواج العاصفة، تُزامن معارك جسامًا خاضها الوطن شهد فيها انتصارات وانكسارات!

الكتاب مشحون بالذكريات الدافئة .. يستشعرها القارىء "في ذكريات عائلية"، " يوم من عمري "، " حبيب الملايين "، " زمن عبد الحليم حافظ"..!

الكتاب كذلك مليء بالطرائف المبهجة .. يلمسها القارىء في "

"طالب مشاكس"، " إسكندرية مارية"..!

الكتاب - أيضًا - ملغّم بالمفاجآت المذهلة .. يكتشفها القارىء في "

مؤلف الكتاب من ألمع نقادنا .. عاصر حقبة خصبة من تاريخ وطن



